

الحياة في الإسلام

مُصَنَّف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد غزالي

الترجمة: د. ه. ه. ه.

المجلد الأول

دار المعرفة

بيروت، لبنان

ملحق

أحياء العلوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

يشتمل هذا الملحق على :-

- ١ - تعريف الأحياء بفضائل الإحياء :
العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله البدرسي
- ٢ - الإيماء عن إشكالات الإحياء :
الإمام الغزالي : ردّه اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له
على بعض مواضع من كتابه « إحياء علوم الدين » .
- ٣ - عوارف المعارف :
المعارف بالله تعالى : الإمام السهروردي

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وفق لنشر الحسن وعليا في أحسن كتاب ، وجعل ذلك فرة لأعين الأحياء وذخيرة ليوم القاب . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا إحياء شريته وطريقته قلوب ذوي الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرفت نفس الإحياء لقلوب ، وتوجهت همه روحانية مصنفه الولي المرحوب ، إل إسعاف ملازم مطالبته ومحبيه بالمعقوب .

ويعد : فإن الكتاب العظيم الشأن للمسي لإحياء علوم الدين - للشهور بالجمع والبركة والتفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين للسلوك المارفين ، للنسب إلى الإمام القزالي رضى الله عنه عالم العلماء وارت الأتبياء ، حجة الإسلام ، حسنة المعور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتجدين ، مقتدى الآفة ، معين الحل والحزمة ، زين لثة والمدين ، الذي يأخى به سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأتبياء ورضى عن القزالي وعن سائر العلماء المجتهدين ، لما كان عظيم الوقع ، كثير التفع ، جليل القدر ، ليس له نظير في بابه ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قرية مثاله ، مشتتلا على الشريعة والطريقة والحقيقة كاشفا عن القوامض الحقيقية بآثار الأسرار الدقيقة : رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والملافة على صياغة من فضله وشرفه ، ودرسته من فضل جامعه ومصنفه ودرسته على مقدمة ، ومقصد ، وعامة . فالقدمة : في عنوان الكتاب . والمقصد : في مختصر بعض اللوائح والثاء من الأكار على ، والجواب مما استشكل منه وطن بسببه فيه . والمخاتمة في ترجمة المصنف رضى الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

للمقدمة : في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم للماملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة ، والظاهرة فسيان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا فسيان : ما يجب تركية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات الحمودة . وقد بنى الإمام القزالي رحمه الله كتابه [إحياء علوم الدين] على هذه الأربعة الأقسام فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات ، وربع المعادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم . كتاب فرائد العشاد . كتاب أسرار العبادات . كتاب أسرار الصلاة . كتاب أسرار الزكاة . كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج . كتاب تلاوة القرآن . كتاب الأذكار والتهنئات . كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع المعادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل . كتاب آداب النكاح . كتاب آداب المكسب . كتاب الحلال والحرام . كتاب آداب الصحة . كتاب العزلة . كتاب آداب السفر . كتاب آداب السماع والوجد . كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كتاب أخلاق النيرة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب . كتاب رياضة النفس . كتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج . كتاب آفة اللسان . كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم

المال والنخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبير والعجب ، كتاب الغرور ،
وأما ربيع الشجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والتشكر . كتاب الخوف والرجاء
كتاب العفر والزند . كتاب التوحيد والتوكل . كتاب المحبة والشفوق والرحنا . كتاب التوبة والصدق والإخلاص .
كتاب المراقبة والمحاسبة . كتاب التشكر . كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من غنايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما ينسطر العالم
العاقل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك بما أهل في الفقهيات .
وأما ربيع العبادات فأذكر فيه أسرار العبادات الجارية بين الخلق ودقائق سننها ، وغنايا الورع في مجاريها ، وهي
ما لا يستحق المتدين عنها .

وأما ربيع للهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإمائه وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر
في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يقرب ، ثم العلاجات التي
بها يتصرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع للتجنيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال اللطيفين والصدقين التي يقرب بها
العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حده وحقيقتها ، وسببها الذي به يحتجب ، وممرتها التي منها استفاد ، وعلاقتها
التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصود : في فضل الكتاب للشار إليه

وبعض للذائح والكلام من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وعلم بسببه فيه

اعلم أن فنائل الإحياء لأخصي ، بل كل فضيلة لها باعتبار حيليتها للاستقصا ، جمع الناس مناقب فقصر وأوامر اقصروا ،
وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعن من أفرادها فيها علت بتأليف ، وهي جذير قبا التصنيف ، غاص مؤلفه رضى الله
عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المثلث ثم لم يرض إلا بكتابها ، وجال في بساطين العلوم فاجتنب ثمارها بعد
أن انقطع من أزلها ، وصما إلى سماء المثلث فلم يصطف من كواكب الإلهام ، وجلبت عليه سر أسرارها ،
فلم ترق في عينه من إلا بادية الصنارة ، جمع رضى الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين ففكر الله بذلك
المسمى ؛ فله دهر من عالم عبق بهيد ، وإمام جامع لثقات فنائل عمر فريد ، لقد أبدع فيها أدع كتابه من التراث
التوارد ، وقد أعرب فيها أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيها أجاد فيه وأمل ، يدان في العلوم صاحب
القدح المثل ، إذ كان رضى الله عنه من أسرار العلوم يحمل لا يترك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

حيات لا يأتي الزمان بمثله • إن الزمان يشبه لتصبح

وماعيت أن أقول فيمن جمع أطراف الحسن ، وفظم أشاتل الفضائل ، وأخذ رقب الحامد ، واستولى على
غابات المناقب ، فتصورته في قرارة العلم والعمل والملا والتفهم والكلام ، أسلمها ثابتة بغير عيب النباه ، مع كونه رضى
الله عنه ذا الصدر الرحيب والفرعة الثابتة والمروية الصائبة ، والنفس السامية والهمة العالية . ذكر الشيخ عبادة
ابن أسد اليافعي رحمه الله عليه أن الفقيه العلامة قطب الدين إسماعيل بن محمد الحنطري ثم الدين سئل عن تصنيف
الترال فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صل الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة
ومحمد بن محمد بن محمد التترال سيد المصنفين . وذكر اليافعي أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حزم
الفقيه المشهور المقرئ كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطلقاً مسموح الكلمة ، فأمر بجمع
ما ظهر به من نسخ الإحياء ومطأ حرافها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فلذا هو باتي

صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وحرر رضى الله عنهما والإمام التتال قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . فلما أقبل ابن حزم قال التتال : هذا خصمى يا رسول الله فإن كان الأمر كما زعم تهت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من يرتكك وأتبع سنتك غلظت حتى من خصمى ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء ، فنصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ورقه فورة من أوله إلى آخره . ثم قال : والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضى الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده . ثم قال : لم والذى يبتك بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق رضى الله عنه ، فنظر فيه وأتى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الغيبة عن ابن حزم عن القتيبي . وأن يضرب بعصا حد القنرى ، بل رد حارب . فلما ضرب عصا أسواط لتضع فيه الصديق رضى الله عنه وقال : يا رسول الله لى ظن في خلاف سنتك فأعطينى عنه ، فرضى الإمام التتال بديل شناعة الصديق ، ثم استيقظ ابن حزم ثم أثار السباط على ظهره ، وأعلم أصحابه ونائب إلى الله من إنكاره على الإمام التتال واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السباط وهو يتصرع إلى الله تعالى ويتضرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فموى وشق إذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه قلبه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى .

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عديدة أهل السنة ، حتى انتهت إلى قول النزال : وأنه لم يزل يمت إلى الأبي القريش عمدا صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس : فرأيت البشاشة فوجهه صلى الله عليه وسلم . ثم التفت وقال : أين النزال ؟ وإذا بالنزال والخبين يديه فقال : هاأنذا يا رسول الله ، وتقدم وسلم ، فردد عليه السلام ، عليه الصلاة والسلام ، وتولاه يده الكريمة فأكب عليها النزال يقبلها ويتركها ، ومارأيت التي صلى الله عليه وسلم أشد سرورا بقرامته أحدهما مثل ما كان يقرأ عليه الإحياء ، ثم انتهت والدمع يجري من عين من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان قد روى صلى الله عليه وسلم للمذهب أفعاله ، واستشاره بعقيدة النزال وتقرر لها نعمته من الله عليه ؟ ومنتهى جسيمه ، لسأل الله تعالى أن يحيا على سنته ويترقا على ملكه ، آمين .

(فصل) اُنہی علی الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفی الانام : بل جمع انقلاب والفراد ، فقال:

فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو القليل العراقي تفرجه : إنه من أجل كتب الإسلام معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الألفاظ ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والسائل ، ولم يتبحر في العمق بحيث يندثر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه على الظاهر والباطن ، ورجع معانيها في أحسن المواضع ، وسبك فيه مفاتيح الفلفيوضه ، وسلك فيه من القاطر أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه : خير مدد الأمة الخطأ الأوسط . يلحق بهم التال و يرجع إليهم الفسائل ، إلى آخر ما ذكره عا الأول يتلى هذا الفصل عليه ، ثم الانتقال إلى نفعنا من الإحياء يظهر للسبح والنبض رشده وفيه . قال عبد الناصر الفارسي في كتاب الإحياء : إنه من أصنافه للشهور فاني لم يسبق إليها . وقال فيه الثوري : كان الإحياء أن يكون قرآناً . وقال الشيخ أبو محمد السكاكوري : لو جمعت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء . وقال بعض علماء المالكية : التماس في فضل علوم الفزالي أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي به البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج المارفين وخطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه فقلادروي عنه قال : مكنت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأمارده وأتدبره فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفاهيم غريبة غير التي قبلها . ولم يسهه أحد ولم يلحقه أحداني على كتاب الإحياء بماتني عليه ، ودعا الناس بقوله وفصله إليه ، وحسب على التزام مطالعته والعمل بما فيه . ومن كلامه رضي الله عنه : عليكم يا إخواني بتأدية الكتاب والسنة ، أعني الشريعة للشريعة في الكتب الفزالية ، خصوصاً : كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهدي ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس . ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وآخرأ وظاهرأ وباطنأ ، وفكرأ واعتبارأ واعتقادأ ، وشرح الكتاب والسنة مستوف في كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الفزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه : ويعد غلبت لطريق ومنه ساج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد الصنفين ، وبقيته المجهدين ، حجة الإسلام الفزالي ، في كتابه العظيم الشأن لللقب : أجمرة الزمان إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة : ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله ، فمن أسبه وعالمه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله وعبة رسول الله وعبية ملائكة الله وأنبياءه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة وصار عالمًا على الملك والملايكوت . ومن كلامه الوجه الثوري : لو بعث الله للناس أوصوا الأحياء إلا بماتن الإحياء . ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الناقل في لحظة كفضو رسود البحر برفوع الزاج في النفس والسلا ، وتأثير كتب الفزالي واضع ظاهر مجرب عند كل مؤمن . ومن كلامه : أجمع العلماء المارفين يلقه على أنه لا شيء أنفع لقلب وأزيب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الفزالي وعبية كتبه : فإن كتب الإمام الفزالي لباب الكتاب والسنة ، ولباب للقول والمقول ، والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه : أنا أشهد سرا وعناية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق المارفين بالله وطريق المداء بالقائل لظواهر والباطن ، فليطه مطالعة كتب الفزالي خصوصاً : إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : الشهدوا على أن من وقع على كتب الفزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضا ما فليطه بمطالعة كتب الفزالي وخصوصاً البحر المحيط إحياء أجمرة الزمان ، ومن كلامه : نطق معاني معنوى القرآن ، ولسان حال قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الإختيار ، بل جميع أرواح الملايكه ، على جميع فرق الصوفية مثل المارفين والملاطية ، بل جميع روحاني السالكات والمقلولات وما يناسب رذا القادع الصلغات ، أجمع هؤلاء الكورين أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهر وأقرب وأتق وأقرب إلى رضا الرب كتابه الفزالي وعبية كتبه ، وكتب الفزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المقول والمقول ، وأنفع يوم ينطق إسرائيل في الصور ، وقديم بقر القلور ، والله وكيل على ما أقول ، وما الحياة الدنيا إلا لانتاع الفرور . ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار ،

وكتاب بداية الهداية فيه التفريق ، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب مناج العابدین فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الثقة فيه التور . ومن كلامه : السرقة في إباح الكتاب والسنة : وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين للشيخ أبي حامد الزمان . ومن كلامه : يخ بعج لمن طالع إسماء علوم الدين أو كتبه أو سمعه . وكلامه رضى الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون منثناء على الإمام الغزالي وكتبه ، والحث على العمل بها خصوصاً إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي دوانلي الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله العبدوس رضى الله عنه يقول : إن أمول الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي وسميته (الجوهر للتلال ، من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي) فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفق الله لذلك ، تحقيقاً لرجائه ورجاء أن يتأواى دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه ، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وناهيكم ببشارتي هذه العبارة التي برزت من ولي عارف ولعلب مكاشف لا يخاف في مقال ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف الغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فإن العظم لا يعظم في حبه إلا عظم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العبدوس لشريفة فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى إن بعض العوام حصلوا ما رأى من ترفيحه فيه وأزم أعاد الشيخ علياً قراءة فقرأ عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء ومطالبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ علياً أزم ولده عبدالرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فلقته عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العبدوس صاحب عدن أزم بطريقة الشر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك لتعصيل الإحياء أبداً ما عشت ، حتى اجتمع عنده من نحو عشر نسخ قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العبدوس رضى الله عنه مدنياً على مطالعته وحصل منه نسخاً عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة ، فلزمته من باب عبدوس وتوفيق دوس . إن وقت الله لامتاله والعمل بما فيه واستباليه بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والألمنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقا . لو قلب أرواق الإحياء كافر لاسلم ، ففيه سر غني يجذب القلوب شبه للتناطيس . قلت : وهو صحيح ! فإن مع غيبس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعته له من انبعاث الحمرة وعروق النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ، ثم يفرح بوجوهي إلى ما ألقى فيه وغائلة أمل الكتابات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده . والمراد بالكافر هنا فنياً يظهر : الجاهل يعيوب النفس المحبوب عن إدراك الحق ، أي فيجسد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ويورق قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متشط كان حراً أن ينشط به سامعه ، وكان أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يميز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره ، لأن استنهم كربة وأتوا بقرهم عظيمة ، ومهمهم عليه وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سامعه منهم ، وللأحاديث حجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، والخواص منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم وقصدهم أنوار ونفع متظاهر ، حتى لقد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك يقتنع به كثير لحسن نية وجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجد أنه مظهر أمراً ظاهراً مبهوداً ، وشيئاً جبراً موجوداً فاقتر إلى تقع الناس بكتاب الخلاف فيذهب مالك وجه الله تعالى ، والتفتيته في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجلل العريق الإرشاد في علم الكلام والفتاوى ما مع أن ماحوت من العلم في غزنها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرهم هذه الكتب أضماق ما فيها من تحقيق تقرير العبارة وتفتيق المعاني وتفتيق الحدود ، وبعد هذا فأنفع بهذه أكثر وهي أظهر وأشهر ،

لأن العلم يبرّد القوى وغوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كأيّن ذلك مالك رحمة الله تعالى بقوله :
ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضيئه الله في القلب . قلت : وما أئندد الشيخ على بن أبي بكر رضي الله عنه
لنفسه فيه قوله :

أخى الله والزم سلوك الطرائق . وسارع إلّ للؤلؤ بمجد وسائق
أيّا طالب شرح الكتاب وستة . وقانون قلب القلب بحر الرائق
وإيضاح منبع الحقيقة مشرق . وشرب حياصفور راح الحقائق
ولإجلاله أذكّار المساق ضواحا . يابح حسن جاذب للتلائق
عليك بإحياء العلوم وليا . وأسارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لدى الالف منهل . وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصف قبله . ولا يمد مثله في الطرائق
فكم من بديع اللفظ يجل عرائسا . وكم من خموس في حماء شوارق
معانيه أجمت كالبدور سواحصا . حل دز لفظ اللسان مطابق
وكم من عريذات زمت في قبليها . محبة عن غير كنه صليق
وكم من لطيف مع بديع ونحلة . حلوتها كالشهد تحلو للناثق
بساكن عرفان وروض لطائف . وجنة أنواع العلوم التوافق
وعى الله صبارا لائق جنانها . وروح وينتوين تلك الحقائق
ويتقط من تآكي جناها فواكها . بساحل بحر بالجوهر دائق
خضم طمس قد علا فوق من علا . بشاخ مجد مشرق بالحقائق
لأن لم يهدأ القول تؤمن بجرين . وأقبل على تلك المعاني وعائق
وراجع طريقا في بديع جهلها . وطف في حاما منقذاكل سائق
ترى في بدور الحى أفكار قد بدت . يمالى جمال مدعش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشعت حى . وكم قد سمعت فربها والمفارق
فيضحي براح الحب سكران مفرما . أوم عن المذال غير موافق
ومسى يناديها طريحا . يابها . منم عيش في الربوع التوافق
صلاة على سر الوجود شفيما . عمد المختار غير الخلاق
وأصحا به أهل المكالم والملا . وحضره وراث علم الحقائق

(فصل) وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشككة الظاهر - وفي التحقيق لا إشكال - أو أعيار وآثار ممكنة
في استدعا : فأما من جهة تلك المواضع فمن أبواب منها المصنف في كتابه المسمر (الأجوبة) وأسوق لك بقية من ذلك
عنا . قال رحمه الله : سألت سهرق الله لمراتب العلم تصد مراقبها وتقرب لك مقامات الأولياء تحمل مديانهم بعض
ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء ، مما أشكل على من سجب وقصر فهمه ولم يفر يشي من الخطوط الملكية قدسه
وسهته ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الختام وأمثال الأنعام وأنباع العوام وسفها الأسلام وعار أهل
الإسلام ، حتى طمنا راعيه ونوا عن فراءه ومتجليه ومطالته ، وأفتوا بالهوى جردا على غير بصيرة وإطراده ومتأذنه
ونسبوا عليه إلى خلل وإختلال ، ورووا قرآنه بديع عن الشريعة وإختلال ، إلّ أن قال : (سنكتب شهادتهم
ويسألون ... وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) ثم ذكر آيات أخرى في الحق ، ثم وصف الفجر وأملو دعاب
العلم ونفضته ثم ذكر حذر المتعدين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أنصح بذلك في الآخر

حيث قال : حيويا من الحقيقة بأربعة : الجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار القوى . ثم بين ما ورثوه من الأريمة المذكورة . قال : فلهل أولهم السخف إلى آخر ما ذكره . وأما ما عرض به من تقديمه أخبارا وأخبارا موضوعة أوصيفة ، وإكثاره من الأعيان والآثار - والإكثار يتساعى منه للتدريج لتلايق في الموضوع .

وحاصل ما أعجب به عن النزالي - ومن المجهين الحافظ العراقي - أن أكثر ما ذكره النزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخرج ، وغير الأكثر وهو في غاية الفقه دواء عن غيره أوسع فيه غيره متبركاته بنحو حجية ، وروى وأما الاعتراض عليه أن فيها ذكره الضميمة بكثرة ، فهو اعتراض ساقط ، لما تقدم وأنه يسئل به في التفصيل ، وكتابه في الرقائق فهو من قبلها ، ولأنه أسوة بأغنى الحافظ في اشتغال كتبهم على الضميمة بكثرة للمبطل ضعفاً فاعلة والمكوت منه أخرى ، وعلوه كتب الفقه للتقدم - وهي كتب الأحكام لا التفصيل - يوردونها لأحاديد الضميمة ساكنين عليها ، حتى جاء الثوري رحمه الله في المتأخرين وفيه على ضعف الحديث ، وخلافه ، كما أشار إلى ذلك كله العراقي قال عبد الغافر الفارسي سبط القنبري : ظهرت أصناف النزالي وفست على يدي أيامه نافع لما كان فيه ولما آثره ... إلى آخر ما ذكره . وما يدلك على جلاله كتب النزالي ما نقل ابن السمعاني من ذرية بعضهم فيها يرى التلم : كان النفس طلعت من مغربها مع تسميع نقات المعبرين ببدءة تحدث ، تحدث في جميع المغرب بدءة الأسرار التي كتبه ، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمرسلطانه على بن يوسف إخراجها لتزجهم اشتغالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أسره في مملكته من أكابر ووفد عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأسر والتوعد في عكس وتكس ، بعد أن كان عادلا .

عامة في الإشارة إلى ترجمة المصنف وحي الله عنه

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية وحي الله عنهم

أما ترجمته وحي الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد النزالي الطوسي القيسري الملقب بالصوفي الشافعي الأشعري ، الذي انتشر فضله في الآفاق وقائق ، وورق الخط الأوفر في حسن التصنيف وجودها ، والصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المضاعفات والتبحر في أصناف العلوم فروعها وأصولها . ورسوخ القدم في منقولها ومقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات الثاقبة والطراح الخسمة والتكلف . قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد القيسري والشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأنصاري ورحمهم الله تعالى ولد الإمام النزالي بطوس سنة خمس وأربعمائة ، وابتدأ بها في صباه يظرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجد واجتهد حتى تخرج في عدة قرية وعاد أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإمام إرشاد الطلبة في أيام إمامه وصف ، وكان الإمام ينجح به ويمتد بملكته منه ، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحملته مع خلاصتها لمحو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حشرة نظام الملك محال رجال العلماء ، ومقصد الآفة والتفضلا ، ووقع للإمام النزالي فيها انضافات حسنة من مناظرة النحول ، فظهر اسمه وطاوعيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد لقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها وأجيب الكل بتدريسه ومناظرته ، فسار إمام العراقي بعد أن سار لإمامه خراسان ، وأرغمت درجته في بغداد على الأسراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأسر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والخسمة مشتتلا بأسباب التقوى ، وأخذ في التصنيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل : إحياء علوم الدين ، وغيره ، التي من تأملها عرف عن مصنفاتها من العلم . قيل إن تصنيفه ووزع على أيام

هره فأصاب كل يوم كرامس ، ثم صار إلى القدس مقبلا على جماعته النفس وتبديل الأخلاق وتصحين الشبهات حتى مر من على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعاهم إلى الله تعالى ، والاستعداد لدار الآخرة يرشد الضالين وينفي الطالين دون أن يرجع إلى ما خلفه عنه من الجاه واللباهة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصرف ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسة مائة . - خصه الله تعالى بأروع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه . قيل : وكانت مدة التقفية للقرآن ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات الشيخ سيد السعدي نفع الله به . وذكر الشيخ ضيف الدين عبد الله بن أحمد الباقمي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد العباد الجيني الزبيدي وكان معاصرا للقرآن نفع الله بهما قال : بينا أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السامعنة وإذا عصبة من اللامكة الكرام قد نزلوا معهم خلق غصروم مركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وسعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن تجاوزت السموات السبع وغرق في سدس سبعين حجبا ولا أعلم أين بلغ انتهائه ، فسألت عنه فقيل لي : هذا الإمام القرآني ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ، وروى في الترمذ السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه التي صلى الله عليه وسلم وقد بأى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام القرآني وقال : أتى أشكأ حبر كهذا قال : لا ، وكان الشيخ أبرار الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه من كانت له مشك إلى الله حاجة فليترسل بالقرآن . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى يحدث هذه الأمة من بعد لها دينها على رأس كل مائة سنة : أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد القرآني رضي الله عنه . وروى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أثنى عمر بن عبد العزيز والشافعي ، ومنافيه رضي الله عنه أكثر من أن نحصر ، وفيما أوردناه متصفاً وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين : وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه : المستقصى ، والمنقول ، والمنقول في علم الجدل ، ونهاية الفلاسفة ، وعظمة النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد ، والمختون بعلى غير أمه ، ومشكاة الأنوار ، والمختار من الفضائل ، وحقيقة القولين ، وكتاب : باقوت التأويل في تفسير التنزيل ، أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب مناجاة العابدين ، والدرر المأخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب لا ينس في الوحدة ، وكتاب القرية إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار ، وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المختص بالأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسط المستقيم ، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مقامات الشريعة ، وكتاب المبادئ والقياسات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تليس لا يليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتأمل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إلهام العلوم عن علم الكلام ، وكتاب لا يتنصر ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إحياء النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجليل في الرد على من غير الإجماع ، وكتاب المستظهر ، وكتاب الآمال ، وكتاب في علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها ناقة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقفيني المحدث الصوفي صاحب كتاب التمجيد والكواكب :

أيا حامد أنت المخلص بالهدى • وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وحضمت لنا الإحياء في نفوسنا • وتلقنا من طاعة التواضع المردى

فربيع عبادته وعادته إلى • بما فيها كالفن نظم في القصد
والتأني في للهلكات وإنه • شج من الملك للبرج والبعد
وراهبها في التنجيات وإنه • ليسرح بالأرواح في جنة الحد
ومنها إنباح لجوارح ظاهر • ومنها صلاح لقلوب من الخلد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحضاره لها فذكر رحمه الله في كتابه المقتد من الضلال ما صوره :

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبين لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ما قصته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع بيان المسالك والطرق ، وما استجرات عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى رفيع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتويه من طرق أهل التعليم القاصرين فترك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طريق أهل الفلسف ، وما ارضيته آخرها من طرق أهل التصوف ، وما تحلل لي في تصنيفي فتعشيتني عن أفاريل أهل الحق ، وما سرلني عن نشر العلم ببنداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودة بنيسابور بعد طول الغدوة ، فاستدبرت لإجابتك إلى طلبتك بعد الرفوف على صدق رغبتك ، فقلت مستبينا بالله لئلا نساك ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه ومجتثا إليه :

اعلموا - أحسن الله إرشادكم - ، وألأن إلى قول الحق في التأييدكم - أن اختلاف الحق في الأديان والمثل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر حقيق غرق فيه الأكثرون ، وما لها منه إلا الأفون ، وكل فريق يرمي أمه الناسي (كل حزب بما لديهم فرحون) ولم أول في غفوان شيئا - مذكر اهتد البليغ قبل يفرغ المشرين إلى أن أبان السن على الحسين - أتمم لجة البحر العميق وأخوض غمرته حوض الجسور ، لاخوض الجبان الخلدور ، وأورغل في كل مظلة ، وأهجم على كل مشكة ، وأخضع كل ورقة ، وأفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأكتشف أسرار مذاهب كل طائفة ، فاميز بين كل حق ومطل ومعتدع ، لا لأفاد باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنية ، ولا لأفاديا إلا وأريد أن أظم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا لأفاد الفرق على فلسفته ، ولا مشكلا إلا لأجند في الإصلاح على غاية كلامه ومهادته ، ولا صوفيا إلا لأفاد حرص على العنور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا لأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه قلبه لأسباب رجائه في قطيعته وزندقته ، وقد كان تتطش لي ذلك حقائق الأمور ذاتي ودني من أول امرئ وديمان حمري ، غريزة من الله وفطرة وضعا الله في جبلي ، لا بأغشباري وجبلي ، حتى أعمقت عن رابطة التقليد ، وانكسرت عن العقائد المروية على فرب عهد من العباد ، إذ رأيت صليبا نصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصليبا اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود ، وصليبا الإسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وصمدت الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على فطرة فآهرا يهودا أو نصرانيا أو مجسما ، فتصرك باطنيا إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقبة العقائد المعارضة بتقليد الوافدين والأستاذين ، والتفريق بين هذه التقليدات ، وأدائها تقنيات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات ، فقلت في نفسي أولا : إنما مطروني العلم بمقتضى الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أن العلم البتق هو الذي يتكشف فيه المعلوم انكشافا لا يقي معه ريب ، ولا يقارنه إمكان النقل كالوهم ، ولا يوسع العقل التقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ يقضي أن يكون مقارنا لنفس مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من قلب الحجر ذعبا والعصا لمباتا لم يورث ذلك شك وإمكانا ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل : الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أني أقول هذه العسا ثمانيا وثلاثا وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في صراحي لكذبه ، ولم يحصل معنى منه إلا التنجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا يثبت من هذا الوجه من البتق فهو علم لا يقا به ، وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ، ثم فمكتت عن عواري فوجدت نفسي ماطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسبات الضرورية ، فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في التباس

الستيفات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات ، فلابد من إحكامها أولا لئلا ينشأ أن يقين بالمحسوسات عما نرى من النطق في الضروريات من جلس أمان الذي كان من قبل في التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظرات ، وهو أمان حق لا يجوز فيه ولا فلاح له ، فأقبلت بعد بليغ تأمل في المحسوسات الضروريات ، أنظر هل يمكن أن تكون نفس فيها 1 فأنشئ بعد طول التشكك في إلأ أنه لم تسمح نفس بتسلم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتبع التشكك فيها ، ثم أتت بدات بمل الكلام لحصلته وعقله وطالعت كتب المحققين منهم ، وعرفت ما أردت أن أحسنه ، فصادفته علما وإقيا بمقصوده غير واف بمقصودي ، ولم أزل أتمسك فيه مدة وأبعد على مقام الاختيار أسهم عرس على الخروج من بئساد ومفارقة تلك الأحوال يرما ، وأحل العزم يرما ، وأقدم فيه وجلا وأزجر فيه أخرى ، ولا تصدق ليرغبة في طلب الآخرة إلا محل عليها جند الشهوة جلة فيفورها حسية فصار تشروات الدنيا تجاذبن بسبب ميلها إلى المقام ، ومناشئ الإيمان بنادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجيئ ما أنت فيه من العمل رياء ونفيل ، وإن لم تستد الآن للآخرة ففي قسمه ، وإن لم تضل الآن هذه العلائق التي تشغلك ؟ فعند ذلك تهببت الرغبة وينجم الأمر على الحرب والقرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة وإلا أن تطورها فلها سرية الزوال ، وإن أذنت لها وتركته هذا الجاه الطويل الرئس ، والشان العظيم الخلل عن التشكك والتفكير والأمر بالسلم الخلل عن متازعة الخصوم وربما التفتت إليه نفسك ولا تيسر لك الملوحة ؟ لم أزل أتردد بين التهاذب بين شهوات الدنيا والمعايش قريبا من ستة أشهر : أولا راجب من سنة ستوثنين وأردمها ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب ، إذ قلل الله على لساني حتى احتفل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يرما واحدا تطبيقا للثوب المختلفة إلى فسكان لا ينطق لساني بكلمة ولا استطيعها أيتها ، حتى أوردت هذه العقدة في اللسان حزنا في القلب يهلك معه قوة الغضب ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنفاس في ثوبة ولا تنهض لي لمة ، وتندى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء منهم في العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومعه سرى إلى المراج فلا حسيل إليه إلا باللاج إلا أن يترشح السر عن العلم المهم أنهم لم أحسد بدمري مسقط بالكلية اختياري التجمأت إلى إلة التجنا المنظر الذي لاحت له فأجاني الذي يحجب المنظر إذا شاء ، وسهل على قلبي الإعراض عن مال والجاه والأهل والأولاد وما ظهرت فرضي الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر القام ، حذر من أن يطل الخليفة وجلة الأصحاب على فرضي في المقام بالشام ، فتلقت بطاقتهم الخليل في الخروج من بئساد على عزم أن لا أعودها أبدا ، واستترأ في أمة العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينا ، إذ ظنوا أن ذلك هو النصب الأجل في الدين ، فسكان ذلك هو بلنهم من العلم ، ثم أربك الناس في الاستبانات ، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستكثار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فسكان يشاهد لجأهم في التسلق في الإنكار على إعراضهم عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر محايي ليس بسبب لإعني أصابت أهل الإسلام ورمرة أهل العلم ، فطارقت بئساد وفارقت ما كان مني من مال ولم أذكر من ذلك إلا التقدر الكفافي وقودا لا شغال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للصلح لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لبياه أصح منه ، ثم دخلت الشام فالت فيه قريبا من سنتين لا تشغل إلا المأثرة والحلوة والرياسة والمجاهدة اشتتالا بتزكية النفس وتذيب الأخلاق وتصلية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حسكت من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأطلق بابها على نفسي ، ثم تحرك بجاهية فرينة الحج والاستمداد من يركات مكة والمدينة ، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلى الله عليه وسلم ، ثم صرحت إلى الحجاز ، ثم جذبتني المهم ودعوات الأشتغال إلى الوطن ، وعاودته بعد أن كنت أهد الخلق عن أن أرجع إليه ، واثرت المرة حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات الليال وضرورات المعيشة تنيد في وجه المراد وتلوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصغر لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكني مع ذلك لا أتضع طمعي عنها فيدفعني عنها العراق

وأمره إليها ، وضعت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه المحاولات أمور لا يمكن إحصائها واستقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي أن نذكره ليتفهم به أي غلطة يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله عامة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقيهم أزكى الأخلاق ، بل لوجع عقل المغلاء وحكمة الحكماء وعلم الرافضين على أسرار الشريعة من الملأاء ليتفهموا شيئا من سيرتهم وأخلاقيهم ويدلوه بما هو خير منه لم يمدوا إليه سبيلا ؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنيهم مقتضية من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة ماذا يقول القائل في طريقة أولشر وعلمها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجلوى منها جرى التحريم في الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أقرواها بالإحاطة إلى ما نصحت الاختصار . انتهى .

قال المراقب : فلما نفذت كلته وبعد صيته وعلقت منزلة وشدت إليه الرجال وأذهبت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا واشتاتت إلى الآخرة ، فأطرحها ووسى في طلب الباقية ، وكذلك النفوس الوضعية ، كما قال عمر بن عبد العزيز . إن لم تنسأ نواقة : لما نالت الدنيا تالت إلى الآخرة . قال بعض الملأاء : رأيت القزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويدهم عكاز وركوة ، فقلت له : يا إمام أليس التدريس بئس داء ؟ فقال : فنظر إلى شروفا وقال : لما يري بذر السعادة في قلبك الإرادة وظهرت شموس الرضا :

تركك هوى ليل وسعدى بنزل « وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونلتني الأشواق مهلا فهذه « منازل من تهوى ووبك فانزل

(انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه)

كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما عصى وهم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرما .

سألت - يرحم الله لمناصب العلم تصد مرايتها ، وقرب لك مقامات الولاية - عمل معاليها - عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء بما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يقرب بشي من الحفظ للملكية قدسه وسببه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام وأمثال الأتباع ، وأجاء العوام وسفها ما الأحلام وذمار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالته ، وألقوا بجمود الحوى على غير بصيرة باطراحه ومناذاته ، ونسبوا عليه إلى ضلال وإحلال ، ونادوا قراءته مستحليه يزعمون الشريعة واختلال ، ولعل القاصرون فهم وما بهم ، وطغى في العرض الأكبر إقناعهم وحسابهم ، فاستكتب شهادتهم ويستلون ، وسيلط الذين ظفروا أي منقلب يقلبون ، بل كتبوا بما لم يحيطوا به ولم يبتدوا به فيقولون هذا إنك قديم ، ولوروده إلى الرسول وإلى أول الأُمم منهم لعله الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا حجب فقد نوى أدلاء الطريق ، وذبح أبواب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، مقدسين يدعوا كاذبة ، متصفين بصكايات موضوعه ، متزينين بعصاف منقذة ، متظاهرين بظواهر من العلم قائمة ، متحاملين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أرحمة ثناء أو منال لظفراء ، قد ذهبت المرواسة بينهم بالبر ، وآلقوا جميعاً على المنكر ، وعدمت التصانيع بينهم في الأمر ، وتضافوا بأمرهم على الحقيقة والمنكر ؛ إن نصحتهم الدلاء أغروا بهم ، وإن صحت عنهم القفلة أزدوا عليهم ؛ أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طوهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تأنيدهم ، ولذلك لا تظهر عليهم مواريت الصدق ، ولا تنطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عورتهم لباس الحشية ، لأنهم لم يألوا أحوال التقياء ، ودراب التقياء ونصوصية الدلاء ، وكرامة الأوتاد وفوائد الاقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وثمة الطهارة ؛ لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وطغوا على أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من شأنهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل ، والإصرار ، وعجة الدنيا ، وإظهار الدعوى . فالجهل أودعهم الضعف ، والإصرار أودعهم التهاون ، وعجة الدنيا أودعهم طول الضغلة ، وإظهار الدعوى أودعهم التكبر والإعجاب والزياد (رافقه من ورائهم محيل) (وهو على كل شيء شهيد) فلا يتركه - أما إذا الله وليك من أحوالهم - شأنهم ، ولا يذنبك عن الاشتغال بصلاح نفسك فترحم وطغيانهم ، ولا يتركك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكانت هـ جمع الخلاق في صعيد (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) وتلا (لقد كنت غفلة من هذا فكفنتنا فذلك فبصرك اليوم حديد) نياله من موقف قد أدخل ذوي القول من القال والقال ، ومنازمة الأبطال ؛ فأعرض عن الجاهل ، ولا تلح كل أنك أيم (وإن كان كبير عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبشئ نفاق الأرض أو سلا في السياء فتأبهم بآية ولوشاء الله بلعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين) (ولوشاء الله لجعل الناس أمة واحدة) (فأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) (كل شيء عاقل إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) ولقد أجبتك - بحول الله وقوته وبد استخارته - على ما كنت تنو عاصمة ما زعمت فيه من تفصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأقسام ، إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار للثلث المذكور في المجالس تحية للمناهل وسدود الجالس ، فساعدت ألسنته ، ولولا السيلة والاشتغال لأضفتنا إلى ما لا تلائم هذا بيانا غير مساعدوه مشكلا ، وصار لنقولهم الشقيقة غيلا ومثلا ، ونحن نستعبد بالله من الشيطان ، ونستصمم به من جراءة قضاء الزمان وتضرع إليه في اللزوم من الإحسان ، إنه الجواد الخاشع .

ذكر مراسم الأسمعة في الليل

ذكرت - رزقك الله - وجملك تقبل نية وأمره - كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، والنقطة التوحيد ثلاث التسميم في اليهود كما بنى التكرير لتدبير وإن صرح انقسامه على وجه لا يتدفع ، فهل لصح التسميم فيها يوجد أو فيها بقدر ، ووجب من مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانضمام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت ، ومواجه تمييزها بالجوز في القصور والقبوب ؟ ولم تكن الأول لا ينفذ والآخر الذي هو الرابع لا يحمل إقصاءه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفساد سر الزبورية كفر ؟ أين أصل ما قالوه والشرح ؟ إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتفريق والتبديد والصدقية وسائر مقامات الولاة ودركات مخالفة إنعاشي مأخذ شرعية وأحكام نبوية ، وكيف يصور مخاطبة الملائكة بالجمادات ؟ ومخاطبة الجمادات العقلاء ؟ وبما إذا تسمع تلك المخاطبة ؟ أجماعا لا ذان أم يسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلب المحسوس والقلب الإلهي ؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت ؟ وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وما الفرق بين الصورة الظاهرية التي يكون مقتضاها مزاها مثلا ؟ وما معنى الطريق في (إنك يا راوي المقدس طوي) ولله يشهد أو أمضاهن أو تيسابور أو طبرستان في غير الراي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وما معنى ما سمع بسر قليل لم يجرس ؟ وهل يكون صياح القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لم يجرس من ليس بنبى ؟ أذلك على طريق التتميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسليم إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص ، والتبيرة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في التناء إذا سمع هل أصح موسى أو أصح نفسه ؟ وما معنى الأمر بالسالك بالرجوع من عالم القدرة ونبيه على أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهو توحيد القرينين ؟ وما معنى انصراف السالك بهد وصوله إلى ذلك الرقيق ؟ وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ؟ وما الذي يمنه من الجهاد في الموضع الذي وصل إليه وهو لرفع من الذي خلقه ؟ وأين هذا من قول أو سليمان الصادق عليه السلام كور في غير الإحياء : لو وصلوا مارجرسا ، ما وصل من رجع ؟ وما معنى بأن ليس في الإمكان أيدع من صورة هذا العالم ولا أحسن تربيا ولا أكل صننا ولو كان عاذه مع القدرة عليه كان ذلك بخلاف تناقض الجود وهجر تناقض القدرة الإلهية ؟ وما حكم هذه العلوم المكتوبة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك ؟ ولم كسيت للمشكك من الانقلاط والفتن من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للتعارض فيها له أن يحتج به ويحتج ، فما بال من ليس شارحا ؟ انتهى جملة مراسم الأسمعة في الليل .

فأسال الله تعالى أن يمل علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجرى على ألسنتنا ما يستعمل به في ظلمات المسالك ، وأن يعم بقضه أهل المبادئ والمشارك ، ثم لا بد أن أمهد مقدمة ، وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .

أما المقدمة فالفرض يباين عيارا متغيرا بها أرباب الطريق قمض ممانع على أهل القصور قد كرمنا بمنع منها

وذكر القصد بها عدم ، قرب واقف على ما يكون من كلامنا احتضا هذا الفن في هذا وغيره فيتوقف عليه فهم
معناه من جهة القصد .

وأما القاعدة فلذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والسمت الذي نتوى بتقصدها إليه ؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الخاطر انفعهم .

وأما الرزية، فنقص فيها كبرياء ماعل من فقر في كلام الناس وأخذ نفسه بالاطلاح على أغراضهم فيما أنفردوا بصانعيهم، وكيف يكون نظره فيها وأطلعه عليها وأقبله منها، فذلك أؤكد عليه أن يتبذره من ظهوره فافترسوا عنها ونقلت في وجوههم الأرياب وأسدل دونهما الحجاب، ولو أتوا من أربابا بالترتيب ولو أعمل الرضا بالحبيب لتكف عن كثير من حجب القنوب، واقع يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

القائمة

اعلم أن الألفاظ المستمدة منها ما يستعمله الجماهير والعلوم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ؛ والصنائع على ضربين : عليّة ، وعملية ، فالعملية كاللّغين والحرف ولأجل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها الألف ، ويتشاورون أصول صناعتهم . والعلية هي العلوم المحفوظة بالقوانين العبدية بما تحدد من الموازين ، ولأجل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها ليشتركهم فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اختلفت إما في صورة اللفظ دون المعنى ، أو في المعنى وصورة اللفظ جميعا ، ومما يبرهنه من بعضه مجازى الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع ، وإذ نحاسينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التشخيص واختيار لفظ دون غيره . وحده بطريقين : مبدل ، وغاية ؛ ومما يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ؛ لأنهم لم يكتفوا فيها عنهم من العلم على طريق من يدهم ، ولا كانت العلوم عنهم بالرسم الذي هو عهد من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لانسبها عنهم صناعة ، ولسميها بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين ونزهر من الخصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الرومانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسيحين والسادة والمثقلين بالصوفية والمثبتهين بالقرءاء ، والمروغين بالرق ، والمزري لهم العلم والعمل : ألفاظ جرى رسمهم بالتعاطب بها في ابتلا كرون أو يذكرونه ، ونحن إنشاء الله نذكر ما ينضج منها ، إذ قد يقع منا اعتمادا كرشيا من علومهم وفكرهم إلى غرض من أغراضهم ؛ فلم يكن ذلك بغير ما عرف من ألفاظهم ومعارفهم ، ولا خرج من ذلك عقلا وشرعا ، ونحن نذكر بصرف التقدير وهو على كل شيء تقدير .

من ذلك السر، والملك، والمسافر، والخال، والمقام، والمكان، والسطح، والطالع، والنعاب، والقبض،
والسر، والوصل، والقفل، والأكب، والريشة، والحنبل، والحنبل، والنبيل، والمنة، والارزاق، والمساعدة،
والمكاشفة، والواقع، والتلويح، والفتنة، والحرية، والقطيفة، والفتوح، والرسم، والرسم، والبط، والقبض،
والقناء، والبقاء، والجمع، والنفرة، وحين التحمل والزوائد، والإرادة، والمريد، والمراد، والهمة، والفتنة،
المكر، والاصطلاح، والذعة، والهمة، والوجد، والوجود، والتواجد.

فقد ذكر شرح هذه على أوجه ما يمكن بمفيدة الله تعالى ، وإن كانت أفعالهم المصرفة بينهم على عملهم أكثر مما ذكرنا ؛ فإنما قصدنا أن نريك منها أحوالاً ودستوراً تتعلم به إذا طرأ عليك ما لم نذكره لك هنا ، إذ لها منبعه والها سبيل ، فاعلم به ذلك على وجهه .

فأما السفر والطريق : فالمراد بها سفر القلب بآلة الفكر في طريق المفولات ، وعمل ذلك ابتنى لفظ السالك والمساافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك ما شاركه فيه الياسم والأقدام . وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرح وغرق حجب الأمر والشيء ، وتعلق

الفرس فيها والراد بها ومنها ، فإذا غفلوا تراجعوا فغطوا مداخلها ، أشرفوا على مفارز أوسع ، وبرزت لهم مهابه أعرض وأطول : من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية : النفس والعدو والدينا ؛ فإذا غفلوا من أوطارها أشرفوا على غيرها أضلهم منها في الانصباب ، وأعرض بغير حساب : من ذلك سر القدر وكيف غنى بحكم في الخلائق وقادهم بخلق في عنف ، وشدة في لين ، وبهرة في ضيق ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المحققون عنه طرقة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والأشراف على الملوكوت الأظم ورؤية عجايب ومشاهدة غرائب : مثل السلم الإلهي ، والقروح المحفوظ ، واللين الكافية وملازمة الله بطروغ حول العرش وبالبيت المدور وم يسبحونه ويقدمونه ، وفهم كلام القلوقات من الخيرات والجمادات ، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل والملائكة للجميع والقادر على كل شيء ، فتشاهم الآوار المخرقة ، ويتجمل لمرآة فلوهم الحقائق الختجية فيملكون الصفات ويشاهدون الرؤوف ، ويعجبون حيث غاب أمل الدعوى ، ويبصرون ما حوى عنه أدلو الأبصار الضعيفة بصيب الهوى .

والحال : معرفة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته . وقيل : هو ما يتحول فيه العبد ويتغير عما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال . وقال بعضهم : الحال لا يورث ، فإذا زال لم يكن حالاً .

والقام : هو الذي يتم به العبد في الأوقات من أنواع الممارات وصنوف المجاهدات ، فلي أنيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره .
والمكان : هو لأهل السكالك والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد في مصابه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم .

مقامه من قلبه هو القلب كله . فليس لشيء فيه غيرك موضع .
والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى ، إلا أن يكون صاحبه مبنوياً .
والطويع : أنواع الترحيد يطلق على قلوب أهل الممرقة شماعها ونورها فيطس سلطان نورها ٩١ لوان ، كما أن نور الشمس يحو أوار الكواكب .

والذعاب : هو أن يثيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محيها .
والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطن شرها .
والسر : ما غنى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر : ما لا يصير السر ، وسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، سر العلم حقيقة الملائين بالله عز وجل ، سر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة .

والرسل : إدراك القامات . والفصل : فوت ما ترجوه من هبوك .
والآداب ثلاثة : آداب التزينة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة ، وآداب أدب الخدمة وهو التمسك من العلامات والتبرع من الملاحظات ، وآداب أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

والراحة اثنان : راحة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، وراحة الطلب وهو صحة المراد .
والشغل : التلبه بأحوال الصاداتين بالأحوال الداعية للأعمال . والتشغل : اختيار الخطوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق . والتسل : هو ما ينكشف للقلب من أوار التوب .

والمة تنبه عن الحق . والأزواج انبثاق القلب من سنة النفقة والتحرك للألس والروحة .
والمساعدة ثلاثة : مساعدة الحق وهي رقية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومساعدة الحق وهي رقية الحق في الأشياء ، ومساعدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا أريباب .

والمكاشفة أهم من المساعدة وهي ثلاث : مكاشفة بالملم وهي تحقيق الإصابة بالقيم ، ومكاشفة بالخالد وهي تحقيق رتبة زيادة الخلال ، ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الإشارة .

والرائع : ما يولوج من الأسرار الظاهرة الصافية من السمر من حالة إلى حالة أهم منها ، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها .

والتلويح : تلويح العبد في أحواله . وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلويح بظهور الاستقامة . وقال آخرون : علامة الحقيقة التلويح لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه العبد النيرة .

والنيرة نيرة في الحق ، وغيره على الحق ، وغيره من الحق ، فالنيرة في الحق برتبة العواشش والمناهي ، وغيره على الحق هي كتمان السرائر ، والنيرة من الحق حته على أوليائه .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وتحت غيره حراً . والطائفة : إشارة حقيقة الحق تلوح في القهم ولا تسمها العبادة .

والتفويض ثلاثة : تفويض العبادة في الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد ، وتفويض الخلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطائه ، وتفويض المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والرسم والرسم : معنيين بهريان في الأبد بما جرى في الأزل . والبسط عبارة عن حال الرجاء . والتقيض : عبارة عن حال الخوف .

والقضاء : قضاء المصاع ، ويكون قضاء رتبة العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء : بقاء العلامات ويكون بقاء رتبة العبد بقيام الله سبحانه على كل شيء .

والجمع : التقوية في أصل الحق . وعن آخرين : معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق . والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جهل الباري سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، فإذا جمع بينهما فقد وحد .

وعين التحمل : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في السماء . والزوائد : زيادات الإيمان بالنسب واليقين .

والإرادات ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التقى ، وإرادة الخلق منه وذلك موضع القطع ، وإرادة الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الإخلاص والمريد هو الذي صبح لما لا يتلوه ودخل في جفلة المتعطين إلى الله عز وجل بالاسم . والمراد : هو المعارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات

والهمة ثلاثة : همة منية وهي تحريك القلب للشيء ، وهمة إرادة وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة التصور عن ملاحلة ذروة هذا الأمر والجهل ، فإن المراد إيد والخطاب جد ، والآخرة مقبلة والفتيا مديرة ، والأجل قريب

والسفر بعيد . والزائد طفيف والخطير عظيم . والطريق سه . وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند التائه البصير . ود . وسلوك طريق الآخرة مع كثرة التوائل من غير دليل ولا رفيق متنب ومكده ، فائدة الطريق هم السلاء الذين هم رتبة الأنبياء . وقد شتر منهم الزمان ولم يبق إلا المرميون . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستنواهم

الطينان . وأصبح كل واحد منهم حظه مشغوقاً فصار يرى المعروف مشكراً والمنكر معروفاً . حتى ظل علم الدين متدسراً ومناز الهدى في أفتار الأرض منطسماً . ولقد غيروا إلى الخلق أن لا علم إلا قنرى حكومة تستبين به الفتنة على فصل الخصام تدهن تهرش الطغام . أو جدل يتدح به طالب المباحة إلى الغلبة والإلغام . أو جمع مزعوف

يتوسل به الرضا إلى استدراج العوام . إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة معبدة للحرام وشبكة الصلح : فأما علم طريق الآخرة : هو ما يدرج عليه السلف الصالح وهي جمع المصنف الإلهام .

والترتبة ثلاثة : رتبة من الأوطان من أجل حقيقة القصد . ورتبة عن الأحوال من حقيقة التفرقة بالأحوال .

وغربة عن الحق من حقيقة المنعش عن اللعنة . والاصطلام : نست وله يرد على القلوب بقوة سلطان فيمكنها
والسكر ثلاثة : مكر عوم وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو سائر الأحوال ، ومكر غنى
في إظهار الآيات والكرامات .

والرغبة ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .

والرغبة : رغبة النبي لتحقيق أمر السبق .

والوجد : معاذة القلب بصفاء ذكر كان قد فقدته .

والوجود : تمام وجد الواجدين ، وهو أمم الوجد عديم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد
مالم يلح عليه بكسبك واجتهادك ، والوجود مالم يلح عليه من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين ، والوجود مع التمكين
والترواجد : استدعاء الوجد والتدب في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعدة

وأما القاعدة التي يلين عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المماني ، والإشارة إلى الجند في القرب بعد
الاستدلال بالأنوار والأعمال والأحوال على الله تعالى تصديقاً ذاتياً ، لأجل ماسلكه أبواب علوم الظاهر ، ثم التصديق
بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعركة العلم في الانصراف ، ومصاحبة القدر بالمساعدة والمعرفة ومعاونة
الوجودات الحسنة : الفائق والحسي والحياي والمغلي والشعبي حسبما فهم من التفرع وتبسطه في المحفوظ من الوحي ،
وقلنا أدرك شيء من المعجز والظلم لا ينال براحة الجسم ، (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) ذلك أمر الله أنزه
إليك) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) .

والوصية

أيها الطالب للعلوم والنظر في التصانيف والمستشرق على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنظر فيه
بأنه وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به وكذلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أبان فيه من فهم أو علم
أو حفظ أو إمام متبع أوصى ميد أو ماساكن ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عليك لغيره وتكسبت
على ضيقه وخسرت في الفارين منفتك ، وجاد كل حول عليك (لمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك
بعبادة ربه أحداً) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أبغضته غيره ولا حظت بالحقيقة سواء ، وروية غيره دونه
تسمى القلب وتنتك السر وتصبغ القلب . وإذا فطرت في كلام أحد من الناس من قد شهد بهلم فلا تنظره بأزدياد كن
يستغنى عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن ، ولا تنقبه حيث وقف به كلامه : قلما أوسع من العبارات ،
والصدور أوسع من الكتب للآلقات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، والمطمع ينظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل
فذلك يهرفك قدره ويفتح باب تصدع ولا تقطع له بصحة ولا يحكم عليه بفساد ، وليكن تحسین النظر أغلب عليك
فيه حتى يزول الإشكال عنه بما يتيقن من معانيه . وإذا رأيت له حسنة وسبحة قالها الحسنه وأطلب للعذار السبحة ،
ولا تكن كالبابية تنزل على القدر ما تقدمه ، ولا تسجل على أحد بالتخطئة ولا تبادر بالتحويل فيما عاد عليك ذلك وأنت
لا تصر ، فلكل عالم حرة وله في بعض ما يأتي به احتجاج . وناعيك ما جرى بين ولي الله تعالى والخضر وكيه موسى
على تينيا وعليهما السلام . وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بحال أو اختلال ، غدا ما ظهر لك
عله ودعه ما احتاس عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهدى وصيقي لك فاحفظها وتذكرى إليك فلا
تدمل عنه .

اسمع وصيقي إن تحفظ حطيت بها وإن تنكأفت فقد يردى بك الخلف

وأزديك زيادة فتتضح التعريف بأصناف الدماء لكن تعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فك في ذلك أكبر منفعة ولي

في وصفهم أبلغ غرض . قال طائفا : السقاء ثلاثة : حبة ، وحجاج ، ومحبوج ؛ فالحبة : عالم بالله وبأمره وبآياته منها بالحقيقة له سبحانه ، والورع في الدين والوعد في الدنيا والإيثار في عروجي التسليم . والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة وإطاعة نافر البدعة قد أحسرت للتكليف وألمح للتخمين ، برحمة سامع ، وبإيمانه قاطع ، وحفظه ما يتنازع شواهد بينة ونجومه نيرة ، قد حصر صراطه المستقيم : والمحجوج : عالم بالله وبأمره وبآياته ، ولكنه فقد الحجة له برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والوعد والرفقة والحرص ؛ وبهذه من بركات علمه حجة العالم والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبد الدنيا ، غامد لحديثها ، مشترنق ببدعته ، مشتر ببدعته ، ومغلول ببدعته بصره شأنه الاحتقار لنفسه ، والأزدراء لأولياته ، والاستغلاف بالجهل من عباده ، وعطر بقلوبهم ووصلت سلطانه ، وطاعة القاضي والوزير والحاجب له قد أهك نفسه حين لم يلتفت ببله والاتباع له ومن يكون بهدوء قدوة ومراده من الدنيا مثله ، فيمثل هذا حشر الله لكل حين قال ﴿ وأول عليهم نيا الذي آتينا آياتنا فانساهم منها فآفهم الشيطان فكان من الغايبين » ولوشكنا لرفعتنا بها ولكنه أهك إلى الأرض وأصبح هواه ففكه كمثل الكلب إن تمسك عليه يلهث أو تركه يلهث) فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه ، وويل لمن يمه في دينه ، وهذا هو الذي أكل دينه غير متصف له سبحانه في نفسه ولا تاصح له في عباده ، تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالخدمة لمن أعطاه ، وإن منع رضى بالهم لمن منعه ، وقد نسي من قسم الأرض وقدر الانتهاز وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم ، فنسواهم من الحور وبند الكور ، ومن الضلالة ببد الهدى ، وإنما زدناك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه قصدى أن يطم من ذهب من الناس ومن يبق ، ومن أبصر الحقائق ومن عى ، ومن اعتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بق منهم أحد فهو غير محسوس كقناس ولا مدرك بالملاحظة

فأب الذين إذا ما حدوا صدقوا وشتم كيقين إن هو حسبوا

وذلك لما سبق في القصد من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والرشاد ، لم وعدم الصف النازل على ربه وأهل شيء على وجه الأرض ؛ وفي القالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما المرجود اليوم أهل صفاته ودعوى وحالة وأجزاء وعجب بنير فضيلة ورياء ؛ يميون أن يصعدوا بما يملأوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصورها أنفسهم أرواد البلاد وأرسان العوام ؛ وهم غفلة ليليس وأعداء الحقائق ؛ وأخذان لعوائد السوء وعظم يرد عتب الحكم القاطلة وانتفاض أهل الأرادة والدين ؛

مثل الهياكل جهال بمثلهم لهم نصير لم يعرف لمن حبا

كل يروم على مقداد حيلته زوائر الأسد والنباحه اللهات

فاحذر من ظاههم الله أنى يؤفكون ؛ انقضوا أيمانهم بجنة قصودا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون أولئك كالآلهة بل لم عمل أولئك هم المنافقون ؛

أولو الشقاق فإن قلت اصدفوا كثيرا من السفاء وإن قلت اكتبوا صدقوا

ولأخذ من جراب ما سألت عنه له نعم ما رغبت فيه ، وأسئله الله نفوذ البصيرة وحسن السيرة وظفران الجيرة ؛ وهو دين ودب كل شيء وإليه المصير

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جري الرسم في الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تفصيلا لموافقة الغرض في التمثيل به وذكر أن المعترض وسوس أو بالخواطر خمس بأن لفظ التوحيد ينافى التقسيم إذ لا يطر بأن يتعلق بوصف الواحد الذي ليس يراهم عليه فذلك لا يتقسم بالإجلس ولا بالفصل ولا بهذه ذلك . ولما أن يتعلق بوصف المتكلمين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فهم ؛ فذلك أيضا لا يتقسم من حيث التسامح إليه بالقل ؛ وذلك لعقيد الجهال فيه ؛ ولهذا

لا يتصور فيه طعاب، وإلهام التوحيد مسلط حق بين مسلكين باطلين: أحدهما الشرك، والثاني الإلهاث، وكلا الطرفين كفر؛ والوسط إيمان محض، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الفل، ولهذا قال أكثر المتكلمين بتأليل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والقيدين والمرسلين وسائر حرم المرسلين؛ وإلهاماً تقتضيه طوق إيمانهم إلى هي عظمهم، ومذهبهم في ذلك معروف، ونحن لا نل في هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوال بالأقوال، بل بقصد إزالة غير الإشكال ورد ما ملن به أهل الضلال والاحلال.

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه عنها شيء، قدح به المقربين أو محس به المخاطر، وإلهام للتشتمل منها من أنحاء ما يتغير به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال، وكل حالة منها تسمى توحيداً على جهة تفرد بها لا يشاركها فيها غيرها، فن وجد التوحيد بلسانه يسمى لإجله موحداً ما دام يقن أن قلبه موافق لسانه، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع في الحكم، ومن وجد قلبه على طريق الركون إليه والتأليل إلى اعتقاده والشكوك تحو به لا يعلم يصحبه فيه ولا يران يربط به سمى أيضاً موحداً، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الفاضل شافعي والحنبل حنبلياً، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده ورسم من أجله بشكوكه المعارضة له فيسمى موحداً لأنه عارف به، يقال جليل ونحوه وبقية، ومعناه يعرف الجدال والوقف والنحو، وأما من استغرق علم التوحيد قلبه، واسترلى على جلته حتى لا يجد فيه فضلاً لغيره إلا على طريق التيمية له، ويكون شهود التوحيد لكل ما صدق سابقاً له مع الذكر والفكر مصاحباً من غير أن يدركه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالمادة في سائر العلوم؛ فهذا يسمى موحداً ويكون التصديق بالسم من ذلك للبالغة فيه، فأما المصنف الأول وهم أرباب النطق للفرد فلا يفترون في التوحيد بهم ولا يفترون منه بتصديق ولا يكون لهم شيء من أحكام الله في الحياة، إلا ما دام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق لسانه، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شافاه عر وجل.

وأما المصنف الثاني وهم أرباب الاعتقاد الذين سموا إلهي صلى الله عليه وسلم أروا ردت أول البليغ بغير عن توحيد الله عز وجل أو يأسر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله التي سمته، فتبلى ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل، ففسيرا إلى التوحيد وكأوا من أهله بمنزلة حول القوم الذي هو منهم، وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم.

وأما المصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فراءوا على كل منها خطاً متعلماً فيها ليس يبرق ولا سرياني ولا عبراني ولا غير ذلك من أجناس الخطوط، فبادروا إلى قراءة من لم يستمع عليه وأقبله منهم من استمع عليه، فلما هو الخط الأسمى للكتاب على صفحة كل مخلوق للظلم فيه من مركب ومفرد وصفه وموصوف وحى ووجدان وناطق وحاصو متحرك وساكن ومظن ولول، وهو الذي يسمى تارة بعلامه وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية، كما قال الشاعر، ولا أدري عن سماع أو رؤية قلب:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فقرروا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك للكتاب عليه وشرحه أديبة مالهك والتعريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير؛ فتركوا الكتابة والكتاب وترقوا إلى معرفة الكتاب الذي أحدث الأشياء وكونها ولا يخرج عن ملكه شيء منها، ولا تستغنى بأنفسها عن حوله وقوته، ولا تنتقل إلى الحرية عن رفق استبداده، فوجدوه كما وصف نفسه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) غلغلت لهم التفرقة والجمع وعطفت نفس كل واحد منهم توحيداً عاقلها بإذنه وإيمانه عن غيره، وعطفت أنها عقله توحده فبجان من يسرها لذلك وتفتح عليها بما ليس في وسعها أن تتركه إلا به وهو العليل الخبير، لكن المصنف الثالث لم يفسر كل منهم أن

يصرف نفسه موحداً فيه فيما لا يزال وهم القرون ، والصف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف به موحداً نفسه فيما لم يزال وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن المفعول بأسره لا يتناول واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأفعال المذكورة عنده ؛ فأما من خدمت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة أو قبل قرب يمكن وصول علمه إليه أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف ، وهذا صنف جيد من مقام هذا الكلام . وأما من يوجد عنده فلا يتناول أن يكون مثقلاً في عقده أو عالماً به ، والفقير من المومنين وهو أهل المرتبة الثانية في الكتاب ؛ فأما العلماء بحقيقة عقده فلا يتناول كل واحد أن يكون بلغ النهاية التي أعدت لصفته دون التوبة ، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ ، فالحق لم يبلغ وكان على قرب من المحريرين وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا النهاية التي أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة ، وهذا التقسيم ظاهر الصحة ، إذ هو حائز بين الثبوت والإثبات ، ومحصور بين البطلان والقياس ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم ، إذ ليس من أمه إلا بالنسب كاذب يدعى غير صافية ، ثم لابد من التوقف بما وعدنا به من إبداء بحث ومزيد شرح وبسط . بيان تعرف منه ولأن الله حقيقة كل سرية ومقام وانقسام أمه فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجري به الواحد الحق على القلب واللسان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرغهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف : أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يستندوا مني بالنطق بما لم يبلغوه لا يتصورون صحت ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطاه ولا صوابه ، إذ لم يحسوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لجد منهم وقلة كثراتهم ، ولما انفردوا من التصديق وخوفهم أن يكفروا بالبحث عما نطقوا به أو يبدوا لهم ما لم يسمعوا من الاعتقاد والعمل ، وما يبد ذلك ، فإن التورع ما عرفوا وأحاطوا بأنهم لما جاوزوا فراغ أنفسهم ، وإن لم يتأملوا شيئاً من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم متصفة وملازم متكررة من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يمرض عليه ولكنه يئنه عنه عاقلة أن ينطلق منه عمل ما يغيره عنه بعض ملازمه من الأهمية والأثرة والألحاح أو كثير منها ، فيحتاج إلى أن يتركها أو يتركها بأهل رقيه وخوف أن يصيبه ضرورة ما يمل ضرورة منها فيجوز قراءة الطب رأساً . مثل هذا الصنف من معنى ما نطقوا به ومن اعتقدوه فيقولون : لالململم فيه ما يفتقد ، وما دعاه النطق إلا مساعدة الغاير والفرط طابا يظهر القول في الجملة التغير ولا يفرق هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والتكبر ولا شك أنه هذا الصنف الذي أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بسأله للذين أحدم في القبر ، إذ يقولون : من ربك ومن نبيك وحديثك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلت فيقولون لا لا أدري ولا نبي ولا نبي ، وسماء التي صلى الله عليه وسلم هناك والقراب . والصنف الثاني نطقوا كالنطق الذين من قبلهم ولكنهم احتسروا إلى فرغهم ما لا يحصل منه الإيمان ولا يستلزمه مني التوحيد ، وذلك مثل ما قلناه السابقة طائفة من الشيعة القدماء . إن علياً هو الإله ويبلغ أسرم علياً رضي الله عنه ، وكافراً في زمنه ، لحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالهادين كثير ثم أصحاب لفظة مثل هذا التكبر ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثاً عن صلى الله عليه وسلم في ذلك ، يستغرق أمي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة . . والصنف الثالث : نطقوا كالنطق الصنفان المذكوران فيلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد ، واستبقوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار ، ولذا رجسوا إلى أهل الإلهاد أعلوا عندهم بكلمة الكفر : هؤلاء للفقير الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : (وإذا قرأ الذين قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستزبون . الله يستزيرهم ويهديهم في طغيانهم يعمهون) . والصنف الرابع فرغهم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه ، ولا عرفوا أمه ، ولا سكتوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أسدنا غلبوا بالأمر القسري للنطق بالشهادتين والإقرار بها ، فقلنا : لالململم

مقتضى هذا اللفظ ولا يقل معنى للأمر به من التثنية ، فأمرنا أن يظهرنا الرضا ونفهموا بلامه ، فسكروا إلى ما قبل لهم ونطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يستندون فيها ، فاحترم أحدهم من حيث من قبل أن يأكل منه استفهام أو تصور يمكن أن تكون له منه معتقد فيرجى أن لا تنطبق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم عليه بالثأر أو الخلود فيها مع الكفار تحمك على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بهن القهم وغيب الذهن وحرط الإلادة أن يدعوا إلى هذا التثنية فيجيروا مساعدة وعذاة ثم يذمرون إلى نفهم للثنية بكل وجه فلا يتأق منهم قبول لما يمرض عليهم فلهذه كائنا نطالب بوجه ، ومثل هذا أيضا في الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بلود في التثنية ، ولا بد أن هذا الصنف بأسره أعنى المحترم قبل تحصيل المنة من هذا البليد البعيد بعض ما ذكره الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الذين أغرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول آمال : فرغت شفاعة للانسكة والقيين وبقيت شفاعة وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يفسدوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما انحصرت منه قدر الحاجة على الثنية وحكم الصنف الأول والثاني والثالث أجمعين أن لا يصب لهم حرفة ولا يكون لهم حصصة ولا يسلبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة المالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا اتلوا فيها بسبوف اللوحدين ، وإن لم يمشر عليهم فهم صارتون إلى جهنم خالدهون فتلح وجوههم النار وهم فيها كالخون .

(فصل) ولما كان اللفظ اللثني من التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به في حكم الشرع منقصة ولا لصاحبه بسببه نهاية إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، وإليه أن لسلط على يده إذا لم يعلم غنى حاله حسن فيه أن يصبه بقشر الجزر الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ولا يمشر في المجالس أى يجالس الطعام ، ولا تشبيه القوس إلا مادام منظوبا على منطوقه صرنا على له ، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منظر على فراخ أو سوس أو طمسه فأمسك لا يصلح للشيء ولم يبق فيه فرض لأحد وهذا لا يخاف في صحته ، والغرض بالتثنية تقرب ما غش على نفس الطالب وتسهيل ما عاتى على المتعلم والسامع فلهذه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل بمن كل وجه ، فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه .

(فصل) فإن قلت لما الذي صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل التثنية عن النظر والبحث حتى تسلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من طاب الله وهم في الظاهر قادرين على ذلك ؟ وما المانع الخفى الذى منهم وأبدهم حتى يربطون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظم نفقة ؟ فاعلم أن هذا السؤال يقتض بابا عظيما وبه قاعدة كبيرة صاف من التثنية فيها أن يخرج من المقصد . ولكن لا بد إذا وقع ' الاسماع ووجه قلوب الطالبين واشتات إلى سماع الجواب حتى أن نورد في ذلك قدر ما يقع به من الكفاية ونقتنع به تنفوس يحول الله وقوته . نعم ما سبق في العلم القديم لا تجرى بطلانه المقادير . من ذلك نفهم إرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلامية والتسميات الدلالية والطباع السببية وغلبيتها عليهم . والملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب . كذلك قال عليه الصلاة والسلام . والقلوب بيوت الله بناءها بيده وأحداهم لأن تكون خرائط قلبه ومشاق مكتوباته ومهيبة ملائكته ومعاني أنواره ومهابت صفاته وبها لم يكشفاته ويجارى رحته وهبها ما لتحصيل المعرفة بخلق كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم يزل عليها شيء من الخير من قبله . إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه ووجه بالإنبيات الصالحات . ولو لا تلك الأخلاق المذمومة التي حلت فيهم وهي التي ذمها الكتاب لأجلها لما استرمت الملائكة وإن الله عز وجل خلقها فيها وهي لا تخفى من غير مخلوق ويكون معها لحينا حلت حل الخير في ذلك القلب بخلقها وإما هي لها بالحيث وجدت قلبا عاليا ولو حيننا من الصغر وزمانا زلت عليه ودخلت وبقيت ما عندنا من الخير عند . فإن لم يظهر على الملائكة ما زعمنا من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة التثنية لم يكن في مقابلتها الملائكة ليست عندده وسكت فيه ولم يبرح عنه وحرمة سمة البيت والفراسة من الخير . فإن كان البيت كثير الاسماع

أكثر فيه من متاعها واستماعت بنهرها حتى جعل البيت من متاعها وبهازا وهو الإيمان بالله والصلاح وخروج
للمنافق القائمة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك
وثبت فيه خلقا مأموما لا يوجد إلا في الكلب وهو متاع الشيطان فإنه اقترطه عن ذلك أهل ، فلو كان الشيطان
مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك لصره وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأغل البيت
وتهب المتاع وغرب البيت بعد حماره وأظلم بعد نوره وحاق بعد انصره ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع
وعصى ؛ وعمل واعتدى .

فإن قلت : فبلى أستاذ هذه الأخلاق المدعوة التي صعدت هؤلاء الأصناف المذكورين من اعتقاد الإيمان ونفرت
الملائكة عن النزول إلى قلوبهم فكيف يطاق التوحيد ومنهم من الحلول فيها حتى لم يبقوا شيئا من الخيرات السالكين
معا . فاعلم أن الأخلاق التي لا يمتنع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة التي في قلوب هؤلاء منها معلومة وهي الطمع
في غير طهر والحرس على قان حذر . وأما الصف الأول فأنهم رجوا وعافوا أن يبدولهم صفات بغيرهم من خدائهم
وينص عليهم ما رغبو فيه من راسياتهم وتكبر لديهم مثال شعراتهم فأبقوا أسرم على عام عليه . وأما الصف الثاني
والتالي فقدمهم أيضا عرف وجرح وحرس على ما أقوم من تبجيل أحدهم أن يزل وهو ناسه أشياءهم أن تتغير وتذهب
ومراساة إيلانهم أن تنقطع واستقالا لما يصادقونه من أهل الإيمان أن يلقوه وفرار من شر الله وما يصيبه من
الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه والكلب ماذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الحسنة والجرع
من الصبر على ما يهدى من الفضائل حتى أضرمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب .

فإن قلت : فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واعتدى من مثل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر
والعاصي والفعال بما يشتر من الأخلاق المدعوة التي هي كلاب ناجية وذئاب طوية وسباع ضارية ؟ وأستاذ الخير
إنما رد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موضعها بل هي في مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى
الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فلي هذا يجب أن يبق كل كافر على حاله ومن لم يبق مؤمنا معصوما فلا سبيل
له إلى الإيمان على هذا المفهوم ، فاعلم أن هذا يستدعي أستاذنا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام
المعلوم والقول واللعن في جواب ما سألت عنه : أن الشيطان غفلات والأخلاق المدعوة عدسات كما أن الملائكة لها
عن القلوب شيئا وتلواثر الخير عليها فترت فلذا وجد الملك كأطفاله فلما عاليا ولزنا في دخل فيه وأراه
ما بعده من الخير فإن صادق منه قبولا ولما عرض عليه من الخير فشرقا وزوجا آورد عليه ما يملأ ويسترق له
وإن صادق منه صرا وسبع منه يمتد الشياطين استقالة بالأخلاق السكارية استقالة رجل عنه وتركه ولذا قيل :
ما خلا لب من لمة ملك أو نزع شيطان .

فإن قلت : فأى بيت فهم من التي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أدخل بيت القلب كلب الحق أو يبيت
الجن وكتب الحيران ؟ فاعلم أن الحديث عارج على سبب ، ومناه وجهته : أنا المقصود بالإخبار هو بيت الجن ، وكتب
الحيران معلوم ولا يتكلم في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ما لكاء ويستلطف من مفهوم ما هناك عليه ويستلطف منه إلى
ما أشرنا لك نحوه ، ولا تنكر في ذلك إذا دل عليه العلم ووجه الاستلطاف ، ولم تحب القلوب المستعانة ، ولم تصاحبه
شيئا من أركان الشريعة ؛ فلا تكن جاحدا ولا نهرج من تضييع جاهل ولا من نفور منة ففكرى أما مورد شرح مقرون
بسبب فرائى أهل الاعتبار وجه تشبيه من سبه إلى ماني معناه ومثابه له من الجهة التي تصلح أن يمد بها إليه ، ولولا
ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : رب مبلغ أوعى من سامع وحامل قه إلى من هو أفقه منه .

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ، وعلم السبب الذي جاء هذا
الحديث عليه وفيه ، فهل يمدى عن سبه ويرقى من إلى مثل ما ترى من الحديث الآخر ؛ فهذا كقول : الحديث
يخرج وأبينا هذا الباب ما يقرب من ويعد علينا التخصص عنه ، لم يترق من إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون

هذا الحديث منها عليه ، وهو أن الصورة المحرقة قد انقضت آفة وصعدت من دون الله عز وجل ، وقد به الله عز وجل قلوب المؤمنين على صيب فعل من رضى بذلك ، ونقص إيماءك من دان به حين قال غيرهم من إبراهيم عليه السلام حيث قال (أتريدون ما نحشرونه والله خفيكم وما تعلمون) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه ، أو ما حكي به ما هو على مثاله ، ويرقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناء الله ليكون مهبطاً للملائكة ومحلًا للذكرى وسرقة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه مبدود غير الله سبحانه وهو الموى لم يبق به الملائكة أيضا . فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضي مناصرة الملائكة لكل صورة عروما وما ذكرته لتبليلا يلين أن لا يقتضي إلا مناصرة ماعبد أو ما تحت على مثاله ؟ قلنا : تشابه الصور المحشونة كالماتى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مناصرة ذى الأرواح ، وما تحت العبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لما وجب تحريم كل صورة مناصرة للملائكة .

• فإن قيل : فأوجه الترخيص فيها وتم في ثوب ؟ فذلك لأنها ليست مقصودات نفسها ، وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه .

• فإن قيل : قال بال الثياب رخص في ما كاتما بالتصوير وذات أنواط في الرب مشيرة معلومة ؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت لحرمة في أيام العرب الجماعية لعل عليها يوما في السنة فاجر ثيابها وحل لساتها لأجل اجتماعها عند ما وراحتا في ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بنير صفه القليل المحرقة أو الأصنام ، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمل لهم ذات أنواط حتى أشكر الله صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبت فقد عبت كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والشمس عليه السلام وعلى رضى الله عنه ، ولم يبدوا ما تحت على شكل الثياب ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فإيها من دركها من حرمة الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أعلم .

بيان أصناف أهل الاعتقاد الجرد

وأما أهل الاعتقاد الجرد عن تعصيتهم بالمسلم وتوثيقه بالأدلة وحدهم بالبراهين ، فقد اتفقوا في الوجود إلى ثلاثة أصناف :

أحدهم صنف اعتقدوا مضنون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه في أنفسهم ، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط عدمهم وغلط طلبهم واعتباس طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين ، وحققت وجود ما مثلهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم لم يلبث أن أنهض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه المعروف عنه . ولا كانوا مع قصور فهمهم وبدنهم عن فهم ذلك يعلم اللاتاة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندى مشدودون بعدم مقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وصدقهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لا يظنك الله نفسا إلا وسعها) لا يخرجون عن مقتضى هذا الآيات بحال ، وسأيدى القدر بقا من الاعتبار لتعرف به صحة إسلامهم وسلامة ترحيهم إن شاء الله هو وجل .

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من التعلق واعتقدت مع ذلك أنواما من الخايل قام في مخيلتها أنها أدلة وعلماتها براهين وليس كذلك ، وقد وقع في هذا كثير من يشار إليه فضلا عن دونهم ، وإن وقع إلى هذا الصنف من يزعم عليهم تلك الخايل بالقدح ويطلبها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إلى دعوى أصنافهم إلى ما يأتى به ويرفعوا إلى أن يمتدحوا لما يمتدحون عليه من سوء الفهم أو دماء الاعتقاد وعدم أن جميع تلك الخايل إلى باب الاستدلال أرسخ من شواغ الجبال ، فهم من يعتقد دليلا مذهب شيئا الرقيب القدر المطلق على العلوم ، ومنهم من

يكون دليله خبراً له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، وللمعري أنهم يلبثوا إذا صادفوا الشك باعتمادهم ولم يبقوا في شيء من الضلال أن يتركوا على ما هم عليه ولا يجرؤوا بأمر آخر ، بل يصعدوا بذلك ويسلم لهم ثلاثا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يسر اعتقادها أو بقوا على التكفير مسلم وتصلبه ، بل هناك أسباب كثيرة .

واعلم أن اعتقاد الخلاق وعليها من أغلبية النفوس ؛ فمن رغب في آكلتها لم يتبع بدونها ، وإذا حصل لذلك قوى به ، ومن نفع بأيسرها ولم تلطع به إلى ما هو أجل من ذلك ضل ، ولكنه يعيش عيش الضيف ، وإنما يهلك من لا يأنه له ولا يهدأ ، أو يهدأ ولكنها تكون مثابة من جاء بمضرة بدعة وسوم كفر ، فلا تملح مما يشارك إليه ، وإنما المرغوب نبيك والله المستعان ، وغلبا بين الصنفين الأولين ، من حيث إن أولئك مقلدون فيما يستندونه دليلاً ، غير أنهم أوثق دليلاً من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككم وربما شكروا وأعمل دليلاً مقدم ، وموافق الأغلب لاسيلاً إلى الضلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون بأقربون ، فلهذا كانوا أحسن حالا .

والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الدين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضاً ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومهم من الذكاء والنظفة واليقظة ما لو نظروا لعلوا ، ولو استدلوا بالتقوى ، ولو طأوا الأندركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم أتروا الرامة وماتوا إلى الله ؛ واستبدوا طريق العلم ، واستقلوا الأعمال النوصة إليه ، وقدموا بالغمور في حضيض الجهل ، فهؤلاء فهم إشكال عند كثير من الناس في اليديهة ، ويردق في عالم الظلم وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تهديد آخر ليس هذا مقامه ، والاختلاف إلى هذا الصنف أوجب خلاف التكليف في العوام على الإطلاق من غير تفرق بين يديهم ومتيقظ وفغان ، فهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ، ولعلهم يقولون : إن مذهبي المشهور أن العمل لا يظفر من الصفات إلا إلى خدعها ، فمن لم يحكمه إلا بالإيمان حكم عليه بالكفر ، كأن من لم يحكمه إلا بالحركة حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والوفاة ، والعالم والجهل ، وسائر ما له من الصفات . فلما صحت ذلك في الصفات التي هي أعراض فقه لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والبدعة والسنة ، وربما كانت ليست من قبيل الأعراض . وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك في شعوب ماثورة على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وجرهم عن البداية ووجوب العبادة في الشريعة جاعل هذا البحر ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين فيهم ؛ لأن أولئك لم يروا الإيمان من لم يصدر اعتقادهم من دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أحاطوا إليه المعرفة للشريعة من جهة الإيمان ، وإنما فروا عن الفتنة الظاهرة فقلدوا عن الجمهور هذا الاحتيال ، وزادوا على أنفسهم أنهم أتوا قول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يسمروا بذلك حين قالوا : إنها ليست بالعامّة من سرد الدليل وتقطيع العبارة منه ، وأنه لا يجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من الخطايات دلائل الخبوت ووجه الاقتدار إلى الحديث بهذا اعتقدوا وعدوا من هذه المعارف كثيراً ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واهل أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما اقتصر الناس إلى النفسية ولم يسمروا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها ونظف بهم في ضيقها بالزوال إلى ما أنفروا من عبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى التفتيح ، ومثال هذا كمن نسي شيئاً كان منه أو لساناً انصه أو رآه فغيب وغفل عنه لاجل شيئه ثم رآه بهذا فذكر ، فإنه يتألم لأنه كان عارفاً بما غاب عنه ، ولو لا عرفته ما وجد عندنا إلتفاتك وسرعة الألفاظ ، ومما قلناه من التكليف أيضاً أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروعة عند أولئك ، وأما الآراء أثنى بالخبر وأولى بالصواب ليس من عرضنا في هذا الموضع ، وإنما عرضنا تبعية ما افشاه في الإحياء أهل القول والاعتقاد فلا يخشع مثل هذا الباب وقد أجبنا من وجه ذلك في سرائر الرغب ما ينبغي قبيلاً لأن الله عز وجل .

فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تمة ما جرى ، فقلتم أن ما منهم صف إلا وعلل التريب ثلاثة أحوال : لا يسجد أحدهم من أحدهما بحكم الاعتقاد الضروري ، فأصناف الحالات لم أن يمتد أحدهم جميع أركان الإيمان حل ما يكل عليه في الثالب ، ولكنه على طريق التفويت كالسابق ، الحالة الثانية : أن لا يمتدوا إلا لبعض الأركان ما فيه خلاف إذا نفر ولم تصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يتصور وجود الواحد فقط ، أو يمتد أنه موجود حتى لا غير ، وأما هذه التقديرات ، ويخلصوا اعتقاد باقي الصفات خيرا كاملا لا يخطر بباله ولا يمتد فيها حقولا باخلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذي يمتد من الأركان الثلاثة موافق لمن غير منسوب للغير . والحالة الثالثة أن يمتد الوجود كافتا والرحمانيات الحيات ، ويكون فيها يمتد في باقي الصفات حل ما لا يوافق الحق ما هو عليه بما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذي يدل عليه العلم ويستلزم من طواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نفاة وسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام ، وسواء في ذلك الصف الأول والثاني من أهل الاعتقاد وبين الصف الثالث على غشيلات لتطرق كما نبتك عليه ، وأما أهل الحالة الثانية وهي الانحصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر منه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التي السكالك والجلال وأركانها فالمتصور من السلف لم تفسر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا البعد عن حكم الإيمان والإسلام ، وللتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبية صلى الله عليه وسلم من الإسلام ، ولا يبعد أن يكون كثير من سلم من الأجلاف والرحيانيات وضفاء النساء والأنياع على هذا لا يريد عليه لرثرا واستكفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أربابا أو كلام أو ماشا كل ذلك ؟ وهل له صفات مبنوية ليس هي هو ولا هي غيره ؟ ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يمتثلون وجه ما يتطابق به ، وكيف يخرج من اعتقد بعبوداته ووحانيته مع الإقرار بالنبية من حكم الإسلام والتي صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه السكالك لا تقتضي أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى البنية من غير نظر ، ثم سمعنا من قلنا في صدر الإسلام أنه لم يمتد بعدها إلا لافاض الوحد والصلاة وحيثات الأعمال البنية والسكك عن أذى المسلم ، ولم يلبثا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولأهل الله تعالى عالمهم أو عالم نفسه وهو باق بقاء أو باق بنفسه وأشياء هذه للعارف ، ولا يدفع ظهور هذا لإماماته أو جاعل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحقق منه وأن أن يدفع لتعلم ما زاد على ما عنده لم يمت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخردة في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، ولعلك تقول قد قال في مواطن أخرى إلا بجمها ثم يقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكلامه من صفها ، نعم هي من صفها عند من يلفه أسرها وسميعها أن يمتدتها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يقاضا ولم يسمع بها فقيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ الذي منه يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول في الآية : أعرجوا من النار من كان في قلبه مقال ذرة من إيمان ، وذكر من المقتال إلى القدرة والخردة من الإيمان ، إلى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدركه أن يكونوا هؤلاء وأما هذه المراتبين ، لأن التقدير وقع في الإيمان لائق الأعمال .

فإن قلتم : فإن من الناس وأمة العلماء من لم يرجع الإيمان لما اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصد بها دليل فكيف يبرهانه اعتقاد بعضها أو كلها ؟ قلنا : قد أربناك وجه الاعتراض على هذا القذهب ونبتك على يد أمه عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تصف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لعلنا أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصوره عن معرفة شرطها في إيمان غيره ، ولأن من حصة الركون إلى ما أضافه أهل من رأينا حقا بالصواب ولعلنا

عن مذهبه ، ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يقر أسم الكفر عليهم ثم يصرخوا على الاستجابة إن كانت من مذهبه ، ثم يصيحون بالقتل والاسترقاق ؛ فإذا تأملت هذا لم ينف عليك عيب ما قالوه ونقص ما مالوا إليه ، فترجع إلى ما نحن بسبيله وتستعين بالله عز وجل . وأما أرباب الحالة الثالثة - وهي اعتقاد البدع والصفات أو بعضها - فإن حكمتا بصحة إيمان أهل الحالة للذكورة قبل هذا وإسلامهم حقتا أسره هؤلاء فيها اعتقدوه ، إذ لم يسموا فيه بوجه قصد ينقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم في المقصد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك العام وأسبوا فيها وراء ذلك ، فإن لم يكن ردم في الدنيا وزجرهم عنه إن أظهروا المنع عن الإلحاح والرجوع بالمقوية الموقلة دون قتل كان ذلك ، وإن قالوا بالمرت لم يصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالناجى والهلاك من خلقه ، والطيب والناهي من عباده ، وهكذا يلزم أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيها غاب حتمه وعلم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ﴿ ولا تخف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشعولا ﴾

فإن قلت : وأين أدت من تكثير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية ، إنهم يهرس هذه الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ستفرق أمتي إلى ثلاث وسبعمائة فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وقال عن قوم : يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول غير البرية ، أو من قول غير البرية يبرقون من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، والآحاديات الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه ما توجب في الظاهر تكثيرهم بالإطلاق ، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبغى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم مغالبة من مخالفه فليقع التحاكم عند العالمين الأكبر الموقد بالصحة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال : يهرس هذه الأمة ، أحاطهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل يهرس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار فما أخبر أنهم عاصدون فيها ، وحين قال : يبرقون من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول وتبلى في الفرق ، وما سارع هذا التبلى من المثل الذي حربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أراك تتلاخظ بهود تترك أخرى وتذكر شيئا وتدخل عن غيره ؟ عليك بالعدل تكن من أمته ، واستعمل التعلل لتساءل العجائب المسجبة ومنهم قول الله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

(فصل) ولما كان الاعتقاد الجهد عن العلم بصحة ضيعفا وتفرده عن المهرقة قريبا من رآه أبغى عليه شبه القشر الثاني من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صوتا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما المحتاج وبلافا للجائع ، وبالطبع فهو لمن لا يلقى معه غير من يفقه وكذلك اعتقاد التوحيد . وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا ، فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل غير من التمثيل والكفر ، ومن ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والمسكر .

بيان أرباب للرتبة الثالثة وهو توحيد للقرين

والكلام في هذا النوع من التوحيد ثلاثة حدود (أحدها) أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه والمساك التي يمر عليها نحو دوا أحوال التي يتخذها بصورة كآفهره المر بن العيسى ، واختار ذلك ورواه وما يما يصرط المستقيم (والحد الثاني) أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور لسالك إليه والمطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمساعدة (والحد الثالث) في ثمرات ذلك التوحيد وما يلحق أمه به ويعلمون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائده المزيد من جهة ، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدهاقته وتذلل قصير والكبير مأمور به مستند في أمره شرع بالثار على كتفه فيه يدي الأنبياء ومن أجله أرسل

الرسول وبنيائه فأنشأ كافة نزلت من عند الله عز وجل على أنباء رحيه الصنف والكتب وليقع التنقيح في القلوب بتحقيقه وأصديقه أيدت الرسل بالمسجورات والآليات بالكرامات ، فلا يكون الناس على الله حجة بدار الرسل . وعليه أنه قد ليقع على الذين أوتوا الكتاب ليثبت الناس ولا يكتسبوه ، وفيه أنزل الله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالتك) ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ، من سئل عن علم فكتمه ألجم بوم القريظة بلعلم من نار ، وجميع ذلك محصور في اثنين : العلم بالعبادة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين : الحرس الشديد والثبات الحافظة . والسر في تصنيفها اثنتان : لظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ؛ ومنس جميع ذلك يعلم السامع . وأما الحد الثاني فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة حروب الأمثال ، تشبيها بالرسم تارة وبالتصريح أخرى ؛ ولكن على الجملة بما يتناسب علوم الظواهر ولكن يشرى بذلك القريب الخافق على بعض للرد ويغهم منه كثيرا من المقصود ويشكك في هل ما يشار إليه ، إذا كان سالما من شرك التنصب بعيدا من هوة الحموى نظيفا من دنس التقليد . (وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شيء من الإلزام أعده بعد علمهم به على سبيل التذكير لأجل التحليل وإنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه لأن الحد الأول فيه محض الصبح للعلم واستفادهم من غرة الجهول والتكسب بهم من معاري الطب وتقدم إلى معرفة هذا المقام وما رواه ما هو أعلى منه بما لم فيه تلك الإكبر وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يرمز الطريق وأول سبيل السعادة ، فمن هجر من ذلك كان على غيره أجهز ، ومن سلكه على استقامة فالتألب عليه الوصول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ومن وصل شاعدا ومن شاعدا علم ، وذلك غاية القلوب وبنيابة للزجر بهو الحرب ، ومن تعد حرم الوصول وما بعده (فضل الله المحمدين على القانتين أجرا عظيما) ومن غاب لم تنفع الأخبار ولم يفته كثير من الأحاديث ، وأبعدا فإن الإخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أحد من الكلام ويجري بين الناس من حرف التشاغب كان فيه زيادة حجة وسبب فيه إهلاك أكثرهم من ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لتربية العلم وكثرة حرمته ودقة معناه وطوره في منازل الرفعة وبهذه بالجملة وتفصيل من جميع ما عهد في عالم تلك والعبادة وغروجه عن تلك الحدود للألوفة وعيائته لكل ما افشوا عنه ولم يتشاهدوا غيره من محسوسات ومعتولات ومزجريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يصل عليه مثل ما قال عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وحكي عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم يشكك في شيء من عليها وحققها في الدنيا ، وأبعدا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تدويرها لإلحاق خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الفقه وذوى تصور وجود وتبديد ؛ فلما أمروا بالنكس إشفاقا على من سبب من العلم ؛ ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم لا تدعوا الناس بما لم تصد عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ، وقال صلى الله عليه وسلم ما حدث أحدكم نوما يحدث لم تصد عقولهم إلا كان عليهم فتنة . وعلى هذا يخرج قول الشافعي : وإفتاء سر الرواية كثر ، ورواياته وإياكم فلو بما عاية الخير إليه ولي كل صالح ؛ وإذا علمت أن الحد الأول قد تفرع عنه في كتب الرواية والمراية ومشت من الفروس وكثرت به في الخافل الدروس ، وهو خير محبوب من طالب ولا يمنع عن رادف ، قد أمر الجاهل به أن يتلوه والظاهر أن يملوه ويملوه ، فلا نريد فيه هنا قولنا . ولما كان حكم الحديث الثالث الحكم تارة وتكسبه بالكلام مع عنه غير أنه على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى حدود الشرح ، ففطن القارئ إلى الكلام بالذي يطق هذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث في التوحيد وهم اللقرون على ثلاثة أصناف ، على الجملة فكلمهم نظروا إلى المخالقات فرأوا علامات الحدود فيها لافحة ، وعانوا حالات الافتقار إلى الله تعالى فقال عليهم وأخف وصمرا جميعها بدل على توحيدهم ومفرده راشدة واضحة ، ثم رأوا الله تعالى في عيان قلوبهم وشاهدوه بغير أرواحهم ، ولا شعرا جلالة وجلاله بخفى أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر سط كل واحد منهم في

اليقين وحسن القلب ، هؤلاء الأسماء الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بخبراته ، وانضمامهم في تلك المرة كإقسام حفاظ ثلاثة لقرآن مثلا ، فمن حافظ ليعنه ويكون ذلك اليقين أكثر أو كثيرا منه دون كاله ، ومن حافظ ليعنه لكنه متلهم فيه متروك على الانتماء في ثلاثة غير متوقف في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في المشهد والقياسين أهله ، وكذلك أهل هذه المرة أيضا منهم متروك لأن للمرة من قراءة صفحتا أكثر المخطوطات أو كثير منها وربما كان فيها بقرأ من الصفحات ما ينهم عليه ، ومن رأى جميعها منهم لما لكن يترجم تسبواهم فكرة ومداومة عبرة . ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها نافذ البصيرة في رؤية حقيقتها مفتوح السمع تاملها الأشياء في فراغها وشغلة وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الخوف والرجاء والقبض والقبض ، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح للنوى الأتقن من شمس النهار وقت الزوال وطدت لم يمس أهل هذه المرة مرتين فذلك ليعدهم عن ظلمات الجهل وقريم من أنوار للمرة والعلم ، ولا يبد من الجاهل ولا أقرب من الماروف العالم ، والقرب والبعد هنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في آسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند للتصديق لها في هذا الفن ، أحد المائلين صمد البصيرة والقياس القلب والخبر عن معرفة الرب سبحانه وأعمال ، ويسمى هذا بهذا : مأخوذا من البعد عن عمل الراحة والنزول والرجاء وموضع العبادة والألسل والافتقار في معناه القفر وأمسكة الخوف ومطمان لا أفراد والوحدة . والحالة الثانية : عبارة عن اتحاد الباطن واشتغال القلب وانسحاق الصدر بنور اليقين والبرقة واليقين ، وعارة البيت بمشاهدة ما ناب عنه أهل القنفة والقهر ، ولكنه يدل على أنه لم يصل ! لملك يقول : أرى بعض آياته الكلام شغل عن حقوق هذا المقام كأن لم يصبروا فيه بسهم ، ولم يفرقدهم منه يحط ولا سهم وأرام عند الجمهور في الظاهر وعند أنفسهم أهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الحق إلى مرآتهم ومجاهدون أرباب العمل المردية والمثل الصالحة المهلكة ، وتسبق في الإحياء أهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فارغهم وإحسانهم حراسة عقودهم .

فاطم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ولكن بقي في كشفه أسرا لا ينبغي على المستبحرين ، ولا ينبغي عن التماثيل إذا كانوا منصفين : وهو أن التشكيك من حيث صناعة الكلام فقط لم يفرغوا عقود العوام ، وإنما فرغهم بالجدل عن الانضمام ، والجدل علم القننى وأكثره احتيال وهمى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بشرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السدين والفتن ، وشاع في حال التمدد إيراد القننى وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال والسمعة باليقين التام والعلم الصانع الضرورى بأن لا إله إلا الله ، إذ لا تفاعل غيره ولا حاكم كفى الفارين سواء بمشاهدة القلوب لما حجب من القيوب ، ومن أين قارول على المنازل ، وما أعلم الكلام مثل هذا المقام ، بل هو من غدام القفر وحراس متبعية من أهل الاختلاس وقطع ، وله مقام على قدره ويقطع به ، ولكن ليس من مطالع الأتوال ومدارك الاستيعار ، والمدارك أوقات الضرورات والاختيار وبين ما يرد وقت حاجته إن دعيت ، وخصام صاحب بدعة ومناخلة ذي حيلة بما ينص على ذوي اليقين العيش ويعضل الذهن ويسكر النفس ، وما أعلم الذين حفظتهم ووقع عليه فيما مضى من الزمان إليهم لا قور في أكثرهم إنهم لا يصنون غيره . ولا يصنعون بالترديد بمقام سواء بما هو أهل منه ، بل القنن يعم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أسوأ والمصلحة به لدرجة الضرورة أهم وأؤكد ، ولما كان فهم في وقتهم من البدع وظهور من الأحوال وشاع من تشييد كلمة أهل الحق ونحوه العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم والمثابة لهم والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد انقراضها ، وإعلاء ذوي الكيد في احتياليهم ، وإعلاء نارهم الذين هم أهل الأحوال والفتن ، وأولهم من الكلام بملزم الإشارات وكشف أحوال أرباب القننات ووصف قته الأرواح والنفوس وتفهيم كل ناطق وجاهد فإن هذه كلها ولأن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكينون القوة ، والمائة أحق بالحفظ وعقلهم أول بالحراسة ، واستفاد من يخاف عليه الهلاك أول من مؤانسة وحيد والتصدق على ذي يئنه من العيش ، فكيف

إن كان عن غناه ، وأيضاً فإن علم الكلام إنما يراد كائناً لجلاله ، وهو يقع من العلماء المعروفين مع أهل الإجماع والربيع قصصهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ من أهل القضاة والعماد على النبي وسبيل الفساد ، فكان لا يقال : السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال : علم الكلام والجلد أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكذا لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأعمام ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم أخر كالغنى والحدوث والتفسير ، لأن الحق أخرج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لنبذة الجمل على أكثرهم ، فقولنا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجلاله العبادات واقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة لم نعلم أنهم عارفون بالترجيح على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجلد ، يشكون بالمقامات للذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتباه ما أخذ عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا عارفاً من دروس الإسلام وأن يضف حرقاً له ، ويرجع البلاد والعمالة إلى الكفر كالوفاة أول مرة ، فقد مات صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم والبعوث لدعوة الحق عليه الصلاة والسلام وأولنا لجهاد الزباني لغير العدد والقوة في سبيل الله وحرب وجوه الكفرة بالسيف وإدخال الناس في دين الله أول بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهراً وباطناً ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم في حال ذلك الفضل والنظر إلى حال العموم أورد من النظر إلى الخصوص ، لأننا لخصوص لم بأنفسهم عنه ولم يعلم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتقاً بهم وإذا بداهم بغيرهم من علمناهم وسأفنا بهم إلى مرادهم وصلاهم كان هلاكاً إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك إن قصد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ولا يدرون على شيء كامل من الجبر ، فلا حاجة لإلزامه ، ولقد كانت رعايتي النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجاهل أكثر ، وأخوف عليهم من التزيغ والضلال والهلاك أشد ، والظن بهم في تنقيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالصفات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يجب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنه منه ، أو من الدائمة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم ، وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن عارف عليهم أن يفرضوا في تنقيص الفرض فيكون عليهم كفل من الزور ألا ترى كيف نبى الحق في قيام الليل كله ، وكان عتيان رضي الله عنه يقول فلم يفته بالسيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لما لته رضي الله عنه : لو لا عتيان بعد قوله بالكفر لردت البيت على فرائد إبراهيم . وقال للأصغر أما ترخون أن يذهب الناس بالنساء والبيع وتنجبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجالكم ، ومع ذلك فألقى حفظته صلى الله عليه وسلم ومن الصحابة من بعده وفقهاء الأعمام وأحياناً المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم كثيرة لا تحصى ، وإنما القليل من حله اليوم عنهم وفتنه عليهم فأفقد نجد ، ونسعد لاقتباس المعارف تعلم ، ومعالج كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم تولد (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الأبواب)

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا اتصافه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك في علم وروافق الفارين فيه ولا اطلوا في الوجود على سواء ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما عصارا من المعرفة في هجرهم ، فكان هجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لا إله إلا الله ، وكان هجر عمر رضي الله عنه ، الله أكبر ، وكان هجر عثمان رضي الله عنه ، سبحان الله ، وكان هجر علي رضي الله عنه ، والحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الفارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلما كان الصديق ، ومضى كما عدت ، وكان يقول : لا إله إلا الله ، وكان عمر يرى مادون الفسنياء مع الله في جنب عظمت فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لا يرى في التنزيه إلا الله تعالى إذ الكل قائم به غير مرى من نقصان وإتمام بغيره معلول فكان يقول : سبحان الله ،

وعلى لا يرى نعمة في النفع والرفع والطعام والنعيم في الكرو والهرب إلا من الله سبحانه فكان يقول: الحمد لله وأهل هذه الزمة على الجنة في سال خسرهم فيها صفان: مريدون، ومراصد، فالمريدون في الغالب لا بد لهم من أن يموتوا في المرتبة الثالثة وهي توحيد التوحيد، ومنها يقتلون، وعليها يسيرون إلى المرتبة الرابعة ويتكثرون فيها: ومن أهل هذا المقام يكون القتل بواباً إلى الأبد والجلالة. ومن أهل المرتبة الثالثة يكون القتلى والتجديد والتجديد والصالحون والله أعلم.

• فإن قلت : أليس الوجود مشتركاً بين الحوادث ولتقديم والآخرة والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة ؟ فكيف يرى صاحب هذه المربية الأشياء شيئاً واحداً ؟ ذلك على طريق قلبه الأيمان فتصور الحوادث حقيقة ثم تتحدث بالوحد فتراجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يبنى عن إرادة القول فيه ، وإن كان على طريق التخييل للول لما حقيقة له ، فكيف يصح ؟ أو كيف يمدح حالاً لول أو فضيلة ليش ؟ الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تغلب إل القدم ولم تعد بالفاعل ، ولا أخرى الولي تخيل فتخيل ما لا حقيقة له وإنما هو ولي مجتبي وصديق مرضي ، خصه الله تعالى بحرفته على سبيل اليقين والكشف التام ، وكشف قلبه ما لو رأى ويصره عياناً ما زاد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وبالله المعرفة به على هذا السبيل أحدان من خلقه فلا أعلم مصيبتك وما أظن المراء فيك حين قلقت الخلق بمباركهم وكلهم بميكائيل وفصلت نفسك على الجميع ، إذ لا سبب لإنكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحد مالم يرزق ، أو يخص من المعرفة مالم يخص ، فإذا قررت هذا القاعدة فصار ما كشف قلبه لا يخرج منه ، وما أعلم عليه لا يذهب عنه ، وما ذكره من ذلك لا يفسد ولا في حال نومه وشغله ، وهنا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ، ولبت في قلبه حاله : أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقهه في شغله وتوهمه كما لا يفقهه في نيقته وفراغه ، ولهذا وافق أعلم إذا رأى الولي المتمكن في رتبة الصديقين محمداً كان حياً أو جاسداً صغيراً أو كبيراً لم يره من حيث هو هو ، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدره وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام تقهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها في الخلق فليست لتغير الموصوف الذي هو الله عز وجل بله ، ألهمت الولي عن غيره وصار لم ير سواء ، ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكري عن سائر خلق وغير المعرفة ، ولا بالإدراك في ظاهر الحس دون ما كان موجوداً به وصار عنه فأبى ، فيمد هذا على من أصبح أن لا يحتاج إليهما مع هذا الموضوع ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحلول والقوة وهو العمل الظاهر .

(فصل) وأما معنى إظهار الزبوية كفر، فيخرج على وجهين، أحدهما: أن يكون المراد به كفر دون كفر، ويسمى بذلك نظيماً لما أتى به المفسر ونظيماً لما أوردته، ويقتض هذا بأن يقال: لا يصح أن يسمى هذا كفراً لأنه عند الكفر؛ إذ الكفر الذي همى به من معناه سائر، وهذا المقش ليس ناسراً، وأين القشر والإظهار من التنظية؟ والإعلان من الكفر؟ واندفع هذا حين بأن يقال: ليس الكفر الشرع تابع الاشتقاق، وإنما هو حكم مخالف للأمر وارتكاب النهي، فن رد إحسان محمد أوجده نعمة منتفعل، فيقال عليه كافر لجهتين: [أحدهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسماً يفي] عن وصف، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكماً وجب عقوبته، والشرع قد ورد بشكر الشتم، فلهذه ولا تلعب مع الألفاظ ولا يفرغك العبارات ولا تصحبه التسميات، وتقتض لحداتها وأخرى من استوائها، فإذا من أظهر ما أمر بكتبه كان كن كتم ما أمر بشتمه، وفي مخالفة الأمر فيها حكم واحد على هذا الاعتبار، ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم: لا تقصروا الناس بما لم يقصه عولهم، وفي ارتكاب النهي عصيان، ويسمى في باب التماس على المذكور كتمان الدين، وقصة أخرى: وذلك أن العلم إن حلل إلى ما حل من أجزائه بالاستقراء، فراس الإنسان تشابه سما العالم من حيث إن كل ما لا فهو سماه، روحه تشابه الكواكب والجوهر من حيث إن الكواكب أجسام مشتقة تستمد من نور الشمس فتضيء بها.

والجواس أجسام لطيفة مشقة لتستمد من الروح فيعني ملك المدركات ، وروح الإنسان مشابه للنفس ، فحياء العالم ونور بانه وحركته وحياته وحياته فيها تظهر بذلك النفس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نحو أجواء بينه وبين شجرة وحلوه حياته وجعلت النفس وسط العالم وهي تطلع بالهواء وتنبه بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهي تنبض بالدم وتطلع بالنبض ، وتفسر الإنسان تنبض بالدم من حيث هو النفس يستمد من النفس ونفسه تستمد من الروح ، والنفس عاقل النفس والروح عاقل النفس ، والنفس آية بحركة والنفس مثلاً ، وهو النفس في أن لا يكون عاقل منه وهو النفس في أن ليس عاقلها منها ، ويعتبر النفس والنفس وسائر الكواكب كسوف ، وتعتبر النفس والروح وسائر الجواس غيب وذعول ، وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان ، وفي الإنسان نبات وهو البشر ، ومياه وهو الرق والدموع والريق والدم ، وفيه جبال وهي العظام ، وحيوان وهي عروق الجسم ، حصلت للمثابة على كل حال ، ولما كانت أجساد العالم كثيرة ومنها ما هي أثاره مرفوعة ولا معلومة كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيها ذكرناه ما يحصل به لدى العقول تشبيه وتنبيل .

هـ فلان قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلنا تسامد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك ، فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على ما يملك لا على ما يجهل ، وأنت لو عدت النفس والروح طبعاً أيهما اثنان هـ فلان قلت : فقد سبق في الإحياء أيهما شيء واحد وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالتدقيق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح ثارة وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر يفرد باسم النفس فقط ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإجابة التي في غير صورة ، والوجه الآخر : وهو أن من حل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ؛ فذلك لأن الله سبحانه يأباه من قادر جميع بصير عالم مريد متكلم فاعل وخالق آدم عليه السلام حياً قادراً عالمياً سميعاً بصيراً مريداً متكاملاً فاعلاً ، وكانت لأدم عليه السلام صورة محسوسة مكتوبة بخلة مقدرة بالفعل وهي له تعالى متناقضة بالقط ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة عن تلك الصفات ، ولا يفهم من ذلك في الصفات فليس هو مراداً ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعاد ووجه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء المفروضة بها لا غير ، وفراراً أن تثبت صورة له تعالى ويطلق عليها حالة الوجود ؛ فافهم هذا فإنه من أدنى ما يفرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ؛ ولما قيل لك : فلان كنت تستمد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تكون مشبهة مطلقاً ومعناه تيقن أنك من المشبهين لا من المتشبهين وحسنت على نفسك بالتشبيه متفقاً ولا متفكر ، كما قيل : كن يودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالثروة ؛ أي تتلبس بدربهم وترى أن لا تلعب إليهم ؛ أي تقرأ الثروة ولا تعمل بها . وإن كنت تستمد الصورة الباطنة منها مجلاً ومقدساً غلباً ؛ أي ليس تستمد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون اللغات ، فذلك المعاني المسببة لا يقع عليها اسم صورة على حال . وقد حفظ عن الشيل رحمة الله عليه في معنى ما ذكرنا من هذا الوجه قول بلوغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث فقال : غلبه الله على الأسماء والصفات لا على اللغات هـ فلان قلت : فكيف قال ابن تقيية في كتابه المعروف بختصر الحديث حين قال : هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه في ذلك ؟ وأقيمت عليه المناقشة به ؟ والمطرح قوله ولم يرعه أكثر العلماء وأهل التحقيق ؟ فاعلم أن الذي ارتكبه ابن تقيية عفا الله عنه نحن أشد إصراراً منه وأبلغ في الإنكار عليه وما بهد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي المناقشة نحن به أو فأننا نكبح بحول الله وقوته إليه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذعوت عن نقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن تقيية ، ألم أعيرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أثباتها حالة اللغات ؛ فأين من لبنا لم نحرز قصودنا فترفع ، والذي يظن على الظن في ابن تقيية أنه لم يفرع سمه هذه اللغات التي أشرنا إليها وأخرجنا عن اللحن في الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة

عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف ، وعلا ما لم يشق فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوي القصور لتبنيها وبين التأويل الذي ينبغي ، فأثبت للنبي الرغب عنه ، وأردتني ما عاين من الوقوف فيه ، فزيتات لما جئنا مرام ولا نعلم ما نعرف ، فما هو صورة لا كأصود ، ولكل ساقطة لافضة ، فليكن الناس إلى الأخطىعة (فصل) ومعنى قاطع الطريق (فذلك بالراد القدس طوى) أي دم على ما أثبت عليه من البحث والطلب ، فذلك على حداية ورشد . والراوى القدس عبارة عن مقام التكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى في الراوى ، وإنما تسمى الراوى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمي كلامه تعالى ، وأقيم ذكر الراوى مقام ما حصل فيه لخلف للحنان وأقم للحنان إليه مقامه ؛ ولما قلل قصودنا حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ للواضع لافتهير لما وإتساعى ظروف .

(فصل) ومعنى (قامت مع) أي سر بقلبك لما يوحى ، فملك تجد على النار دى ، وملك من سرادقات العز تولى بما نوى به موسى (إني أنا ربك) أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد وحروث الصدق ومنازل المعارف وادرياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب كما ينزل أذن الرأس ووسع الآذان ، وما يوحى ، أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك . أو إلقاء في روع ، أو مكاشفة بصفية ، أو ضرب مثل ، مع العلم بتأويله . ومعنى ملك ، حرف ترويح ، ومعنى لم تدركك آفة تعطلك عن سماع الرضى من إلهاب بحال أرواحنا دعوى إلى النفس أو فتوح بانوصفت إليه واستبداد به عن غيره . وسرادقات البعد : هي حجب الملوكوت ، وما ودى به موسى : هو علم التوحيد الذى وسعت العبارة الطيفية عنه بقوله حين قال له (يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا) والملاذى باسمه لا زلا وأبدا هو اسم موسى لما سمى بالسك الموجود في كلامه تعالى في أنزل الأزل قبل أن ينزل مرسى ، لا إلى أول . وكلام الله تعالى صفة له لا يشترط كاشف هو إذ ليست صفاته المشفرة لغيره ، وهو الذى لا يجوز ولا يزول ، وعند زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حلوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة ، وعياداً بالله من أين يحتل هذا القول ما حلوه من الذهب ؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيراً من يكون بحضرة ملك من مذكور الدنيا وهو يخاطب إنساناً آخر قلده ولاية كبيرة فتعوض إليه مملات عليها وجاه جاهد خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو أمره بما يمثل من أمره . ثم إن السامع لتلك الشاخص معه غير المولى لم يشارك المولى فى الفرع عليه والمفوض إليه في شيء مما ولي وأعطى ، ولم يجب له بسبباً ومشاهدة أكثر من حظوة القربة وشرف الحضور ومزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر . ولذلك هذا السالك لا كور إذا وصل في طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمساعدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل العلوم ؛ فلامتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الرضى على الدوام وموضع الملازمة ، وكفى بها أنها الحظرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الرضى مقصوداً بذلك بحلوه في هذا المقام الذى هو المرية الثالثة فقط . بل هو قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمنى آخر ترك إلى ذلك المقام احتشاقاً لما جاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولاد أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فقامه أصل بكبري ما نحن آخذون في أطرافه ، لأن هذا المقام الذى هو المرية ليست مقامات الأولاد بل هو إلى الثالثة مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فإن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام بها والظن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مواخذ بكلامه ، محاسب بقله وبقية ، مكتوب عليه خطاها ، محفوط عليه خطاها ، مخلصاً منه خطاها وخلفاته ، فالبظن من قول إلا لله رقيب عتيد .

« فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداه الله تعالى ونداه كلامه ، والله تعالى يقول (ذلك الرسل فمنهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بينهم درجات) فقد تبين أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل ، إنما هو على سبيل الميالة في التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره من ليس بولي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد بآثار تلك العارض في مسالك الحقائق « فنقول : ليس في الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره ، لانا ما أوجبنا أنه كله وقصدوا لتوابعه

بالخطاب عمداً ، وإنما قلنا : يجوز أن يسمع ما عاين الله تعالى به غيره ، ما هو أجل منه ، أليس من يسمع كلام إنسان متلما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه ؟ وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي عاين به موسى حين كلمه ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا التشاكر في نبوته ورسالته ، على أننا قلنا نقرر ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه ، فيكون التي المرسل يسمع كلام الله تعالى الذاتي القديم بلا حجاب في السمع ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة مما يلقى في روعه ، وما ينادي في سمعه أو سره وأشبه ذلك ، ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتاً كالسيور - وهو القرآن - فإذا سمع ذلك فحجبوا القامات اختفت وورد الخطاب لموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذي هو صفة له لا كيف ولا صورة فلفظ الحروف والأصوات ، والذين كانوا معه أيضاً سمعوا صوتاً طويلاً جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم ، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضروري ، ومضى ذلك الذي سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كالسلي التلاوة وهي الحروف المشو بها القرآن : كلام الله تعالى ، إذ هي دلالة عليه .

هـ فإن قيل : فليبق على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذي يستقيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه بلفظه العلم الضروري فيما أرى بأنه الشيء المرسل إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق ودره ولو كان هوذا منه آخرته ومقامه مقامه ؟ فاعلم أن الذي أوجب حدوثه وعوداه ذلك واعتراضه على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالغايل أنه لابد من غرر الخطاب ، فليدرك شرك الخطاب ، فليدرك الصوت عتيده بصاحب الخطاب ، إن الذي استحق به التأمل تلك الراسل المرتبة الثالثة سماه تعالى الله تعالى معنى ومقام وسال وعامة أجل من تلك الأول وأجل وأكبر وبينهما ما بين من استحق المراجعة بالخطاب والاعتد به ، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما بما يجب نفورا وتبانياً ما بينهما . فإذ فهمت الآن والافتاد حتى لا تدر بجهل .

و هـ فإن قيل : ألم يقل الله تعالى (فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وسماه الله تعالى بصحاب أو غير حجاب وطم مائق الملكوت ومشاهدة الملائكة وما عاين من المشاهدة والحس من أجل القنوب ؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟ فلتناق الكلام حذف يدل على صحة تقدير المشرع الصادق والمفاد الصورية ، وهو أن يكون سمعاً : إلا من ارتضى من رسول ومن تبع الرسول بالإخلاص والاستقامة ، وأهل بساطته الهادي : لأن الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا قراءة المزمّن فانه ينظر بنور الله ، وهل يبق إلا ما عاين عته أن يتكلم إليه وقال : إن يكن شئكم محصوراً فمصر ، أو كما قال : المزمّن ينظر بنور الله ، وفي القرآن العزيز (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرثه إليه طرفك) فطم ما عاين من غيبه من إمكان بيان ما عاين به ، وأراد أنه تقدير عليه ولم يكن نبياً ولا رسلاً . وقد أبا الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم النبوية وصدقه فيه حين قال (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حتماً) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين بالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الأئمة وإن دام أحدنا لمناقضة بالاكتفاء لما أخبر به ذي القرنين ، وما ظهر على يد الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر اكتسب بالحقائق ، فما يصنع فيما يرى لنفسه وما أبا الله سبحانه وأظهر عليه من العلوم النبوية وهو بعد أن يكون نبياً فليس برسول على القول من الجميع ، والله تعالى يقول (إلا من ارتضى من رسول) فدل على أن ذي القرنين حذف متضاف معناه مقدم وأظهر إلى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهو من غيبه . وشواهد المشرع كثيرة جداً يبرر المتأول ويظهر المماند . هذا القول بتخصيصه العموم أظهر من الجرامة وأشهر مما نقل السكالة ، ومعتدل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها : ملك الرحمن الذي بواسطته تنجلي

العلوم وتكشف التيريب ، فني لم يرسل الله ملكا في إعلام غيب ، أو يغاطب مشافهة ، أو إلقاء معنى في روع أو ضرب مثل في بقطة أو منام . لم يكن لله علم ذلك النيب سبيل ، ويكون تقدير الآية : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في بقطة أو منام ، فإنه يظهر على ذلك أيضا . ويكون قائمة الإخبار بهذا في الآية الامتنان على من وزقه في الله تعالى علم شيء من مكنونه ، وإعلامه أنه لا فصل إلها نفسه ولا مخلوق سواء إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبهت الله ، حتى يتبرأ للزمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا لإرادته ومشيته ويحصل وجه آخر : وهو أن يكون مناه الله أعلم : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ، ويكون معنى : من رسول ، أي عن يد رسول من الملائكة .

(فصل) ومعنى : ولا يشغلي رقاب الصديقين . إن قلت : ما الذي أوجه إلى مقامهم أو جاوز به ذلك . وهو في المرتبة الثالثة حال الفريقين ما وصل حيث غفلت . فكيف يجاوزه ، وإنما عاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال ، وعاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال طمعا في بلوغ الآمال ، ومثلها فنيا أشير إليه مثال الإنسان بخلاف بستان : أحد ما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمر ويولد أصنافها ومتنفسها : فهو لا يسهل عن شيء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يتبرأ به ، والثاني لا يعرف ما رأى شيئا أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليسأل إلى علم الباقي ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يمد منه حاله ويتشكك من مقامه إلى ما هو أعل منه ، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد ، وذلك العلوم من كانت لا تامل بالكسب وإنما تامل بالتحقيق ، قيل له : لا تنشط رقاب الصديقين بالسؤال ، ذلك مما لا يعجز به وليس هو من الطرق للوصول إلى مقامهم ، فارجع إلى الصديق الأكبر فانتبه في حاله وسيره فمساك تزدق مقامه ، فإن لم يكن تنبهي على حالة القرب وهي تنو الصديقية ، فهذا مناه .

(فصل) ومعنى الضراء الملك الظاهر بعد وصوله إلى ذلك الرتبة الأعلى : إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاتي به من الأحوال ليسكن ما بين عليه من الأعمال كما قال للمصطفى صلى الله عليه وسلم لدى سألته أن يهله غراب العلم : اذهب فأحكم ما هناك ، وبعد ذلك أطلق غراب العلم . وأما حصة الضراء فتأني به بالبحث ورجع بالتذكر ، وفوائده للزبد ووجه أن من لم يستطع التفاني في ذلك الموضع بعد وصوله إليه ، فذلك لتعلق خبر الشفقة بالبدن وسكته عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول النيب عنه لا يمكن في المادة ، ولو أمكن لمالك الجسم وتفرقت الأحوال ، والله تعالى أراد حمارة الدنيا وقد سبق في علمه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ومعنى قول أبي سليمان النازاني : ولو وصلا ما رجعوا ، ما رجع إلى حالة الانتقام من وصل إلى حالة الإخلاص . والذي طمع الظاهر في الحصول فيه سواء ومحاسبه إلى حال القرب منه ، إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم ينقص أعماله .

(فصل) ومعنى بأن ليس في الإمكان أبعد من صورة هذا العالم ولا أحسن تربيا ولا أكل صنعا ، ولو كان وأدخره مع القدرة كان ذلك خلايا بنافس الكرم الإلهي ، ولأن لم يكن قادرا عليه كان ذلك هو بنافس القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالصور قيام بخلق اختيارا وكان ذلك العلم يسلب إليه ذلك خلق العالم ، ويقال : ادخل لإخراج العلم من عدم إلى الوجود هو مثل ما قبل في ذكرنا . وما الفرق بيننا : وذلك لأن تأخير العلم بالعلم قبل خلقه عن أن يخرج من العلم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل ، فلذا فصل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم نعرفنا بذلك إلا التمسك بحدائق أفعاله ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه بهله وإرادته وتدرجه أن ذلك هل غاية الحكمة ونهاية الإتيان ومبلغ جودة الصنع ، ليسهل كالما خلق دليلا على ما هو بها على كماله في صفات جلاله الموجهة لإجلاله ، فلو كان ما خلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر التمعن للدعي على هذا الوجود من خلقه

كما يظهر على ما غطاه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما منع من التصان قطعاً ، وما يحمل عليه من القدرة على أكل مئة غنم ، إذ خلق الخلق عتولا وجعل لهم فهوياً وعرفهم ما أكن وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم كما كلفهم على نفسه ، ومن حيث أعلمهم بقدره بصمهم بجهده ، فنعلم أقرب العالمين الملك الحق المين . وأيضاً فلا يترس هنا ويترد به إلا من لا يعرف علوقاته ولا يصرف الكلام الصحيح في مشابهة ذلك أصلاً في العلم ، أو كان نسخاً له بمعنى نفيس عليه غيره ، وأما انكشافه بغيره عن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق الغير ، إذ أفشاء لغير أهله وأعداء لمن لا يمسحته ، كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام : لا تملقوا القوم في أعتاق الخنازير . وإنما أراد قطع العلم عن غير أهله . وقد جاء : لا تنموا الحكمة أهلها فتظلموا ، ولا تضموها عند غير أهلها فتظلموها . وأما العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لتلويح حقيقة ، بطلت الأحكام في حتمها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وهو أرب الخلق وكشف أسرار البادية وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلاً من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتب نفسه في غير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كل أنبا كه فلا يحتاج إلى تائب زاهد ولا لصبي مكابدة ، فلو عرف كل واحد حقيقته وما له بطلت الأحكام الجارية عليه . وإن كان كشفها من غير استرواح الضميمة إلى ما يسمع من ذلك فيتمتعون وينعم حاله وينهل قنده ، وبعد هذا فلا يحمل كلامه بل إلى ما لا يقدر إلا على ما يوجد ، ولذلك جعله مقروناً بحرف طو ، فقال على امتناع الشيء لا امتناع غيره ، كما يقال : لو كان الإنسان جناساً لم يطرأ ، ولو كان السباع دوج لصد عليها ، ولو كان البشر مدكاً لفقد الشهوات ، فلي هذا يفرج كلام سهل في ظاهر العلم

(فصل) وأما خطاب المقلد للهاديات غير مستنكر ، فحديثاً تدب الناس الديار وسألو الأملال عما استعبروا الآثار . وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أسكن أحد ، وإنما عليه نبي وصديق وشيخان ، وقال بعضهم : أسأل الأرض فتبكي من شق أنهارها ولجر بمارها وقتق أهواها وروق أحوامها وأرسي جبالها ، إن لم تبكي أبايتك اعتباراً ، وإنما الذي يشرف على الأذهان ويشير في قوله السامعون وتجب منه القول : هو كيفية كلام الجادات والحيوانات الصامتات ؛ فمن هذا وقع الإشكال واضطرب النظر ، وكذب في صحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار ، ولكن لنعلم أن تلقى الكلام المقلد عن لم يقل عنه في المفهوم يكون على جهات : من ذلك جماع الكلام للناطق كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للإنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كتبني الجدع نبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حين يسمع عليه في طريقه قبل مجته . ومنها تلقى الكلام في حرس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعتري هذا سائر الحواس ، كتل ما يسمع التائم في منامه من مثال شخص من غير مثال ، والمثال المرقي قائم ليس له وجود في سمعه . وأما ما يجده غير التائم في اليقظة فلها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحبر في زمن عيسى بنادي المسلم : يا سلم ، خلقني يهودي فأنته . وإن لم يخلق الله تعالى الحبر حياة ولطفاً ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه من يستر من الأبهام في المادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلق الله عز وجل في أذن السامع ليفيده العلم باعتقاده اليهودي حتى يقتله . وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص وفي الخلائق مثل اسم الناصي به كثير . وقد قالت العلماء : إنه لا يسمع الله في ذلك الجمع إلا من نودي فيحتمل أن يكون ذلك الله تعالى يخلق للناضي في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ولا يكون تمام من خارج ، والأمانة كثيرة في الشرع ، وفيها سمعت شعبة ومقتنع . ومنها تلقى الكلام في العقل وهو الاستفادة بالقرعة ، المسروع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ ، المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهش لترياذ حين رأته وكبر لرحمت حين رأيته فقلت له أين الذين عهدتهم
حواليلهم عيش ونفخ زمان فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومنها الذي يبق على الحدائق

وفي أمثال العروم : قال الحافظ الوحد : لم تفتق ؟ فقال الوحد الحافظ : سل من يدعي أنك كانت العبارة تأتي منها ما عبرت إلا بما غدا به لها . وعلى هذا المعنى حل كثير من العلماء قوله تعالى إخباراً عن السماء والأرض حين قالتا : ﴿ أتيناهما لنين ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم : كفى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عبادتان تطورانان إليي وتبني الجبال ، والله يقول : ليك يا يونس ، ففكره ، وكأنه يدل على أنه تمثيل حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات وظل الحافة منه سلفت وفي هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالي في البصر ، والوجود الخيالي في السمع ، ومنها تلقى الكلام بالثبته : وهو أن يسمع السامع كلاماً أو صوتاً من شخص حاضر فيلحق عليه شيء غير ما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى الأشعري إذ سمعته يترنم بالقرآن ، لقد أعطى من مارا من مزمار آل داود ، ومزمار آل داود قد عدت وذعبت . وإيمانه صوتهما وكذا إذ سمع المردصوت من مارأو عود بلاؤه حل غير قصد بتخييل صرير أبواب الجنة وشبهها بما لجأ صوته من ذلك ، فلهذا مرأب الرجود فأنك إذا أحسست التصرف بين أساليبك ولم يترك فلفظ في بعضها بعض ، ولا تشبهت عليك ، وصحت عن فلفظ بمشكاة نور الله تعالى إلى كائنه وقد رآه أسود وجهه بالخير فقال له : ما قال وجهك وقد كان أبيض أشقر موقفاً والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الخبر ، فإنه كان يجرع في الحيرة إلى هي مسترته ووسطه فسافر عن الوطن ونزل بمساجيحهم ظلاً وعدواناً ، فقال : صدقت . ثم أدت إذا صدقت أمثال هذه المراجعات أحمل الفكر وحده للظهور وحل الكلام : أجزائه التي ينظم منها جملة ما بلغت ؟ فقال عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ، ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ؟ ورأى لسان عاطف الكائنه ، وكيف غاطية الكائنه وهو ليس من أهل التلقن ؟ وفيما صدق الناظر الكائنه ؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فبيده ذلك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استمارة من مشكاة الزجاج التي أحرمت بسراج النار ، إلى غير المعرفة للقلب بسر شيئا بما ، لأنها مسرعة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتغال السر بطرح نوران كواكب المعارف الناحية بأذن الله تعالى بنظم جهالات القلب ، ووجه إسنائه إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالآثار لأجل التخصص بالشرق ، والكائنه والخبر كتابة عن أنفسهما لا من غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكه إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي هو محل جولة الناظر في حال نظره .

وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب ، فلذلك أنه كان آمياً لا يقرأ الكتاب الصناعي ، وإنما يروم معرفة قراءة لخط الإلهي الذي هو أبين وأدل على تفهم منه . وأما غاطية الناظر الكائنه وهو : جاد فيق الكلام حل مثله ، ومراجعة الكائنه له فعل بعد حال الناظر إن كان مراداً ، فياق الكلام في الحس بما يفهم من الخطاب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروح فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مراداً فيلقائه بلسان الحال المسبوع بسمع القلب بواسطة المعرفة والقل ، وتصديق الناظر الكائنه في عذره وإحاطته على الخبر لم يكن مجرد قوله ، بل شهادة أول الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس ، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم الملك . وأما ما صحت في سد عالم الجبروت فذلك من القدرة الحديثة إلى العقل والعلم الموجودين في الإنسان المسترة في القوة الوهمية للدركة جميع ما لا يستدعي وجوده جسماً ، ولكن قد يمرض له أنه في جسم ، كما تترك السلطة عداوة الذنب وصفت أمها فتنع العطف وتفر من العداوة . وأما ما صحت في حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك ما هو داخل فيه ومعدومة ، فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر يصوره ، فأدلى شيء حقائق هذه المذكورات وما كنه كل واحد منها على نحو معرفته لأجزاء عالم الملك والشهادة ، فذلك علم لا يتلصق

ببساطة مع عدم الشاهدة ، والله قد عرفك بأسمائها ؛ فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على أجله لملكه أنك لا تقهر بتسميات ليس لها سميات إلى أن يخلق الله بأول الشاهدة وتحصل عاقل الكرامات . ومن كفر فأنافه شيء جيد (فصل) والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت : أن العلم قد اعتدته بجسماء يعطيه الحركة بالفعل ، سريع الانتقال بالملك خلفا عن مثله في الظاهر ، بحسبوا تحت ظهر سلطان الأدي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والبدل والنظم والملك والصدق والإفك ؛ فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت ، عتص بخلاف خصائص الجواهر الحسية السكينة في عالم الملك ، يرى من أوصاف ماضي به العلم المحسوس كليا مصرفا بتبدي الخالق بحكم إرادته على سابق به عليه في أزل الأزل ، وإنما يسمى بهذا الاسم لأجل شبهه بسل ماضي به ، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين بين الأدي وبين الله هو وجل أن بين الأدي كاطع مركبة من عصب استعصى بتألقها ، وعضل تفضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلائها ولحم عتد وجهه غير جلد موصولة ، كتلها في الضعف والافتقار ملقبة باليد وهي ماجة على كل حال ، وبين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدره ، وعند بعضهم صفته تعالى غير قدره وليس بمجرة ولا جسم ؛ وعند آخرين ، أنها عبارة عن خلقه هي واسطة بين العلم الإلهي لتنافس العلوم المحدثة وغيرها ، وبين قدره التي هي صفته صرف بها الإيم المكتوبة بالعلم للذكور بالخط الإلهي للثبوت على صفحات الخلق التي ليس بعربي ولا محسوس ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم ، وتستجيب على القارئين إذا كانوا عبيد شواهم ، ولم يشارك بين الأدي إلا في بعض الأسماء لأجل شبهه العليل الذي بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم ، عساه يفتل ما أنزل على رسول الله تعالى من الذكر .

(فصل) وحطام الملك ؛ ما ظهر الحواس ويكون بقدرته الله تعالى بعضه من بعض ومحة التمييز . وحطام الملكوت ما أوجده ببساطة بالأسر الأزل بلا مخرج ويقت على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصانته . وحطام الجبروت هو ما بين المألين مما يقبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك لجزء بالقدره الأذلية بما هو من عالم الملكوت .

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته : فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل عليه فيه وجهان ؛ فممن يرى الحديث سببا ؛ وهو أن رجلا ضرب غلامه فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهأ وقال : إن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وأولوا أهود الضعيف على المضروب ، وعلى هذا لا يكون الحديث مدخل في هذا الموضع لم يرد مورد آخر في غير هذا الموضع ، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث وإثباته في غير موطن ذلك السبب المقترضا بمزويسر ، فليبق المسبب على حاله ، وليتفرق وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ، ويحسن الاحتجاج به في هذا الموضع ، والوجه الآخر : أن يكون الضعيف الذي في صورته ، عائدا إلى القسب بانه ، ويكون معنى الحديث : أن الله خلق آدم على صورة هي إلى القسب بانه ، وهذا البعد المضروب على صورة آدم ؛ فإذا هذا البعد المضروب على الصورة الملقاة إلى الله تعالى ، تميز بصره بانه معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أي جهة يصل في الاعتقاد المعنى على الله سبحانه ، ففيها وجهان ؛ أحدهما أن إضافته ملك إلى الله تعالى كإضافة إليه البعد والبيت والثقة واليمين على أحد الأوجه ، والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حلها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصوره هو العالم الأكبر بملكه ، وآدم مخلوق على مناهضة صورة العالم الأكبر ، لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاءه بالم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثل ، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة عالمنا بلا شك متشابهتان ، فالتى نظرى تحليل صورة العالم الأكبر نفسه على أنما من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك ، فوجد كل تصور منهما شيئين فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين : أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني : باطن مقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعلم والهم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى

باطن كالروح والعقل والإرادة والقدرة وأشياء ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم نقاسم العوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر الحراس ، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن في المقول ، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أعاد بطرف من كل علم منها ، والإنسان كذلك اقسام إلى ما شابه هذا التقسيم : فالعالم الملك : الأجزاء الخمسة وسوقه علمها ، واتصافه بعالم الملكوت فضل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشياء ذلك ، وللشاه عالم الجبروت فكان الإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه . والوجه الثاني : أن يكون منه كلاً أقساماً للشيء ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، لاحتدوا الناس بالمصلحة عقولهم ، أن وجدون أن يكذب الله ويؤسره ، فن حدث أحداً بما لم يحصل عنه وبما سارح إلى التكذيب وهو الأكثر ، ومن كذب بقدوة الله تعالى وبما أوجدها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر : فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا تقفه بأنفسها وهي كفار بلا ريب ؛ وهذا وجه واضح قريب ، ولا تقتل إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يمثل كلام أول الحكمة والرايين في العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو قبيح الإيمان والإسلام يتعلق غيره ، وتلقى قائله ، وهذا لا يخرج إلا على مناهض أهل الأهرام الذين يكفرون بالمعصية ، وأهل السن لا يرمون بذلك . وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذي يره ، وبالعقل الذي يقصد به المتعبد لوجهه الذي يستزيد به إيماناً ومعرفة له سبحانه ، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وبغلبة ما تشرق من الفتح ويوه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بنير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بذيذة واطراحه وتركه واعتقاده ما لا يتم الإيمان به ولا يحصل بفكرته ، وليس في إقتله سر الرول ما يحصل به تناقض الإيمان ، المهم إلا أن يرد في نفسه وتوقع الكفر من السامع له فهذا مات متمرد وليس يول ، ومن أراد بأحد من خلقه أن يكفر بالله فهو لا ماله كافر . وهل هذا يخرج قوله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يجد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أسبأت وأمتت من غير تكفير ، وأنه يا فضل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .

(سؤال) فإن قيل : فاعني قول سبل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهاء سر لو انكشف لبطلت الثبوتات ، ولثبوتات سر لو انكشف لبطل العلم ، وبالمسلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام . وجاء في الإحياء على أثر هذا القول ، وقال هذا القول إن لم يرد به إبطال الثبوت في حق الصنفاء فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض والكامل من لا يخطئ نور معرفته ونور دهره ، وهذا وإن لم يكن من الأسس المرسومة فهو متشاك منها بما فوج من الكلام فيها آنفاً وناطر إليه ، إذا ما أدى لإنشاءه إلى إبطال الثبوت والأحكام والعلم ككفر ، فالجواب : أن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستحيماً في الظاهر فهو قريب المسلك ، باد للتأمل الذي يشرق معاصر أغراضهم ومساك أرواحهم الإلهية . ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبيا لا يتخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غالبة عنها بأن كانت القلوب ضئيلة طراً عليها من الفمض والاضطلام والخيرة والتيه ما يثير العقول ويغند الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه . ومن انتهى إلى هذه الحالة فبطل الثبوت في حقه أن يعرفها أو يمثل ما جاء من قبلها ، إذ قد شغل عنها ما هو أعظم لديها ، وربما كان سبب موته لبعده عن حل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شاباً من سالكين طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل ، فزاره انكشف له ذلك وكان في مقام الصنفاء من المريدين فلم يعلق حله فأت به ، وإنما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه ، فبطل الثبوت في حق الخبر حين نهي أن لا يفتش فاعنى أراسر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلها قيل في ذلك : بطلت الثبوت في حقه . فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت الثبوت في حقه لإخباره ؟ قلنا : ما بطلت في حقه جميعاً ، وإنما بطل في حقه منها ما غاب الأمر التاب من قبلها ، ويعد هذا من الكلام على تقييد حق الإنشاء ونفسه

الكلام عليه في معنى : إلهام سر الربوبية كسر . وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة ، إذ النبوة لا يبرها بالحقيقة إلا بالنبى ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد يعلم في حقه بارتفاع المحنة بالامر المترجعه عليه بطلبه والبحث عنه والتفكير فيه ، فيكون كالنبى إذا سئل عن شيء ولو قسمته واقعة لم يتجنى إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها ، بل ينظر ما حود من كشف الحقائق بإخبار ملك أو ضرب مثل يفهم منه أو إطلاع على الفرح المحفوظ أو إلقاء في روع فيود عترعاه ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف غوامضها ولا نزهة في عجايبها ولا لاحظ للذكوات يصير قلبه ، ولا جاوز التنحوم إلى أسفل من ذلك بصره وله ، ولا يفهم أن الجنة أهل الصميم وأن النار أقصى العذاب الآليم وأن النظر إليه منتهى التكرامات ، وأن رضاء ومهنة غاية الدرجات والمرتكات ، وأن منع المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العلم الذى هو فى بعض ، إلى الوجود الذى هو إلهيات صحيح وقدره منازل وجسده المليات ، فخرى وميت ، ومترك وساكن ، وعالم وجاهل وشقى وسعيد ، وفريد وبديع ، وصغير وكبير ، وجليل وخفي ، وغنى وفقير ، عواما وموامير ، ومؤمن وكافر ، وجاهد وشاكر ، وذكر وأتى ، وأرض وسياه ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك ما لا يحصى ، والشكل قائم بموجود قدرته ، وباق بمله ومته إلى آله ، ومصرف بشيئته ، وذلك على باق حركته ، لما أكل جهل من لا يجد به إلا إقدام ، ولا من يصرفه إلا استبداد ولا ملكة إلا ملكة ، فيود المحنة قدما والمربوب دبا والملوك مالمسا ، فيود الخلق من خلق الله كبر ، تعالى الله عن جهل الجامعين وتغيب المتوهمين وزبح الزائفين .

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الكتاب وسلك هذه المقامات ورفق هذه الدرجات واستقام هذه الخاطيات ، أى من قبيل الراجيات والمعدوبات أو المباحات ، فاعلم أن المشور على حل حزين ، أحدهما : ما عرفت حكم المبادئ والثاني في حكم الغايات ، فأما الذى هو فى حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد يقتدر بذلك فهو دولقراغ الوسع وجيع ما يقتر عليه من العبادة ، وذلك ما تضمنه أصول علم الممامة ، مثل إخلاص التوحيد والصدق فى العمل وعدم الإيجاف بالحرف والرجاء والتزين بالصبر والتسكى ، لأن هذه كلها وما يتصلق بها من علم الامروالتمنى واجبة . قال الله تعالى (فاعلموا ان الله ما استعظم) وقد سبق التنبه عليه .

أما الذى هو حكم الغايات مثل انقلاب المليات والنظر بالتزوين بحكم المرافقة والرضا بالإلهيات والتوكل بالتجرد وحقيقة علم معاني التوحيد وسير معاني التفرير وأوصاف أهل آيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ومتاؤل ومراتب ومنع يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا قيام ، ولو كان ذلك لما قيل لفاطر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارفع لا تنظر لرقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته ، وهى مراتب الصدق فى الظهور وكثرة الإخلاص فى العمل ، فن ليرت من علمه وعلم المترضى عليه فطلبه والعمل به شأن من هذه المراتب ، فليس فى شيء من الحقيقة وإن كان حقا ، غير أن حاله معلول ، إما مفتون بدينه أو محبوب بهواه ، ورسله على كل شيء قدير .

(فصل) وأما لآى شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمقاييس من الانقراط دون المحسكات ، وإن كان قد سبق هذا من المتعارف فيها له أن يتشبه به من كلف ويتر من يبيد ولكن العلم رجال مخلصون ، فإياهم من لم يحمل شارعا ولم يمسك لنهذ أن يسلك ذلك .

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبى صلى الله عليه وآله تعالى عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بسمه ويحل فيه كعبه والنبى صلى الله عليه وسلم لا يخلق من الهوى (إن هو إلا وصى يوحى عليه شديداً قوى ذمرة فاستوى) وحكم الوارث فيما ورث حكم الوارث فيما ورث عنه لما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثلته وما لم يصل إليه فيه شيء كان له اجتنبه فإن أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصرح بطول المعاملات وأثار ما وردها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص كما قال الله عز وجل (وما يفتلها إلا العالمون) فلم

يكن الثأر تعد عن حكم الموروث ، كما حكى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامين أحدهما هو الذي بكته فيكم ، وأما الثاني فلورثته لحوزتم السكين على هذا البلغم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء : فني القندوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفي أتباعه الفوز بحب الله وبالله مع الجماعة ، وفوق كل شيء علم عظيم . وقد أهداك من طرائف ما عندنا وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ! وإل الله يرد العلم صادق وجعل وكثر عقل وعظم وصغر وظهر واستتر ، وإنما يتلقى الإنسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ! فاستنزل ما عند ربك وعالقه من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من عناية وبر براءة السبع الثمان والقرآن العظيم التي أمرت بقرائتها في كل صلاة وكذا عليك أن تبيد حافئ كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهما وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن بكثرتها ما عندنا من القوامم ونخصته به من الذمات والمواجد ، بما لو سطر لكان فيه أرقار الجمال ، فاقفهم راتبه واعتل ما خلقت له ، واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سميعه حبيب من أراده ، وهادي من جاهدني سيئه ، وكافل من توكل عليه ، وهو الحق الكريم .

اتهم الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الرسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى للمساعدة بين حيلات تقرب البشر ، وأن يصرف عنا حجب التكدورات والآهوال ومرائب الذين ، فيدهم بحارى التكدورات وهو لا من ظهور وغير وإليه يرجع من آمن وكفر ، ويجازى الخلاقين بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافى الضرر ، وعلى آله السادات القدر ، وسلم تسليما واحمد الله رب العالمين .

تم كتاب الإسلام في إشكالات الإحياء

کتاب عوارف المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخذ في العظم شأنه تقوى سلطانه ، الظاهر إحسانه الباهر حيث يورثه ، المحتجب بالجلال والتفرد بالكمال ، والقرى بالظلمة في الآباد والأزال ، لا يصوره وهم وغيا ، ولا يمتصه حد ومثال ، ذي المزايا الثمينة السرمدي ، والملوك القائم الدومى ، والقنطرة المحتجب إدراك كسها ، والسطة للسور طريق استيفاد وصفها ، فطقت الكائنات أنه الصانع المبدع ، ولوح من صفات ذرات الوجود بأنه الخالق الخرق ، وسع عقل الإنسان بالبحر والتقصان ، وأزوم فصاحت الألسن وصف الحصر في حلقه اللينان ، وأحرق سجات وجهه الكريم أجنحة طائر القوم ، وسدت تيزوار جلالا مسالك الأثر ، وأطرق طالع البصيرة تعقبا وإجلالا ، ولهم مدن فرطانية في قضاء الجبروت مجالا ، فماد البصر كليا والقل عيلا ، ولم ينتج إلى كنه التكبير سيليا ، فسبحان من عوت معرفته لولا لمرينه ، وتعلم على العقول تحديده وتكييفه ؛ ثم أليس قلب الصغرة من عبادته ملاهى الرقان ، وشخصهم من بين عبادته بخصائص الإحسان ؛ فصارت حيازهم من مواسم الأانس عذوة ، ومواسم قلوبهم بنور القدس عذوة ؛ فغياثا لقبول الأمداد القدسية ، واستمدت لزود الأقرار العظوية ، وانفجرت من الأنفاس العظوية بالأذكار جللا ، وأقامت على الظاهر ما باطن من التقوى سرا ، وأشعلت ظلم البشرية من اليقين نيرا ، واستقرت فرائد الدنيا ولذاتها ، وأنترت معابد الهوى وبها ، واستعادت غاروبها لغيرت خوارجها ، واستقرت بطونتها بساط الملكوت وامتدت إلى الممال أعاتها ، وطسحت إلى اللامع العلوى أحداثها ، وانفجرت من الألال الأعل سامرا وعطورا ، ومن ثور الأحر الأقصى مزادادها راءا ، أسعاد أرحية فخرها عاوية ، وأشباح قرشية بأرواح عرشية ، فنوسهم في منازل الخدمة سيرة ، وأرواحهم في قضاء قرب طيارة ، وبهاهم في البرودة مشهورة ، وأعلامهم في أقطار الأرض منقورة ، يقول الجاهل يوم : فعدوا ، وما فعدوا ، ولكن سمعت أسواهم قل يدركوا ، وعلاقتهم قل يهلكوا ، كاذبين بالجنان يابسين بخلهم من أوطن الأعدان ، وأرواحهم حول الرش قطواف ، ولقوبهم من غوان البراسعاف ، يتصمون بالخدمة في الفياجر ، ويشذرون من معيب الطلب بظلم الحواجر ، وتسوا بالصلاوات عن الشهوات . وتوسوا بإجلاوة التلاوة عن الفيات ، ويوح من صفحت وجوههم بشر الوجدان ، وين على مكتوب سرائرهم فضاء الرقان ، لا يزال في كل عصر منهم طلة بائق ، وداغر الخلق ، مشوا بحسن المتابعة ربة الدعوة ، وجعلوا للتقوى عذوة ، ولا يزال تظهر في الخلق آثارهم ، وتوهر في الأفاق أنوارهم ، من اقتدى بهم اعتدى ، ومن أشكرهم شل واشتدى ، ففاحد على ما ميا للبدان من بركة خراس سفره من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكر من الأعدان .

ثم إنظارى لدى هؤلاء القوم ومحبى لهم ، علما بشرف عالم وصحة طرقهم المبنية على الكتاب والسنة المحقق بها من الله الكريم القتل والملة ، جذا أن أذهب عن هذه العبادة ، بهذه العبادة ، وأؤلف أبوابا في الحقائق

والآداب معرفة عن وجه الصواب فيها اعتدوه، مشفرة بشهادة صريح العلم لم فيها اعتدوه، حيث كثر المشهورون واختلقت أحوالهم، وتشتد برزهم المتشرون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلبهم لا يعرف أصول ملقهم سوء ظن، وكذا لا يعلم من وقية فهم وطن، شأته أن حاسلهم راجع إلى مجرد رسم، وتقصصهم عام إلى مطلق اسم. وما حضري فيه من البقية: أن أكثر سواد القوم بالأعزاء إلى طريقهم والإشارة إلى أحوالهم؛ وقد وردت ومن كثر سواد قوم نهر منهم، وأرجو من الله الكريم محبة التوبة وتغليصها من شوائب النفس، وكل ما فتح الله تعالى حل فيه منح من الله الكريم وعوارف، وأجل اللع حوروف المكارف.

والكتاب يشمل حل نيف وستين باباً والله المعين (الباب الأول) في منشأ علوم الصوفية (الباب الثاني) في تفصيل الصوفية بحسن الاستماع. (الباب الثالث) في بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أنواع منها (الباب الرابع) في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها (الباب الخامس) في ذكر ما عايناهم التصوف (الباب السادس) في ذكر تسميتهم بهذا الاسم. (الباب السابع) في ذكر المتصوف والمكتب (الباب الثامن) في ذكر الامتنان وشرح حاله (الباب التاسع) في ذكر من اتقى إلى الصوفية وليس منهم (الباب العاشر) في شرح رتبة المشيئة (الباب الحادي عشر) في شرح حال الخادم ومن يتدبه به (الباب الثاني عشر) في شرح غرة المشايخ (الباب الثالث عشر) في فضيلة سكان الربط (الباب الرابع عشر) في مشايه أهل الربط بأهل الصفة (الباب الخامس عشر) في خصائص أهل الربط فيها يتعاهدونه بينهم (الباب السادس عشر) في اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (الباب السابع عشر) في بيان محتاج للسافر إليه من الفرائض والتراثل والتفضائل (الباب الثامن عشر) في التقديم من السفر ودخول الرباط والآداب فيه (الباب التاسع عشر) في حال الصوفى للتسبب (الباب العشرون) في حال من يأكل من الفتح (الباب الحادي والعشرون) في شرح حال المتعبد من الصوفية والمشاغل (الباب الثاني والعشرون) في القول والسبأ قبل ولائها (الباب الثالث والعشرون) في القول في السبأ وما وإنكاراً (الباب الرابع والعشرون) في القول في السبأ وترغيباً واستفتاء (الباب الخامس والعشرون) في السبأ تأدياً واحتاء (الباب السادس والعشرون) في عاصمة الأريمية التي يتعاهدونها الصوفية (الباب السابع والعشرون) في ذكر فروع الأريمية (الباب الثامن والعشرون) في كيفية الدخول في الأريمية (الباب التاسع والعشرون) في ذكر أخلاق الصوفية وشرح الحلق (الباب الثلاثون) في ذكر انماصيل الأخلاق (الباب الحادي والثلاثون) في الآداب ومكانه من التصوف (الباب الثاني والثلاثون) في آداب الحفرة لأهل القرب (الباب الثالث والثلاثون) في آداب العاهة ومقدماتها (الباب الرابع والثلاثون) في آداب الرخوة وأسراره (الباب الخامس والثلاثون) في آداب أهل المخصوص والصوفية فيه (الباب السادس والثلاثون) في فضيلة الصلاة وصحبر شأنها (الباب السابع والثلاثون) في وصف صلاة أهل القرب (الباب الثامن والثلاثون) في ذكر آداب الصلاة وأسرارها (الباب التاسع والثلاثون) في فضل الصوم وحسن أثره (الباب الأربعون) في أحوال الصوفية في الصوم والإفطار (الباب الحادي والأربعون) في آداب الصوم ومهامه. (الباب الثاني والأربعون) في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمنفعة. (الباب الثالث والأربعون) في آداب الأكل. (الباب الرابع والأربعون) في ذكر آدابهم في لباس وزياتهم ومقاصد فيه. (الباب الخامس والأربعون) في ذكر فضل قيام الليل. (الباب السادس والأربعون) في الأسباب الملية على قيام الليل. (الباب السابع والأربعون) في آداب الانقياد من قوم والعمل بالليل. (الباب الثامن والأربعون) في تفسر قيام الليل (الباب التاسع والأربعون) في استقبال القهار والآداب فيه (الباب العاشر) في ذكر العمل في جميع الجهار وتوزيع الأوقات (الباب الحادي والخمسون) في آداب المربيع الصبيخ (الباب الثاني والخمسون) فيما يعتمد الشيخ مع الأصحاب والتلامذة. (الباب الثالث والخمسون) في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والفر. (الباب الرابع والخمسون) في آداب حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى. (الباب الخامس والخمسون) في آداب

السببة والأعوة (الباب السادس والخمسون) في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصورية من ذلك . (الباب السابع والخمسون) في معرفة الحواطر وتفصيلها وتعيينها . (الباب الثامن والخمسون) في شرح الحال والافتقار والفرق بينهما (الباب التاسع والخمسون) في الإشارة إلى المقامات على الاختصار والإيجاز . (الباب العاشر والستون) في ذكر إشارات المتأخر في المقامات على الترتيب . (الباب الحادي والستون) في ذكر الأحوال وشرحها (الباب الثاني والستون) في شرح كلمات من اصطلاح الصورية مشبهة إلى الأحوال (الباب الثالث والستون) في ذكر شيء من الديات والتأنيبات ومنها

فهذه الأبرار هم الذين الله تعالى مشغلة على بعض علوم الصوفية وأسرارهم ، وعقائهم وآدابهم ، وأخلاقيهم وخرابهم ، ومبادئهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودينهم وإشاراتهم ، ولطيف اصطلاحاتهم ، فلهذا فهم كالأبناء من وجدان ، وأعضاء إلى عرفان ، وذوق يحقق بعد فنا لحال . ولم يبق باستيفاء كنه صريح المقال إلا أنها مواهب ربانية ، ومنافع خاتمة ، استلهاها منابر الرأى ، وعلوم العتبات ، فاستصعبت بكها على الإشارة ، ولحققت على العبارة ، وتبادلتها الأرواح بسلامة القلب والانتلاف ، وكرعت حقائقها من بحر الانكشاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطس كثير من حقائق وسعومهم . وقد قال الجليل رحمة الله : علنا هذا قد طوي ما طويته كثرة ، وأمن تنكلم في حراشيه بما هذا القدر منه في وقت مع قرب العهد بملأ السلف وحاشي التائبين ، فكيف بنا مع هذا العهد وقلة العلماء الزايعين ، والمبارزين حقائق علوم الدين ، والله الأسأول أن يقابل جهد القليل بحسن القبول ، والحمد لله رب العالمين

الباب الأول : في ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العباس عبد القادر بن عبد الله بن محمد الهروي إمامنا من لفظه قسواله سنة
وعشرينه . وقال : أبانا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزيني . قال : أخبرنا كريمة بنت أحمد بن محمد
الرزقي الجوزي بمكة حرسا لله تعالى . قالت : أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشيري . قال أبانا أبو عبد الله محمد
ابن يوسف القريري . قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . قال حدثنا أبو كريب . قال : حدثنا أبو أسامة
عن يزيد ، عن أبي ردة ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما مثل
ومثل ما بيني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم ، إلى رأيت الجيش بيني ، وإني أنا القدير العريان ، فأنجاه
النجاه ، فأطاع طائفة من قومه فأدبروا فألقوا على مهلبهم فصروا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فغصبهم الجيش
فأكلهم وأجتاحهم ؛ فذلك مثل من أطاعني فأطاع طاعة ما جئت به ، ومثل من عصاني فكذب بما جئت به من الحق . .
معي استأصمهم ؛ استأصمهم ، ومن ذلك الجماعة التي نزلت النار ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بيني الله به ومن الهدى
والعلم كمثل النبت الكثير أصاب أرضا ، فكانت طائفة منها قبل الماء فأثبتت الكلأ ؛ والعشب الكثير . وكانت منها
طائفة أخذت من الماء فضعف الله تعالى ما بها الناس ، فشرهوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيمان
لأصمها ماء ولا نبت كلا ، فذلك مثل من فقه دين الله وتقدم ما بيني الله به فسلم وطم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأيا
ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به . .

قال الشيخ : أحد الله تعالى يقول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبى القلوب بآرك النفوس ، ظهور صفات العفاف واخلاص التركية في صفات القائد والزعيم ؛ فن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التي أثبتت الكلا "والمنصب الكبير ، وهذا مثل من انتفع بالمثل في نفسه وأعدى ، وقسمه على وهذا إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن القلوب ما هو بمثابة الأغايات - أي الفئران : جمع أفاع ، وهو المصنع والتقدير الذي يجمع فيه الماء - فنفس البلاء الزايعين من الصوفية والشيخ تركت قلوبهم حنيفة ، فأخصت ببرد الناعمة فصاروا أغايات . قال سروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كأغايات ؛ لأن قلوبهم كانت وافية فصاروا أوعية العلوم بما رزقت من صفات القويم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الله بن إسماعيل الترويض بإجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الحلي وقال أنبأنا القاضي أبو سعيد محمد الفخر الرازي ، قال أنبأنا أبو اسحق أحمد بن محمد الشافعي ، قال أنبأنا ابن فضال ، قال حدثنا ابن حبان ، قال حدثنا إسحق بن محمد ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا علي بن علي ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالى ، قال حدثني عبد الله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية (وقلنا لنزلة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها لك يا علي . قال علي : فلانيت شيئا به ، وما كاد أن ألقى قال أبو بكر الراسطي : آذان وعنت عين الله تعالى أسرار

وقال أيضا : وأصق في معانيها ليس فيها غير ما شئت به ، فهي الحلية عساواة . لا اضطراب الطالع إلا خرب من الجهل ! فقلوب الصوفية واعية : لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكروا أساس الثرى ، فبالثرى زكيت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما عدوا شواغل الدنيا بتعقيق الزهد : تفتت ساميراتهم ، وصمت آذان قلوبهم ، وأحاطهم على ذلك زهدهم في الدنيا ، فلهذا التفسير وأتته الحديث ونقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث للتجدة إلى أصول من النصوص ، وحقى الفهم الدين ، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العرب في اللغة وكتاب النحو والتصرف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنفوا في ذلك الكتب ، فاقبح بطريقهم علوم القرآن على الأمة ، وأتته الحديث ميزوا بين الصحاح والחסان ، وعرفوا بمرقة الرواة وأساس الرجال ، وحكوا بالجرح والتعديل لبيان الصحيح من السقيم ورشد المعوج من المستقيم ، فيستغنى بطريقهم طريق الرواية بالسند حفظا للسنة وانتدب نقهاء لاستنباط الأحكام والتفرع في المسائل ، وسرفة التعديل ورد القروع إلى الأصول بالملل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بمحكم النصوص وتفرع من علم اللغة والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل ، وأصبح علم أصول الفقه إلى شيء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم القرائن ، وازمته علم الحساب والجبر والقياس ، إلى غير ذلك ، فتمتدث الشريعة وأبديت ، واستقام الدين الحقيق وتفرع ، وقام على الهدى المعطوفى فأبليت أراض قلوب علماء السكالة والمذهب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم . قال الله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالوا دابة يقدروا) قال ابن عباس رضى الله عنهما : السماء العلم ، والأودية القلوب . قال أبو بكر الراسطي رضى الله عنه : خلق الله تعالى دابة حائية فلا حظها بين الجلال ، فدايت حياة منه فسال ، فقال (أنزل من السماء ماء فسالوا دابة يقدروا) ففصل القلوب من وصول ذلك الماء إليها وقال ابن عطاء (أنزل من السماء ماء) هذا مثل خبر جدها تعالى القلوب ، وذلك إذا سال السيل في الأودية لا يبق في الأودية نجاسة إلا كفها وذبح بها كذلك إذا سال النور الذى قسمة الله تعالى القلوب في نفسه لا يبق فيه غفلة ولا غفلة (أنزل من السماء ماء) يعنى كسمة النور (فسالوا دابة يقدروا) يعنى في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل (فأما الذين يذهب بجهل) فقصير القلوب منورة لا يبق فيها نجاسة (وأما ما يطلع الناس فيسبك في الأرض) فذهب الباطل وبقى الحقائق . وقال بعضهم (أنزل من السماء ماء) أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالوا دابة قلوب علماء التفسير والحديث والفقه يقدروا ، وسالوا دابة قلوب الصوفية من علماء الزاهدين في الدنيا المستسكنين بحقائق الثرى يقدروا ، فمن كان في باطنه لوث بحية الدنيا من فضول المال والجلاء وطلب الشاغب والرغبة سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحط بحقائق العلوم ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه فسال في عياها العلوم واجتمعت وصارت أعلاجات .

قيل للحسن البصري : هكذا قال الفقهاء ، فقال - وهل رأيت فقيها قط - إنما فقيه الزاهد في الدنيا ، فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأقدم على الدراسة العلم بالمعنى ، فلما حلوا بما علوا أقدم العلم على الدراسة : فهم مع سائر العلماء في طوعهم وميوزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الرواة : وعلم الرواة هو الفقه في الدين . قال الله تعالى (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) فصار الإنذار مستغلا من

الفتح . والإنذار : إحياء النذر بقاء العلم ؛ والإحياء العلم رتبة الفقيه في الدين ؛ فصار الفقه في الدين من أكل للرابح وأعلاه ، وهو العلم الزائد في الدنيا للفق الذي يبلغ رتبة الإنذار بيله ؛ فلو العلم والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فأرثى بذلك طاهراً باطلاً ، فظهر من ارتواء طاهره الدين ، والدين : هو الاتقياء والخضوع ، مشتق من الهدى ؛ فكل شيء اتقى فهدى دون ؛ فالدين : أن يضع الإنسان نفسه لربه . قال الله تعالى (فزع لكم من الدين ما دعى به نوحا والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى ويعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فباتفرق في الدين يستولى الدنوي على الجوارح وتذهب عنها إشارات العلم ؛ والتفترة في الظاهر بترين الجوارح بالاتقياء في النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب في ارتوائه بالملم بمثابة البحر نصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملم والهدى بهما مواجا . ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريعة فصار العلم وربه ، فتبدلت لموت النفس وأخللتها . ثم وصل إلى الجوارح جدول قصائد ربانية باضرة ، فلما استم قصيدة واستقر رجا بهت الله تعالى إلى الخلق ؛ فأقبل على الأمة بقلب مواج بقاء العلوم ، واستقبل جدول العلوم ، وجري من بحر في كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط المواصل إلى الفهم هو الفقه في الدين . وروى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقهه في الدين ، وللفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ولكل شيء حماد ، وحماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو الشجب إمامه ، قال حدثنا أبو طالب الزين ، قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد الروزية ، قالت أخبرتنا أبو الهيثم ، قال أخبرتنا الفريري ، قال أخبرنا البخاري ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يرد الله به خيراً بلغه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي » قال الشيخ : إذا وصل السلم إلى القلب انفتح بهر القلب فأبصر الحق والباطل وبين له الرشد من الضل ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابي (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . قال الأعرابي : حسبي حسبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقه الرجل . وروى عبدالله بن عباس : أفضل العبادات الفقه في الدين . وألقى سبحانه وتعالى جميل الفقه صفه القلب فقال (لم يلق قلب لا يفقهون بها) فلما فقهوا علواً ولما علواً علواً ، ولما علواً عرفوا ، ولما عرفوا اعتدوا ، فكل من كان الله كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر اتقياء للعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين ، فالملم جملة موهوبة من الله للقلب ، واللمعة تميز تلك الجملة ، والهدى وجد القلب لتبوي العلم وكان مادياً مهندياً ، وعنه صلوات الله عليه منها وراثة مجهزة فيه من آدم أبي البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الإسماعيلية ، والأسماء سنة الأشياء ؛ ففكره الله تعالى بالملم . وقال تعالى (علم الإنسان ما لم يعلم) فأدرك ما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والطقنة واللمعة والرائقة والمطعم والحب والبغض والفرج والنعم والرضا والنفس والكياسة ، ثم اقتضت استعمال كل ذلك وجعل قلبه بصيرة واحتشاد إلى الله تعالى بالثبوت الذي وهب له ، فآثى صلى الله عليه وسلم بهت إلى الأمة بالثبوت للثبوت والفرح به غامرة ، وقيل : لما عاين الله السموات والأرض بقوله (اتقيا علوماً أو كرها قاتلتا آتينا طائفتين) فظن من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء ما ينجيها . وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنها : أصل مليحة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سررة الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء : هذا يشهد بأن ما أجاب من الأرض ذرة للصلبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن موضع الكعبة حيث الأرض ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين ، والكمالات تبع له . ولما هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : كنت نبياً وآمن بين الله والمؤمنين ، وفي رواية : بين الروح والجسد ، وقيل لذلك سمى آمياً ، لأن مكة أم القرى وذوته أم الحليمة ، وذرة النفس مدته ، فكان يقتضى أن يكون مدته بمكة حيث كانت تربته منها ؛ ولكن قيل : إن الله لما

تخرج دوى الزبد إلى التواحي ، فوصفت جوهرة التي حمل الله عليه وسلم إلى ما يجاذى ثبوته بالمدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا حتى إلى مكة وثرثبه بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذروة رسوله صلى الله عليه وسلم : هو ما قاله الله تعالى (وإذا أخذك من ذرى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ورد في الحديث : إن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة اللؤلؤ ، واستخرج اللؤلؤ من مسام شعر آدم ، طرح اللؤلؤ كروح الشرق ، وقيل : كان للمسح من بعض الملاصكة فأخاف الفعل إلى المسح . وقيل معنى القول بأنه مسح أى أحصى الأرض بالمسحة ، وكان ذلك يطعن لعماد بن عرفة بين مكة والطائف ، فلما خاطب اللؤلؤ أجابوا بيل كتب العهد في رق أبيض وأشهد عليه الملاصكة وأقيم الحبر الأسود ؛ فكانت ذروة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الجبهة من الأرض ، والسم والهدى فيه مسجونان ، فيمت بالسم والهدى موروثا له وموعرا . وقيل : لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبى ، حتى بعث الله عزرائيل قبضة من الأرض ، وكان إيليس قد طوى " الأرض بشديه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فطقت الشمس بماسح قدم إيليس فصارت مأوى للشر وبعضها لم يصل إليه قدم إيليس ، فنزلت التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذروة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع لظفر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يسها قدم إيليس ، فلم يسبه خط الجمل ، بل صار مزدوج الجمل مورغا حظه من العلم ، فبعث الله تعالى بالهدى والسم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، ففرقت للناس في أصل طهارة العظيمة ، ووقع التأليف بالتماروف الأول ؛ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة العظيمة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت براطنهم أخانات ، فطوا وطورا كالأعاذ الذي يسقى من يزرع منه ، وجمعا بين قاعدة علم الدراسة وعلم التوراة لحكم أساس التنوير ، ولما زكت النفوس انجذبت مرابا للربهم بمسماها من التنوير ، فاجمل فيما صور الأشياء حل حيثما وماحيها ، فبانت الدنيا بقبجها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بصنها فظليوها ، فلما زهدوا في الدنيا انصببت إلى براطنهم أقسام العلوم الصبابة ، وانضاف إلى علم الدراسة علم التوراة . واعلم أن كل حال شريف أموره إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال المغرب ، والصوفى هو المغرب ، وليس في القرآن اسم الصوفى ، واسم الصوفى ترك وضعه للقرن على ما سطره ذلك في باب . ولا يعرف في طرق بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل الغرب ، وإنما يعرف الشرقيين ، وكما من الرجال المقيمين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وماوراءالنهر ولا يسمون صوفية ، لأنهم لا يذكرون بى الصوفية ، ولا مشاغل في التناظر فيعلم أنانهم بالصوفية للقرين ، فمناجى الصوفية الذين اسموا في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طريق المقيمين وعلمهم علوم أحوال المقيمين ، ومن تطلع إلى مقام المقيمين من جملة الأبرار فهو متصرف ما يتحقق به العلم ، فإذا تحقق به العلم صار صوفيا ، ومن عداها من يترك بى ولسب إليهم فهو مكتوب (وفوق كل ذى علم علم) .

الباب الثاني : في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العباس السهروردى إمامنا ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب : قال أخبرنا أبو عمرو الحاشمي قال أخبرنا أبو علي القزويني قال أخبرنا أبو داود السجستاني ، قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى بن شعبة ، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زبدين ثابته قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لغير الله أسما جميع متاجدا لحفظه حتى يلقه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه وليس بفقيه ، أساس كل خير حسن الاستماع ، قال الله تعالى (ولو علموا غيبهم غير الإصم) يقول بعضهم : علامة الخبير في السماع أن يسمع العبد بشهادته وصافته ونسبه ، ويسمعه بحق من حق . وقال بعضهم : لو علموا علل السماع لفتح آذانهم للاستماع ، فنزلت تلكه الواس وغلب على رايه

حديث النفس لا يفتقر على حسن الاستماع ؛ فالصوفية وأهل التقرب لا علوا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده وعطاياه إليهم وأكل آية من كلامه تعالى بصرا من أثير العلم بما تتضمن من ظواهر العلم وباطنه وجليه وخفيه ، وبأبواب من أبواب الجنة باختيار ما فيه أو تدهور إليه من السمل .

ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - الذي لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا رحي يوحى - من عند الله تعالى بشين الاستماع إليه ؛ فكان من أم ما عندهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستنزال بركة الرغبات والهبات ورأوا أن الوسواس أذنة نائرة من نار النفس الأمارة بالسوء ، وتقام يترام من نفس الشيطان ، وأن الحظوظ العاجلة والآلآم الفسيرة التي هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الخطب الذي يزداد الثار به تأججا ويزداد القلب به تحرجا ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أساليبها ، وقررت نيرانها وقل دعاها ، شهدت برائتهم وقبولهم مصادر العلوم ، فغيثوا موارد بها يصفاء القلوب ، فلما شهدوا مسجورا . قال الله تعالى ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ قال التبريد رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يفتل عنه طرفة عين ، قال يحيى بن معاذ الرازي : القلب غلبان ، قلب قد استغنى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا ، وقلب قد اعتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة فانتقل بين بركة تلك الأقسام الثابتة وشووم هذه الأشغال الثابتة التي أقدمت على الطاعة ؛ قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأراض . قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب ، وأتقيد :

ألمى إليه تقريبا طالما عطلت صحاب الرضى فيها أبحر الحشم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بين التنظيم ، فذاب له وانقطع إليه عما سواه . قال الراسطي : أى لا يرى لقرم غصونين لا السائر تاس ، لمن كان له قلب : أى في الآزلهم الذين قال الله تعالى فيهم (أو من كان ميتا فأحييناه) وقال أيضا : الشاهدة تدهل ، والحجة تنهم ، لأن الله تعالى إذا نزل على نبي غشيه وغشع ، وهذا الذي قاله الراسطي صحيح في حق الأنوار ، وهذه الآية تحكم بخلاف هذه الأنوار آخرين وهم أبواب التنكين يجمع لهم بين المشاهدة والقهم فوضع القهم على الهداية والمكالة ، وهو سمع القلب ، ووضع الشاهدة بصير القلب ، وسمع حكته وقائمه ، ولجسر حكمة وقائمه ، فن هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره ، ومن هو في حال الصبر والتنكين لا يغيب سمعه في بصره فتلك ناعية الحال ويغيب بهم البراءة الوجودية المستدلفهم الثقال ، لأن القهم موردا للإلهام ، والسباع والإلهام يستدعيان وجاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأ إفساء ثابيا للتمسك في مقام الصبر وهو غير الوجود الذي يتلاني عند لسان نور المشاهدة لمن جاء على مر الفتاة إلى مطار الفتاة .

وقال ابن مسعود (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) يعرف آداب آداب الخدم وآداب القلب ، وهي ثلاث أشياء ، فأما إذا فاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة ، فن وقف على شهوته وجد تلك الآداب ، ومن اقتصر على المأجود من الآداب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد تلك الآداب ، والثالث : امتلاء القلب ، فالتى بدأ بالفضل عند الرقاء فلهذا قد وجد كل الآداب .

قال محمد بن علي البار : موت القلب من شهورات النفس ، فكما رفض شهوات نال من الحياة بنسائها ، فالسباع للآسماء لا للموت . قال الله تعالى ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ .

قال سهل بن عبد الله القلب رقيق تؤثر فيه الاخطار والندوة ، وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى ﴿ ومن يمش عن ذكر الرحمن نتجش به شيطاناهن فخرين ﴾ فالقلب حال لا يفتقر ، والنفس شيطانة لا ترق ، فإن كان القلب مستمعا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس ، فكل شئ سد باب الاستماع من حركة النفس ، وفي حركتها يطرقت الشيطان . وقد ورد ، لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لتظفروا إلى ملكوت السموات ، .

وقال الحسين : بصائر الميرين ، ومعارف المارفين ، ونور العلماء الربانيين ، وطرق السابقين الفاضلين ، والأزول والآب
وما ينشأ من الخلد لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذي يلاحظ الحق ويشاهده ولا ينسب عنه خطرة ولا فرة ، فيسمع بهل يسمع منه ،
ويشاهد به بل يشاهده ، فإذا لاحظ القلب الحق بهين الجلال فزع وأركب ، وإذا طالع بهين الجلال بدأ واستقر .

وقال بعضهم : لمن كان له قلب يصير أقوى على التجرد مع الله تعالى والتفر بهل يتخرج من الدنيا والخلق والنفس ،
فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواء ، فقلب الصوفي مجرد عن الأكوان التي حده وشهد بصره ، فسمع السموات
وأبصر البصائر وشاهد الشهوات ، لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين بدى الله والأشياء كلها عند الله وهو عند الله ،
فسمع وشاهد فأبصر وسمع جعلها ولم يسمع ويشاهد تفاسيلها ، لأن الجمل تدرك لسة عين الشهود ، والتفاسيل لا تدرك
لعيون عباد الوجود ، والله تعالى هو عالم بالكل والتفاسيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال : إن الباذر يخرج بيده فلا منه كفه فوقع منه شيء على
ظهر الطريق ، فزلبت أن انطأ عليه الطريق فاختطفه ، ووقع منه شيء على الصفوان . وهو الحجر الأسفل . عليه تراب
يسير وعلى قليل غيب ، حتى إذا وصلت عروقه ، إلى الصفوان فجد سائغا فتد فيه ، فيس ووقع منه شيء في أرض
طيبة فيها شوك نابت غيب ، فلما ارتفع خففه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شيء على أرض طيبة ليست على
ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك غيب ، فلما وصلح ، فتل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كتل صواب
الكلام ، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فأبلى الشيطان أن يختطفه
من قلبه فيفسده ، ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يسمع الكلام فيستحس ثم يقضي الكلمة إلى قلب ليس
فيه عزم على العمل فيفسخ من قلبه ، ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو يرى أن
يعمل به فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن التوض بالعمل فترك ما يرى عمله لنفلة الشهوة كالزور يحتج بالشوك .
ومثل الذي وقع في أرض طيبة مثل للسمع الذي يرى عمله فيفسده ، يعمل به بجانب هواه ، وهذا الذي بجانب
الهوى واتبع سبيل الهدى هو الصوفي ، لأن للهوى حلالة ، والنفس إذا تشربت حلالة الهوى فهي تركن إليه
وتستلذه ، واستلذا الهوى هو الذي يحتج به الشوك ، وقلب الصوفي نازله حلالة الحب الصادق ، والحب الصادق
لعلق الروح بالحضرة الإلهية . ومن فوقه تذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستبج القلب والنفس ،
وحلولة الحب بالحضرة الإلهية قلب حلالة الهوى لأن حلالة الهوى كشمعة خبيثة اجتمعت من فوق الأرض ما لها
من قوار لكونها لا ترقى عن حد النفس ، وحلولة الحب كشمعة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء لأنها متأصلة
في الروح فرعها عند الله تعالى وعرونها خاربة في أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله
صل الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفيدها بقلبه ويقول :

أشم منك لسيا لست أعرفه . أظن لياد جرت فيك أردانا

فتمت الكلمة وتسله وتصور كل شجرة من سما وكل ذرة من بصرا ، فيسمع الكل بالكل ، ويصير الكل
بالكل ويقول :

إن بأمتكم فكل عيون . أو تذكركم فكل قلوب

قال الله تعالى (فيشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هدانا الله وأولئك هم أولو
الآيات) .

قال بعضهم : القلب والعقل مائة جزء . تسعة وتسعون في التي صلي الله عليه وسلم ، وجزء في سائر المؤمنين ، والجزء
الذي في سائر المؤمنين أحد وعشرون سها ، فسمهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه وهو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن
محمدا رسول الله ، وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم . فيل هذه الآية إظهار فضيلته رسول الله
(٧ — ملحق كتاب الإحيا) .

صلى الله عليه وسلم ، أى : الأحسن ما يأتى به ، لأنه لما وقعت له حجة التكوين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان منه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول : نحن الآخرون السابقون ، بين الآخرون وجونا السابقون فى الخطاب الأول فى التقبل فى عمل القدس . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيينكم) قال الجنيد : تفسحوا روح مادام إلى ، فأسرعوا إلى حو العلائق المشقة ، وحسبوا بالنفوس على مخالفة الحذر ، وتجرعوا مرارة السكادة ، وحفظوا الله فى العاطلة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وعانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، ووجهوا منهم من التفتت إلى مذكور سوى ولهم ، لحيا حياة الأبد بالمحلى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال الراسطى رحمه الله تعالى : حياتها تصفيتها عن كل معلول لفظا وضلا .

وقال بعضهم : استجبوا لله يسرائكم ، والرسول بطواكم ، لحيا النفوس بمثابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القلوب بمشاهدة العيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التنصير .

وقال ابن عطاء : فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه (أولها) [إجابة التوحيد] . (والثاني) [إجابة التحقيق] . (والثالث) [إجابة التسليم] . (والرابع) [إجابة التقريب] ، فالاستجابة على قدر السماع ، السماع من حيث الفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمشكل ، وهو ما نفهم لا نتعصر ، لأن وجوه الكلام لا تتعصر . قال الله تعالى (قل لو كان البحر مبداءا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى) فله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفد البحر دون نفاذها ، فكل الكلام كلمة لفظا إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات لفظا لصفة العلم الأزلى .

حدثنا شيخنا أبو العجيب السهروردى ، قال : أنبأ الرئيس أبو علي بن نهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا طعنى بن أحمد قال أخبرنا أبو الحسن بن عبد العزيز البغوى قال أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما نزل من القرآن آية إلا ولما ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع ، قال فقلت يا أبا سعيد ، ما المطلع ؟ قال : يطلع قوم يعلمون به . قال أبو سعيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود ، قال أبو عبيد : حدثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أولا قوم سيعملون بها ، فالمطلع : المصداق يصدق عليه من معرفة طبعه ، فيكون المطلع : الفهم يفتح الله تعالى عن كل قلب بما يريز من التور . واختلف الناس فى معنى الظاهر والباطن . قال قوم : الظاهر لفظ القرآن ، والباطن تأويله . وقيل الظاهر : صورة القصة بما أخبر الله تعالى عن نبيه على فمهم ففاه أيام ، فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه حكمة وتبيين لمن يقرأ ويسمع من الأمة . وقيل ظاهره : تزيده الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به . وقيل ظهوه : تلاوته كالآل قال تعالى (ودخل القرآن نزيبلا) وباطنه التدبر والتفكير به ، قال الله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدرسوا آياته وليتذكروا أولي الألباب) وقيل قوله : لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لا يجهلون المصطفى الذى هو الإمام ، وفى التفسير لا يجهلون المسموع المغلول ، وفرق بين التفسير والتأويل : فالنفس على نزول الآية وتأويلها وقصتها والأسباب التى نزلت فيها ، وهذا يحظر على الناس كافة القول فيه إلا بالسباح والار . وأما التأويل : فنصرف الآية إلى معنى تحتها إذا كان المغلول الذى يربو فى أروق الكتاب والسنة : فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفات الفهم ودرجة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى . قال أبو القرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى القرآن وجوه كثيرة ، فا أحجب قول عبد الله بن مسعود . ما من آية إلا ولما قوم سيعملون بها ، وهذا الكلام محرم على كل طالب صاحب همه أن يصنع موارد الكلام وبهذه دقيق معانيه وغامض أسرارها من قلبه ، فليصير بكمال الإمداد فى الدنيا ويحريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم جديد ، وله بكل

فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يحلب صفاء الفهم وديق النظر في معاني الحقائق ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعمل والعمل يتأوران فيه ، وهذا العمل آتفا إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القالب ، وأعمال القلوب لطيفها ومصادفها مشاكلة للعلوم ، لأنها نبات وطوبى وتعلقات روحية وتأوهات قلبية ومسامرات سرية ، وكلها أتوا بعمل من هذه الأعمال ورفع لهم علم من العلم ، وعلموا على مطلق من فهم الآية جديد ، ويتأخر سري أن يكون المطلق ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وبغائص السر في الآية ، ولكن المطلق أن يطلع عند كل آية على شهود للتشكل بها ، لأنها مستودع وصف من أوصافه ونست من لونه ، فتجسده التحليات بتلاوة الآيات وسماحها ، ويصير له مرآة شتى عن عظم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : لند لعل الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون ، فيكون لكل آية مطلق من هذا الوجه ، فالحمد : حد الكلام ، والمطلع : الرقي عن الكلام إلى شهود المتكلم .

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه عرف مشياعليه وهو في الصلاة ، فسل عن ذلك فقال : ما زلت أردت الآية حتى سمعنا من التشكيل بها ! فالصوفي بالصلاح فهو ناصية للتوحيد ، وأتى صممه عند سماع الوعد والوعد ، وقبله بالتخلص مما سوى الله تعالى فصار بين يدي الله حاضراً شبيهاً ، يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة ، كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمع الله منها خطابه إياه فأتى أنا الله : فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار صممه بصيره وبصره صممه وعلمه وحمله وعمله عليه ، وبدا آخره أوله وأوله آخره . ومعنى ذلك : أن الله تعالى غاطب الخلق بقرنه (ألت برمك) فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لمزل الذرات تنقلب في الأصلاب وتنتقل إلى الأرقام . قال الله تعالى (الذي يراك حين تقوم وتنبئك في الأساجدين) بين قلب ذرتك في أصلاب أعمل السجود من آياتها للأنبياء ، فانزلت لتتقلب في الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبما هي الصاعدة من عالم القلب وتراكم ظلتها بالقلب في الأطوار : فإذا أراد الله تعالى بالمبدء حسن الاجتناع بأن يصيره صوفياً صافياً لا يزال يرقب رب التورية والتحلية حتى يتخلص من عتيق عالم الحكمة إلى قضاء القدرة ، وبذلك عن بصيرة العالمة صف الحكمة فيصير سبيله (ألت برمك) كشفاً وعباداً ، وتوحيداً وعرفاته تبياناً ودرجاً فظاً في الأطوار في أنواع الآثار قال بعضهم : أنا أذكر خطاب (ألت برمك) إشارة إلى هذا الحال ، فإذا تحقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤبداً وسبيله متوالياً متجسداً ، يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع .

قال سفيان بن عيينة . أول العلم الاستيعاب ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستيعاب كما تعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستيعاب إعمال التشكلم حتى يقضي حديثه ، وقله التفتت إلى الجوانب ، والإتيان بالوجه ، والنظر إلى المتكلم ، والوعي . قال الله تعالى تشبه عليه السلام (ولا تسجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليه وحيه) وقال (لا تحرك به لسانك لتسجل به) هذا تعليل من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستيعاب . قيل : معناه لا تتعلم على الصعابة حتى تتدبر معانيه حتى تكون أنت أول من يتخلص بقرائمه وبمعانيه . ولعل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل وأوحى إليه لا يفر من قراءة القرآن عاقلة الاضلال والنسيان ، فبها الله تعالى عن ذلك ، أي لا تتعلم بقرائه قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك ، وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع ، ويحتاج المطلاع للعلوم والأخبار وسر أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكمة والأمثال التي فيها الحاجة من مذاب الأخيرة : أن يكون في ذلك كله متادياً بأداب حسن الاستيعاب بالزعادة والتقوى حتى يأخذ من كل ماصحه أحسنه ، فيكون أعداً بالمطالعة من كل شيء أحسنه . ومن الأدب في المطالعة : أن البعد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلوم ، يعلم أولاً أنه تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وثقة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل ، فتستريح بالمطالعة كما تروح بمجالسة الناس ومكالمتهم ؛ فليفتقد الخفتن نفسه في ذلك ، ولا يستعمل مطالعة الكتب إلى حد أخذ

ذلك من وده وبراعى الإقراط فيه ، فلما أراد مطالعة كتاب أوشى من العلم لا يلبث إلا لإلا يلد التثبت والإجابة والرجوع إلى الله تعالى ومطلب التأيد من رحة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرقى بالمطالعة ما يكون من مبدعاته ، ولو قدم الاستشارة لذلك كان حسنا ، فلو أن الله تعالى ينتج عليه باب الفهم والتفهم مربية من الله زيادة على ما يقين من صورة العلم فظلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم والله تعالى له على شرف الفهم بقوله (فقهناها سليمان وكلا أيتنا كراما) أشار إلى الفهم بجزء اختصاص ويترى عن الحكم والعلم . وقال الله تعالى (إن الله يسمع من يشاء) فلما كان السمع هو الله تعالى ، يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يورق بمطالعة الكتب من التبيان ، فصار ما ينتج الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يورق من المسموع بركة حسنا لاستيعاب ، لتفقد المبدعاته في ذلك ويتم عليه راديه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال الشايع والصوفية والعلماء الزاهدين المشتغلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينتج سلوك الآخرة .

الباب الثالث : في بيان فضيلة علوم الصوفية ، والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب السهروردي رحمه الله ، قال أبانا أبو عبد الرحمن الصوفي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الهارمي ، قال حدثنا نعيم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأوصى بن حكيم عن أبيه قال سأل رجل النبي عليه السلام عن الشر فقال : لا تألؤن عن الشر وسلون عن الخير يقولها للآل ، ثم قال : (إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خيار العلماء ، أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج طلائع المجاهلات الجلية ، وقبلة ديوان الإسلام ، ومعدن حكم الكتاب والسنة ، وأمان الله تعالى خلقه ، وأعلام الهدى ، وجهابة المفاصل الخفية ، ورحمة عظيم الآمنة ، فهم أحن الخلق بمقتضى التقوى ، وأحوج العباد إلى الزمدي الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم ، ففساد فساد ، وصلاصهم صلاح تمتد .

قال سفيان بن عيينة : أحبل الناس من ترك العمل بما يمل . وأعلم الناس من عمل بما يمل . وأفضل الناس أشغفهم الله تعالى ، وهذا قول صحيح بحكم بأن العلم إذا لم يعمل بعله فليس بعلم ، فلا يترك تمتدته واستطالته وحذاته وغوته في المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه بركة العلم ، فإن العلم في سبيل الإسلام لا يتبع أهله ويرجعهم إلى الله بركه كالمعلم ، والمعلم فريضة فضيلة ، فالفرصة : ما لا بد للإنسان من معرفته لتقوم بواجب حق الدين . والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكتسبه فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة ، وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستند منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كاللما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يزداد الإنسان به هوانا ورذيلة في الدنيا والآخرة ، فالعلم الذي هو فريضة لا يبع الإنسان به على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم السمتل قال أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم ابن مؤلف التفسير قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن عامر السكري قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو مالك عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اطلبوا العلم ولو بالعين) ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم . . واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة . قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأمور به . كان العمل مأمور به . قال الله (وما أمرنا إلا ليعبدوا الله مخلصين) فالإخلاص مأمور به ، وتذرع النفس وغرورها ودسايسها وشهواتها الخفية تغري بميل إلى الإخلاص المأمور به ، فصار علم ذلك فريضة كانت الإخلاص فرضا ، وما لا يعمل البذل للقرض إلا به صار فرضا : وقال بعضهم : معرفتنا الخواطر وتفصيلها بفرصة ، لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومثقفه ، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولة الشيطان ، فلا يسمح للفعل إلا بصحتها ، فصار

علم ذلك فرحنا حتى يصح القول من المبدء . وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت . وقال سبل بن عبد الله : هو طلب علم الحال بين حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الباطن وهو ما يرداد به المبدء قيناً ، وهذا العلم هو الذي يكتب بالصحة وجمالة الصالحين من العلماء المؤمنين والزهاد للقرين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق العالمين إليهم ويقرهم بطريقهم ويرشدهم بهم ، فهم وراث علم النبي عليه السلام ومنهم من يشمل علم اليقين . وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والتكاح والعلاق ، إذا أراد المدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه . وقال بعضهم : هو أن يكون المبدء يريد عملاً يجهل ما له عليه في ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ، إذ هو جاهل فيها له وعليه في ذلك ، فيراجع طالما يسأله حتى يجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جوب . وقال بعضهم : طلب علم التوحيد فرض ، فن قلنا يقول : إن طريقه النظر والاستدلال ، ومن قلنا يقول : إن طريقه النقل . وقال بعضهم : إذا كان المبدء على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد في الإسلام ولا يميل في صدره شيء فهو مسلم ، فإن حاك في صدره شيء أو توسوس بشيء يتدح في النفيسة أو أجل بشبهة لا تؤمن طاعتها أن تجره إلى بدعة أو خلافة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب المنكي رحمه الله : هو علم القرائن الخمس التي بنى عليها الإسلام ، لأنها اقترحت على المسلمين . وإذا كان علمها صار علم العمل بها فرحنا ، وذكرنا علم التوحيد داخل في ذلك ، لأن أولها الشهادة بالانحلاص داخل في ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسبح مسلماً جهلاً ، وكل ما يقرب من الأقوال أكثرها ما يسبح للمسلم جهلاً ، لأنه قد لا يعلم علم الحوائط وعلم الحال وعلم الخلال بجميع وجوهه وعلم اليقين للاستدلال من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ، ولو كانت هذه الأشياء فرحت عليهم لمعروها أكثر الحق إلا ما شاء الله ، وميل في هذه الأقوال إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والتكاح والعلاق إذا أراد المدخول فيه . وهذا ليسى فرض على المسلم طه وهذا الذي قاله الشيخ أبو طالب عند في ذلك حد جامع لطلب العلم المقترض والله أعلم .

فأقول : العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنجى ، والأمور : ما يوجب على فعله وإعاقب على تركه ، والنهى : ما يوجب على فعله ويناب على تركه ، والأمورات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم لمبدء بحكم الإسلام ، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة ، فصار لازم مستمر لزوجه متوجه بحكم الإسلام طه به واجب من ضرورة الإسلام ، وما يشغل بالحدث ويتوجه الأمر والنهى فيه فعله عند تهنده فرض لا يسع مسلماً على الإطلاق أن يهمله ، وهذا الجهد أهم من الرجوع إلى سبقت والله أعلم . ثم إن النتائج من الصورية وعناء الآخرة الزاهدين في الدنيا شغروا عن سائق الهدى في طلب العلم المقترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهى وغير جوا من عبادة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها . قال بعضهم : من يطبق مثل هذه الخطابة بالاستقامة إلا من أيد من المساعدات القوية والأزوار البينة والآثار الصادقة بالتثنية يبرهان عليه كما قال تعالى (ولولا أن نبينا) ثم حفظ في وقت المساعدة ومشاهدة الخطابة وهو المزين بمقام القريب من الخطابة على بساط الأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك غوطب بقوله (فاستقم كما أمرت) ولولا هذه المقامات ما أطلق الاستقامة التي أمر بها . قيل لأبي حنيفة : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الاستقامة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : استقيموا ولن تحصوا . وقال جعفر الصادق في قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) أى انقصر إلى الله بصحة التزم . ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، قال : قلت يا رسول الله روى عنك أنك قلت شيئين سورة هود وأخواتها فقال : نعم ، قال فقلت له : ما الذي شيلت منها فصص الأكنياء وهلاك الأمم ؟ فقال : لا ، وإن كن قوله

(لستم كما أمرت) . فكذا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات المشاهدات غوطب بهذا الخطاب وطولب بمخاطبات الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومحتاج الصوفية للقرابين منجهم الله تعالى من ذلك بفسط ونسيب ثم أهمهم طلب التوبى بواجب حق الاستقامة وأروا الاستقامة أفضل مغلوب وأشراف مأمور .

قال أبو بكر الجوزجاني : كن طالب الاستقامة لاطالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وطلب منك الاستقامة ، وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب وسر فقل عن حقيقة كثير من أهل السلوك والطلب . وذلك أن الجاهدين والمتعبدين سموا بسير الصالحين للمتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدأ نفوسهم لا تزال تطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يروا شيئا من ذلك ، ولعل أحدهم يبق منكسر القلب منهما لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ، ولو طهروا سر ذلك لكان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد ينشغل على بعض الجاهدين الصادقين من ذلك بابا ، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة شيئا فينزع عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ، وقد يكون بعض عبادة يتكشف بصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لأن للزاد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هذا للرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما لزداد شيئا فلا تقتضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستنائه ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك الآخر لموضع حاجته فكان هذا الثاني يكون أم استعداده وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة فإن فيه آفة وهو المصحب فأخى عن رؤية شيء من ذلك . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء من ذلك حاز وحسن ، وإن لم يقع فلا يبال ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لأنه أصل كبير للطلابين . فالعلماء الزاهدون ومحتاج الصوفية والقرابين حينئذ كرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة وزفوا سائر العلوم التي أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض . فن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الحراطر . وسنشرح علم الحراطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى . وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفة أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفة ما من علوم القوم . وأول الناس بطريق التزهد والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وغفيا شيرات النفس وشربها وشربها ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالتوقف على الضرورة - فولا وفلا وليسا وخلفا وأكلا ونوما - ومعرفة حقائق الثوب ، وعلم غنى الذنوب ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار ومطالبة النفس بترك ما لا يبنى ، ومطالبة الباطن بمصير خواطر المصيبة ثم بمصير خواطر الفضول ، ثم علم المراقبة ، وعلم ما ينشأ في المراقبة ، وعلم الخشية والزبابة ، وعلم حقائق التوكل وذنوب التوكل في تركه وما ينشأ في التوكل وما لا ينشأ ، والفرق بين التوكل والواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل الرقائق ، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا ، وعلم الزهد وتحديد ما يلزم من ضرورته ، وما لا يتقدم في حقيقته ومعرفة الزهد في الرزق ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الرزق ، وعلم الإثابة والاتجاه ومعرفة أوقات الصيام ومعرفة وقت السكوت عن الكلام ، وعلم الخبة والفرق بين الخبة العامة المفسرة باستئثار الأمر والخبة الخاصة ؛ وقد أشرنا سابقا من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة الخبة الخاصة كما أشرنا والرضا وقارا : ليس إلا العبر . وأقسام الخبة الخاصة إلى خبة القنات ولإلحاح الصفات والفرق بين عجة التلبويعية الروح عجة العقل عجة النفس ، والفرق بين مقام الحب والمحبر ، والمريد والمراد ، ثم علوم المشاهدات كعلم الحية والألسن والتقبض والبسط ، والفرق بين التقبض والغم والبسط والتشاط ، وعلم التناء والبقاء وتفانوت أحوال الفناء والاستتار والتجلى والجمع والفرق والوامع والطوارع والبرادى والصحو والشكر إلى غير ذلك - لوالسع الوقت ذكرنا ما وشربنا في مجلدات ، ولكن الممر قصير ، والوقت عزيز ، ولولا سبب الغفلة لفاق الوقت عن هذا القدر أيضا ، وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ربه

حجة لنا لا حجة علينا - وهذه كلها علوم من وراثتها علوم عمل يقتضاهما ونظرهما علماء الآخرة الزاهدون ، وجرم ذلك علماء الدنيا الراغبون وهي علوم خفية لا يكاد النظر يصل إليها بذوق ووجدان ، كالملم بكيفية حلالة السكر لا يحصل بالوصف فن ذاته عرقه - ويذكره من شرف علم الصوفية وزعماء العلماء أن العلوم كلها لا يتبدد تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلاص بمخاض التقوى ؛ وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها يخالق النفس بجليلت النفس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استثمرت حصول ذلك يحصل العلم أجابته إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على القربة والأسفار وتعدد الملاذ والشبهات - وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع عباد الدنيا ولا تتكشف إلا بمحبة الهوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى (واتقوا الصبر والمسلمة) جعل العلم مراتب تتقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك ، فلم فصل علماء الآخرة حيث لم يكشف الثقاب إلا لأول الألباب ، وأول الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل ياله لأفضل الناس يصرف الزكاة لأهلهم أعزل الخلق . قال سهل بن عبد الله التستري : لعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا - حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد ابن عبد الباقي قال : أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو سعيد الاصمغني قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد قال حدثنا العباس بن أحمد الثاني قال حدثنا أبو عقيل الوصافي قال أخبرنا عبد الله الحارثي وكان من أصحاب حاتم قال دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الرزيمه ثلثا فوجدت عشرين رجلا يريدون الحج وعليهم العصف والزمراقات ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا إلى على رجل من التجار منسك بمحبة المتقشفين فاصافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد قال حاتم بابا عبد الرحمن ألك حاجة ؟ فإني أريد أن أعود فتيها لما هو خليل فقال حاتم إن كان لكم فقيه خليل فصيافة الفقيه لما نزل والطر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضا أجي معك - وكان الليل محمد بن مقاتل فاضى الرى - فقال سر بنا بابا عبد الرحمن لجاندا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن فبق حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذا الحال ، ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار قرواء وإذا برة ومسته وستور وجع ، فبق حاتم متفكرا ، ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه فإذا بفرش وطيحة وإذا هو واقف عليها وعند رأسه غلام ويده مائة في نقد الرزى يسأله وحاتم قائم ؛ فأروا إليه ابن مقاتل أن أقعد فقال ؛ لا أئيد ، فقال له ابن مقاتل - لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال وما هي ؟ قال مسألة أسألك عنها قال : سئلي قال : فقم فاستر جالسا حتى أسألكها ، فأمر غلامه فأستدوه ، فقال له حاتم طلكه هذا من أين جئت به ؟ قال الثقات حدثوني به ، قال حين ؟ قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ؟ قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله من أين جدي به ؟ قال عن جبرائيل ؟ قال حاتم ففيا أداء جبرائيل عن الله وأداء رسول الله إلى أصحابه وأداء أصحابه إلى الثقات وأداء الثقات إليك هل سمعت في العلم من في داره أمير أو منته أكثر كانت له المنزلة عندنا أكثر ؟ قال لا ، قال فكيف سمعت ؟ قال من زعم في الدنيا وروى في الآخرة وأحب للمساكين وقدم لأخوته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ، قال حاتم فأنت بين التمدت يائي وأصحابي والصالحين أم بفرعون ونمرود وأول من نبى بالباطل والآخر ؟ فأعلمه السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراتب فيها فيقول العلم على هذه الحالة لا أكون أنا شرا منه ، وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرحا - فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فظفروا له بابا عبد الرحمن ، بقرين عالم أكبر شأنا من هذا . وأشاروا به إلى الطنافسي - قال فسار إليه متمسكا فدخل عليه فقال رحله الله إلى الرجل أجمي أحب أن تلبس أول مبتدئ دين ومفتاح خلايق كيف أثرنا ففلا ؟ قال نعم وكرامة بأعلام هات إنا فيه ماء ؛ فأق طرنا فيه ماء فقدم الطنافسي قترنا ثلاثا ثلاثا ، ثم قال هكذا فترمنا - فقد فترمنا حاتم ثلاثا ثلاثا حتى إذا بلغ غسل الفراعين غسل أرميا فقال له الطنافسي يا هذا أسرفت ، فقال له حاتم فيأذا ؟ قال غسلت ذراعيكه أرميا ، قال حاتم ليسبحان الله أنا في كف ماء أسرفت وأنت في هذا الجرم كله لم تسرف ، فقم الطنافسي أنه أراد بذلك وليرد منه

العلم ، فدخل البيت ولم يجرع إلى الناس أربعين يوما ، وكتب تبار الذي وقروا ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والفقهاء ؛ فلما دخل بئساد اجتمع إليه أهل بئساد فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل لكن انجس ليس بكلمة أحد إلا وقفت ، قال : متى ثلاث خصال بين أظهر على خصمي ، قالوا : أي شيء هي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، واحتفظ نفسي أن لأجهل عليه ، فبلغ ذلك أحد بن حنبل فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أخفه ؛ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامه من الدنيا ؟ قال سالم ؛ يا أبا عبد الله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون منك أربع خصال . قال : أي شيء هي يا أبا عبد الرحمن ؟ قال تغفر لقوم جهلهم ، وتفتح جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم أيما ؛ فإذا كان هذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى (إنما ينشئ الله من عباده العلماء) ذكر بكلمة (إنما) فينشئ العلم من لا ينشئ الله ، كما إذا قال إنما يدخل النار بئساد ، يلتقي دخول غير البئسادى النار ؛ فلاح لعل الأخرى أن الطريق مسدود إلى الأنسبة للمعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه : بيتة البارسة إلى الصباح أجهل أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه . قيل : ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلنا في صباي ، جلدني وحشة تلك الكلمة ففتنت عن ذلك ، وأهبط من يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته ؛ فبصفا التقوى وكال الزهاد قصير اليد واحفظ في العلم ، قال الراسطى . الراحمون في العلم هم الذين رحموا بأرواحهم في غيب القريب في سر السر ففرغهم ما عرفهم ، وعاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزينات فانكشف لهم من مدغور الخزان ما لم تكن كل حرف من الكلام من فقههم وجماب الخطاب فطغوا بالحكم . وقال بعضهم : الراسخ من أطلع على عمل المراد من الخطاب . وقال الخراز : هم الذين كفروا في جميع العلوم وعرفوها ، وانظروا على علم الخلاق كلها أجمعين ، وهذا القول من أبي سعيد لا ينحى به أن الراسخ في العلم ينبغي أن يتفعل على جزيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراحمين في العلم ووقت في معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) وقال : ما لأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف . وقيل أن هذا الزورف في معنى الأب كان من أن يكر رضى الله تعالى عنه ، وإيضا عن بذلك أبو سعيد ما يقدر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : انظروا على علم الخلاق كلها ؛ لأن المتقن حق التقوى والزاهد حق الزهادة في الدنيا سفا باهت وانجست سراء قلبه ووقست له محاذاة بشره من الورع المحفوظ ، فأدرك بصفا الباطن أمهات العلوم وأصوبها ، فيعلم متى أقدام العلماء في علومهم ، وفاكهة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة في النفوس بالتعليم والممارسة فلا يتبته على السكى أن يراجع في الجزئ أهل الدين ثم أوعيته ، فنفس هؤلاء امتلكت من الجزئ واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئ عن السكى ؛ ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لا يدغم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانظروا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفادت أرواحهم على قلوبهم أنوار أنبيات بها قلوبهم لإدراك العلوم ؛ فأرواحهم ارتفعت من حد إدراك العلوم بمكوفها على العلم الأزلى ، وبهرت عن وجود يصلح أن يكون وراء العلم ، وقلوبهم بلبية وجهها الذي إلى النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فالتفت العلوم وأتلفتها العلوم بتناسبا لنفصال العلوم بانصافها بالروح المحفوظ ، والتمنى بالانفصال انتفاشا في الروح لا غير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ؛ فصاروا المنفصلين نسبة اشتراك موجب لتألف ، فحصلت العلوم لذلك وصار الرياني راسخا في العلم .

أوصى الله تعالى في بعض الكتب المقدسة (يا بني إسرائيل ، لا تقولوا العلم في السياء من ينزل به ، ولا في نفوس الأرض من يصعد به ، ولا في دواء البحار من يبرئنا من به . العلم بمجمل في قلوبكم تأديبين يدى آداب الروحانيين ونظروا إلى باعلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى ينظيكم أو ينمركم . فالتأديب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تافهات جبلاتها ، وقصها بصرح العلم في كل قول وقيل ، ولا يصح ذلك إلا لأن علم وقرب وقطر قليل الحضور بين يدى الله تعالى ، فيحتفظ بالحق الحق .

أخبرنا شيخنا أبو العجب عبد القاهر السمرودي إجازة ، قال : أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجومري إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن عاصد قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزي قال أخبرنا عبد الله بن المبارك قال أخبرنا الأوزاعي عن حسان بن علي ، بلغني أن ثعالب بن أوس روى عنه أنه قال : اتينا بالسفرة فلبث بها ، فأنكرته ذلك ، فقال : ما نكلمك بكلمة منذ أسلت إلا وأنا أعطها ثم أزعها غير هذه فلا تحفظوها على قتل هذا يكون التأديب بأداب الروحانيين .

مكتوب في الإجماع : لا نظلموا علم عالم تعلموا حتى تعلموا بما قد علمتم . وقد ورد في غير من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ربما يسوقك العلم . . قلنا : يا رسول الله ، كيف يسوقنا بالعلم ؟ قال : يقول اطلب العلم ولا تعلم حتى تعلم ، فلا يزال العبد في العلم قالا ولعمل مسوا حتى يموت وما عمل . . وقال ابن مسعود روى عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم بالحكمة . وقال الحسن : إن الله تعالى لا يهب بأشئ علم ورواية ، إنما يهب بأشئ فهم وهداية ، فعلوم الرواة المستخرجة من علم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كالعلم بالغائل السائق للشاربين . ومثال علوم الرواة كالزبد المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدغية المطلوبة من اللبن ، والمالية في اللبن جسم غام به روح الدغية ، والمالية بها القوام . قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ وقال تعالى ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ أي كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام ، فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، وللإسلام علوم وهي علوم بيان الإسلام ، والإسلام بهد الإيمان نظر إلى مجرد التصديق . ولكن للإيمان فروج بعد التحقق بالإسلام ، وهي مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحس اليقين ، فقد يقال فتوحيد المعرفة والمساعدة . وللإيمان في كل فرع من فروع معرفته علوم ، فعلوم الإسلام علوم الحسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب ، ثم علوم القلوب لها وصف غامس ، ووصف علم ، فالوصف العام علم اليقين وقد ينزل إليه بالنظر والاستدلال لا يشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف غامس يختص به علماء الآخرة وهي السكينة التي أنزلت على قلوب المؤمنين ليدانوا بها مع إيمانهم ، فكل هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام ، فينظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان ، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان ، والمساعدة وصف غامس في اليقين ، وهو عين اليقين ، وفي عين اليقين وصف غامس وهو حس اليقين ، لحق اليقين إذن فوق المساعدة ، وحس اليقين موحته ومستقره في الآخرة ، وفي الدنيا منه ملح يسير لأمله ، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان ، فصار علم الصوفية وزعماء العلماء نسبه إلى علم علماء الدنيا الذين يظنوا باليقين بطريق النظر والاستدلال كسبية ما ذكرناه من علم الرواة والدراسة ، فلهذه بمثابة اللبن لأنه اليقين والإيمان الذي هو الأساس ، وعلم الصوفية بالله تعالى من ألصبة المساعدة ، وعين اليقين وحس اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ، فغذية الإيمان بغذية العلم ، ورزاة الأعمال على قدر الحظ من العلم . وقد ورد في الخبر : فضل العالم العابد كفضل أعمى ، والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والفتاوى ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين ، وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس حظه علم من فروض الكفايات ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بمقتضى اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علماء التابعين فيهم من موافقهم بعلوم الفتوى والاحكام من بعضهم . روى أن عبادة بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول : سئلا سيدي بن المسيب . وكان عبادة ابن عباس يقول : سئلا جابر بن عبد الله لوزن أهل البصرة على فتياه لوسمهم . وكان أنس بن مالك يقول : سئلا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسيتا ، فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفتوى والاحكام ، ويعطونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادقهم طراوة الرحي القدر وفهمهم غزير العلم الجميل والمفضل ، فقلبي منهم طائفة محبة ومنفصلة ، وطائفة منفصلة دون محبة ، والجميل أصل العلم ، ومنفصلة المكتسب بطهارة القلوب وقوة التزوية وكال الاستعداد ، وهو غامس بأقواس .

قال الله تعالى عليه صلى الله وسلم (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وقال تعالى (قل هذه سبيل أدعوا إلى الله على بصيرة) فلهذه السبيل سابعة ، ولهذا الدعوات قلوب فالبقاء فيها مرس مستعينة جامدة باقية على خشرة طبعها وجبيلها ، فليتها ينال الإنقاذ والموعظة والخيار ، ومنها نفوس رزكية من تربة طينة موافقة للقلوب قريبة منها ، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دهاء بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه جاه بالحكمة ، فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها القرون وهي الدعوة بترجيح منافع القرب وصفو المرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحفائية والتمزيقات الزبانية ، أجابوا بأرواحهم وقرومهم ونفوسهم فصارت متتابعة الأقوال إجاباتهم نفساً ، ومتتابعة الأعمال إجاباتهم زلياً ، والتحقق بالأحوال إجاباتهم روحاً فاجابه الصوفية بالكل وإجابة غيرهم بالبدن . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله تعالى صيا لو لم يخف الله لم يصح . يعني لو كتب له كتاب الأمان من النار حله صرف المرفة بهتيم أمراة على القيام بواجب من العبودية . أثناء لما عرف من حق العظمة . فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة الخبب للعبود على القاذرة وذعاب السر ، وإجابة غيرهم على المكابدة والجاهدة ، وهذا لإجابة يظهر مع الساعات أزمان القيام عتائق الاستقامة والعبودية . قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) قال بعضهم أعطى القارين ولم يرم هاتين واتقى القفر والبيئات وصدق بالحسنى فأما من طلب الزلزال ، والآية قيل تركت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ويخرج من الأتيحة آخر (أعطى) بالمراطفة على الأعمال (واتقى) الوسوس والمواجس ، (وصدق بالحسنى) لازم الباطن بتضمنة موارد العبود عن مزاحمة لوث الوجود (فسنيسره لليسرى) نفتح عليه باب السيرة في السبل والبيش والأنس (وأما من عمل بالأعمال واستقى) امتثالاً بالأحوال (وكتب بالحسنى) ليكن في اللبوكات بنفوذ بصيرته بالجرال (فسنيسره لليسرى) نسد عليه باب اليسر في الأعمال . قال بعضهم : إذا رأنا دابة يهيمسوا أسد عليه باب العمل ونفع عليه باب الكل ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقروم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً ، كان حظهم من العلم أوفر ولصميم من المرفة أكل ، فكانت أحلامهم أذكى وأفضل .

جاء رجل إلى الحسن فقال : أخبرت عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل القنوب إلا أنه ضعيف اليقين يشك في الله . قال معاذ ليس بطل شكك فيه ، قال : فأخبرت عن رجل قليل العمل إلا أنه قوي اليقين وهو وذلك كثير القنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط الله الأول لأحبط الله الثاني ، ليس بطل يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ يده وقال : لم رأيت الذي هو أفقه من هذا .

وفي وصية لقمان لابنه : يا بني ، لا يطلع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا ينصر عامل حتى ينصر يقينه ، فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى اليقين ، وما كان أدعى إلى اليقين كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية . وقال الحظ من اليقين والملم بالله للصوفية والمضاء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم .

ثم إلى أسود سأله يمينين بما المتبر فضل العالم الزاهد الماروف بصفات نفسه على غيره ، عالم دخل مجلساً وقد عزم لنفسه مجلساً جلس في كافيته من اعتقاده في نفسه الله وعطه ، قد دخل ما دخل من أبناء جنسه وقد عذقه ، فأنصر العالم وأظلت عليه الدنيا ولو أمكنه لبغش بالماخل ، فهذا عارض عرش لمومرض اعتره ، وهو لا يظن أن هذه علة فاسدة ومرسخ يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر في منشأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفس تارت وظهرت جهلها ، وجهلها لوجود كبرها ، وكبرها برقية نفسها خيراً من غيرها ، فعمل الإنسان به أكبر من غيره كبر ، وإظهاره ذلك إلى العمل تكبر ، فلهذا مصر صار فعلاً به تكبر . فلو كان لا يميز نفسه بشيء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه في مقام تمجيد يجرها مجلس ، فالصوف العالم مغموس بيز . ولو قدر له أن يقتل بمثل هذه الأمة وينصر من يتقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا ماء وأنه إن استمر في الإصنام إلى النفس والامصار صار ذلك ذنب ساه ،

فرفع في الحال داه إلى الله تعالى ، ويذكر إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس ويطرح القلب إلى الله تعالى مستنثياً من النفس ، فيضنه اشتغاله برؤية داه النفس في طلب دواتها من الفكر فيمنع قد فرقه ، وربما أقبل على من قد فرقه يريد التراجع والانكسار ، فكثيراً للذنب الوجود ، وهدايتها لحالة الحاصل. فتبين بهذا الفرق بين الرجلين .

لذا اعتبر المشير وتفقد حال نفسه في هذا اللقاع يرى نفسه كنفوس عوام الخلق وطالبي التماسب القنوية ، فأى فرق بينه وبين غيره من لاعلم به .

ولو أكثرنا تصوير المسائل لتبين على فضيلة الزاهدين وتقصان الراغبين ، لأوردت لللال ، وهذه من أوائل علوم الصوفية ؛ لما شكك بنفائس علومهم وشرابهم أحوالهم ، والله للوفيق الصواب .

الباب الرابع : في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين أبو أحمد عبد الرهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم المرزى قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياق قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراسي ، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد الجبوري ، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى القرمذي ، قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بني إن قصرت أن تصبح وتسي وتغسل في قلبك غش لأحد ففعل ، ثم قال : « يا بني وذلك من سقي ومن أسيا سقي فقد أسياك ومن أسياك كان معي في الجنة ، وهذا أتم شرف وأكمل فضل » أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حق من أسيا سكته ، فالصوفية هم الذين أسياوا هذه السنة ، وطهارة الصدور من القتل والنفس محاذ أسهم ، وبذلك طهر جوهرهم وبأن فضلهم ؛ وإنما قدروا على إحياء هذه السنة وتهنؤا بواجب حقها لوزعمهم في الدنيا وتركها لأربابها ومطالبا ؛ لأن مآثر القتل والنفس محبة الدنيا وعبية الرمة وللزلة عند الناس ، والصوفية زهدوا في ذلك كله ، كما قال بعضهم : طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوالهم كسكتنا بأرواحهم المزايل ، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرمة أسياوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد ، يقول القائل : كنت بأرواحهم المزابل ، إشارة منه إلى غاية التراجع ، وأن لا يرى نفسه تتجدد من أحد من السليين ، لحقارته عند نفسه ، وعند هذا يفسد باب النفس والقول ، وجرى هذه الحسكة قال بعض الفقهاء من أصحابنا : وقع لأن معنى كنت بأرواحهم المزابل : أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رجس ونفس كلزلة ، تركتها ؛ بئز الروح الواصل إليها ، لأن الصوفية بأرواحهم في محال القرب ونورها يسرى إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تظهر النفس وينبسط عنها المذوم من القتل والنفس والحقد والحسد ، فكأنها تكفن بئز الروح ، وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) قال أبو حفص : كيف يبنى القل في قرب اكتسبت بالله وانفتحت على عبته ، واجتمعت على مودته وألست بذكره ، لأن تلك قلوب صافية من مراض النفوس وظلمات الغفائع ، بل تكلت بئز التوفيق فصارت إخواناً ، فالخلق حبايبهم من القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قولوا فعلا وحالا صفات نفوسهم ، فلذا تبدلت نفوسهم إلى رفيع الخبيات وصحت المتابعة ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهت المحبة من الله تعالى عند ذلك . قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فأطيعوا ما يأمركم الله فيحبيكم الله) جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد ربه ، وجعل جزاء المتبع حسن متابعة الرسول محبة الله إياه ، فأوفى الناس حظاً من متابعة الرسول وأوفىهم حظاً من محبة الله تعالى ، والصوفية من بين طوائف الإسلام طفر وأحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقرانه فقاموا

بما أسرم ووقفوا حناهم . قال الله تعالى (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فما تبوءوا من أفعالهم من الجهد والاجتهاد في العبادة والتهجد والتواقل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، وورعوا ببركة التائبية في الأقوال والأفعال التخليق بأغلاظه : من الحياء والحلم والصنع والنفوس والرائفة والشفقة والمراعاة والصبور والتواضع ، وورعوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتمظيم والرضا والصبر والزماد والتوكل ؛ فاستوفوا جميع أنسام التائبات وأسيرا سلتها بأصفي القنابات . قيل لسيده الزاهد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال القامرون بمنفردهم على فهم السنة ، والمالكون عليها بقرههم ، والممتصون بسيدهم من شرف نفوسهم الصوفية . وهذا وصف تام وصفهم به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الاقتدار إلى مولاه حتى يقول (لا تنكحني إلى نفسي طرفة عين ، اكلائي كلمة الولية ، ومن أشرف ما ظفريه الصوفى من متابرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف وهو دوام الاقتدار ودوام الاتياد ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الاقتدار إلا بعد كشف باطنه بصفاته المرفة ، وأشرق صدره بنور اليقين ، وغض قلبه إلى بساط القرب ، وغلظ لسانه بهذا السامرة ، فبقيت تتسمين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ، ومع ذلك كله يرأى ماوى كل شر ، وهي ثابثة الثار لوقيت منها شرارة أحرقت عالما ، وهي وشيكة الرجوع سريعة الانفلات والانقلاب ؛ فانه لعل بكامل إلقائه عرفها إلى الصوفى وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو دائم الاستئانة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطا لعيد نسوته لمعرفته بشرها مع اللطائف ، إلى جانب الاتياد ، وصدق الاقتدار والعباد ، فلا يغفل الصوفى عن مطالعتها أدنى صاعقة ، كما لا يغفل عن ربه أدنى صاعقة ، وربط معرفة الله تعالى فيها ورد ، من عرف نفسه فقد عرف ربه ، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذى يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفى العلم بأنه الزاهد في الدنيا المستسلك من التقوى بأرقى المعرى ؛ ومن الذى يتدى إلى فائقة هذه الحال غير الصوفى ، فدونام اقتداره إلى ربه تسلك بجانب الحق ولياذه ، وفي هذا اليأز استغراق الروح واستيقاظ القلب إلى عمل العبادة ، وفي ابتذاب القلب إلى عمل العبادة بلسان الحال والكون فيه ؛ نير النفس عن مستقرها من الأنسام الماجلة وزوالها إليها مدارج العلم مخوفة بحرارة الله تعالى وروايته ، والتفنى المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة من قتل والقش والحقد والحسد وسائر المفسومات ، فهذا حال الصوفى . ويجمع عمل سال الصوفية شيان : مما وصفه الصوفية ، إليها الإشارة بقوله تعالى (الله يحب من يشاء ويهدي إليه من ينجب) فقوم من الصوفية خصوصا بالابتداء العرف ، وقوم منهم خصوصا بالعبادة بشرط مقدسة الإجابة ، بالاجتناب المحض غير ممل بكسب العبد ، وهذا حال الصوفى المراد بإياديه الحق بمنحه ومعاونه من غير سائلة كسبته يسبق كسوفه اجتاده ، وفي هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفضت الحبيب من قلوبهم وباندم سطوح نور اليقين فأما نازل الحال فيهم شوبة الاجتهاد والأعمال ، فأنقلوا على الأعمال بالانذاعة والبش فيها غرة أميهم ، فسبل الكشف عليهم الاجتهاد ، كما سبل على حمرة فرعون لثألة التزلج بهم من صفو الرفان : تحمل وعيد فرعون قاتلوا (ان عزك على ملأنا من البيت) قال جعفر الصادق رضي الله عنه وجدوا رابع الناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقارا (آمنا برب الملائين) .

أخيرا أبورضة طاهر بن أبي الفضل إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة ، قال أخبرنا عبد الرحمن السلى ، قال : سمعت منصورا يقول : سمعت أبا موسى الزرقاني يقول : سمعت أبا سبيد الحراز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتباب مولاهم وأكل لهم التسمية وهيا لهم الكرامة ، فأسقط عنهم حركات العطف ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر والتسم بتأجابه والافتراد بقره ، وبهذا الإنسان إلى أبي عبد الرحمن السلى قال : سمعت علي بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن المحمدي يقول : سمعت طائفة المروءة بجمهورية تليد أبي سعيد يقول : سمعت الحراز يقول : المراد : محمول في حاله مدان على حركاته وسميه في الخدمة ، مكين مصون من الفساده والتواطر ، وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى أشبهه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من التواقل ، وقد

وأما جثمان الشجاع فقلعت رقابهم فقتلوا أنذلك سال مستمر على الإحلاق ، ولم يملوا أن الذين تركوا الثرائل وانصهروا على القرائض كانت بداياتهم بدايات التريدين ؛ فلما وصلوا للدوح الحال وأمرتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلأوا بالمال فطرحوا ثرائل الأعمال ؛ فلما للاردون فتق عليهم الأعمال والثرائل ونها قرعة أجبتهم ، وهذا أمر وأكل من الأول ؛ فهذا الذي أروضاه أحد طريق الصوفية ، فلما الطريق الآخر طريق التريدين وهم الذين شرطوا لهم الإنابة ، فقال الله تعالى (ويهدي إليه من ينيب) فطروا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف .

قال تعالى (والذين جاءوا فإنا لنبديهم سبيلنا) يدرهم الله تعالى في مدارج الكسب أنواع الرياضات والجاهدات وسهر الليالي وطمأ الجواهر ، وتناجس فيهم نيران الطلب ، وتجنب دونهم رواع الأرب ، يقتلون في رضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مالوف وعادة ، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية آتيا هداية خاصة لأنها هداية إلهية ، غير الهداية العامة التي هي الهدى إلى الله وتبته يقتضى للفرقة الأولى ، وهذا حال السالك المحب للمريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة فأتمت هداية خاصة ، واعتدا إليه بعد أن اعتدوا له بالمكابدات ، نظفوا من متيقن الصبر إلى قضاء اليسر ، وبرزوا من جميع الاجتهاد للدوح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والاردون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أخبرنا المخلص أبو نعيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت أبا محمد الجرجري يقول : سمعت الجنيد رحمه الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن الثقل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات ولستصنات .

وقال محمد بن خفيف : الإرادة صبر القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجهد وترك الراحة . وقال أبو عثمان : المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى ، فبره الله وحده ويريد قربة ويستاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا من قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضاً : عوبة قاب المريد أن يصبرها عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أعدادها ؛ فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقيق بالصوف : (أحدهما) مجذوب أتى على بهذبه ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف ، (والثاني) مجتهد متبذبه ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد . والصوفية في طريقهما باب مريد وصحة طريقهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو غفول مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب البربرودي قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفا قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت نصر بن أبي نصر يقول : سمعت قسبا غلام الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد السكري يقول : سمعت أبا سعيد الخزاز يقول : كل باطل يخالفه ظاهر فهو باطل ، وكان يقول الجنيد رحمه الله . طئنا هذا مشيئة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : من أمر الله على نفسه قولاً وفعلًا لفق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا لفق بالبدعة .

حكى أن أبا يزيد البطحاى رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى نتفر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية . وكان الرجل في ناحية مقصودا ومشهورا بالزهد والعبادة . ففينا إليه ؛ فلما خرج من بيته قصد المسجد روى براءة نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا ، فالصوف ولم يسل عليه وقال : هذا رجل ليس بأحد من أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأدلاء والصالحين . وسئل عادم الثقل رحمه الله : ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال : لما أسأله لسانه وعرق جبينه أشار إلى أن ومثني الصلاة ، فوضاه فسدت تعليل لحية ، فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحية يغلها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فيأطل : هذا حال الصوفية وطريقهم ، وكل من

يدعى حالا على غير هذا الوجه فندح ممتون كتاب .

الباب الخامس : في ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي القمطر في كتابه قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي ، قال أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن وهاب ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي ، قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا عمر بن أحمد عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، ثم جلس له ثمانون يوم القيامه ، فالتفت كلان في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال ورسم : التصوف مبنى على ثلاث عصال : التمسك بالفقر والاقتدار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التمرض والاختيار .

وقال الجنيد - وقد سئل عن التصوف فقال - : أن تكون مع الله بلا حلاقة .

وقال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلق ، فمن لم يستحق بالفقر لم يستحق بالتصوف .

وسئل الثبلي عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستحق بشيء دون الحق .

وقال أبو الحسين النوري : لست الفقير السكون عند المصم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترز من التي حذر أن يدخل عليه التي يفقد فقره ، كما أن الغني يحترز من الفقر حذر أن يدخل عليه الفقر فيفقد عليه غناه .

وبالإسناد الذي سبق إلى أبي عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازي يقول : سمعت منظرًا قريسيًا يقول : الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة . قال : وسمعت يقول : سألت أبا بكر الصفي عن الفقير فقال : الذي لا يملك ولا يملك . فله ، لا يكون له حاجة ، معناه أنه مشغول بطلب عبوديته تامًا تامة بربه ، عالم بصركلاه به لا يصحبه إلى دفع الحاجة لئله يعلم الله حاله ، فيرى السؤال في البين زيادة ، وأقوال المشايخ تنزع معانيها ، لأنهم أشاروا فيها إلى أسرار في أوقات دون أوقات ، وحسب في تفضيل بعضها عن البعض إلى الضوابط ، فقد ذكر أشياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر وذكر أشياء في معنى الفقر ذكر مثلها في معنى التصوف ، وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان قائل : فقد تشبه الإشارات في الفقر بمعنى الزهد تارة وبمعاني التصوف تارة ، ولا يبين للسرشد بعضها من البعض : فنقول : التصوف غير الفقير ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ، والتصوف اسم جامع لما في الفقر ومعاني الزهد مع مزيد أوصاف وإنشائات لا يكون بدونها الرجل صوفيًا وإن كان زاهدًا وفقيرًا .

قال أبو حنيس : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ، فزوم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن شيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، وموجود من حيث يروى القول . وقال أيضًا : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن : لأن التي على ثمالها عليه وآله وسلم قال : لو خشع قلبه لحصى جوارحه .

أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل بإجازة قال أخبرنا الشيخ أبو القمطر عبد المصم ، قال أخبرنا والدي أبو القاسم القشيري ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقول : سمعت عبد الله بن علي يقول : سئل أبو محمد الجبري عن التصوف فقال : المشغول في كل خلق سنى ، والخروج عن كل خلق دنى ، فإذا عرف هذا المعنى في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقتها ، يعلم أن التصوف فرقة الزهد وفرق الفقر . وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف ، وأهل الفناء لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : ثمالها ثمال في فقره الذين

أحصروا في سبيل الله) هذا وصف الصوفية ، والله تعالى يحامى فقره ، وأسوأ من مفرق الحال به من التصوف والفقر ، تقول : الفقير في فقره شمسك به شقيق بنفسه يؤثره على الفنى ، شقيق إلى ما تحقق من الوعى عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل فقراء آمن الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو بحسالة عام . فكيف لاحظ الوعى لبقاء أسلكه عن الحاصل الفانى وعائق الفقر والفتنة وعشى زوال الفقر لقوات الفضيحة والوعى وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية ، لأنه قطع إلى الأعراض وترك لأجلها . والصوفى ترك الأشياء لئلا أعراض الوعرة بل للأحوال الموجودة فإنه يبرئته . وأيضا ترك الفقر لحظ الحاجل واختناقه الفقر اختياره وإرادة ، والاختيار والإرادة خلق حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى لإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة في ضرورة فقره ولأن ضرورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يرفقه الحق فيدخله عليه ويملك الإذن من الله تعالى في الدخول في النعم . وقد دخل في ضرورة سقمه بالفقر بلذنه من الله تعالى ، ويرى الفضيلة حيث لا يسمي الإذن من الله فيه ، ولا يفسح في البسمة والدخول فيها لصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفي هذا مرة للأقدام وباب دعوى للدين ، وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا لقد يحكى ركب الحال (لعلك من ملك عن بيته وبعيا من من عن بيته) فإذا الفصح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبقوامه على معنى أن الوصول إلى رب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر .

قال الجنيد رحمه الله عليه : التصوف هو أن يترك الحق عكسه بيمينك به ، وهذا الفنى هو الذى ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا بنفسه ، والفقيه والزاهد مكرنان في الأشياء بنفسهما واقتناعا مع إرادتهما مجتهدان يبلغ عليهما والصوفى منهم نفسه مستقل لعله ، غير راكن إلى مفرقه ، قائم بمراده لا بمراده نفسه .

قال ذو النون المصرى رحمه الله عليه : الصوفى من لا يتبى طلب ولا يرجو سلب . وقال أيضا : الصوفية آثر والله تعالى على كل شيء ، فأثر الله على كل شيء ، فكان من إثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : من أحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن التقيس تقدم وجهان الماذير ، وليس الكبير من العمل تقدم وقع ، يرضونك به فتبنيك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستسلم لترك ويستطيع الأخذ ومكنا الفقير ، وذلك لعين وعائمه ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفى من إذا استلبه حالان حسان أو غفان حسان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنيين ، بل يختارن من الأخلاق أيضا ما هو أدنى إلى الترك والخروج عن خواغل الدنيا ، كما كان في ذلك يعلمها ، والصوفى هو المسكين الأحسن من عند الله يصدق اتجاهه وحسن إجابته وسطوره ولطيف ولوجه وغروجه إلى الله تعالى ، لعله به حظه من محادثته ومكالاته .

قال روم : التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون اليد في كل وقت مشغولا بما هو أدنى في الوقت .

قال بعضهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى : وقيل : التصوف كرمع اجتماع ، ووجد مع استيعاب ، وعمل مع إبداع . وقيل : التصوف ترك التكلف وبذل الروح .

قال سهل بن عبد الله : الصوفى من صفا من الكبر ، وامتناع من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عند الذنب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البهية . ومقارعة الأخلاق الطبيعية ، وإعداد صفات البشرية ومجانبة الدواوى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحية ، والتمسك بطول الحقيقة ، وإتباع الرسول في الشريعة .

قال ذو النون المصرى : رأيت بعض سواحل الشام امرأة ، قلت : من أين أنت ؟ قالت : من عند أقرام تجماع

جوزهم عن الصانع . قلت : وأين تريدون ؟ قالت : إلى رجال لا تلهمهم لغارة ولا يبع عن ذكر الله ، فقلت : صفيهم لي ، فأطاعت :

فهم مرموم بقله قد طقت . فما لم هم تسو إلى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم . يا حسن مطهم الواحد الصمد
ما إن تزارهم دنيا ولا شرف . من للطعام والذوات والرفه
ولا ليس يساب طاقى أقى . ولا لروح سرور حل في بقله
إلا مسارعة في إثر منزهة . قد غارب الخطرفها باعد الأبد
فهم رمان خدران وأودية . وفي الشواخ تتقام مع السعد

وقال الجني : الصوف كالارض يطرح عليها كل قبض ولا يخرج منها إلا كل ملبس . وقال أيضا : هو كالارض يطؤها
البر والفاجر ، والسحاب يظل كل شيء ، وكانتظر يسقى كل شيء .

وأقول للمحتاج في غاية التصوف تريد على النفسول ، ويطلو لخلها ، وتذكر حياطها بجمع جل مساكنها ، فإن الالتماظ
وإنما تختلف متغافل المعاني . فقول : الصوف هو الذي يكون دائم التنصيف لا يزال يعني الأوقات عن شرب إلا كدابر
بصيفها القباب عن شوب النفس ، ويعتبر على كل هذه التنصيف دوام اختاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقي من السكدر ،
وكذا تحرك النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها يصير ، فالتأخذ وفر منها إلى ربه ، فبدوام نصيفته جميعته ،
وبحركة نفس تفرقة وكسره ، فهو قائم بره على قلبه ، وقائم بتقليه على نفسه . قال الله تعالى (كونوا قوامين شهداء
بالنفس) وهذا القومية على النفس هو التحقق بالتصوف ، قال بعضهم التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون
فلا تصوف ، والرسول في أن الروح مجذوبة إلى الحشرة الإلهية يعني أن روح الصوف متصلة منجذبة إلى مواطن القرب ،
والنفس بوضعها رسوب إلى طامها وانتلاب على قلبها ، ولابد للصوف من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام القرب
وحسن التفتد لمواقع إصابات النفس ، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوف جميع التفرق في الإشارات .

الباب السادس : في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، وقال أخبرني والدي ، قال أخبرنا أبو يعلى الشافعي بمكة حرسها
الله تعالى ، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو عبد الله الخروسي ،
قال حدثنا صفيان عن مسلم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيب دعوة العبد ويركب
الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سوا صوفية نسبة لهم إلى طاهر القبة ، لأنهم اختاروا لبس
الصوف لكونه أرقف ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام

ودروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سر بالصخرة من الروحاء سبون نيا حفاة عليهم البهايم يؤمون
آيات الحرام . .

وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، وبأكل من الشجر ، وببيت حيث أمسى .
وقال الحسن البصري رحمه الله عنه : لقد أدركت سبعين يدريا كان لباسهم الصوف ، وروى عنهم أبو هريرة وفضالة
ابن عبيدغالا : كانوا يغرون من الجوع حتى يصيبهم الإعراب بجلتين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يهرق
في ثوبه فيوجد منه رائحة الصابون إذا أصابه الغيث . وقال بعضهم : إنه يؤذى بريح هؤلاء ، أما يؤذى بريحهم ؟ يتعاطب
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان اختيارهم لبس الصوف تركهم ربة الدنيا ، وقناعتهم ببدا الجوع وسر
العورة ، واستراحتهم في أسرار الآخرة ، فلم يفرغوا إلا من الفسوس وواحشها ، لصدقة شغلهم بتدوم مولاهم ، وانصراف
همهم إلى أسرار الآخرة ، وهذا الاختيار بلام وبسبب من حيث الاشتقاق ، لأنه يقال : تصوف ، إذا لبس الصوف ،
كما يقال : قمص ، إذا لبس القميص .

ولما كان حاتم بين سير وطير لتخليهم في الأحوال وارقتائم من حال إلى أهل منه ، لا يقدم وصف ولا يحسم لعت ، وأبواب التريد علما وسالاعليم مفتوحة ، وبواطهم سعدنا لحنائق وجمع العلوم ، فلما تذر تقديم بحال تقديم تشرح وجدانهم ونجس مزيدهم ، فسروا إلى ظاهر القصة . وكان ذلك آيين في الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ؛ لأن ليس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم ؛ وأينما لأن حاتم حال القرين كسابق ذكره . ولما كان الاعتزاز إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر مصعبير كشفه والإشارة إليه - وقصصا لإشارة إلى زعيم سقا لحاتم وخيرة على عزيمتاتهم أن تكرر الإشارة إليه وتداوله الألسنة ، فكان هذا القرب إلى الأدب ، والآداب في الظاهر والباطن والقول والفعل حماد أهل الصوفية ، وفيه معنى آخر ؛ وهو أن نسبتهم إلى القصة تأتي عن تعلقهم من الدنيا وزعمهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من اللبوس الثام ، حتى إن للبئس التريد الذي يؤثر طريقهم وحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التثقف والتقال ، ويظن أن الله أكول أينا من جنس اللبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند للبئس ، والإشارة إلى شيء من حاتم في تسميتهم بهذا أفع أول ، وأينما غير هذا للحن مما يقال إنهم صوامصوفية لذلك يتضمن دعوى وإذائق صوامصوفية للبهيم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحاتم ، وأينما لأن ليس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم الظاهر أوفق وأول ؛ فالقول بأنهم صوامصوفية فيهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما آثروا الذوق والخيول والتواضع والانسكار والتخفي والتوازي ، كانوا كاهنة للفتاة والعورة للزينة التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها ؛ فيقال : صوفى ، نسبة إلى الصوفة ، كما يقال : كوفى ، نسبة إلى الكوفة ، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم ، والحن المقصود به قرب ويلامح الاشتقاق ، ولم يزل ليس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر من أبيه ، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال حدثنا أبو علي بن إسحاق بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن عرفة ، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حيد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كرم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكفه من صوف ولعلاء من جلد حمار غير مذكى .

وقيل : صوامصوفية لأنهم في الصف الأول بين يدى الله عز وجل بل ارتفاعهم من إقبالهم على الله تعالى بقولهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقيل : كان هذا الاسم في الأصل صفوى ، فكسفت ذلك وجعل صوفيا . وقيل صوامصوفية نسبة إلى الصفه التي كانت لتفرد الملاحرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ للفرء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون حربا في الأرض ﴾ الآية ، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق القوي ولكنه صحيح من حيث المعنى ؛ لأن الصوفية يشاكل حاتم حال أولئك كونهم يمتنعون متاعين متصاحبين لله وفيه ، كأصحاب الصفه ، وكذا النوا من أربابها رجل لم تكن لهم مساكن بلدية ولا عشار ، جمعا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى حرج ولا إلى إمارة ، كانوا يحتطبون ويرحطون ثوبى بالثار ، وبالليل يشتغلون بالمبادنة وتعلم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحبب الناس على مواساتهم ويجلس معهم بيا كل معهم ، وفيهم من زل قوله تعالى ﴿ ولا تفرق الذين يدينون ربهم بالحناء والمنى يريدون وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالحناء والمنى ﴾ يدولق بأنهم مكرمهم قوله تعالى ﴿ عيسى يقول أن جاءه الأصم ﴾ وكان من أهل الصفه ، فسوت الله صلى الله عليه وسلم لاجله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أناسا لهم لا يزعجهم من أديهم ، وكان يفرغهم على أهل الجدة والسعة يمت مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يعمل إلى بيت منهم ثمانين بطنهم .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبته ، فإذا ركع أحدهم قبض يديه خلفه أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتنا يا رسول الله ، أرق بطوننا أقر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد الشجر ثم قال : ما بال أقوام يقولون أرق بطوننا أقر ، أما علمن أن هذا أقر هو طمأنينة أهل المدينة وقد واسونا به وواسيتا كما واسونا به ، والمضى نفس محمد بيده أن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء للذين وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو القاسم محمد بن عبد الباقي في كتابه ، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر ابن زكريا الطريثي قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأتباعي ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد بن علي الترمذي ، قال حدثني سعيد بن حاتم البجلي ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن غلام بن محمد عن أبي عبد الرحمن النكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة فرأى قفرهم وجهدهم وطيب خلوجهم فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة لأن بيتي منكم على التمت الذي أتم عليه اليوم وأما يا عوفية فإنه من رفقائي يوم القيامة .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والبلدان ، ويسمونهم في خراسان شكنتية ؛ لأن ، شكنت ، اسم النار ، ينسبونهم إلى الماء والمستقر . وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصالح فسمى غوماً وأرأوا آخرين قريين ، ومنهم الصابرون والصادقون ، والثالثا كرونة والخيريون ، والرابع الصوف مشتغل على جميع للفرق في هذا الاسم ككورة ، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل كان في زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصري رحمه الله عليه أنه قال رأيت صوفياً في الطواف فأعطيه شيئاً فلم يأخذ وقال من أربع دوانيق يكفيني ما مسمى . ويشهد هذا ما روى عن سفيان أنه قال لولا أرواحهم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً . وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية ؛ لأن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل محباً لشرف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمي تابعياً ، ثم لما تقدم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي النبوي ، وتراعى القرب للصطفوى واختاروا لآراءهم معتاداً ، وفرد كل ذي رأى رأيه وكدر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزع تأييد التفتين ، واضطربت أراحم الزهادين ، وغلبت الجاهلات والكلف حياطينا ، وكثرت المغالطات وتعلكت أربابها ، وتزعزعت الدنيا وكثر خطيئها . ففرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق في البرية وقوة في الدين ، وزهدوا في الدنيا ومحبتها ، واختصوا بالزهد والورع ، واتخذوا لنفسهم زوايا يجمعون فيها ثائرة ويضفون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب ، مشتبهين للرب الأوابة فأنزلهم صالح الأعمال سنى الأحوال ، وتبأ لهم عذاب القوم لقبول العلوم ، وصار لهم بهذا الشأن لسان ، وبعد القارن عرفانهم وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً ، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتبادر ، فصار لهم بمنطق ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتفهمونها ، فخرروا لنفسهم اصطلاحات تشير إلى معاني يعرفونها وتعرف عن أحوال يمدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف ، حتى صار ذلك رسماً مستمراً وغيره مستقر في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتقسيمهم ؛ قالوا منهم ، والعلماء بصفاتهم ، والعبادة بعلومهم ، والتقوى بشمارهم ، وخالفوا الحقيقة أسرارهم ، وزاعم القائل وأصحاب القصاص ، سكان قباب التوبة وقطان ديار الحيرة . ولم مع السامع من إبعاد فضل الله مزيد ، ولبيب شوهم يتأجج ويقول هل من مزيد . اللهم احشروا في زمينهم وارزقنا حالهم . وأقلام .

الباب السابع : في ذكر التصوف والمقشبه

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجب السهروردي بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري بإجازة ، قال أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن ساعد الأصمغاني ، قال حدثنا الحسين بن الحسن الرزقي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا الثعشعي بن سليمان ، قال أخبرنا حيد الطبري عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله متى قيام الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال : أين السائل عن الساعة ؟ فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، قال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام - أو قال ما أعددت لها كثير عمل - إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : للرجل مع من أحب أو أنت مع من أحببت ، قال أنس : فما رأيت السليبي فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا ، فالتفت به بالصوفية ما اختار القلب بهم دون غيرهم من الطوائف إلا تحته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبه ، وقد ورد بلفظ آخر أخرج من الخبر الذي روينا في المتن يروى عبادة بن الصامت عن أبي ذر الثفاري قال : قلت يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ، قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت ، قال : قلت فأي أحب الله ورسوله ، قال : فذلك مع من أحببت ، قال : فأخبرنا أبو ذر ، فأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحببة القلب إياهم لا تكون إلا لتبته روحه لا تنبته له أرواح الصوفية ؛ لأن محبة أسر الله وما يقرب به ومن يقرب به ، تكون بمحبة الروح ، غير أن القلب تروق بظلة النفس ، والصوفى تخلص من ذلك ، والمتصوف متعلق إلى حال الصوفى ، وهو مشارك ببقاء شرفه من صفات نفسه عليه القلب ، وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق ؛ فقلوبه صاحب إيمان ، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير . قال الجنيدي رحمه الله عليه : الإيمان بطريقنا هذا ولاية ، ووجه ذلك أن الصوفية يتميزوا بأحوال عذبة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ؛ لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدر . وقد أنكر قوم من أهل اللغة كرامات الأولياء ، والإيمان بذلك إيمان بالقدر ، ولهم ظن من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من غصه الله تعالى يريد عنايته ، فقلوبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب علم ، لأنه بهذا الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائر ما ، والصوفى صاحب ذوق ، فقلوبه صاحب الذائق نصيب من حال الصوفى ، والقلب نصيب من حال المتصوف ، ومكشافته تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أهل ما حو فيه ، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق ، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم ، وبحال فرق ذلك صاحب إيمان ، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون في حال الذائق صاحب فهم ، وفي حال العلم صاحب نظر ، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال تعالى (إن الأبرار في نسيم حق الأبرار ينظرون) وصف الأبرار ووصف شراهم ثم قال سبحانه وتعالى (ومواجه من تسليم عينا يترهب بها المقربون) فكان لشرب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفا ؛ فالصوفى شراب صرف ، والمتصوف من ذلك مزج في شرابه ، والقلب مزج من شراب المتصوف ؛ فالصوفى سبق إلى مقام الروح من بساط القرب ، والمتصوف بالنسبة إلى الصوفى كالتردد بالنسبة إلى الزاهد ، لأنه تغلب وتسل وتسلب وإشارة إلى ما بقي عليه من وصفه ، فهو يجتهد في طريقه سائر إلى ربه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا ، سبق المرفودون ، قيل : من المرفودون يا رسول الله ؟ قال : المستترون بذكر الله وضع الأكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفا ، فالصوفى في مقام المرفودين ، والمتصوف في مقام الساترين وأصل في سيده مقام القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه وتلقاه بظنره إلى نظر الله إليه ؛ فالصوفى في مقام الروح صاحب مشاهدة ، والمتصوف في مقام القلب

صاحب مراقبة ، والكتب في مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة ؛ فتتوزع الصوف يوجود قلبه . وتلويح التصوف بوجود نفسه ، والكتب لا تلويح له لأن التلويح لأرباب الأحوال ، والكتب يهتد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال ، والسلك يجمعهم دائرة الاعتقاد . قال الله تعالى (ثم أودعنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فيها ظلم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) قال بعضهم : الطالب الزاهد ، والمقتصد الماروف ، والسابق الخب .

وقال بعضهم : الطالب الذي يخرج من البلاد ، والمقتصد الذي يصير عند البلاد ، والسابق الذي يثابذ بالبلاد . وقال بعضهم : الطالب يهد على التفتة والمادة ، والمقتصد يهد على الرغبة والرغبة ، والسابق يهد على المحبة والشفقة . وقال بعضهم : الطالب يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لا ينسى ربه . وقال أحد بن حاصم الأنطاكي رحمه الله : الطالب : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وكل هذه الأقوال قريبة للتناسب من حال الصوف والمقتصد والكتب ، وكلهم من أهل الفلاح والنجاة ، لجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتوافق بينهم لسة التخصص بالشع والطعام .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزويني بإجازة ، قال : أخبرنا أبو سعد محمد بن أبي العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرني الحسين بن محمد بن فضويه ، قال حدثنا أحمد بن محمد بن وزعة ، قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازي ، قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود . قال حدثنا حسين بن نعيم بن أبي ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن أبي صلي رضي الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى (فتهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) « كلهم في الجنة » .

قال ابن عطاء : الطالب : الذي يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحب الله من أجل النفس ، والسابق : هو الذي أسقط سراحه بمراد الله فيه ، وهذا هو حال الصوف ؛ فقلوبهم تعرض لشئ من أسر القوم ، ويجب له ذلك القرب منهم ، والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد التزالي ونحن بأصيان يريد منه الحرقه ، فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يملكك في عني الحرقه ، ثم احضر حتى ألبسك الحرقه ، قال جاء إلى فذكرت له حقوق الحرقه وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل لبسها ، فاستظلم الرجل حرقه الحرقه وجعل أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قول له ، فاستحضرني وما تكلم على قول له ذلك وقال بيته إليك حتى يملكه بما يريد وفيه في الحرقه ، فملكته بما فترت عريته ؛ ثم الذي ذكرت كله صحيح ، وهو الذي يجب من حقوق الحرقه ، ولكن إذا أزمنا المبتدى بذلك نفر ونجر عن القيام به ، فحين نلبس الحرقه حتى يثقب بالقوم ويترى رجم فيقر به ذلك من مجالسهم ومخالفهم ، وجره عائلته معهم ونظرهم إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يملك مسلكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم .

ويراق هذا القول من الشيخ أحمد التزالي ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أخبرنا عمام الدين عمر بن أحمد الصغار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلي قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفرًا يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا قيت التغير فلا تبدأ بالملم وإبداء بالرفق ، فإن العلم بوجهه والرفق بوجهه ، ورفق الصوفي بالكتبين بهم يلتزم المبتدى الطالب ، وكل من كان منهم أكل حالًا أو فرط طلال كان أكثر وقتًا بالمبتدى الطالب .

حكى عن بعضهم أنه يحب طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة الممارسات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا لنظر المبتدى إليه والتأديب بأبديه والاعتناء به في عمله وهذا هو الفرق الذي مادخل في شيء إلا زانه ، فقلوبه الخفيق له إيمان بطريق القوم وعمل يقتضاه وسلوك واجتهد ، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفًا صاحب مراقبة ثم يصير صوفيًا صاحب مشاهدة ، فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفي بالكتب ولا يقصد أراقل

مقاصد بل هو مجرد تلبه ظاهر من طاهر القلب والمشاركة في الزى والصورة دون السيرة والصفة ، فليس بكتبته بالصوفية ، لأنه غير عماك لهم بالدخول في بنائهم ، فإذا هو مكتبة بالكتبه بمنزلة القوم بمجد وليس مع ذلك هم القوم لا يشق بهم جلسهم ، وقصود من تلبه يقوم فهو منهم . أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا الحافظ أبو سعيد الأصبهاني ، قال أخبرنا عبيدة بن جعفر ، قال حدثنا محمد بن أحمد بن أبي عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي ، قال حدثنا علي بن أحمد ، قال حدثنا علي بن علي المقدسي ، قال حدثنا محمد بن عبيدة بن عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال حدثنا فضيل بن عياض عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ملائكة فضلاء عن كتاب الناس يلقون في الطرق ويتلبون مجالس الذكر ، فإذا رأوا قوما يذكر الله تعالى تتادوا : هلوا إلى صاحبكم ، فيحسون بأجنتهم إلى تنان السباد ، فيقول الله وهو أعلم ما يقول عبادي ؟ قالوا يمدونك ويسبحونك ويعبدونك ، فيقول وهل رأوني ؟ فيقولون لا ، فيقول كيف لو رأوني ؟ قالوا لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتجييدا ، فيقول ما سألتوني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا ، قالوا : ويتتذنون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشد بها تمسكا وأشد فرارا ، فيقول أشدكم أن قد غفرت لهم ، فيقول الملك فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول مبارك وتمال هم الجلساء لا يثق جلسيس الصوفية والمقاتبة بهم وانحب لهم

الباب الثاني : في ذكر الملائق وشرح حاله

وقال بعضهم الملائق هو الذي لا يظهر غيرا ، ولا ينسر ذرا ، وشرح هذا هو أن الملائق تشرى به وهوه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يصح أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل المقدسي إجازة قال أخبرنا أبو بكر علي بن خلف كثير الزى بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلسي ، قال سمعت علي بن سعيد وسألت عن الإخلاص ما هو ؟ قال سمعت علي بن إبراهيم وسألت عن الإخلاص ما هو ؟ قال سمعت محمد بن جعفر الحصاني وسألت عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت أحمد بن إسماعيل عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروعي عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت أحمد بن حسان عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت أحمد بن علي الجهمي عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت الحسن بن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت جبرائيل عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي .

فلا تمتثلهم مزيد اختصاص بالنسك والإخلاص ، يرون كم الأحوال والأعمال ، ويتتذنون بكنها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشا من ذلك كما يستوحش الناس من ظهور مصيبتهم ، فالملائق علم وقع الإخلاص وموضعه وتسميته مشتبه ، والصوفي نابغ إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو عقرب السوسي من شهدوا إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم للإخلاص . وقال ذو القرن ثلاث من علامات الإخلاص : استواء القلب والمخ من العامة ، وسليان روية الأعمال في الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف بإجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا عثمان اللقي يقول : الإخلاص ما لا يكون لنفسه فيه حظ ، مجال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا لهم ، فتبدو منهم العالقات وهم ضائعون ولا يقع لهم طياري ولا يقع لها اعتماد ، فذلك إخلاص الخواص ، وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان اللقي يفرق بين الصوفي والملائق ، لأن الملائق أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولكن أوجب

نفسه فهو غطس ، والصوفى أخرج نفسه عن محله وسأله كما أخرج غيره فهو غطس ، وشتان ما بين الغطس الخالص والغطس قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل غطاس من إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون غطسا لا غطسا . قال أبو سعيد الخراز : وراء المعارف أفضل من إخلاص الرديين . ومعنى قوله أن إخلاص الرديين معلول برؤية الإخلاص ، والمعارف منزلة عن الرياء التي يطل العمل ، ولكن لله يظهر شيئا من حاله ووجهه يعلم كامل عنه فيه جذب مرید أو منافاة خلق من أخلاق النفس وإظهار الحال والنمى ، والمعارف في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فويرى ذلك ناقص العلم صورته بما ليس برباء ، وإتمامه صريح العلم به بانفسه غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال ورزم : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عونا في المعارف ، ولا يحاط من الملكن .

وقال بعضهم : صدق الإخلاص لبيان رؤية الحق بدوام النظر إلى الحق ، واللاتى يرى الحق فينبغي محله وحاله وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفى ، ولهذا قال الزقاق : لا يدل كل غطس من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذى يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتى به على التمام .

قال جعفر الحنفى : سألت أبا القاسم الجندى رحمه الله ، قلت : أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الله عز وجل في العمل ثم قال إنما هو إخلاص ، وعالمة الإخلاص ، وعالمة كائنات الخالصة ، فكل هذا الإخلاص حال الملائكة ، وعالمة الإخلاص حال الصوفى ، وعالمة الكائنة من الخالصة ثمرة عالمة الإخلاص وهو لقاء العبد عن رسوخ برؤية قيامه بغيره ، بل غيبه عن رؤية قيامه وهو الاستراق في العبد عن الآمار والتخلص من لوث الاستكثار وهو فقد حال الصوفى . واللاتى من أن أرومان إخلاصه غير متعلق إلى حقيقة إخلاصه ، وهذا فرق واضح بين اللاتى والصوفى ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولم يشأع يهدون أساسهم ويبرفونهم شروط حالم . وقد رأيت المراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتر هذا الاسم ، وقلنا يتناول أئمة أهل المراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملائكة استصحب إلى سماع قامتع ، فقيل له في ذلك فقال لاى إن حضرت يظهر على وجهه ، ولا أثر أنه يعلم أحد حاله .

وقيل إن أحد بن أبي الحرارى قال لأبي سليمان النراقى إن إذا كنت في الخلوة أجهد لمماثل لذة لأجدها بين الناس ، فقال له إله إذا لتضيف ، فالتأتى وإن كان متمسكا بمروة الإخلاص مستتر شابا ساطع الصدق ، ولكن على عليه بقية رؤية الحق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق ، والصوفى صفا من هذه البقية في طرق العمل والترك للخلق وحولهم بالكلية ، ورواى بين لقاء والرواى ، ولا حكمة توحيد ، وما ينسب قوله (كل شيء هالك إلا وجهه) كما قال بعضهم في بعض غلبته ليس في المعارف غير الله ، وقد يكون إخفاء الملائكة الحال على وجهين أحد الوجهين تحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غير مروج تجربة ، فإن من خلا بمجرب يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ في صدق الغيبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمجربه ، وهذا وإن خلاص طرق الصوفى على رتقى ، فكل هذا يتقدم اللاتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى .

وقيل إن من أصول الملائكة أن الذكر على أربعة أقسام ذكر باللسان و ذكر بالقلب ، وذكر بالسرو و ذكر بـروح . فإذا صح ذكر الروح سكنت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكنت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الحسية . وإذا صح ذكر القلب قدر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والحمد . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ، ولكل واحد من هذه الأذكار عتد له ، فأنة ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتنظيمه ، أو طلب تروا به ، أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإثبات الحق عليه بذلك ، وسر هذا الأصل الذي هو عليه أن ذكر الزوج ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بعضهم ، وذكر القلب من الآلاواتها ، ذكر أوصافها ، وذكر النفس مشعر للصفات ؛ فبني قولهم وإطلاع السر على الزوج ، يشيرون إلى التحقق بالقاء عند ذكر الذات وذكر الحية في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بصليب الحية ، وهو وجود الحية ، ووجود طيبة يستدعي وجود أوبقية ، وذلك يتناقض حال القناء ، وهكذا ذكر السر وجود حية وهو ذكر الصفات مشعر بصليب القرب ، وذكر القلب الذي هو ذكر الآلا ، والثناء مشعر ببدن ما ، لأنه اشتغال يذكر النعمة وذمها عن النعم . والاشتغال برؤية السعطاء ورؤية المعطي حرب من بعد للزفة وإطلاع النفس ، نظر إلى الأعراس اعتناء بوجود العمل ، وذلك عين الاحتفال حقيقة ، وهذه أقسام هذه الطائفة ، وبعضها أعلم من بعض ، والله أعلم .

الباب التاسع : في ذكر من انتهى إلى الصوفية وليس منهم

فإن أولئك هم يسعون فيهم قلندرية تارة وملائية أخرى ؛ وقد ذكرنا حال الملائي ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، ويمسك بالسنة والآثار ، وتحقيق بالإخلاص والصدق ، وليس مما يزعم القلتون بشيء .

فأما قلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى غيروا الصفات ، وطرحوا التقيد بآداب المجالس والمخاطبات ، وسأروا في ميادين طيبة قلوبهم ؛ فقلت أحوالهم من الصوم والصلاة إلا القرائن ، ولم يبقوا يقول شيء من لغات الدنيا من كل ما كان مباهياً برخصة الشرع ، وربما اقتصدوا على راحة الرخصة ولم يظفروا أحاقق الزمعة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الأديان ، وترك الطبع والاستكثار ، ولا يترسمون برسم التفتيشين والقرعدين والمتعبدين ، وقصروا طيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصدوا على ذلك وليس عندهم قطع إلى طبع من يسرى مالم عليه من طيبة القلوب ، والفرق بين الملائي والقلندري : أن الملائي يعمل في كم العبادات والقلندري يعمل في كثرة الغريب العبادات ، والملائي يتمسك بكل أبواب الخير والنجاة ويرى الفضل فيه ، ولكن يخفي الأعمال الأحوال ويوقف نفسه موقف العوام في حيله ومليسه وحركاته وأموره وسرا لئلا يظن له ، ومعهم ذلك متطلل إلى طلب المزيد بأذن جهوده في كل ما يقرب به العبد ، والقلندري لا يتبدى بوجه ولا يبال بما يعرف من حاله ولا يعرف ، ولا ينطق إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله ، والصوفي يضع الأشياء موضعها في الأوقات والأحوال كلها بالمع ، يتم الحق مقامه ويتم أسرار الحق مقامهم ، ويستمر ما ينبغي أن يستمر ويظهر ما ينبغي أن يظهر ، ويأمر بالأمور موضعها يحضون عقل وصحة توحيد وكال معرفة وعبادة صدق وإخلاص ، يقومون للمتنزهين سمو أنفسهم ملائية وليسوا الهة الصوفية لينتسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشيء ، بل هم في غرور وغلط ، يسترون طيبة الصوفية توتيتاً تارة يدعوى أخرى ، ويهتجون متاعج أهل الإيالة ، ويدعون أن خيانتهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد ، والارتمام براسم الشريعة ونية العوام والقاصرين الانهمار للتصديق في معشيتهم لاكتساب عقلياً ، وهذا هو عين الاتحاد والزندة والإيهاد ، فكل حقيقة ودنيا الشريعة فهي زندة ، وجهل هؤلاء المتروكون أن الشريعة حق البودية ، والحقيقة هي حقيقة البودية ، ومن صار من أهل الحقيقة غيب بمخروق البودية وصار مطاعاً بأمور زادات لا يطلب بها من لم يعمل إلى ذلك ، لأنه يطلع عن حقه رقة التكليف ويغتر بأطه الوبح والتعريف .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه المقدسي قال أخبرنا أبو محمد الخطيب ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر ، قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود ، قال حدثنا أحمد بن صالح ، قال حدثنا حنيفة قال حدثنا يونس بن يزيد ، قال قال محمد بن الزهري ، أخبرني حنيفة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن حنيفة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إن أناساً كانوا يؤخذون بالقرى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع ، وإنما تأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فإن أظهر لنا غيراً أثناء وقريناه ، وليس إلينا من سريره شيء ؛ الله تعالى يحاسب في

سريته : ومن أظهر لنا سوى ذلك لم تأت وإن قال سرى حسنة وعنه أيها وحى الله تعالى : من عرض نفسه لهم فويلهم من أساء به الفطن ؛ قلنا رأينا متناوبا بعد والشرع مهملات الصلوات للفرحات لا يستجلاوة الثلاثة والصلوة ويدخل في الفاضل المكروعة الحرمه ، زوده ولا تقبه ولا تقبل دعواه أنه له سريرة سالحة .

أخبرنا شيخنا خياه الدين أبو الحبيب السهروردى بإجازة عن محمد بن أحمد عن أبي خلف عن السلمي ؛ قال : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت أبا محمد الجرجري يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر للفرقة ؛ فقال الرجل : أهل للفرقة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب الجبر والتقوى إلى الله تعالى ؛ فقالا لجنيد : إن هذا قول قوم يتكلموا بسقاط الأعمال ، وعنده عتدى طعيمة ، والذي يسرق ويؤذي أحسن حالا من الذي يقول هذا ؛ وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت أفعالهم لم أنقص من أعمالهم ذرة ؛ إلا أن يحال في دينها ؛ وإني لأكف من مرقى واتوى لحال . ومن جملة أولئك قوم يقولون بالخلو ويرحمون أن الله تعالى يعمل فيهم ويعمل في أجسامهم طغيما ، ويسبق لأفعالهم متى من قول التصانير في اللاهوت والتناسوت . ومنهم من يسلم على النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الزم ، ويشغل به أن من قال كليات في بعض غلظه كان مضرا لشيء عما زعموه ، مثل قول الخلاص : أنا الحق ، وما يصح عن أبي يزيد من قوله : سبحانه ، حاشا أن يعتمد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغي أن يعتمد في قول الخلاص ذلك ، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضرا لشيء من الخلو لردناه كما نردم ، وهذا أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرية يضاهي نبيه يستقيم بما كل موج ، وقد قلنا بقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز ؛ والله تعالى مبدء أن يعمل به شيء أو يعمل بشيء ، حتى لعل بعض المتنويين يكون عنده ذلك وقطة غريبة ؛ ويكون قد سمع كليات تعلقت بإطاعة فيثابته في فكره كليات ينسب إلى الله تعالى وأنها مكالة الله إياه ، مثل أن يقول : قال ل وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثا جاهل بربه وبكيفية المكالة والحادثة ؛ ولما عالم يظللن ما يقول ، يسمه وراء على الدعوى بذلك ليوم أنه فكر بشيء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجرئه على هذا ماسع من كلام بعض المحققين غلطيات وردت عليهم بعد طول معاملات لم ظاهرة وباطنة ، وتحسبهم بأصول القوم من صدق التنوي وكال الزعم في الدنيا ، فلبا صفح أسرارهم تفككت في سرائرهم غلطيات موافقة الكتاب والسنة ، فزالتهم تلك الغلطيات عند استراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاما يسمونه بل كحديث في نفس محدونه بقرينة موافقا للكتاب والسنة ، منهو ما عندأمله . موافقا لهم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لنفوسهم مقام البودية والحولام الربوبية ، فيضيقون ما محدونه إلى نفوسهم وإلى مولايم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله إنما هو علم حادث أحدثه الله في برائهم ، فطريق الأصحاب في ذلك القرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به ، حتى إذا رمى حاجتهم من أقوى الأمور في برائهم شيئا يسيرة إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى الحديث لانسبة الكلام إلى المتكلم ، ليتصوروا عن الزعم والتعريف ، ومن أولئك قوم يرجعون أنهم يترقون في مدار التوحيد ولا يثبتون ؟ ويستقلون لنفوسهم حركة فضلا يرجعون أنهم يعبرون على الأشياء وأن لأفضل لهم مع فعل الله ، ويستقلون للمعاصي وكل ما تدعو نفس إياه ، ويركضون إلى البطالة ودوام التنفلة والافتقار بالله والخروج من الله وترك الحلود والإحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سبل عن رجل يقول : أنا كالأب لا أترك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يفعله إلا أحد رجلين ؛ إما صديق أوزديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن أقوال الأشياء مع إحكام الأصول ورواية حدود البيرية ، والتزديق يقول ذلك إشارة للأشياء على أنها إسقاطا للأشياء عن نفسه واعتلاها عن الله وعن ربه ، فأما من كان معتقدا للخلل والحرام والمحدود والإحكام ، معتقدا بالمصية إذا صدرت عنه معتقدا وجوب التوبة منها فهو

سلم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ويروح يرى النفس إلى الأسفار والقرود في البلاد ، متوصلا إلى تناول اللذات والشهوات ، غير متمسك بشيخ يؤدبه ويذبه ويصبره بمبيب ماهر فيه ، وانه الموفق .

الباب العاشر : في شرح رتبة للشيخ

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفس محمد بيده لئن شئت لأنزلنكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عباده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويعشون على الأرض بالحقبة ، وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة الشيخ والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يجب الله إلى عباده حقيقة ، ويجب عباد الله إلى الله ، ورتبة المتبعة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في السماء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ يجب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن صبح اقتداه واتباعه أحبه الله تعالى ، قال الله تعالى (ولئن كنتم تغفرون الله فاتبوني بحبيكة) وجه كون يجب عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تركته النفس انحلت مرآة القلب ؛ وانصكت فيه أنوار العظمة الإلهية ؛ ولاح فيه جمال التوحيد ؛ وانجلجت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم وروقة الكمال الأول ؛ فأحب العبد ربه لأحالة ؛ وذلك ميراث التزكية . قال الله تعالى (قد أفلح من زكاه) وفلاحها بالقر بمرقة الله تعالى ؛ وأجند أسرار القلب إذا انجليت لأحليها الدنيا بيقها وحققتها وما هيها ؛ ولاحت لآخره نفاها بكتها نارها ؛ فتكشف البصيرة حقيقة الفاروق وحاصل المزاين ؛ فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني ، فتظهر قائمة التزكية وجدوى المشيخة والقرية فالشيخ من جرد الله تعالى يرشد به المريد ويهدي به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن علي حمدان ، قال أخبرنا أبو بكر محمد ابن علي بن أحمد الطوسي ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، قال حدثنا أبو عتبة ، قال حدثنا بنية ، قال حدثنا صفوان بن عمرو ، قال حدثني الأزهر بن عبيد الله ، قال قد سمعت عبيد الله بن بشر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل ، فقد خطر الأمر ، فصلى المشايخ وقار الله وجهه بتأديب المريدون ظاهرا وباطنا ، قال الله تعالى (أولئك الذين هدانا الله لهداهم اقتده) فليصنع لما اعتدوا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا أئمة للتقوى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كيا عن ربه : : إذا كنتم تقاتلون على عدي الاشتغال في جعلت همت ولذته في ذكرى ، فإذا جعلت همتك في ذكرى عتقك وعفتك ورفعتك للحبيب فيما بيني وبينه ؛ لا يسهر إذا ساء الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال صفا ؛ أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض حقوة أو عذابا ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم ، والسر في وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة النفس مبتلى بصفتها ، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطفئ نفسه ويهدأ نيتها ينزع عنها البرودة والبرودة التي استصحبها من أصل خلقها وبها تستضي على الطاعة والافتقار للبردية ، فإذا زالت البرودة صلتها لانت بحرارة الروح الواصلة إليها . وهذا الذي هو الذي ذكره الله تعالى في قوله (ثم تلتين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) تعالى . تجيب إلى العبادة وتلين لطاعة عند ذلك ؛ وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس وديوجيون : أحوج وجهه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه ، ورد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطفئ النفس ؛ فإذا استلبت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس ، وانقادته لنفسه وعلقت إلى أمر الله ، ثم القلب يشرب إلى السياسة لا فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدين والطالبين والعاديين عند مقام نفسه ، لوجود الجنسية في عين النفس من وجه ، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد من وجه التآلف الإلهي . قال الله تعالى (لو أنفقتم ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله أفهمهم) فيؤسوس نفوس المريدين كما كان يؤسوس نفسه من قبل ، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى :

« ألا طالع شوق الأرار إلى لقائي ، وإلى إلى لقاءهم لأشد شوقاً » وبما هيا الله تعالى من حسن التأليف بين صاحب والمحبوب يصير للريد جزء الشيع ، كما أن الولد في الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة أنفاساً ولادة معنوية ، كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه « أن بلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين » .

في الولادة الأولى يصير له أرباط ينام الملك ، وهذه الولادة يصير لها رباط بالملكوت . قال الله تعالى ﴿ وكذلك نرى لإبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ وعرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة ، وهذه الولادة يستحق ميراث الأنياب ؛ ومن لم يصله ميراث الأنياب ما ولد وإن كان على كمال من النقطه والذكاء ، لأن النقطه والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابسا من نور الشرع لا يدخل الملكوت ولا يزال متردداً في الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية لأنه قصر في الملك ولم يرتق إلى الملكوت ، والملك : ظاهر الكون ، والملكوت : باطن الكون ، والمثل : لسان الروح ، والبصيرة التي منها تميزت أشعة الهداية : قلب الروح ، والسان : ترجمان القلب ، وكل ما ينطبق به الترجمان معطوف منه من ترجم عنه ، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ؛ فليد الفهم حرم الرافقون مع مجرد القول المعرية عن نور الهداية . الذي هو موهبة الله تعالى عند الأنياب وأنيابهم . السموات ، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان وحرمانهم غايبة التبيان ، وكأن في الولادة الطبيعية ذوات الأرواح في صلب الأب مودعة ، تنقل إلى أصلاب الأولاد بمد كل ولد ذرة وهي الذرات التي عاينها الله تعالى يوم الميثاق (الكسبريك قارايلى) حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى بطن ليمان بين مكة والمطائف ، فسالت المرات من صام جسده كما يميل المرق بمد كل ولد من ولد آدم ذرة ، ثم لما غوطيت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فن الأمان من تنفذ الذرات في صلبه ، ومنهم من لم يودع في صلبه شيء ينقطع لسه ، وهكذا المشايخ ؛ فهم من تكثر أولاده وبأعداد من العلوم والأحوال ويردونها غيرهم كما وصلت إليهم من التي صلى الله عليه وسلم بواسطة الصبية ، ومنهم من نقل أولاده ، ومنهم من ينقطع لسه ؛ وهذا القيل هو الذي رد الله على التكثار حيث قالوا : محمد أقر لائل له ، قال الله تعالى ﴿ إن شئتكم هو الأثر ﴾ وإلا فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن إلى أن تقوم الساعة ، وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو العجيب السمرودي إمامه ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن الماليني قال : أخبرنا أبو الحسن الهارثي ، قال أخبرنا أبو محمد الخوي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي قال أخبرنا أبو محمد الهارثي قال أخبرنا نصر بن علي ، قال حدثنا عبد الله بن داود عن حاتم عن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالساً مع أبي القرداء في مسجد دمشق ، فأناؤه رجل فقال : يا أبا القرداء إني أتيتك من المدينة مدنية الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث يثنى عليك أنه تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فاجاء بك بشجرة ؟ قال : لا ، قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً ما يشاء » وإن الملائكة تتبع أصحابها وحملوا على طالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من ذنوبه والسموات حتى الحيثان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلم من رتبة الأنياب لا يورثها ديناً ولا دوماً إنما أوروها العلم ، فن أخذ به أخذ به يحفظ أو يحفظ وأقر ، فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبي البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه إلى النسيان والسيان وما تدور إليه النفس والشيطان ، كما ورد « إن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض ، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرحية التي كونها من الجوهرة التي خلقها أولاً فصار من موافق نظره إلى ألقابها عاصية السباع من الله تعالى والجواب ، حيث عاين السموات والأرضين بقوله ﴿ انبأ طوعاً أو كرها قلنا أيتها ملائكة ﴾ فخلعت أجزاء الأرض بهذا الخطأ عاصية ، ثم انزعرت هذه العاصية منها بأخذ أجزائها تركيب صورة آدم فركب جسده آدم من أجزاء أرحية معوية على هذه العاصية فن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الهوى ، حتى مديدة إلى البقرة الفداء

وهي ثمرة الحسنة في أكثر الأقاويل ، فتمتدح لقلابه القناء ، ولكرام الله إياه بفضح الروح التي أغبرته بشوقه (قلنا)
سوته ونفخت فيه من روحي (قال : العلم الحكمة ، والانسوية صارنا نفس ضفوة وفضح الروح صارنا روح
روحاني ، وشرح هنا بطول ، وفصار قلبه مدنا الحكمة ، وقالبه مدنا الحموى ، فانتقل منه العلم والحموى وصار مبراة
في ولده ، فصار من طريق الولادة أبا بواسطة الطبايع التي هي عند الحموى ، ومن طريق الولادة المتنوية أبا بواسطة
العلم ، فالولادة الظاهرة لتطرق إليها القناء ، والولادة المتنوية بحية من القناء ، لأنها وجدت من ثمرة ، وهي
ثمرة العلم لا لثمرة الخلقة التي سماها إيليس ثمرة الحكمة ، فيايليس يرى الشيء بعينه تيقن أن الشيء هو الأب
معنى ، وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبو الحبيب السهروردي رحمه الله يقول : ولقي من سلك طريق واحدتي
بهدي ، فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوفا في ابتدائه في طريق المحبين ، وقد يكون مأخوفا
في طريق المجهزين ، وذلك أن أسرار الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أسام : سالك مجرد ، وجذوب مجرد ، وسالك
متدارك بالجدية ، ومجذوب متدارك بالسلك . فالسالك المجرد لا يؤهل للشيخة ولا يلها لبناء صفات نفسه عليه ،
فيقتد عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياسة ، ولا يترقب إلى حال يروح بها عن وجه المكابدة ،
والمجذوب المجرم من غير سلوك يادها حتى يأبى باليتقين ، ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ، ولا يؤخذ في طريق المعاملة .
والمعالمه أتر تام سوف تفرحه في مرحمه إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضا لا يؤهل للشيخة ويقتد عند حظه من الله
مروحا بجماله ، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة . والسالك الذي تدورك بالجدية هو الذي كانت بدايته
بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ، ثم أخرج من وجه المكابدة إلى روح الحال ، فوجد الفصل
بعد العلم ، وتروح بلسان الفضل ، ويرزمن مضييقا المكابدة إلى مقبض المسامحة ، وأولس بضعات تقرب ، وتفتح له
باب من المشاهدة فوجد دواء وقاض وحازمه ، وصدرت منه كلمات للحكمة ومالك إلى القلوب ، وتولى عليه فروح
القلب وصار ظاهره مستجابا لطلعه مشاهدا ، وحلج الجلوة وصار له في جلوه غلوة ، فيتلعب ولا يئيب ، ويطرس ،
ولا يفتقرس ، يؤهل مثل هذا للشيخة ، لأنه أخذ في طريق المحبين ، ومنع حالا من أحوال الآخرين ، بعد ما دخل من
طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له اتباع ينقله إلىهم علوم ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسا
في حاله محكما حاله فيه لا يعلق من وفاق الحال ، ولا يبلغ كال الثوال ، يفتد عند حظه وهو حفيظ واقربس ؛ والذين
أوتوا العلم درجات ؛ ولكن المقام الأول في المشيخة القسم الرابع - وهو المجلوب المتدارك بالسلك ياديه الحق
بالكشف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستبكر بأنوار المشاهدة ، وينشرح ويفتح قلبه ويتجاني
عن غار التورود ويئيب إلى دار الخلود ، ويرتوي من بحر الحال ، ويتخلص من الألال والأللال ، ويقول معلنا :
لا أجد وبالم أجد ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجري عليه صورة المهادنة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل
بثاقدة وعناء ، ويصير قلبه بسطة قلب ؛ لا امتلاء قلبه بحبويه ، ويلين جلده كال لسان قلبه ، وعلا مقلين بالله إجابة قلبه
للسل كإجابة قلبه ، فيريده الله تعالى إرادة خاصة ، ويرزقه محبة عامة المحبوبين المرادين ؛ ينقطع قواصل
ويهرضه فيواصل ، يذهب عنه جوده النفس ؛ ويصقل بجمرة الروح ، وتكشف عن قلبه عروق النفس . قال الله
تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها حقائق تفصح عنه جلود الذين يخشون وجهي ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى
ذكر الله) أخبر أن الجلود تلين كأن القلوب تلين ؛ ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد . وهو يورده في الخبر : أن
إيليس سأل السليل إلى القلب ؛ فقبل له : يرمم عليه ولكن السليل لك في مجاري العروق الشبكية بالنفس إلى حد
القلب ، قلنا دخلت العروق عرفت فيها من ضيق مجاريها ، وأمتزج عرقك بماء الرحمة الماز شين من جانب القلب في
مجري واحد ، ويصل بذلك سلفائك إلى القلب ، ومن جلت نيا أو دنياه فلتلك تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب
سليا ، قلنا دخلت العروق لم تصل إلى الشبكية بالتلب خلاصل إلى القلب سلفائك ، فالعروب المراد الذي أهل للشيخة
سلم قلبه وانشرح صدره ولا ن جلده ، فصار قلبه يطبع الروح ويحمه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت أمارة

بالسر، مستحبة ولا تالفة عين النفس وودل صورته الأعمال بسو جنان الحال ، ولا يزال روحه يجذب إلى الحضرة الإلهية فيستبج الروح القلب وتستبج القلب النفس ويستبج النفس القلب ، فامتزجت الأعمال القلبية والقلبية ؛ وانغرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ؛ ويصح له أن يقول : لو كشف النظار ما زددت يقينا ، فعند ذلك يعقل من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال لا لحال مسيطرا عليه ، ويصير حر من كل وجه ، والشيخ الأول الذي أخذ في طريق الصبي حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقيا في رق القلب ؛ وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حر من رقة النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلمات أرضي أعنت منه الأول ، والقلب حجاب نوراني حمّار أعنت منه الآخر ، فصار له لا قلبه ، ولوثة لا لوثته ، فبذلك حقا وآمن به صدقا ، وبسبب حسوده وغياها ، وبؤس به فزاده ، وبقر ، لسانه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض عباده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شرة ، وتصير حياته مشاكلة لعبادة للامسكة (روح يسجد من في السموات والأرض ملوعا وكرها وظلاما بالندو والأصال) .

فالتقارب هي الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح للقرية في عالم الدهانة : الأصل كثيف والقليل لطيف ، وفي عالم النيب : الأصل لطيف والقليل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا من أعند في طريق المحبين لأنه يستبج صور الأعمال وينتقل بمسائل من وجدان الحال ، وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ ، ولو كثّر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا شيء من الأعمال كالآخر في عالم القدوة عن القرباب ، فإتت القرباب بآنية العمل بآني ، ومن صبح في اللقائم التي وصفناه هو الشيخ اللطيف والمعارف الحق والمحبوب الحق ؛ نظر بدوا ، وكلامه شفاء ، بالله يطقن وبالله يسكن ، كما ورد : ولا يزال العبد يقترب إلى بالتواقل حتى أحبه ، فلذا أحبته كمنه صامرا بصرا وبدا وموقدا ، في يتلذذ في يصير ، الحديث : فالشيخ يعطي ياقه ويمنع ياقه ، فلا رغبة له في عطا ، ومنع ليعت ، بل هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده ؛ فيكون في الأشياء براء الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم برأب خدمة عباد الله تعالى .

الباب الحادي عشر : في شرح حال الخادم ومن يشبهه به

أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام وقال : يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن لخدمته ، الخادم يدخل في الخدمة رافيا في الثياب ونبيا أحد الله تعالى العباد ، ويتصدى لإيصال الراحة ويغري عاطر القبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويعمل ما يهمله في تعال بنية سالمة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشيء في تعال ، والشيخ يفعل الشيء في تعال ؛ فالشيخ في مقام المفرقين ، والخادم في مقام الأبرار ، فيختار الخادم لبذل والإيتار والارتفاق من الأتعار للأخبار ، وبذيلة وقته تصدق لخدمة عباد الله ، وفيه يعرف الفضل ويرجسه على نواقله وأعماله ، وقد يقيم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضا حال نفسه فيحسب نفسه شيئا لله تعلم وانداس علوم تقوم في هذا الزمان ، وقناعة كثير من الفقراء من الحاجات بالخدمة دون العلم والحال ، فكل من كان أكثر إطماعا هو عديم الحق بالشيخة ولا يظنون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى . وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فيها أخبرنا الشيخ أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر القدسي عن أبيه ، قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله القرني ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي ، قال حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال حدثنا أبي العباس بن محمد الدوري وأبو الأزرهر ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان بن الأزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بطعام وهو بر القهران فقال لأبي بكر وعمر . كلا ، فتألا : إنا صائمان ، فقال : ارجلا لصاحبكما عملنا لصاحبكما

أدوا فكلا بمن أنكا خدمنا بالصوم من الخدمة فاحتجنا إلى من يخدمنا فكلا واغدا انفسكا ، فالخادم يحرم من على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالأسترقاق والهدورة تارة أخرى ، وباستغلال الوقت إلى نفسه تارة ، لئله أنه قيم بذلك ، صالح لإيصاله إلى الموقر عظيم ، ولا يزال أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ، ويرى الشيخ بقوة البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام ومعانة تخلص القية من شوائب النفس والشهوة الخفية ؛ ولو خلصت عليه يتمازج في ذلك ، لوجود مراديه ، وحال تركه الرادو إقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحد بن علي بن خلف بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت محمد بن الحسين بن الحشاب يقول : سمعت محمد بن جعفر يقول : سمعت الجنيدي يقول : سمعت السري يقول : أهرق طريقا مختصرا قصدا إلى الجنة ؛ فقلت له : ما هو ؛ قال : لا تسأل من أحد شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ولا يكن مملك شيء تعطى منه أحدنا شيئا . والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبدل والإيثار فيقدم الخدمة على التواكل ويرى فضلها ، والخدمة فضل على الثالثة التي يأتي بها العبد طالبا بها الثواب ، غير الثالثة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجوده قبل وحد .

ومما يدل على فضل الخدمة على الثالثة ما أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والهي الحافظ القنسي ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان ، قال أخبرنا إبراهيم بن جده بن خريش ، قال حدثنا الحسين بن إسحاق الحملي قال حدثنا أبو السائب ، قال حدثنا أبو معاوية ، قال حدثنا طاسم عن مروق عن أسب قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثنا الصائم ومنا المنظر ، فثنا موقلا في يوم حار شديد الحر ؛ فثنا من يتق الشمس يسيده ، وأكثرنا خلا صاحب الكساء يستظل به ، فثنا الصائمين ، وقام المنظرون فغضروا الألبية وسقروا الركاب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب المنظرون اليوم بالأجر . . وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على الثالثة ، والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ؛ فأما من يعرف تخلص القية من شوائب النفس ويلقبه بالخادم ويتصدى لخدمة الفقراء ويدخل في مداخل الأقدام بحسن الإفادة يطلب التأي بالخادم ، فتكون خدمته مدفوعة ، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته في خدمة القوم ، ومنها ما لا يصيب فيها لما فيه من مزج الحموى فيضع الشيء في غير موضعه ، وقد يخدم جهواه في بعض تصاريفه ، ويخدم من لا يستحق الخدمة في بعض أروافه ، ويحبب الصنفين لكراهة من الخلق مع ما يجب من الثواب ورضا الله تعالى ، وربما خدم لكراهة ، وربما امتنع من الخدمة لوجود حموى يغارمه في حق من يلقاه بمكره ، ولا يراعى واجب الخدمة في طرق الرضا والتعصب لآخراف مزاج قلبه بوجود الحموى ، والخادم لا يتبع الحموى في الخدمة وفي الرضا والتعصب ، ولا يأخذ في الله لومة لائم ويضع الشيء مرضه ؛ فإذا الشخص الذي وصفناه أنفا متخدوم وليس بخادم ؛ ولا يميز بين الخادم والمتخدوم إلا من له علم بصحة الثبات وتخليصها من شوائب الحموى ، والمتخدوم الجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه ولا يبلغ من رتبته لتخلله من هاله مجرد مزج هراء ؛ وأما من أقيم لخدمة الفقراء يسلم رقبته إليه أو يوفر رفق عليه وهو يخدمه كالبيهية أو حظ ما جل يدركه ، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره ؛ فلا ينقطع رفته ما خدم ، وربما استخدم من يخدم ؛ فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه في الماحل يشكر به ويقم به جاءه نفسه بكثرة الآراء والاشياع ، فهو خادم هراء وطالب دنياه ، يحرم نهاره وليله في تعصيل ما يقم به جاءه ويرضى نفسه وأمله وولده . فيسقط في الدنيا ويتركها يترك ذى الخدام والفقراء وتقتصر نفسه بطلب المخطوط ، ويستمر على حب الرياسة ، وكلما كثر رفته كثر مراده وهواه واستطال على الفقراء ، ويخرج الفقراء إلى التلقا المفرط لطلب الرضا وترويا لضميه وميله عليهم بقطع ما يفرح من الرقب فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما ، فليس بخادم ولا متخدوم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرههم وبأنه إليهم وقد أوردنا الخبر المستند الذي في سياقه . هم القوم لا يمتنع بهم جالسهم ، والله الموفق والمعين .

الباب الثاني عشر : في شرح خدمة للشيخ الصوفية

ليس الحركة ارتباط بين الشيخ وبين تلميذه ، ولتحكيم من التلميذ للشيخ في نفسه ، والتحكيم سامع في الشرح لصالح دينية فإذا ينكر الشكر ليس الحركة على طالب صادق في طلبه يتقدم شيئا بمن شأن وعقيدة يحكمه في نفسه لصالح دينه يرشده ويهديه ويعرفه طريق الراجد ويصير به كالتقوس وفساد الأعمال ويدخل العدو ، قبل نفسه إليه ويستسلم رأيه واستصوابه في جميع تصرفاته ، فيليه الحركة إظهارا للتصرف فيه ؛ ليكون ليس الحركة علامة التقوى والتسليم ودخوله في حكم الشيخ ودخوله في حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المباشرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والدي الحافظ للقدس قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد الجار ، قال أخبرنا أحمد بن محمد أبي ميمس ، قال حدثنا يحيى بن محمد بن مساعد قال حدثنا عمرو بن علي بن حفظة ، قال سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثني عيادة بن الوليد بن عيادة بن الصامت ، قال أخبرني أبي عن أبيه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العمر وليس له للشك والتمنع والمكره ، وأن لا تلزع الأثر أهله ، وأن تقول بالحق حيث كنا ولا تخافن الله لومة لائم . فني الحركة معنى المباشرة ، والحركة غيبة الدخول في الصفة ، والقصد الكلي هو الصفة ؛ وبالصفة يرجى للتلميذ كل خير .

ودوي عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وسكن الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق أنه قال : الشجرة إذا بنت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر ، وهو كآل : ويحوز أنها تشر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لها كنهها طعم فأكهة الباشيين . والقدر إذا قل من موضع للموضع آخر يكون أسن حالاً أكثر ثمرة لدخول التصرف فيه ؛ وقد اعتبر الشرع وجود التسليم في السكب العلم ، وأكل ما يقتله بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيراً من الشايخ يقولون : من لم يرفعنا لا يرفع ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأروى عن بعض الصحابة : طنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحرمة ، فالمراد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وأجاب بأدابه ، يسرى من طاعت الشيخ حالاً إلى طاعت المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلحق بطعن المريد ويكون مقال الشيخ مستردع ففالس الخال ، ويشغل الخال من التلميذ إلى المريد بواسطة الصفة وسماع القول ، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ وانسلخ من زيادة نفسه وفي في الشيخ بترك اختيار نفسه ، فإلتا أن الإله يصير بين الصاحب والمصوب امتزاج وارتباط بالنفس الروحية والطهارة القطرية ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدياً بترك الاختيار ، حتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويظهر من الله كالتيقن من الشيخ ، وبعداً هذا الخبر كالمصحة والملازمة للشيخ ، والحركة مقدمة ذلك ، ووجه ليس الحركة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبي الفضل للقدس ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الأديب البغدادي ، قال أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، قال أخبرنا محمد بن إسحق ، قال أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري ، قال حدثنا أبو الوليد ، قال حدثنا إسحق بن سعيد ، قال حدثنا أبي ، قال حدثني أبا عبد الله بن عبد الله بن علي بن أبيه عليه السلام بباب فيها خمسة سواد صغيرة ، فقال : من ترونا كسروها ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتروا بأمر عاك ، قالت : فأتيت فالتصينا بيده فقال : أبل وأخلى ، فترغمارمين ، وجعل ينظر إلى ظم في خمسة أصغر وأمر ويقول : يألم عاك هذا سنة . والثناء هو الحسن بلسان المشقة . ولا غناء أن ليس الحركة على الهيئة التي تشهد بها الشيخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهيئة

والاجتماع لها والاعتقاد بها من استحسان الشيوخ ، وأصله من الحديث ، وأما ذلك أيضا التحكيم الذي ذكرناه ، وأى اعتقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت من الاعتقاد به في هذه الحلق إلى الحق . وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم لتحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم الربيد شيئا واحدا سنة ذلك التحكيم قال الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلو تسلياً) وسبب نزول هذه الآية : أن الربيد بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة - والشرج صيل الماء - كانا يفتيان به التخل ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للربيد : اسق بلزير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الربيد وقال : تعز رسول الله لأن حته . فأرسل الله تعالى هذه الآية فلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الاتياد طامراً ونزى المخرج وهو الاتياد طامراً ، وهذا شرط المربيع الشيخ عبد التحكيم ، فليس الحرة يزول اتهام الشيخين عن يملك في جميع تصرفاته ويحتمل الاعتراض على الشيوخ فإنه السهم القاتل للربدين ، وقد أن يكون الربيد يترشح على الشيخ يملك فيلحق ، ويذكر الربيد في كل ما أشكل عليه من تصرفات الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام كيف كان يصدر من الخضر تصرفات يشكرها موسى ، ثم لما كشفه عن معناه بأن لم يوجه الصواب في ذلك ، فهكذا ينبغي الربيد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه حته من الشيخ عند الشيخ فيه بيان وبرهان للحجة ، وبد الشيخ في ليس الحرة تورب عن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلم الربيد تسليمه ورسوله . قال الله تعالى (إن الذين يأمركم أن يعبدوا الله فاعبدوا ما أبديتم من تكلفاً إنما يشكك على نفسه) وبأخذ الشيخ على الربيد عهد الوفاء بشرائط الحرة وبصرفه حقوق الحرة ، فالشيخ الربيد صورة يستغفر الربيد من وراء هذه الصورة للطلبات الإلهية والراضى الحيوية ، ويعتمد الربيد أن الشيخ باب نفسه الله تعالى إلى جانب كرمه ، مبدخل ، وإليه يرجع ، ويقول بالشيخ سوانه ومعاه الدينية والفكرية ويعتقد أن الشيخ يقول بالله الكريم ما يقول الربيد به ، ويرجع في ذلك إلى الخضر كما يرجع الربيد إليه ، والشيخ باب مقترح من المسكاة والمحادثة في الترم والبطقة فلا يتصرف الربيد في المربدياء فهو أمانة الله عنده ، ويستثبت إلى الله بجميع الربيد كما يستثبت بجميع نفسه ومعاه دينه ودينه . قال الله تعالى (وما كان ليشرك أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أميرسل رسولاً) فإرسال الرسول يختص بالأنبياء والوحى كذلك ، والسلام من وراء حجاب بالإحلام والمواقف والمناقب والشيخ والراعيين في العلم .

واعلم أن الربيد مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية ، فأوان الارتضاع أوان لودم المعية والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغي للربيد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه . قال الله تعالى تأدياً للأمة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا منه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذوه ، إن الذين يستأذونكم أن يركبوا الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذوك لبعض شأنهم فأذن إن شئت منهم) وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلا يأذن الشيخ للربيد في المفارقة إلا بعد حله بأن أنه أوان فطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن يفتح باب الفهم من الله تعالى ، فلا يلزم الربيد إزالة الحرج والهمام بالله والفهم من الله تعالى بتربية وتعليمه سبحانه وتعالى لبيده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومن قارن قبل أوان الفطام فإنه من الاعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المقنوم لتغير أوانه في الولادة الطبيعية ، وهذا التلازم بصحة المناهج للربيد الحقيق ، والمربد الحقيق بليس خرفة الإرادة .

واعلم أن الحرة خرفتان : خرفة الإرادة ، وخرفة التبرك : والأصل الذي قصدته المناهج للربدين خرفة الإرادة وخرفة التبرك تشبه بخفة الإرادة ، خرفة الإرادة للربد الحقيق ، وخرفة التبرك للتعب ، ومن تشبه يقوم فهو منهم وسر الحرة أن الطالب الصادق إذا دخل في حجة الشيخ وسلم نفسه وسار كآثره الصغير مع الربد البقية الشيخ يعلمه المستند من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة ، ويكون الشيخ بفؤد بصيرة الإشراف على القواطن ، فقد

يكون للمريد لباس الخشن كلبا للتشغين للزهد فيه في تلك الميعة من اللباس هو كامل في نفسه ليرى بين الزماعة ، فأخذ ما عليه ليس الثام ، وتفسر هو واختيار في ميعة مختصة من اللباس في قصر الكم والتبيل وطوله وعرضه وفترته على قدر حبانها وهواها ، فليس الشيخ مثل هذا الرأى تلك الميعة ثوبا يكسر بذلك على نفسه هواها وفرحها ، وقد يكون على المريد ملبوس تلم أو ميعة في اللباس تشرب النفس إلى تلك الميعة بالعادة ، فيلبس الشيخ ما يخرج النفس من حاجتها وهواها ، فتصرف الشيخ في اللباس كتصرفه في الطعام ، وتكصره في صوم المريد وإفطاره ، وتكصره في أسريته ، إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر ودوام التخل في الصلاة ودوام الخلوة ودوام الخدمة ، وتكصره فيه برده إلى الكسب أو الفتر أو غير ذلك ، فليشيخ إشراف على البواطن وتوسع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أسرمانه ومدايهما يصلح له ، وتوسع الاستعدادات توجهه مراتب الدعوة . قال الله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) بالحكمة وتيقن الصعوبة ، والموعظة كذلك ، والمجادلة كذلك ، فمن يعض بالحكمة لا يعض بالموعظة ولا تصلح دعوته إلا بالحكمة ، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ، ومن هو على وضع الفريين ، ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له موى في التشغين أو في التمس ، فيطلع المريد من طاعة ويخرجه من معيق موى نفسه ، ويعلمه باختياريه ، ويلبسه باختياريه ثوبا يصلح له وميعة تصلح له ، ويدأى بالحرقة المنصرفة والميعة المنصرفة داموها ، ريشوى بذلك تقريه إلى رضا مولاه ، فالمرید الصادق الملتب باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحده إرادته ، كالسرع الخريص على من يرقه ويخاونه ، فإذا صادف شيئا أئيم من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه ويثبت من باطن المريد صدق الحبة تأتأب القلوب وتسام الأرواح وتظهر سر السائلة فيما باجتاعها لله في الله وبالله ، فيكون القميص الذي يلبس المريد خرقه تهبشر المريد بحسن حناية الشيخ به فيعمل عند المريد عمل قبص يوسف عند يعقوب عليهما السلام .

وقد قل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين أتى في النار جرد من ثيابه وقذف في النار حرايا ، فأما جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام فلما مات وروحه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص في أمويذ ، وجعله في عنق يوسف فكان لا يفارقه ، ولما أتى في البئر حرايا جاءه جبريل وكان عليه التتويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني بإجازة ، قال أخبرنا أبو سعد محمد بن أبي العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرني ابن خضويه الحسين بن محمد ، قال حدثنا علي بن جعفر قال حدثنا الحسن بن علي ، قال حدثنا إسماعيل بن عيسى ، قال حدثنا إسحق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن حماد قال : كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن يقبضه لا يرد على يعقوب بعمره ، ولكن ذلك كان قبص إبراهيم ، وذكر ما ذكرناه ، قال : فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك لأن فيه ريح الجنة لا يبع على مبتلى أو ضيق إلا مسح وعوفي ، فتكون الخرقه عند المريد الصادق متصلة إليه عرف الجنة ، لمساعدته من الاعتناء بالصحة له ، ويرى ليس الخرقه من حنائه الله به وفضل من الله ، فأما خرقه التبرك فيطيلها من مقصوده التبرك برب القوم ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالفة هذه الطائفة لتسود عليه يركهم ويتأدب بأدابهم ، فسوف يرقه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة فعل هذا خرقه التبرك مبدولة لكل طالب وخرقة الإرادة متروكة إلا من الصادق الزاغب ، وليس الأزرق من استحسان الشيخ في الخرقه لأن رأى شيخ أن يلبس مريدا غير الأزرق فليس لأحد أن يمتحن عليه لأن المشايخ أرادوا فيما يفعلون بحكم الوقت وكان شيئا يقول : كان القميص يلبس قصيرا لأكام ليكون أهون على الخدمة . ويجوز فليشيخ أن يلبس المريد خرقا فيدفات على قدر ما يصلح من المصلحة للمريد في ذلك على ما أسلفناه من مداوى هواه في اللباس والمقون فيختار الأزرق

لأنه أرقف الفقير لكونه يحمل الرسخ ولا يهجر إلى زيادة النسل لهذا الفنى لحسب ، وما عدا هذا من الوجهة التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إمامي من كلام المتصوفين ليس من الدين والحقيقة بشيء .

سمعت الشيخ سديد الدين أبا القهر المصنفي رحمه الله قال : كنت ينفذني عند أبي بكر الشروطي ، فخرج إلينا فقير من زائريته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء : إنا نقبل ثوبك ؛ فقال : يا أخي ما أفرغ . فقال الشيخ أبو القهر : لا أزال أذكرك لحاله قول الفقير : ما أفرغ ؛ لأنه كان صادقاً ذلك . فأجذبت لقوله ورويت كلاري ذلك ؛ فاختاروا اللون لهذا المعنى ؛ لأنهم من رعاية وإتقاف في شغل شاغل . وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المرء من ألبس وغير ذلك فليشيخ ولا يدع ذلك بمن قصدته وفقره . وعلمنا من الماشايخ من لا يلبس الحرقة ، ويسلك بالرقم من غير لبس الحرقة ، ويؤخذ منه الطوم والآداب ، وقد كان طبع من السلف الصالحين لا يرغبون الحرقة ولا يلبسونها المرءين ، فمن لبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنوشا عند من القشرع . ومن لا يلبسها فله رأي وله في ذلك مقصد صحيح ، وكل تصاريف الماشايخ موجهة على السداد والصواب ولا تغفل عن إتباعها فيه ، وإفهامنا يتبعهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر : في فضيلة سكان الزمان

قال الله تعالى (ق يوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وامام الصلاة ولما ذكر الزكاة يخافون بما يتلقونها بالقلوب والابصار) قيل : ان هذه البيوت هي المساجد ، وقيل : بيوت المدينة . وقيل : بيوت التي عليه الصلاة والسلام . وقيل لما زارت هذه الايتام اوتبرك رضى الله عنه وقال : يا رسول الله ، هذه البيوت منها بيت علي وقاطعة قال : نعم افضلها .

وقال الحسن: فتاح الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فبقي هذا الاعتقاد بالرجال الذكور لا بصور البقاع، وأى بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع.

روى انس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا وراح ولا ابتعاد الأرض بتأدي بعضها بعضاً ، هل من ياك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟ فن قلنا نعم ، ومن قلنا لا ، قلنا قالت لم علم أن لها عليها بذلك فضلاً ، وما من عبد ذكر الله تعالى على شئ من الأرض أوصى له عليها إلا شهدت له بذلك عند ربك وبكت عليه يوم يموت ، وقيل في قوله تعالى (فأبكت عليهم السماء والأرض) تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعة : لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من دكن إلى الدنيا وأتبع الهوى ، فسكان الرباط هم الرجال ، لأنهم يطهروا نفوسهم على طاعة الله تعالى وانضطروا إلى الله ، فأقام الله لهم الدنيا عاصمة .

وروي عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من انتفع إلى الله كفاة مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انتفع إلى الدنيا وكفاة إليها ، وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل نفر يدفع أهله عن وراثة : رباط ، قالوا بعد الرباط يدفع عن وراثة ، والمحقق في الرباط على طاعة الله يدفع به وديته وإبلاءه عن العباد وإبلاءه ، أخبرنا الشيخ السالحي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني بإجازة قال : أخبرنا أبو سعيد محمد ابن أبي العباس الحلبي قال : أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفرغوازي قال : أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال : أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خزيمة قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبو حنيفة الحمصي قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطار ^(١) قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن صباهه إبلان .

(١) قوله «القطار» يمكننا إضافة أول أخرى «الشار» وله «القطار» «البون» والبحر.

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو لا عبادة ركن وصية وضع وبأثم راع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرضى وحده .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولعله وولد ولعله وأهل دورته ودورته حوله ، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فهم .

وروى حارث بن صالح قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي ، هل تدعى في أي شيء . قلت هذا الآية (أصبر وأصابروا ورابطوا) قلت : لا ، قال : يا ابن أخي ، لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرور يربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، والرباط لجهاد النفس وللقم في الرباط مرائب مجاهد نفسه . قال الله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) قال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهووى وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر ، على ما روى في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : ، رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . وقيل : إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : يا أخي كل انتور جنته في بيت واحد والباب على ممدود ، فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزمو ما لمزته اغتلت أمور المسلمين وغلب الكفار ، فلابد من الغزو والجهاد ، فكتب إليه : يا أخي ، لزوم الناس ما نأنا عليه وقولوا فيزواهم على جهادهم : أبا أكبر ، انهم سور فلسطينية . وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن الثبات وصناد الطرقات يحمل ماضيه الأملات الفاترات ، فاجتاع أهل الرباط أسع على الوجه للوضوح له الربط ، ولو تفق أهل الربط بحسن المصانة ورعاية الأوقات وتو ق ما يفسد الأعمال والعبادة ما يصحح الأمور الحادثة البركة على البلاد والعباد .

وقال سري السقلي في قوله تعالى (أصبروا وصابروا ورابطوا) أصبروا وعنا الله نيل جبال السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا أمورا النفس القوام ، وانضموا ما يتبكم القدماء . لعلكم تظلمون بعد على بساط الكرامة . وقيل : أصبروا على بلائ ، وصابروا على نوائ ، ورابطوا في دار أعدائ وانضموا عمة من سوائ ، لعلكم تظلمون بعداً بقاء . وهذه شرائط ساكني الرباط قطع المصانة مع الخلق ، وفتح المصانة مع الحق ، وترك الكلا كسباب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالقات واجتناب التبعات ، وعائق ليله ونهاره العبادة متعوضا بها عن كل عادة ، شفه حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب التفتلات ، ليكون بذلك سربا مجاهدا . حدثنا شيخنا أبو العجب السمرودي ، قال أخبرنا ابن بيان محمد الكاتب ، قال أخبرنا الحسن بن شاذان ، قال أخبرنا دعليج ، قال أخبرنا البغوي عن أبي عبيد القاسم بن سلام ، قال : حدثنا صفوان عن الحارث بن سعيد بن السبب عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إسباغ الوضوء في المسكارة ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة : يغسل الخطايا غسل . وفي رواية : ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا ويرفع بها الدرجات ؟ قلوا : بلى يا رسول الله ! قال : إسباغ الوضوء في المسكارة ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فليسكن الرباط فليسكن الرباط فليسكن الرباط .

الباب الرابع عشر : في مشابة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى (لعلكم أسع على التقوى من أولهم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) هذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : ماذا كنتم تفعلون حتى أتى الله عليكم بهذا الثناء ؟ قلوا كنا نلعب بالمساحير ، وعناؤا أشباه هدامن الأداب بطيعة صوفية الربط بلازموه وشهادته والرباط بينهم ومخبرهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم . وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أحمد بن محمد الجبازي ، قال أخبرنا عيسى بن علي الوزير ، قال حدثنا عبد الله البغوي ،

قال حدثنا ومبان بن بنية ، قال حدثنا عاصم بن عبد الله عن داود بن أبي مند عن أبي الخارث حرب بن أبي الأسود عن طلحة رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها حريف يترسل عريفه ، فإن لم يكن له بها حريف نزل الصفة وكنتهين نزل الصفة ، فالقوم في الرابطة يطلعون متفقون على قصد واحد وعين واحد وأحوال متساوية ، ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها برصف مائل اقتضال (وزعنا مال صدورهم من غل إخوانا على سرور متقابلين) والقبابة باستراة السر والملاية . ومن آخر لانيه خلا فليس بمقابل له وإن كان وجهه إليه ، فأهل الصفة هكذا كانوا ، لأن ثمار النخل والحقد وجودها في الدنيا رأس كل خطيئة ، فأهل الصفة وفسدوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى مشروع فوائد الاستعداد والنقل عن يراطينهم ، وهكذا أهل الربط متقابلون بطوارهم ويراطهم ، يجتمعون على الآفة والمردة يجتمعون للكلام ويجتمعون الطعام ويتعرفون بركة الاجتماع .

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا : يا رسول الله إنا نأكل ولا نلتبص : قال : د لعلكم تفتقرون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه ، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا في سكرجة مرقق ، فقيل : فعل أي شيء كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

قالعباد والزجاج طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون نفوسهم تشتاق للأمرية والخوف فيها لا يضمن فرأوا السلامة في الوحدة ، والصوفية قوة عملهم وصحة عالم نزع عنهم ذلك فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة ، فسجادة كل واحدنا وبه ، وم كل واحد منهم ، ولعل الراحمين لا يتخطى همه سجادة ، ولهم في اتقاة السجادة وجه من السنة : روى أبو سلة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا من ليف يصل عليه من الليل . وروى ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تيسط له الخرة في المسجد حتى يصل عليها . والرباط يمتد على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب غلة ، فالسائح بالزوايا ألقى نظرا إلى ما يدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستعداد بالمحركات والسكنات ، فتنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجه الرفق ، والشاب يفتن عليه جمال النفس بالعودة في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار لكثير البصيرة عليه فيتعبد ويتأدب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وحفظ الأنفس وحراسة الخواص كالكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (سلك امرئ منهم يومئذ شأن يغيبه) كان تخدم من م الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض وهكذا يلين لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مطروقة ، فإذا تخطت أوقات الشبان القفر وانطلق الأول أن يلزم القباب القباب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ القباب بزاوية وموضع غلوه ليحبس القباب نفسه عن دواعي الحوى والحرص فيها لا يضمن ، ويكون الصبيغ في بيت الجماعة قوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات مخالطة وحضور وقاره بين الجلع فيضبط به القهر ولا يتكدر هو . وأما الخدمة فأن من دخل الرباط مبتدئا لم يلق طعم العلم ولم يبقه لفتاوى الأحوال : أن يوسر بالخدمة لتكون عيادته خدمة ، ويجذب بصن الخدمة لقلب أهل الله إليه فتمتد بركة ذلك ويمن الإخوان المشتغلين بالمعبادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الخواص فيبعض بعضهم إلى بعض الخواص فيبعض الله لهم حاجاتهم يوم القيامة ، فيحفظ بالخدمة عن البطالة التي تبيد القلب ، والخدمة عند تقوم من جهة العمل الصالح ، وهي طريق من طرق المزايدة فكسبهم الأوصاف البغية والأحوال الحسنة ، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم ولا مستطاعا إلى الاعتناء بهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال أخبرنا أبو الفضل حيد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو ليم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا علي بن عبد العزيز ، قال حدثنا أبو عبيد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهيدي عن شريك عن أبي حنبل الطائي عن وثيق بن الروي قال : كنت غلوكا لمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان يقول لي : أسلم

فإنه إن أسلمت استنتج بك على أمانة للسلطان ، فإنه لا يثبت أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم ، قال فأبى ، فقال عمر (لا أكره في الدين) فلما حضرته الوفاة أعتق فقال : أذهب حيث شئت . فالتقم بكمهون خدمة الأقباط ويأبون مخالطتهم أيضا ؛ فإن من لا يصب طريقهم ربما استنصر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع ، فإنهم بشر وبدونهم أمور يقتضى طبع البشر ، ويتركها غير ثقة عليه يتقاصدهم ، فيكون إذا قدم لموضع الشقاق على الحق لأمن طريق التميز والفرع عن أحد من المسلمين ، والكتاب الطالب إذا خدم أهل الله للفتن الذين يبلطونه يتأذونهم في الثواب ، وحيث لم يؤمل لأحوالهم السنية يخدم من أهل لها ، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو القاسم محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الخافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو بكر بن خلاد ، قال حدثنا الخوارزمي بن أبي أسامة ، قال حدثنا معاوية بن عمرو ، قال حدثنا أبو إسحق عن حميد بن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يثرب قال حينئذ من المدينة : إن المدينة أنوما ما سرت من مسير ولا طمئنا واديا لا كنا وسكن ، قالوا : وم في المدينة ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر ، فالتقم بخدمته القوم فنوع من بلوغ نوجهم بملء القصور وعدم الأملية ، ظلم حول الخراب بالأذى بجهوده في الخدمة يشغل بالآخر حيث منع النظر ، لجواز الله على ذلك أحسن الجزاء وأتأله من جزيل الطاعة ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ويمتثلون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والدين .

الباب الخامس عشر : في خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتماذهونه ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من رتبة هذه الله الحادية الهدي ، ولست كان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على حدى من ربه . قال الله تعالى (أولئك الذين عدى الله عهدا منهم) وما يرى من التصديق حق البعض من أهل زماننا والاختلاف عن طريق سلفهم لا يندرج في أصل أمرهم ومحقطهم ، وهذا القدر الباقي من آثار واجتماع المتصوفين الربط وما عايناه الله تعالى لهم من الرقى : بركة جسيمة يراملن المشايخ الساجدين ، وأثر من آثار منع الحق في حقهم ، وموردنا لاجتماع في الربط الآن على طاعة القولا تسمي بظاهر الآداب : تفسر نور الجمعية من يراملن الساجدين وسلوك الخلق في منافع السلف ، فهم في الربط بكسب واحد بغير متفكة وعزائم متحدة ، ولا يوجب هذا في غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى في وصف المؤمنين (كأنهم بليان مرصوص) وبكسب ذلك وصف الأعمام قال . (نصيبهم جميعا وفقهم شئ) وروى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إنما المؤمنون بكسب رجل واحد إذا اشتكى عضونهم أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن من المؤمنين اشتكى المؤمنون)

فالصوفية وطبقهم اللازمة من حفظ اجتماع المراملن ، وإزالة التفرقة بين الأشعة المراملن ، لأنهم بنسبة الأرواح اجتماعا ، ورياسة التأليب الإلهي انفقرا ، وبمهادنة القلوب توافقوا ، وللهذه تفتوس وتصفية القلوب في الربط وإبطوا ، فلا بد لهم من التألف والتودد والتصح : وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، المؤمنون بالتحب ويزلف ولا يخير فيمن لا يألف ولا يوزلف .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الخافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه ، قال حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين الخيري ، قال أخبرنا أبو سهل بن زياد النطاط ، قال حدثنا الحسين بن مكرم ، قال حدثنا يزيد ابن عروبن الواسطي ، قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) فهم واجتماعهم فيجتمع براملهم وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم يعمل البعض ، على ماورد ، المؤمن مرآة للمؤمن ، فأى وقت ظهر من آدم أثر التفرقة بانفروا ؛ لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من تضييق حق الوقت ، فأى وقت ظهرت نفس التقيد علوانه خروجه من دائرة الجمعية وسكونا عليه بتضييق حكم الوقت وإعمال السيلة وحسن الرعاية . فيقال بالتألف إلى دائرة الجمعية

أخبرنا شيخنا حياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السمرودي بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم حصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت وريسا يقول : لا يزال الصوفي يهجر ماتاتقروا ؛ فإذا اصطلموا اصطلموا ، وهذه إشارة من وريش إلى حسن تنقيد بعضهم أحوال بعض إشفافا من ظهور النفوس ، يقول : إذا اصطلموا وورفوا المتأخرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساعدة والمراعاة ومساحة البعض البعض في إعمال دقيق آدابهم ، وبذلك يظهر النفوس وتسترى ،

وكان كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : رسم الله أمرا أهدى إلى حيوي . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المروزي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال أخبرنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري ، قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب : أن محمد لما أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار : أرايت لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال : فكننا . قال : فقال ذلك مريين أو لئلا : أرايت لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك فموتنا كقهرم القدرح ؛ فقال عمر : أتمت إذن أتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفي بنفسه وخصوصا مع بعض الإغوان فشرط أخيه أن يتأمل نفسه بالقلب فيؤن النفس إذا فوجئت بالقلب المحسنة مادة البشر ، وإذا لم يلبث النفس بالنفس تارت الفتنة وذعبت العصة . قال الله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا)

ثم الشيخ أراخلم إذا شك إلى فقير من أخيه أنه أن يصاب أربعا شاء ، فيقول للتمدي : لم تمديت ؟ وللمتمدي عليه : ماله أذنبت حتى تمدي عليك وسلط عليك ؟ وملا قالت نفسه بالقلب وفتا بأخيه ، وإصلاحا فتقوى الصفة حقا ؛ فكل منها جان وخارج عن دائرة الجمية فيرد إلى المائرة بالتقار ، فيسود إلى الاستغفار ولا يملك طريق الاصرار .

روى عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسأموا استغفروا ، فيكون الاستغفار ظاهرا مع الإغوان ، وباطنا مع الله تعالى ، ويرون الحق استغفارهم ؛ فلهذا المعنى يقفون في صف التامل على أفعالهم تواضعا وانكسارا .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : ثم واستغفر ؛ فيقول الفقير : ما أرى باطنيا صافيا ، ولا أرى القيام للاستغفار ظاهرا من غير صفاء الباطن ؛ فيقول : أنت لم تفر ككسبك وتقيامك تزيق الصفاء ، فكان بعد ذلك ويرى أثره عند الفقير وتروق القلوب وترفع الرخصة .

وهذا من عاصية هذه الطائفة لا يبتغون والباطن تطوية على وحشة ، ولا يهتمون بظاهر الطمأنينة والباطن تحضر وحشة ، ولا يرون الاجتناع ظاهرا في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتناع بالباطن وذعاب التفرقة والشمس ، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يهجر ود استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادعوا ترحوا ، واخفروا ينظر لكم .

والصوفية في تبجيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة ؛ روى عبد الله بن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحاص الناس حيلة فكنت فيمن حاس ، قلنا : كيف صنع وقد فربونا من الوصف وبقا بالفضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا الله يفتننا فيها ؛ ثم قلنا : لو عرضنا لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن كان لنا توبة ولا ذمينا ، فأعيناه قبل صلاة النداء طرج فقال : من التوبم ؟ قلنا : نحن فقرارون . قال : لا ، بل أنتم المسكارون ، أنا فنة المسكين ، يقال : عكر الرجل ، إذا تولى ثم كر راجعا . والمعكر البطال

والرجاع . قال : فأيتاه حتى قبلنا يده . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قيل يد عمر عند قدميه . وروى عن أبي سريته القتيبي أنه قال : أيتا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزات إليه وقبلته يده . فهذا رخصة في جواز قبيل اليد ، ولكن أدب الصوفى أنه من رأى نفسه متمزجاً بذلك أو ظهر برصها أن يتشمع من ذلك ، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد وما تمتم للإخوان عقيب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الآلة بعد الوضوء ، وقدمهم من سفر الحجرة بالشفرة إلى أوطان الحمية ، فظهر النفس تفرقوا وهدوا ، وبنيته النفس والاستغفار قدموا ورجعوا ، ومن استغفر إلى أغيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وعيد : روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من اعتذر إليه أخوه مدبرة ظم قبلها كان عليه مثل غليظة صاحب للكوس . وروى جابر أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تمصل إليه ظم قبل لم يرد على الخوض .

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئاً من الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال لقي صلى الله عليه وسلم : إن من توبى أن يتبع من مال كله وأجر دار قومي التي فيها أثبت الذنب . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : بمن يملك من ذلك الثلث ، فماتت ست الصوفية طلباً بالترامة بعد الاستغفار والثبارة ، وكل يقدم راحة التألف حتى تكون برابطهم على الاجتماع كأن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفرده به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط القنبر المصدق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقته أو ما يطلب لسكاه بالضرورة : أن يكون عنده من الفضل بالله المأسمة للكسب ، وإلا - إذا كان البطالة والخوض فيما لا يفي عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجد والاجتهاد - فلا يقضى له أن يأكل من مال الرباط بل يكسب ويأكل من كسبه الآن طعام الرباط لأقوام كل شغلهم بالله ، محمد بن الدنيا لشغلهم بخدمه مولا . إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويرتبه يديه ، فيرى الشيخ أن يعلمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة . ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من أنية : أن يتخذه بخدمه الفقراء ، فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته .

روى عن أبي عمرو الزجاجي قال : ألفت عندا الجنيبدة ، فما رأي قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة ، فما كنيت حتى كان يوم من الأيام خلالا للوضع من المأخذاً فتمتدوا نعتاً لي في وكسبت الوضع ونطقته ودرشته وعلقت موضع العبادة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر التنبؤ ، فدخل ورحب بي وقال : أحسنت عليك بها ثلاث مرات . ولا يزال شايع الصوفية يتدبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من العاملة ، وحظ من الخدمة .

روى أبو مخلد قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لثلاثان ، والساقية لثني مائتين ، والحجابة لثني مائتين . وهذا يقتضى مناجى الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يمدون في تركيزهم من الخدمة إلا الكامل الفضل بوقته ، ولأنهم يكامل الفضل مثل الجوارح ، ولكن لغيره دوام الرعاية والحماية ، والفضل بالقلب والكتاب وقتاً وبالقلب دون القلب وقتاً ، وبمقتضى الزيادة من التخصيص ! فإن قيام القنبر بطرق الوقت شغل تام ، وبذلك يؤدي شكر لعمه الفراغ ولعمه الكفاية . وفي البطالة كفران لعمه الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو الصفيح عبد القاهر إجازة ، قال أخبرنا حمزة بن منصور ، قال أخبرنا أحمد بن خلف ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن الحسين ، قال سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول : سمعت علي بن عبد الحميد القضاة يقول : سمعت السري يقول : من لا يعرف قدر الله عليه من سليمان حيث لا يعلم . وقد يسلو الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط ولا يمدون الشباب . هذا في طريق القوم على الإطلاق ، فأما من حيث قوى الشرح : فإن كان شرط التحصيل للتصوفة وحل من زيارتي للتصوفة وليس خرجهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى ، وفي ذلك التامة بأمر عصفور العزبة التي هي شغل أهل الإرادة . وإن كان شرط الوقت حل من يسلك طريق الصوفية عملاً ، وحالاً لا يجوز أكله لأهل البطالات والراكين إلى تعطيل الأوقات ، وطرق أهل الإرادة عند

مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ الفقيه أبو الفتح ، قال أخبرنا أبو الفضل حيد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف ، قال حدثنا جعفر القزويني ، قال حدثنا محمد بن الحسين البجلي بسمرقند ، قال حدثنا عبد الله ابن المبارك ، قال حدثنا سعيد بن أبي أيوب الجراحي . قال حدثنا عبد الله بن الوليد بن أبي سليمان البجلي عن أبي سعيد الخدري عن أبي حنيفة عليه السلام أنه قال : مثل المؤمن كمثل القرس في آخيته يحول ويرجع إلى آخيته ، وإن ذلك مؤمن يسوء ثم يرجع الإيمان ، فأطعوا طعامة الآخية وأولوا معروفكم للؤمنين ،

الباب السادس عشر : في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية : فمنهم من سافر في حياته وأقام في نهايته : ومنهم من أقام في حياته وسافر في نهايته : ومنهم من أقام ولم يسافر : ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة .

ولشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام : فأما الذي سافر في حياته وأقام في نهايته فقصده السفر لطلب العلم : ومنها : لم يلقه من العلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو باليمن ، وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كفة نمل على هدى ما كان سفره ضائعا ، ونقل أن جابر بن عبد الله رسل من المدينة إلى مصر في شهر لحدث بأنه أن أنسا يحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ، وقيل في تفسير قوله تعالى (الساعون) أنهم طلاب العلم .

حدثنا شيخنا حبيب الدين أبو الحبيب السيوري إمامنا قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الحروي ، قال أخبرنا أبو نصر القزويني ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا أبو حنيفة عن سليمان بن أبي حرون ، قال : كنا نأق أبا سعيد فيقول : مرحبا بوعبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن أبي عليه السلام قال : إن الناس لك يبيعون الرجال بأثورتكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين : فإذا أتوك فاستوصوا بهم خيرا ، وقال عليه السلام : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وروى عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياءه صلوات الله عليه وسلم : من جلة منادم في البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين : فليمر به فليأخذ كل صادق مريد ، وقد يتبعه لحظ الرجال كما يتبعه لحظ الرجال . وقد قيل : من لا ينسلك لحظه لا ينفعه الله . وهذا القول فيه وجهان : (أحدهما) أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فله أكثر ما يتكلمهم بلسان قوله : فإذا نظر الصادق إلى أصادقه في مودته ومعدنه وغلوته وجلوته وكلامه وسكوته يلتفت بالنظر إليه : فهو نفع القسط . ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلنفعه أيضا لا ينفع لأنه يتكلم بجواه ، ورواية القول على قدر مرواية القلب ، ورواية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . (والوجه الثاني) أن نظر العلماء الزاهدين في العلم والرجال الذين يترقبون نفع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بجزر بصيره حتى يستدرك الصادق واستثابته لمواهب الله تعالى الخاصة : فيقع في قلبه عربة الصادق من الرصيد ينظر إليه نظر عربة من بصيرة ، ومن جنود الله تعالى فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ويرون آثارا مربية ، وماذا يشكر لشكر من قدوة الله ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأناس من الخاصة أنه إذا نظر إلى إنسان يسلكه بنظره ، جعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكتبه بالاحياء . وقد كان شيخنا رحمه الله بطوف في مسجد الخيف بمكة ويتصلى وجوه الناس ، فقبله في ذلك فقال : شهاد إذا فلروا إلى نفس أكسبو مسادة ، فأنا أعظم ذلك .

ومن جملة القاصد في السفر ابتداء قطع المألوفات ، والانسلاخ من دكون النفس إلى عبودية معلوم ، والتجامل على النفس بتصرع مرارة فرة الآلال والحلان والأمل والأوطان ، فمن صير على تلك المألوفات محبسا فتهلك أجرا

لقد حاز فضلا عظيما . أخبرنا أبو زرعة بن أبي النضر الحافظ القنصري عن أبيه قال أخبرنا القنصري أبو منصور محمد بن أحمد القنصري الأسفهانى ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خريشيد قرقه ، قال حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد التيسيرى ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب ، قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة من ولده بها ، فصل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ، ليت مات بنو موته ، قالوا : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إن الرجل إذا مات بنو موته فليس له من موته إلى منقطع آثره من الجنة » .

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج دعوتها ودعائها ، لأنها لا تسلك تلقين حقائق ذلك بنو السفر . ومضى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على ذاته يتسردلوا ، وقد يكون أثر السفر نفسا مبتدئ كآثار القرائن من الصلاة والصوم والتجهد وغير ذلك ، وذلك أن المتأمل ما يحس سائر إلى الله تعالى من أوطان الظلمات إلى علو القربات ، والمسافر يقطع المسافات ويتقلب المقادير والفتاوى بصنانية قد تامل ، سائر إلى الله تعالى بمراحمه الحوى ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السبلى قال سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت علي بن عبد الرحمن يقول : سمعت الثوري يقول : التصوف ترك كل حظ النفس . فإذا سافر المبتدئ ترك حظ النفس لطمع النفس وتلين كالتين بدوام التأمل ، ويكون لها بالسفر دماغ يذهب منها الحفوة والبيوة الجلية والنفوة الطبيعية ، كالجهد يمد من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طيبة العتيان إلى طيبة الإيمان .

ومن جملة المقاصد في السفر : روية الآثار والسير ، وتسريح النظر في مدارج الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومراحل أقسام الرجال ، واستيعاب التسويج من ذوات المبادات ، وفهم من لسان حال القاطع المتجاوزات ، فقد تجد البقعة تجدد مشرود عبر والآيات ، وتوفر مطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والذلالات . قال الله تعالى (تسريح آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقد كان السرى يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل أذار وأورقت الأشجار طاب الانتظار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إثبات الحول وأطراح حظ القبول ، فصدق الصادق عليه السلام في حسن الحال ، ويزق من الحاق حسن الإقبال ، وفقا يكون صادق متمسك بروتة الإخلاص ذو قلب عامر بالإورق إقبال الحلق ، حتى سمعت بعض المشايخ يركب من بعضهم أنه قال : أريد إقبال الحلق على لآلئ أبلغ نفس حلقها من الحوى ، فلا لآلئ أقبلا أو أدبروا ، ولكن لتكون إقبال الحلق علامة تدل على صحة الحال ، فإذا ابتلى المرء بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركوب إلى الحلق ، وربما يشتت عليه باب من الرقعة وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب المحصورة ، وتره فيه وجه الصلابة والتمسك في خدمة عباده وبذل الوجود ، ولأزال النفس به والضياع حتى يجره إلى السكون إلى الأسباب واستتلاء قبول الحلق ، وربما قربا عليه لجره إلى التصنع والتأمل ويسع الحرق على الرقاق .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمرءه ، أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير ، وهذا نزلة عظيمة للأقدام ، فانه لئلا يدرك الصادق إذا ابتلى بئس من ذلك ويوجه بالنعمة الساجدة والمروة اللامعة إلى السفر ، فيفارق الماروف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويشهد له تامل بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين ، فهذه جملة المقاصد المطلوبة للشارع في بداياتهم ماعدا الحج والعمرة وزيارة بيت المقدس . وقد قل أن مخرج من المدينة قاصدا إلى بيت المقدس وصل فيه الصلوات الخمس ثم أسرع راجعا إلى المدينة من القدس . ثم إذا من الله على الصادق وإحكام أمور حياته ، قلبه في

الأسفار ، ومنه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتش في
 فيه فوائد النظر إلى حال التفتين ، وقطر باطنه باستدراك عرف معارف التفتين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وعامة
 وسير أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دكان أخلاقها وشهواتها الخفية ، وسقط عن باطنه نظر الخلق ، وصار يطلب
 ولا يفتاب ، كما قال الله تعالى (إخباراً عن موسى) (ففروا منكم يا خفكم فربما يدين حكاكم جعل من المرسلين)
 فقد ذلك يرد الحق إلى مقامه ، ويعد بهزيل إلهامه ، ويحمله إماما للتفتين به يتدى ، ودعا للوفيقين به يتدى .
 وأما الذي أقام في بدايته وسافر في نهايته : يكون ذلك قصدا يسر الله له في بداية أمره حصة صحيحة وفيض له
 شيئا طامسا يسلك به الطريق ، ويُدْرَجُه إلى منازل التحقيق ، فيلزم موضع إرادته ويلزم بمسحة من يرد عنه عاده
 وقد كان السبل يقول للمصري في ابتداء أمره : إن خطر يملك من أجملة إلى أجملة غير الله حرام عليك أن تحضرن ،
 فن رزق مثل هذه الصحة يحرم عليه السفر ، فالصحة خير له من كل سفر ونفعية بقصدعاً .

أخبرنا وحى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني بإجازة قال : أخبرنا أبو القزويني عن المصنف بن عبد الكريم
 ابن هرازي القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول : سمعت عياش بن أبي
 الصخر يقول : سمعت أبي بكر الزقاق يقول : لا يكون المرید مربدا حتى لا يكتب عليه صاحب الثبات شيئا عشرين سنة
 فن رزق حصة من ينسب إلى مثل هذه الأحوال السلية والعزائم القوية يحرم عليه للقدارة واختيار السفر ، ثم إذا
 أحكم أمره في الابتداء يلزم الصحة وحسن الانتقاء . وأرتوى من الأحوال ، وبلغ مبلغ الرجال ، وانجس من قلبه
 عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكسبة للسمات يستلطف نفس الرحمن من صدور الصائدين من الإخوان في
 أنظار الأرض وشراع البلدان ، يشرّب إلى التلاق ويذهب إلى الطواف في الآفاق ، يسير الله تعالى في البلاد لقائه
 العباد ، ويستخرج بمخاطبات حاله غيب أهل الصدق والمكملين إلى من يجبر عن الحق ، ويلد في أراض القلوب
 بذر العلاج ، ويكره يبركه نفسه وصحبته أهل الصلاح . وهذا مثل هذه الأمانة العادبة في الإيجال (كزور) أخرج شفاء
 فأدوره فاستلطف قاستري على سرفه) ثم يدركه البعض إلى البعض ، ويكون طريق الرواية مسورا ، وعلم الإفادة مشفورا .
 أخبرنا شيخنا قال أخبرنا الإمام عبد الجبار البجلي في كتابه ، قال أخبرنا أبو بكر البيهقي ، قال أخبرنا أبو علي
 الروادري قال حدثنا أبو بكر بن واسط ، قال حدثنا أبو داود قال أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنا إسماعيل بن جعفر ،
 قال أخبرني الملا بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي حمزة رضى الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم قال : من دعا إلى هدى كان
 له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثامهم
 اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ، وأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك قصدا وبه الحق سبحانه وتعالى ولا يرتفع
 عليه أبواب الخلود وجننه بمتابته . وقد ورد جليل من جليلات الحق توازي عمل التفتين . ثم لما علم من الصدق ورأى
 حاجته إلى من يلتفت به ساق إليه بعض الصديقين . حتى أخذ يلقاه ولفظه ، وتدارك كلفه ، ولفظه بقوله حاله ، وكناه
 يسير للصحة لئلا أهلية في صاحب والمصحب ، وإجراء سنة الله تعالى في إبطاء الأسباب سخطها الإلهية ، رسم
 الحكمة يصرح إلى يسير الصحة ، فيجيب بالغليل الكثير ، ويتبى اليسير من الصحة من اللطيف الكثير ، ويكتفي بالفر
 حظ الاستيعار عن الأسفار ، ويتعرض بأشعة الأتوار من مطالعة النور والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون اقتعروا
 أميكن وأصبروا ، وأنا أقول : خمنوا أميكن وأصبروا . وسمعت بعض الصالحين يقول له قدام طووسناكم وكيف
 تكون رموسهم على وكيف هم في حال القرب ، فن نبع له معنى الحياة في ظلة خيره فإذا بمنع بدخول الطلقات ؟
 ومن التدرج له أطباق السموات في طي شيوته ، ماذا بمنع تغلب طرفه في السموات ؟ ومن جسد أصدقائه يسيره
 متفرقات الكائنات ، ماذا يستفيد من طي الفلوات ؟ ومن خلص تنافسية قفله إلى جمع الأرواح ، ماذا تفيد
 زيارة الأشباح ؟

فيل أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلا وقال قل له إن من هذا التزم والراحة وقد سارت الخالقة ؟

فقال الرسول : قل لأخي : الرجل من ينال الليل كله ثم يصبح في المثل قبل الفاتحة ، فقال ذو النون : حيث أنه هذا كلام لا يملكه أحدنا .

وكان بشر يقول : يا معشر القراء سبحوا طغيوا ، فإن الساء إذا كثر منك في موضع فقير ، وقيل قال بعضهم عند هذا الكلام صريراً حتى لا تنفث ، فإذا أدام المرء غير الباطن يقطع مسافة النفس الأماراة بالسوء حتى تقطع منازل آفاتنا وبطل أخلاقتها للدعوة بالمسودة ، وحق الإقبال على الله تعالى بالسوق والإخلاص ، اجتمع هاتان الترتبات ، واستفاد في حضره أكثر من سفره ، لكون السفر لا يخلو من متاع وكلف ومشوشات وطوارق وتوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم الضعفاء ، ولا يقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطواره إلا الأقوياء . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ركب عنه رجلاً حمل صبي في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال لا ، قال ما أراك تعرفه ! فلما حفظ الله عبده في بابائسره من تشوش السفر ، ومنه يجمع العلم وحسن الإقبال في الحضر وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل في تفسير قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من حيث لا يحتسب) هو الرجل للقطع إلى الله بشكل عليه شيء من أمر الدين فيستقر الله إليه من يحمل لشكائه فلما ثبت قدمه على شروط البداية رزق وعرف المقام من غير سرفرات النهاية ، فيستقر في الحضر انتهى ، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين . وأما الذي أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك . يقول بعضهم اجتهد أن تكون كل ليلة صيف مسجد ، ولا تموت إلا بين متولين . وكان من هذه العبقة إبراهيم الخراساني ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً ، وكان يرى لإن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه تركه ، فكان علم النفس ومعرفة إياه سبباً ومعلوماً .

وحكي عنه أنه قال كنت في البداية أحد عشر يوماً لم أكل وتخطت نفسي أن أكل من خيش البر ، فرائيت الحضر مقبلاً لي فغيرت منه ، ثم التفت فلما هو رجع عني ، فقيل لم يهرب منه ؟ قال تشرفت نفسي أن ينبتني ، فقولاً القراءون بينهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي قال أخبرنا أبو عبد الله بن يوسف بن تايه قال حدثنا أبو محمد الزهرى القاضي قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن أسباط قال حدثنا أبو نعم قال حدثنا محمود بن أبي مسلم - عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن سليمان بن هرم عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحب شيء إلى الله الفقر ، قيل ومن الفقراء ؟ قال الفقراء من بدتهم يشعرون إلى عيسى ابن مريم يوم القيامة ، وهذه كلها أحوال اختلفت وانبجأها الصحة وحسن التوبة مع الله . وحسن التوبة يقتضي الصدق ، والصدق لينة محمود كيف يلقب بالأحوال ، فمن سافر يقبض أن يتلفته حاله ، وبصمته . ولا يقدر على تخليص التوبة من شراب النفس إلا كثير العلم بآثار التوفى ، وأفر الحظ من الزهد في الدنيا . ومن الطوى على عوى كامن ولم يتسقم في الزهد لا يقدر على فصيح التوبة . فقد بدعه إلى السفر لئلا يلبس جبل تساني وهو يظن أن ذلك داعية الحق ولا يبين داعية الحق وداعية النفس ويحتاج الشخص في علم صحة التوبة إلى العلم بمعرفة الخواطر ومشرح الخواطر وعليها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه ، ويؤى الآن إلى ذلك برحمن يدركه من ناله شيء من ذلك ، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفة على يد .

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير في كثير من الأمور ، فقد يجد التقوى الروح بالخروج إلى بعض الصغرى والباقي ، ويكون ذلك الروح مضرباً في ثالي الحال وإن كان يتراعى له طيبة القلب في الوقت وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تنفس وتنفس يلوغ غرضها وتهيب يسير هراها بالخروج إلى الصغرى والتزهد ، وإذا التمت بدت من القلب وتحتت عنه مقنونة إلى متعلق هواها ، فيترشح القلب لا بالصغرى بل بيد النفس منه ، كخصن تباعد عنه قرين بمقتله . ثم إذا جاد للفقير إلى زاويته واستفتح ديوان معاملته وميد دستور حاله ، يجد النفس مثارة القلب بمرد قل موجب لثبتهما ، وكلما زاد تعلقها بغير القلب . وبسبب زيادة تعلقها استرسالها في

تبادل مواها ، فيصور الخروج إلى الصمصاء عين الماء ، ويظن التغير أنه تزويج ودواء ، فقصير على الوحدة والخفوة ، ازدادت النفس ذوباناً ، وخفت والحفت وصارت قريباً سالماً القلب لا يستكثها . وعلى هذا يقاس التزويع بالأسفار ، فلقصص وفيات إلى نوم التروحات ، فمن ظن لهذا الحقيقة لا يفر بالتروحات المستارة التي لا تصمد فانبتها ولا تؤمن غائتها ، ويكتب عنه ظهور خاطر السفر ، ولا يكثر بالخاطر بل يطرحه بدمم الانتفات سبباً عنه بالنفس وتسلولها . ومن هذا القليل - وفاة أعلم - قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشمس تطلع من بين قرني الشيطان ، فيكون النفس عند طلوع الشمس وفيات تسكت تلك الرويات والتهجات من النفس إلى الزواج والطابع ، ويطول شرح ذلك ويمسك . ومن ذلك القليل غلة مرض المريض غدة ، بخلاف الشبات فيشكل اعتزاز النفس بهنجات القلب ، ويدخل على التغير من هذا القليل آفات كثيرة : يدخل في مداخلها اعتزاز نفسه علما أنه أن ذلك حكم نبوض قلبه ، وربما يتردى له أنه باه يصول وباه يقول وباه يتحرك ، فتداني بنبضة النفس وتوحيها . ولا يقع هذا الاستياء إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال ، فاعلم ذلك فاعلمه من رطله . وأقل مراتب الفقر في مبادئ الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستشارة ، وصلات الاستشارة لا تهمل وإن بين فقير حجة عاظم وأربعين له وجه المصلحة للسفر ببيان أوضح من الخاطر ، فلقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستشارة ألباناً لسنة ، ففي ذلك البركة ، وهو من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما حدثنا شيخنا حياه الدين أبو الحبيب السيوري إماماً قال : أخبرنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه ، أن أبا سعيد الكنجري أخبرهم قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي ، قال حدثنا منصور بن أبي نزاسم ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموال عن محمد بن المتكدر عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأ الاستشارة كما يملأ السورة من القرآن قال : « إذا هم أحكم بالأمس - أو أراد الأمر ، فليصل ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدر بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فذلك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه بيته - خير لي في ديني ومعاشي ومعادتي وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فأخبره في ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلمه شرال - مثل ذلك - فأخبره حتى وأصرقني عنه وأقدر الله الخير حيث كان . »

الباب السابع عشر : فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره من الفرائض والنقائص

فأما من الفقه - وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه وهذا الكتاب غير موضوع لذلك ، ولكن نقول على سبيل الإيجاز فيما يذكر الأحكام الشرعية التي هي الأساس الذي يبنى عليه - لابد للصوفي المسافر من علم التيميم والمسح على التلعين والقصر والجمع في الصلاة ، أما التيميم لجائر المريض والمسافر في الجنابة والحديث فقد علم المسافر والعرف من استعماله تلقاً في النفس أو المال أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذهب ، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لطفه أو عطش دابته أو رفيقه ، ففي هذه الأحوال كلها يصل بالتيميم ولا إعادة عليه . وإنما تضمن اليهود يصل بالتيميم ويعيد الصلاة على الأصح . ولا يجوز التيميم إلا بشرط الطلب للقاء في مواضع الطلب . ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر في منزله للاحتطاب والاحتشاش ، ويكون الطلب بعد دخول الوقت ، والسفر القصير في ذلك كالطويل . وإن صلى بالتيميم مع يقين الماء في آخر الوقت جاز على الأصح . ولا يبعد معها صلى بالتيميم وإن كان الوقت باقياً . ومهما ترم وجود الماء بطل تيممه ، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك . وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا يهطل صلاته ولا يلزمه الإعادة ، ويستحب له الترويض بها واستكثافها بالوضوء على الأصح . ولا يقيم القرض قبل دخول الوقت ويقيم لكل فريضة . ويصل بمهما شاء من قوافل يقيم واحد . ولا يجوز أداء القرض بتييم

الثالثة . ومن لم يجد ماء ولا ترابا يصلح عند وجود أحدهما . ولكن إذا كان عندنا لايس للصنف . وإن كان جنبا لأقرأ القرآن في الصلاة بل يذكره تعالى عوض القراءة . ولا يقيم إلا بتراب طاهر غير غائط للرمل والحصى . ويجوز بالنيل على ظهر الحيوان والثوب . ويسمى الله تعالى عند التيمم ، وينوي استيقاظ الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ، ويضم أصابعه نظرية الوجه ويمسح جميع الوجه ، فلو بقي شيء من عمل الفرض غير مسح الوجه لم يصح التيمم . ويضرب طرية يديين بوسط الأصابع ، ويمسح بالتراب على القرض . وإن لم يقدر إلا بغيرتين فصاعدا كيف أمكنه لا بد أن يمس التراب على القرض . ويمسح إذا فرغ إحدى راحتين بالأخرى حتى تصيرا مسحوتين ، ويمسح اليد على مازول من الحبة من غير إيصال التراب إلى اللثابت .

وأما المسح : فيمسح على الخف ثلاثة أيام ربا يلبس في السفر . والمقيم ومأوئيه . وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف ، لأن حين لبس الخف . ولا حاجة إلى التيمم عند لبس الخف ، بل يحتاج إلى كمال الطهارة ، حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف . ويشترط في الخف إمكان متابعتها للمشي عليه وسر محل القرض ، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف ، والأول مسح أعلا وأسفله من غير تكرار ، وعن ارتفع حكم المسح . بانقضاء المدة أو ظهور شيء من عمل الفرض وإن كان عليه لثافة وهو على الطهارة . ينسل القدمين دون استكمال الرضوء على الأصح . والمسح في السفر إذا أقام يمسح كل قسم ، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالسافر . والبد إذا ركب جوريا ولم يلحظ المسح عليه ، ويجوز على المخرج إذا ستر محل الفرض ، ولا يجوز على المسحوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي بالثافة .

فأما القصر والجلب فيجمع بين الظهور والبصر في وقت أحدهما . ويقيم لكل واحدة ولا يفصل بينهما بكلام وغيره . وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء . ولا قصر في المغرب والصبح بل يصلحها كغيرها من غير قصر . وجمع السنين الرواتب يصلحها بالجمع بين السنتين قبل الفريختين للظهور والبصر . وبعد الفراغ من الفريختين يصلح ما يصلح بعد الفريضة من الظهور وكنتين أو أربعا . وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنين الرواتب لها ويرتبهما . ولا يجوز أداء الفرض على الغاية بمال إلا بعد التمام القتال للنازي . ويجوز ذلك في السنين الرواتب والوافل ، ويكتفيه الصلاة على ظهر الغاية ، وفي الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع ، إلا أن يكون قادرا على التمكن مثل أن يكون في عارضة وغير ذلك ، وقوم توجه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، ولا يوجهها إلى القبلة إلا للقبلة حتى لو حرف دابته عن الصواب للتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته . والمأوى يشغل في السفر ويقتنه استقبال القبلة عند الإحرام ، ولا يجوز في الإحرام إلا الاستقبال ، ويقتنه الإيماء ، للركوع والسجود ودكايب الغاية لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضا . وإذا أصبح المسافر مقبلا ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في العزم ، وهكذا إن أصبح مسافرا ثم أقام ، والعزم في السفر أفضل من العطر ، وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام ، فهذا القصر كالقصر في كل شيء من حكم الشرع في مهام سفره .

فأما التدبؤ والتستب فينبغي أن يطلب لنفسه رفيقا في الطريق يمينه على أمر الدين ، وقد قيل : الرفيق ثم الطريق ، ومن يسر لرفيقه صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده ، إلا أن يكون صوفيا طالما بأفة نفسه يتنظر الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة ، وإذا كثروا جماعة فينبغي أن يكون فيهم متقدم أمير . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرؤا أحدهم ، والذي يسميه الصوفية « يشتر » وهو الأمير ويلبني أن يكون الأمير أزهج الجماعة في الدنيا ، ولوفرهم حقا من التقوى ، وأنهم مروءة وعارفة ، وأكرمهم شفقة . روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه » . نقل عن عبد الله المزني : أن أبا علي الرضائي رحمه الله قال : قال : « هل أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ، ثم يزل يصل الزاد لنفسه ولأب على ظهره ، وأعطت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس وفتقه بطنه بكسائه من

الطهر ، وكلما قال لا تزل يقول أستاذ الأمر وعليك الاحتياط والطاعة . فأما إن كان الأمر يصعب القراء فهم الاستيعاب وطلب الرياسة وتتنزل لتسلط على الخدام في الركب ويبلغ نفسه مرأها ؛ فهذا طريق أرباب الهوى للجهل للباين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فليتنهذ نفسه وقته ما ظن إلى الدنيا يمتحنون لتحصيل أغراض النفس والدخول على أبناء الدنيا والطفلة لتوصل إلى تحصيل ما رُبب النفس ، ولا يخطر اجتنابهم ههنا من الخوض في الغيبة والمخول في الدخول المكروه والافتقار في الربط والاستمتاع والفرحة ، وكلما كثُر المعلوم الرباط أظفار الختام وإن تضرعت أسباب الهوى ، وكلما قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الهوى ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يردع إخوته إذا أراد السفر ، ويدعوهم ببقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة ، فلما أردت مفارقتهم شيعني وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال لقمان لابنه : يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه ، وإن استودع امرأته وأمانته وخوائمه حفظك » . وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد أحدكم سحرا فليودع إخوته ، فإِنَّ الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة » . وروى عنه عليه السلام أيضا أنه كان إذا ودع رجلا قال : « زدك الله التقوى » وغير ذلك ، ووجهه للغير حيثما توجهت ، ويلبى أن يمتدح إخوته إذا دعاهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه . فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم ، وإذا جاء رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال الرجل : أحدهم عه يا أمير المؤمنين ، إن أردت أن أخرجك للسفر وأمه حامل به فقلت : تخرج ولدك على هذه الحالة ؟ فقلت : استودع الله ما في بطنك ، خرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فلذا نأثر بلوح على قبرها ، فقلت لقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة تراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت صوامع قوامه ، فأعلنت لمولود حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإنسراج وإذا هذا القدام يدب ، فغيتل : إن هذا وديتهك ولو كنت استودعتنا أمه لوجدتها ، فقال عمر : هو أشبه بك من القرباء بالقراب ، ويلبى أن يردع كل منزل يرحل عنه يركعتين ويقول : اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنوبي ووجهي للغير أيضا توجهت ، وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يزل ولا يلا ودته يركعتين ، فيقبض أن يردع كل منزل ويربط يرحل عنه يركعتين ، وإذا ركب القابة قايل : سبحان الذي سحر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، يسم الله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم أنت الخامل على الظاهر وأنت المستعان على الأمور . والسنة أن يرحل من المنزل بكربة ويبتدىء يومه بالحس . وروى كعب بن مالك قال : قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السفر إلا يرم الحس ، وكان إذا أراد أن يمشى سرية يمشي أول النهار ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول : اللهم درب السموات وما أظن ورب الأرضين وما أظن ، ورب السحابين وما أظن ، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وما جرين : أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين ، وما يلبى للسافر أن يصحبه آفة الظلمة قليل : كان إبراهيم الخواص لا يفرقة أربعة أشياء في الحضر والسفر : الركوة ، والحبل ، والإبره وخيرها ، والمقراض . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة ، والمكحلة ، والهدى ، والسواك ، والشمط . وفي رواية : المقراض ، والصوفية لا يفرقهم النص ، وهي أيضا من السنة .

روى معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخذت متبراً فقد أخذت إبراهيم » ، وإن أخذت العسا فقد أخذت إبراهيم وموسى ، وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال للتبرك على العسا من أنغلاق الأتياح ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصا يتركها عليها ويأمر بالتبرك على العسا : وأخذ ركوة إيمان من السنة . وروى جابر عن عبيدة قال يثا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوخأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه أي أسرها نحوه ، والأصل فيه البكاء ، كالصبي يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

«مالك» قالوا: يا رسول الله ما نجد ما نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك؛ فوضع يده في الزكرة، فظفرت وهو يقول من بين أصابعه مثل البيون؟ قال: فتوضأ القوم منه. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية.

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة: روى أبو سعيد قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال: ادخلوا على أوساطكم بأزركم، فربطنا ومشدنا خلفه المرولة.

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصل ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا، ويضع اليقظة بالركعتين، ويقدم الخف ويضعه، ويضم السكك اليمنى ثم اليسرى، ثم يأخذ الميائنية الذي يشد به وسطه ويأخذ خبطة المدايس ويضعها، ويأخذ الخف فيفرش السجادة طاقين ويضع لعل أحد المدايس بالآخر، ويأخذ المدايس باليسار والآخر بيمينه، ويضع المدايس في الخبطة أعقابها إلى أسفل ويهدر رأس الخبطة، ويدخل المدايس بيده اليسرى من كه الأيسر ويضعه خلف ظهره، ثم يهدى على السجادة ويقدم الخف اليسار ويضعه، ويهدى باليمين فيليس، ولا يدع شيئا من الران أو المعلقة يقع على الأرض، ثم ينسل بيده ويصل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه ويودع الحاضرين، فلما أخذ بعض الإخوان رادته إلى خارج الرباط لا يمتنع، وهكذا يصعد الإبريق، ويودع من شيعه، ثم يهدى الرادية يرفع يدها اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ويهدى الرادية على الجانب الأيسر، ويكرن كتفه الأيمن عاليا ويضعه الرادية على الجانب الأيمن، فإذا وصل في طريقه إلى موضع شرف أو استقبله جمع من الإخوان أو شيخ من الطائفة عمل الرادية ويضعها ويستقبلهم ويسلم عليهم، ثم إذا جاوزوه يهدى الرادية، وإذا دنا من منزل - رباطا كان أو غيره - عمل الرادية ويضعها تحت إبطه الأيسر، وهكذا يصعد والإبريق يسكن ويساره، وهذه الرسوم استحسنها فقراء غراسان والجبل، ولا يمتنعها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب، ويحرم بين الفقراء مشاحة في رعايتها؛ فمن لا يمتنعها يقول: هذه رسوم لا تلزم، والالتزام به ساوقف مع العصور وخلة عن الخلفاء. ومن يمتنعها يقول: هذه آداب وضعتها المتقدمون، وإذا رأوا من يقل بها أو يهينها منها ينظرون إليه نظر الأزداء والمختارون قال: هذا ليس بصواب، وكلا الطائفتين في الإنكار يمتنعون الواجب. والصحيح في ذلك أن من يمتنعها لا يشكر عليه، فليس يمتنع في الشرع وهو أدب حسن. ومن لم يلزم بذلك فلا يشكر عليه فليس يوجب في الشرع ولا مندوب إليه. وكثير من فقراء غراسان والجبل يبالغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإقراط، وكثير ما يغفل بالفقراء العراقيين والشاميين والمختارين إلى حد يخرج إلى التفریط. والواقع أن ما يشكره الشرع يشكره ولا يشكره، ولا يشكره ولا يشكره، ولا يشكره إلا أن ما يشكره لا يشكره ولا يشكره، ولا يشكره إلا أن ما يشكره لا يشكره.

الباب الثامن عشر: في التقدم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

يلينى التفرير إذا رجع من السفر أن يستبد باله تعالى من آفات المقام كما يستبد به من وعاء السفر. ومن الماء المأثور: «لهم إلى أعرذ بكه من وعاء السفر، وكأية المقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد»، وإذا أشرف على يد يري المقام بها، يتبرع بالسلام على من بها من الأحياء والأموال ويقرأ من القرآن ما يسر ويضعه عدية للأحياء والأموال ويكبر، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قتل من غزو أو سجع يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك والهادي وهو على كل شيء قدير، أيون عابدون ساجدون ربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ويقول إذا رأى ملك: اللهم اجعل لنا بها قرارا ورضا حسنا، ولوافضل كان حسنا اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أقبل لمخول مكة، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طلب الأحزاب وتزول المدينة نزح لأمه وأقبل، واستمع، وإلا فيجدد الوضوء ويكف ويطلب يستبد لقاء الإخوان بذلك؛ وبشرى التبرك

بن حنالك من الأحياء والأموات ويروى .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرج رجل يزور أمه له فإنه فأنشد الله بمدرجته مسلماً وقال : أين تريد ؟ قال : أزور فلانة ، قال لفرأيت ؟ قال : لا ، قال : فسمعة له عندك فتشكرها ؟ قال : لا ، قال فمخ تودعه ؟ قال إني أسبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك بأنه يجلبك بجلبك لواء . »

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا نادى الرجل أمه أذناره في الله قال الله له : طيب وطيب عشاءك ، ويطأ من الجنة مثلاً ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت نبيكم عن زيارة القيور فزوروا فلاناً بذكر الآخرة . فيحصل الفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك . فلما دخل البلد يندى بمسجد من المساجد يصل فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع كان آكل وأفضل . وتذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أو لا وصل ركعتين ثم دخل البيت . والرباط للفقير بمنزلة البيت ، ثم يقصد الرباط قصده الرباط من السنة ، على ما روته من طهقرض الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم ليدخل وكان له بها عرف يذول على عرفه ، وإن كان لم يكن له بها عرف نزل الصفة ، فكنت من أنزل الصفة . فلما دخل الرباط يعنى إلى اللوح الذي يريد نزع الخلف فيه ، فيحل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة يمسار به من كه اليسار ويميل رأس الخريطة باليمين ويخرج للدهاس باليسار ، ثم يضع الدهاس على الأرض ويأخذ المياديد ويعلقها في وسط الخريطة ، ثم يرفع عنده اليسار ، فإن كان على الرخوة ينزل قدميه بعد نزع الخلف من تراب الطريق والفرق ، وإذا قدم على السجدة يطوى السجدة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما الطوى ثم يستقبل القبلة ويصل ركعتين ، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يخطأ بها موضع السجود من السجدة ، وهذه الرسوم الظاهرة التي استحسنا بعض الصوفية لا تنكر على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ ، وليلتهم الظاهرة في ذلك : تحييد المرء في كل شيء بيته مضمومة ، ليكون أجهات متقدماً لحركاته غير قائم على حركة يغير قصد وعزيمة وأدب ، ومن أغل من الفقهاء شيء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة ، وكان القليل يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى التبة في الأشياء غلط ، فقلل الفقير يدخل الرباط غير مشعر أكانه ، وقد كان في السفر لم يشمر الأكام قبله أن لا يتماطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بتدوب إليه شرعاً ، وكوناً لاخر يشمر الأكام يقيس ذلك على شد الوسط وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ساطعهم في سفرهم بين المدينة ومكة ، فتشعر الأكام في سناء من الخفوا الارتفاق به في الخلق ، فن كان مقدود الوسط مشعراً يدخل الرباط كذلك ، ومن لم يكن في السفر مقدود الوسط أركان راحياً لم يشد وسطه ، فن الصدق أن يدخل كذلك ، ولا يتعد شد الوسط وقسمير الأكام لنظر الخلق فإنه مكلف ونظر إلى الخلق ، ومنه يتصرف على الصدق وسقوط نظر الخلق ، وما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدون بالسلام ويقولوا للسكر : هذا خلأ المتدوب ، ولا يلبسوا للسكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيها امتدوده وترتهم السلام يشتمل وجوها ، أحدها : بأن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عبد الله بن عمر قال : مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يثواري ، فغضب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب خربة أخرى لمسح بها ذراعيه ، ثم رد على الرجل السلام وقال : « إنه لم يمتن أن أرد عليك السلام إلا أني لم أكن على طهر ، وروى أنه لم يرد عليه حتى ترحأ ثم اعتذر إليه وقال : إني كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر . » وقد يكون جمع من الفقهاء معصيين في السفر ولا يتفق لأحد من حديثه ، فلو سلم المترحم وأسلمه الحدث طهر حاله ، فترك السلام حتى يثوئاً ثم يسلم ويسلم قدمه من يسلم سترأ للخال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يكون بعض القبيح أيضاً على غير طهارة فيستمد لجواب السلام أيضاً بالطهارة ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ؛ وهذا من أحسن ما يذكر

من الوجه في ذلك . ومنها أنه إذا قدم بمافته الإخوان وقد يكون منه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستند بالوضوء والوضوء ثم يسلم بمافتهم . ومنها أن جميع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ؛ فلهذا عليهم السلام قد يترجع منه مراقب ويتفرش محافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بنسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجميع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس . وقال الله تعالى (حتى تستأنسوا) واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم ، ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو يترقب منهم ، يلزم إخوانه والألفة بالنسبة للنوعية الجامعة لهم في طريق واحد ، والفول تتركها للموضع موضعهم ، فيرى البركة في استئناس الفول بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما يهد عذرهم في ترك السلام يفيض لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدئ بالسلام ، فسكان أن من ترك السلام له نية فالتى ابتداء به له أيضاً نية .

ولقد ورد آداب ورد بها الشروع ، ومنها آداب استحسانا شيوعهم ، فها ورد به الشروع : ما ذكرنا من شد الوسط والمسا والركوة والابتداء باليمين ليس الخشوف نزعه باليسار : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا انتسخت فأبدوا باليمين ، وإذا خلعت فأبدوا باليسار أو اعلمها جميعاً أو اعلمها جميعاً ، روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطلع اليسرى قبل اليمن ويابس اليمن قبل اليسرى .

ويستحب السجدة وردت به السنة وقد ذكرناه . وكون أحدهم لا يقدم على سجدة الآخر مشروع ومسنون . وقد ورد في حديث طويل ، لا يؤم الرجل الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه . .

وإذا سلم على الإخوان بمافتهم وبما تفرقه ، فندروى جابر بن عبد الله قال : لما قدم جعفر من أرض الحيرة عافته النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن قايهم فلا بأس بذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال : ما أنا بفتح غير أسرى من يقدم جعفر ، ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام : قبله للمسلم أعاءه للصالح ، وروى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأعاءه ينشئ له ؟ قال : لا ، قيل يلزمه وبقيته ؟ قال : لا . قيل فيصافحه ؟ قال نعم .

يستحب للفقراء المتقين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب يروى عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جئته ، مرحباً بالراكب للهاجر ، مريئ . وإن قاموا إليه فلا بأس وهو مسنون روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدمه .

ويستحب للعلماء أن يقدمه العلماء روى تقي بن صبرة قال وعدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادفه في منزله وصادفنا فالتفت رضى الله عنه ، فأمر بشا بالحرية فقصمت لنا ، وأبينا ابتاع فيه حر . والفتاح للطبق . فأكنا ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصبتم شيئاً ؟ قلنا نعم يا رسول الله .

ويستحب للقدم أن يقدم للفقراء شيئاً لحق التقدم ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة خرجوا وركبواهم لتقدم للقدم يمد المصير وجهه من السنة منع النبي صلى الله عليه وسلم عن طرق الليل .

والصوفية بعد المصير يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والاكتمال على الأذكار والاستغفار يروى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قدم أحدهم من سفر فلا يطرقن أهله ليلاً ، وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً في النحر ؛ فيستحيون التقدم في أول النهار ، فإن قلت من أول النهار فقد يتفق لمؤمن من حلف بعضهم في اللش أو غير ذلك ، فيعذر التغير بنية النهار إلى المصير لا احتمال التمسق ، فإذا صار المصير ينسب إلى قصده في الاحتياط بالنسبة وقدم أول النهار فزمن يكرهون الدخول بعد العصر وانه أعلم ، فإذا صار المصير يؤخر التقدم إلى التمدد ليكون عاملاً بالنسبة لتقدم صلاة ، وأيضاً فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب أن يسلم للقدم ركعتين ؛ فلهذا يكرهون التقدم بعد صلاة العصر ، وقد يكون من الفقراء القادمين

من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويثاله دعوة : فن السنة التقرّب إليه والتردد مطلقاً عنه حتى يتيسر وتذهب عنه الدعوة ، ففي ذلك فضل كثير .

وروى أبو رفاعة قال : أبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحط بقنك : يا رسول الله ، رجل غريب جاد يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ؟ قال : فأقبل إليّ صلى الله عليه وسلم وترك خطبته ، ثم أتى بكري فوائته من حديد فقد رسول الله ثم جعل يملئ مما عليه الله ، ثم أتى خطبته وأتم آخرها . فأحسن أخلاق الفقراء الرقيق بالمسكين ، واحتيال المكره من السموع والرقيق ، وقد يدخل فقير بعض الرباط ويحل بشيء من مراسم التصوف فينهر ويخرج ، وهذا خطأ كبير . فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا القسمة الظاهر ويقصصون الرباط بنية صالحة ، فإذا استقبلوا بالمكره وعشى أن تفسد برأطهم من الأذى ويدخل على المتكبر عليه ضرر في دينه ودينه ؛ فيحذر ذلك وينظر إلى أخلاق التي صلى الله عليه وسلم وما كان يتمتع مع الخلق من الكفاية والرقيق . وقد صرح : أن أعرابيا دخل المسجد وبأى ، فأمر التي عليه السلام حتى أتى بنوب فصب على ذلك . لم ينهر الأعرابي ، بل رفق به وعرفه الراجب بالرقيق والذين . والخطاظة والتخليط والتسلط على المسكين بالثروة والفعل من الثغور الحبيبة وهو جد حال المتصوفة ، ومن دخل الرباط من لا يصلح للقيام به رأساً يصرف من الموضع على الطبق وجه بعد أن يقدم له طعام ويمسك له الكلام ، فهذا الذي يلحق بسكان الرباط ، وما يشده الفقراء من تشديد القام خلق حسن ومعاملة صالحة وردت به السنة ، روى عمر رضي الله عنه قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلام له حبشي يثمر ظهره قنك : يا رسول الله ما شأنك ؟ فقال : إن ثقافة اقتضت في ، فقد يحسن الرضا بذلك من يثمر في وقت تعب وقدومه من السفر . فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التشديد ويستحب به القوم ويساكنه حتى لا يفهمه فلا يلقى بحال الفقراء . وإن كان في الشرع جائز . وكان بعض الفقراء إذا استرسل في القنم واستلذه واستدامت بهتم : فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استمرافه في التشديد ، والآداب الدوام أمور لا يسهم فيها الزكون إلى الرخص .

ومن آداب القنم إذا استمر وقد بعد قدومه أن لا يتبدئ بالكلام دون أن يسأل ، ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة أو مشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعناء السفر ويعود بياضه إلى هيئته ، فقد يكون بالسفر عوارضه تغير بياضه وتكدر حتى يجمع في الثلاثة أيام منه ويصلح بياضه ويستدقده الشايع والزيارات بقوير الباطل ، فإن بياضه إذا كان متوراً يستريح في حظه من الحير من كل شيخ وأخ يزوره ، وقد كنت أسمع شيخنا يوصي الأصحاب ويقول : لا تسكروا أهل هذا الطريق إلا أني أصني أوقاتكم ، وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونور السمع على قدر نور القلب ، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ولبس أن يتأذنه إذا أراد الانصراف : فقد روى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زار أحدكم أعمامه جلس عنده فلا يقرب من حتى يتأذنه ، وإن نوى أن يقيم أياماً من وقته حمة ولتسهل إلى البطالة وترك العمل تشوف أن يطلب خدمة يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه فكفى بالعبادة شغلاً لأننا لخدمة لأهل العبادة نقوم مقام العبادة ، ولا يخرج من الرباط إلا إذا كان المقدم فيه ، ولا يخل شيئا دون أن يأخذ رأيه فيه .

فهذه جل أحوال يشدها الصوفية وآداب الرباط ، والله تعالى يفضله بزيدهم توفيقاً وتأييداً :

الباب التاسع عشر : في حال الصوفى المتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الرفوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب ؛ فهم من كان على القنم لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ؛ ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل في وقت فاته ، ولم في كل ذلك أدب وحد يراعرنه ولا يشدونه ، وإذا كان التقرب بحسب نفسه بالمع بأية الفهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا يلبس الفقير أن يسأل مهما أمكن : فقد حدث التي عليه الصلاة والسلام عن ترك السؤل الباترغيب (١٣ - ملحق كتاب الإحياء)

والترتيب ، فأما الترتيب فباري ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يضمن لي واحدة أنكتفل له بالجنة . قال ثوبان : قلت أنا قال : لأئصال الناس شيئا بفكنا ثوبان تسقط علاقوسه فلا يأمر أحدا بأمره ويؤثر هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبلًا فيصطب على ظهره فيأكل ويشدق غيره من أن يأتي رجلا فيأكله أعطاه أو منعه ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى . . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ المقدسي قال : أخبرني والذي قال أخبرنا أبو محمد الصيرفي ببغداد قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الميرز قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال : أتيت المدينة فقلت دار أبي سعيد فدخلت ووليا المجلس فحدثني أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بعضه جيرا من الجوع ، فقالت امرأة : أمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدنا ما يغفلان فأعطاه وأماه فلان فأعطاه قال : فأتيته وقلت اتس شيئا فذهبت أطالب فأتيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضب ويقول : من يستف بمفداه ومن يستغن يفته الله يوم سألنا شيئا فوجدناه أعطياه وواسيائه ، ومن استغف عنه واستغف فهو أحب إلينا من سألنا ، قال فرجعت ومساك فرزق الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منه .

وأما من حيث الترتيب والتحذير : فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقال : لأئصال المسألة أحكم حتى يأتي الله ، وليس في وجهه من عظمه وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي ترده إلا كلفا ولا كلفنا والقرعة الثمان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يظن بكائه فيعطى . هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصرف الحق لا يسأل الناس شيئا ، ومنهم من يلوم الأدب حتى يؤول إلى حال يستحي من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمر الدنيا إنما همته النفس بالسؤال ترده الحمية ويرى الإقدام على السؤال جرأة فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال إذا قل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاء جبريل وهو من الهواء ، قبل أن يصل إلى النار فقال هل لك من حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، فقال له فسل ذلك ، فقال حسبي من سؤال عليه بحال . وقد يضمن عن مثل هذا فيسأل الله بهودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق .

بلنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء لا يخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه ، فتلبه النفس له ، فقد تنطع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون ، وإما أن يكون ذلك حقبة الذنب وجد منه ، فإذا وجد الفقير ذلك ، وألحت النفس بالمطالبة فليقم ويسبح الرضوخ ويصل ركعتين ويقول بارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فاستغفر وأتوب إليك ، وإن كان رزقا قدره لي فصيل وصوره لي ، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه ولا تخضع المطالبة عن راحته ، فشان الفقير أن يتول حوائجه الحق ، فلما أن برزته الشيء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه ، فله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة ، فإن فتح بابا من طريق الحكمة ولا يفتح بابا من طريق القدرة ويأبى الشيء بخرق العادة ، كما كان يأتي مريم عليها السلام (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله)

حكى عن بعض الفقراء قال جمعت ذات يوم وكان حال أن لأسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد فبجنا امتنعتنا لعل الله تعالى يفتح لي عمل يد بعض حيايه شيئا فلم يقدر ، فتمت جالسا فأتى آت مني فقال لي لأذهب إلى موضع كذا - وجن المرحض - ثم خرقة رزقا فيها قطيعات أخرجهما في مصالحه ، فن تجرد عن المخلوقين ونفرد بالله فقد بنفرد بنفني قادر لا يسره شيء يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء ، وأول من سأل نفسه يسألها الصبر البليل فإن الصادق تعبه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ، قال : فقلت له : ما تفضل بالحبة ؟ فذكر شهوة يفتريها بالحبة ، ثم قال : من ذلك أذهب واسترض الحبة ، قال : قلت لم استرضها من نفسك على أول من أفرض ، وقد نظم بينهم هذا المني فقال :

إذا شئت أن تسترض المال متفقا • على شهوات النفس في زمن العسر
فقل نفسك الإفتاق من كثر صبرها • عليك وإرهاقا إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت ، لفتي وإن أبيت • فكل طرح بعدما واسع المدور

فلما استقد الفقير الجهد من نفسه وأشرف على الصنف وتمسقت الضرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ووتته يخرق من الكسب من شدة الحاجة ، فمذ ذلك يخرع باب السب ويسأل : فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فائتهم .

فقل عن أبي سيد الخراز أنه كان يمد يده عند الحاجة ويقول : ثم شيء له .

وقتل عن أبي جعفر الحنابلة وكان أستاذا لطيفا أنه كان يفرج بين المشايخ ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلوما على قدر الحاجة يمد يده أو يرحم .

وقتل عن إبراهيم بن آدم أنه كان مستكفا بجامع البصرة مدة وكان ينظر في كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفتاراه يطلب من الأبواب .

وقتل عن سفيان الثوري أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق وقال : كنت أذكر لم حديثا في الصلاة فيقدم لي الطعام فأناول حاجتي وأترك ما بيني ، وقد ورد من جاء ولم يسأل فأت دخل النار .

ومن عده علم ولم مع الله حال لا ليال يبتل هذا بل يسأل بالعلم ويمسكه عن السؤال بالعلم .

وحكى بعض مشايخنا عن بعض كان مصرا على المعاصي ، ثم انقلب وأبى وحسنت توبته وصار له حال مع الله تعالى قال : عرفت أن أجمع عند الفقهاء توبيت أن لا أسأل أحدا شيئا وأكتفي بعلم الله تعالى ، قال : فبقيت أياها في الطريق ، ففتحت الله على بالها ، وازداد في وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء ، لجعت وحطت حتى لم يبق طاعة ، فضعفت من المشي وبقيت أناخر من القناعة قليلا قليلا حتى مرت القناعة ، فقلت في نفسي : هذا الآن مني إلتام النفس إلى التهلكة ، وقد منع الله من ذلك ، وهذه مسألة الاضطراب أسأل ، فقامت بالسؤال اليتم من ياطي إنكار

لهذه الحال وقلت : عرصة عقدتها مع الله لا أنقضها ومان على الموت دون نقض عرويتي ، فقصدت هجرة وقصدت في ظلها وطرحيت رأسي استعراحا بالثوب وذعبت القناعة ، فبينا أنا كذلك إذ جاءني شاب متفقه سيف وسركني ،

فقصت وفي يده إندارة فيها ماء فقال لي : اشرب ، فشربت ثم قسم لي طعاما وقال : كل ، فأكلت ، ثم قال لي : أريد القناعة ، فقلت : من لي بالقناعة وقد عبرت ؟ فقال لي : قم ، وأخذيني ومشي معي غبرات ثم قال لي اجلس فاقنائة

إليكم فبقي ، فجلست ساعة فلما أنا بالقناعة ورأيت متوجهة إلى . هذا شأن من يحمل مولاه بالصدق .

وذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : أن بعض الصوفية أول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصل ما أكل المؤمن من كسب يده ، بأنه المسألة عند القناعة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفي ،

وذكر أن جعفر الحلي كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لي والله أعلم أن الشيخ الصوفي لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب به ، وإنما أراد بكسب اليد رفضها إلى الله تعالى عند الحاجة ، فهو

من أصل ما أكله إذا أجاب الله سؤاله وسأله إليه وزله . وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (ربنا إن لنا أولادنا من غير فقير) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : قال ذلك وإن غصرة البقل ترمي في بطنه من

الخرال ، وقال محمد الباقر رحمه الله قالوا وإنه محتاج إلى شق ثمرة ، وروى عن مطرف أنه قال أما والله لو كان عندني شيء ما أبيع المرأة ولكن حله على ذلك الجهد ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن التصريحاذي أنه قال في قول (إن لنا أولادنا من غير فقير) لم يسأل التكليم الحق وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل

غذاء النفس إنما أراد سكن القلب .

وقال أبو سعيد الخراساني : الخلق مترددون بين عالم وبين ما إليهم ، من فطر إلي ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شامد ما إليه تكلم بلسان الخيال والفتور ، ألا ترى حال التكلم عليه السلام شامد خواص ما عاينه به الحق كيف قال : أرى أظفر إنيك ؟ ولما فطر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إني لما أنزلت إلى من غير فقير ؟ وقال ابن عطاء فطر من المبردة إلى البروية فطع وخضع ، وتكلم بلسان الاقتدار بما ورد على سره من الأتوار ، اقتدار البعد إلى مولاه في جميع أحواله ، لا اقتدار سؤال وطلب . وقال الحسين فقير لما خصصني من علم اليقين أن ترفيق إلى عين اليقين وسه ، ووقع والله أعلم في قوله (لما أنزلت إلى من غير فقير) أن الإزال مشعر بصدورته عن حقيقة القرب فيكون الإزال عين الفقر لما تقع بالنزول وأراد قرب النزول ، ومن صح فقره ففقره في أمر آخره كفقره في أمر دنياه ، ورجوعه إليه في الفارين وإياه يسأل حوائج الفارين ، وتساوى عنده الحاجتان فالفهم غير الله شغل في الفارين .

الباب العشرون : في ذكر من يأكل من الفطور

إذا أكل شغل الصوفى بالله وكل زهد كالقواء بمسكة الوقت عليه يترك السبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفاية من الله الكريم ، فيدور عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويكون مقدمة مذاق ينتفع بالله بآمن الشريف بطريق القابة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا بما هو منهى عنه في الشرع يجد غيب ذلك في وقته أو يومه ، كان يقول بعضهم إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلاص ، وقيل إن بعض الصوفية فرض الفطر عنه فلما وآه تألم وقال .

لو كنت من ملازم لم تسليح ليلى • يثر القبيطة من ذهل بن شيئا

إشارة منه إلى أن الماخذ عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضعة التعريفات الإلهية حتى يضمن بصدق العلية وهذا للرافية عن قضيع حقوق المبردة وغالب حكم الوقت ، ويتهرب له حكم فعل الله ويمسح عنه أفعال غير الله فيرى المظهر والمانع هو الله سبحانه ذو القوالب والاعلا وإعانا ، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كاحكي من بعضهم أنه خطر له ما طار الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوق فتحة متفكرا فيها فأكل مع جهرها عن الطيران والشيء والاروية ، فبينما هو كذلك إذ انفتحت الأرض وخرجت سكرجان في إحداهما سمق في وفي الأخرى ماء صافي فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انفتحت الأرض وغابت السكرجان ، قال فلما رأيت ذلك سقطت عن ألي الاهتمام بالرزق فإذا أرقب الحق عبده في هذا المقام يرى عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويرى الدخول في السبب واكتسب بالسؤال وغيره رتبة العوام ويصير مسلوب الاختيار غير متطلع إلى الأفعال ناظرا إلى فعل الله تعالى منتظرا لأمر الله تعالى إلى الأقسام وينتفع عليه باب الإلتزام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وترصده ما يحدث من أماراته تعالى مكاشفا له لعلات من الله تعالى بطريق الأقسام ، والتجمل بطريق الأقسام الدورية من القرب ومنه يترك إلى التجمل بطريق الصفات ، ومن ذلك يترك إلى فعل الذات والإشارة إلى هذه التجليات إلى رتب في اليقين ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أعلى من شيء ، فالتجمل بطريق الأقسام يحدث صفورا حيا والسلام ، والتجمل بطريق الصفات يكسب العلية والأنس ، والتجمل بالذات يكسب الفناء والبقاء ، وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل القناء بمنون به فناء الإرادة ، والغير والإرادة العلق أقسام الموى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، فأما القناء الباطن وهو غير آثار الوجود عند لسان نور الشهود يكون في فعل الذات وهو أكل أقسام اليقين في الدنيا ، فأما تجمل حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة وهو المقام الذي خطى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليل الرجوع ومنع عنه موسى

بلن ترائي ، فليعلم أن قولنا في التجلي إشارة إلى رتب الحظ من اليقين وروية البصيرة قلنا وصل العبد إلى مبادئ أقسام التجلي وهو مطالعة القنصل الإلهي مجردا عن فعل سواء يكون تارة الأقسام من الفتوح . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئة ولا إنشراح قلبا عنده وليوسع به في رزقه فإن كان خنده غنى فليدفعه إلى من هو أحرج منه ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إننا أخذناهم من يخرجهم إلى المحتاج ومنهم من يقف في الإخراج أجمعا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أخبرنا والدي الحافظ أبو الفضل للفسر قال : أخبرنا أبو اسحق بن سعيد الحلي قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال : أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال : أخبرنا أبو الحسن ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال : حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حريظ بن أبي عبد البر عن عبيد الله السدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبطئ البطء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ قمطه أو تصدق به وما جارك من هذا المال وأنت غير مقشوف ولا سائل خذ وما لا تملكه نفسك ، قال سالم : فن أجب ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه . درج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامره للروية ففعل الله تعالى والخروج من تلبس النفس إلى حسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبد الله التستبي عن علم الحال قال : هو ترك التمييز ولو كان هذا في واحد لبثان من أولاد الأرواح وروى يزيد بن عمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جاءه مغرب من أخيه من غير مسئة ولا إنشراح نفس فليقبله قلنا هو شيء من رزق الله تعالى سألته الله إليه .

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى في قبول ما ساق إلى من يمشي عليه ، إنما يخشى على من يرد ، لأن من رده لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بين الزهد ، فليأخذ إسقاط نظرا لخلق تحققا بالصدق والإخلاص بدو إخراجه إلى التميز لإثبات حقيقة ، فلا يزال إلى كمال الحالين زاهدا يراه التميز بين الرتبة للعلم حاله ، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد . ومن أهل الفتح من يمل دخول الفتح عليه ، ومنهم من لا يمل دخول الفتح عليه . فهم من لا يتناول من الفتح إلا إذا تقدمه علم بشريف من الله إياه . ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرده الفعل ، ومن لا ينتظر تقدم العلم فوق من ينتظر تقدم العلم فكلهم مع الله والسلاخ من إرادته وعلم حاله في ترك الاختيار ومنهم من يدخل الفتح عليه لا ينتدبه العلم ولا روية تجرد القنصل من الله ، ولكن يروق شربا من ناحية بطريق روية الصفة ، وقد يتشكر شرب هذا بتوهم مهود الصفة ، وهذا حال خفيف الإحاطة إلى الحالين الأولين لأتباعه في الحبة ووليبة في الصدق عند الصديقين . وقد ينتظر صاحب الفتح العلم في الإخراج أبعدا كما ينتظر في الأخذ لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ . وأتم من هذا من يكون في إخراجه مختارا أو أخذ مختاراً بعد تحققة بصيرة التصرف فإن انتثار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس وهو بنية هوى موجود قلنا زال الاتهام بوجود صريح العلم بأخذ غير محتاج إلى علم متحدد ويخرج كذلك ، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : قلنا أحببت كتمان له صما وبصره ، فبي يسمع وبني يصير ، وبني ينطق ، الحديث فلما أصبح لمرقه صبح نصرته ، وهذا آخر في الأحوال من الكبرية الآخر . وكان شيخنا حبيب الدين أبو العجب السهروردي رحمه الله يمكن عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول : أنا لا أكل إلا من طعام القنصل فكان يرى الشخص في الختام أن يعمل إليه شيئا وقد كان يبين لرائي في الختام أن أحل إلى حماد كذا وكذا . وقيل إنه في زمانا يرى هو في واقعة أو زمانه إنك أحس على فلان بكذا وكذا . وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم ترى طعام القنصل لا يتسلط عليه البلاء . ومعنى طعام القنصل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حاله فهو غني بالله .

قال الرازي : الاختار إلى الله أعلى درجاته والاستثناء بالله أعلى درجة العبدية . وقال أبو سعيد الخزاز :
المعارف تنبيه في تدبير الحق فالتواضع مع التواضع واقف مع الله ناظر إلى الله ، وأحسن ما حيى في هذا : أن
بعضهم رأى الثوري يمد يده ويسأل الناس : قال : فاستعظمت ذلك منه واستدبته له فأقبضه الجند وأخبره فقال
لا يطمع هذا عليك فإن الثوري لم يسأل الناس إلا ليطعمهم سؤلهم في الآخرة فيخرجون من حيث لا يشعرون
الجند ليطعمهم كقول بعضهم اليد العليا يد الأخذ لأنه يملأ الثوب ، قال : ثم قال الجند ما ألبان فوزن ما يتحرم
ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال أحلها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن ليعرف مقدار ما فكيف غلط الجمهور
بالموزون وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال : هات الميزان فوزن مائة درهم
وقال : ردوا وزن له أنا لا ألبان منك شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال : فزاد تسعي فسأله عن ذلك ، فقال : الجند
رجل حكيم يريد أن يأخذ الخيل يطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن فغدا غدت ما كان
له ووددت ما جعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجند فيكي وقال : أخذ مائة ورد مائتا ، ومن لطائف ما سمعت من
أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : لمن عتاجون إلى شيء من العلوم فارجعوا إلى غلواكم وأسألوا الله
تعالى وما يشق الله تعالى لكم الثوب به ففعلوا ثم جاءه من بينهم شخص يعرف بأسميل البطاني ومنه كان قد عليه
ثلاثون دائرة وقال هذا الذي فتح الله لي في واقفي فأخذ الشيخ السكاك فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومنه
ذهب فقدمه بين يدي الشيخ ففتح القرباس وإذا هو ثلاثون صحيفة فترك كل صحيفة على دائرة وقال : هذا فتح
الشيخ [سماويل] أو كلاما هذا معناه . وصممت الشيخ عبد القادر رحمه الله بمثل إلى نفسه وقال : فلان طعام وذوب
التي من ذلك بكنا ذهب وكذا طعاما ، فقال الرجل : كيف أنصرف في وديعة عدى ولو استغنى لك ما أفتيتني
بالشرف ؟ فأقره الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذي طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب
من صاحب الوديعة وهو طائب في بعض نواحي العراق أن أحل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا وهو القدر الذي
عنه الشيخ عبد القادر ، فماله الشيخ بهذا كله على نفسه وقال غفلت بالفقر أن إشاراتهم تكون على غير وجه وطلم
فألمه إذا صح مع الله تعالى رافق هراء متطايحا الله تعالى يرفع الله عن باطنهم الدنيا ويصلب التقي قلبه وينشع
عليه أبواب الرفق وكل المعلوم للسلطة على بعض الفقراء لكون فقرهم ما استكمل الفشل بالله والاعتماد برعاية
حقائق العبودية ، فعمل قدر ما غفلت من العلم بالله ابتليت بهم الدنيا ولزمتهم من هم ما عذبهم بهموم الدنيا
وقدمت وارفت ، وروى أن عوف بن عبد الله السعدي كان له ثلثمائة قنطار صدقة وكان يكون عند كل واحد يوما ،
وأخر كان له ثلاثون صدقة يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند
واحد فكان إخوانهم معلومهم والعلوم إذا أقامه الحق لناظر إلى الله الكامل توحيد يكون نعمة منية . جاء
رجل إلى الشيخ أبي السعود رحمه الله - وكان من أرباب الأحوال السلية والرافقين في الأشياء مع فعل الله تعالى
متكنا من حاله تاركا لاختياره ، ولعله سبق كثيرا من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار رأينا منه وشاهدنا أحوالا
صحيحة عن قوة وتمكين . فقال له الرجل أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخبر أحله إليك ولكي تلبس
الصرفية يقولون للعلوم شوم قال الشيخ نحن ما نقول للعلوم شوم فإن الحق يصلي لنا وفيه نرى فكل ما يقسم لنا
نراه مباركا ولزناه شوما . أخبرنا أبو زرعة [إجازة] قال أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن غفغف الشيرازي [إجازة] قال
أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر الكتاني قال كنت أنا وعمرو السلي
وعياش بن المهدي نصطب على ثلاثين سنة فصل الشتاء على ظهر البحر ، وكنا قد مرنا مكة على التبريد ما نعال الأرض
ما يسوى فلما : وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وعلافة وأربعة وعسة ولا نأكل أسدا فإن ظهر لنا شيء
وهرقا وجهه من غير سؤال ولا نأكل من قبلنا وأكلنا وإلا ملونا ؛ فإذا اشتد بنا الأمر وغشنا على أنفسنا نقصنا
في الترافض فعدنا بأبي سعيد الخزاز فينخذلنا ألوانا من الطعام ولا تصد غيره ولا تبسط إلا إلى ما نعرف من قنوا

وورعه ، وقيل لأبي يزيد : ما رآك تشتمل بكسب من أين معاشك ؟ فقال : مولاي يوزق النكاح والخزير نراه لا يوزق
أبا يزيد ؟ قال السلي : سمعت أبا عبد الله الرازي يقول سمعت سفيانا التميمي يقول : القصور التي لا يكون لها لله
حاجة ، وقيل لبعضهم ما تقتر ؟ قال : وقرف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ القصور الصلوة من يخطيه لئلا يصل إليه على يده . ومن قيل من الوسائل فهو للقرص بالقرص
دلالة منه ، أنبأنا شيخنا حياه الدين أبو العجيب السمرودي قال : أخبرنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن
منصور الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف البزازي قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أحمد بن
علي بن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الفارابي كان يقول : آخر الأقسام الأربعة من أول أقدام المتوكلين ، روى أن
بعض الماروفين زهد ففزع من زهده أن طرق الناس وخرج من الأمصار وقال : لأسأل أحدا شيئا حتى يأتي يوزق
فأخذ يسبح فأقام في سجع جبل سبعا لم يأت فيه شيء حتى كاد أن يتفقد قال : يارب إنا عجبنا فأتى رزق الذي قسمت
لي وإلا فاقضني إليك فألمه الله تعالى في قلبه وعز وجلال لأزلكه حتى تدخل الأعمار وتضم بين الناس فدخل
للمدينة وأقام بين ظهري الناس فجاء هذا يعلم هذا يشرب فأكل وشرب فأوضح في نفسه من ذلك فسمع هاتفا
أرادت أن تبطل حكمت يردك في الدنيا ، أما علمت أن يوزق العباد بأبدى العباد أحب إلي من أن يوزقهم بأبدى
القصور فأوقف مع الفتح استوى عنه أيدى الآدميين وأيدى الكائنات واستوى عنه القدرة والحكمة وطلب
التقار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتباط برؤية الأسباب وإذا صبح الرحمة ثلاث الأسباب في عين الإنسان
أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو حفص عمر قال أخبرنا أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال أخبرنا أحمد بن
أحمد بن حمدان الكبير قال سمعت أحمد بن محمد بن اليسري يقول سمعت محمدا الإسكافي يقول سمعت يحيى بن معاذ
الرازي يقول : من استفتح باب المشي بنهر ما تيسر الأقدار وكل إلى الخلقين ، قال بعض التفتيين كنت ذا صفة
جيلة فأريد من تركها فحاذى في صدرى من أين للعاش ؟ فنهض في حافى لأراه تتقطع إلى وتتهنى في رزقه على
أن أعدمك ولما من أوليائي أو أحرارك منافقا من أعدائي ، فلما صبح حال الصوفى وانقطعت أطعمه وسكت عن
كل تدبر وانقطع عنه الدنيا ، وصلحته الدنيا عادمة وما رخصها عادمة ، فصاحب الفتح يرى حركة الناس
باللهوف حنينة وقبلا .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن في ذلك الموضع من يصله فوافى
أرباب الخيل فحمله ودفع إليه أحد أجرتهم فلما دخل الفار بعد إذنه له اتفق أن أهل المار فخرجوا ما كان منهم من
الديق وتركوا الخيل على السرير يثقف فرأه أرباب وكان يصوم الدهر ، فقال أحد لانه صالح ادفع لي أرباب من الخيل
فدفع له رغبين فردما ، قال أحمد منهما ثم صبر قليلا ثم قال غداها فألقه جدا فلقته فأخذها فخرج صالحا وتبعها
فقال له أحد عجبت من رده وأعده ؟ قال لم ، قال هذا رجل صالح فرأى الخيل فاستقرت نفسه إليه فلما أعليناه مع
الاستقرار رده ثم أيس فردناه إليه بعد الإيس فقبل هنا حال أرباب الصدق وإن سألو أو أعلم وإن أسكوا عن
السؤال أسكوا بهما ، وإن قبلوا قبلوا بهم فن لم يوزق حال الفتح فله حال السؤال والنكاح بشرط العلم فأما السائل
مستكرأ فوق الحاجة لائق وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء سمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل فقال لمن عنده
أم أبل لكه عش السائل ؟ فقال قد عشتي : فظفر عمر فلذا نص إلهه صلاة علوة عبدا ؟ فقال عمر الله عيال ؟
فقال لا ، فقال عمر لست بسائل ولكنك تاجر ، ثم نشر خلاه بين يدي أهل الصدقة وعذبه بالقدرة وروى عن
علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال إن الله تعالى خلقه شربا بقر وعقوبات بقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مشربا أن
يحسن خلقه ويطلع ربه ولا يتكبر حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامة الفقر إذا كان عطوب أن يسره خلقه
وبعض ربه ويكثر الشكاة ويتسخط لقتاده حال الصوفية حسن الأدب في السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على
كل حال كيف تطلب .

الباب الحادى والعشرون

في شرح حال التجريد والتأمل من الصوفية وصحة مقاصد

الصوفي يتزوج كما يتعبد، فالتجريد مقصود أو أن، ولتأمله مقصود أو أن. والصادق يعلم أن التجريد والتأمل لأن الطبع المبرح للصوفي ملهم بلجام العلم. معها يصلح له التجريد لا يستطاع الطبع إلى الزواج ولا يقدم على الزواج إلا إذا أصلحت النفس واستحقت إعمال الرق عليها؛ وذلك إذا صارت متفاداة بطراوة بحية إلى ما يراد منها بتأية العقل الذى يتعاضد بها يروق له ويجمعهما بغيره. فإذا صارت النفس بحكومة مطراوة عقد قامت إلى أسرافه وتصلت عن مساحة القلب فيصلح بينهما بالتدريج ينظر في أسرارها بالقسط. ومن صير من الصوفية على المروية هذا الصبر إلى حين يفرغ الكتاب أجله ينتخب له الزوجة انتخبا ويحيى الله له أعزها وأسبأ يورثهم رفيق يدخل طيموروز في ساق إلى إليه ومن استعمل التريد واستغفره الطبع وغاسره الجهل يثوران دعان الشهوة للطاعة لتساع العلم والنحط من أوج البرعة الذى هو فضيلة حاله ويرجع إرادته وشريطة صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هي درجة من الله تعالى إمامة خلقه يصح عليه بالفضائل ويصيده بالحرصان ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال. قال سهل بن عبد الله التستري: إذا كان التريد مال يترفع به زيادة فدخل عليه الابتلاء فرجوه عن الابتلاء إلى حال دون ذلك فتمتصن وحدت، وسمعت بعض الفقهاء، وقد قيل له: لم لا تتزوج؟ قال: للمرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج؟ فالصادقون لهم أو أن يفرغ عنده يتزوجون.

وفد تمارعت الأخبار وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والزواج وتترع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك لتروع الأحوال، ففهم من فضيلة في التجريد، ومنهم من فضيلة في التأمل، وكل هذا التمارض في حق من تمار توفاه برد وسلام لكأن قواء ونهره هواء، وإلا فني غير هذا الرجل الذى يجب عليه الفتنة يجب الكناح في حال الترقان للرق وتكون الخلاف بين الأئمة في غير ذلك فالصوفي إذا صار متأهلا يتجنب على الإغرائن معاونة بالإتيان وصاحته في الاستكثار إذا زوى خفيف الحال قاصرا عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله، أخبرنا أبو زرعة عن والده أبي الفضل القدسي الحافظ قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال أخبرنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أبي ميمى قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز، قال: حدثنا محمد بن هرون قال: أئبانا للغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن صوف بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه فيه نفسه في يومه فأعطى للتأمل حطين والعرب حطا واحدا؛ فحدثنا وكنت ادعى قيل حمار بين أسرار فأعطاني حطين، وأعطاه حطا واحدا فخطب حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ومن حضره، فقبضت منه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفها بطرف صاه وتسقط وهو يقول: كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا؟ فلم يجبه أحد، فقال حمار؛ وحدثنا يارسل الله لقد أكثر لنا من هذا؛ فالتجريد عن الأزواج والأولاد أعز من الوقت فقنير وأجمع لهمه وأبلغهمه وأبلغهم فقنير في ابتداء أسره قطع العلاقات وعمر العرائق والتفتل في الأسفار وركوب الأخطار والتجريد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجابا، وللتزوج انعطاف من المزمة إلى الرخص ورجوع من التروح إلى النفس وتبديد الأولاد والأزواج وعبادان حول سلطان الأمر حاج والتفات إلى الدنيا بعد العادة والانعطاف على الحوى بمقتضى الطبيعة والعادة، قال أبو سليمان النراقى: ثلاث من طلبن قد تدركن إلى الدنيا، من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث، وقال: ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته. أخبرنا الشيخ طاهر قال أخبرنا والى أبو الفضل قال أخبرنا محمد بن إسماعيل الهري قال أخبرنا أحمد بن الحسن قال أخبرنا حاجب الطوسي قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا القزري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ما تركت بشي قطة أخر على الرجال من النساء ، وروى به من عاين من جبل ، قال ابتلينا بالضراء فصرنا وابتلينا بالسراة فلم نصبر وإن أخوف ما أخاف عليكم قطة النساء إذا تسون بالذهب وليس ربط الثمام وعصب الحن وأمنن التي وكلفن القفير ما لا يجد ، وقال بعض الحكماء معالجة المرأة خير من معالجة النساء ، وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عين خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقيل في تفسير قوله تعالى (خلق الإنسان ضعیفاً) لأنه لا يصبر عن النساء وقيل في قوله تعالى (وبنا ولا تحسنا ما لا علم لنا به) الثالثة .

فلن قدر القفير على مقاومة النفس وروى العلم الوافر بحسن السامعة في معالجة النفس ومبرهن فقد حاز الفضل واستعمل العقل ، واحتدى إلى الأمر السهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم بعد الاثنين رجل خفيف الحاذ ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذي لا أهل له ولا ولد ، وقال بعض القراء : لما قيل له تزوج - أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج من إلى الزوج ، وقيل لبشر بن الحارث : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه نارك السنة - يعني الشكاح - فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالقرض عن السنة - وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة غشت أن أكون جلاباً على الجسر .

والصوفى مبتلى بالنفس ومطالبها وهو قتل شغل عن نفسه ، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته ينصف طلبه وكل إرادته ويفترع عنه . والنفس إذا أطعت طمعت ، وإذا أمنت قمت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر الشكاح بإدامة الصوم ، فإن الصوم أثر ظاهر في قطع النفس وقهرها ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يمتعهن النساء وهم يرفعون الحياض فقال : يا مشرك الشاب : من استطاع منك ليلتين تزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ، أصل الزواج رض المحصنين ، كانت العرب تهاجم النمل من القمم لذهب طيرته ويسن ، ومنه الحديث : هي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكيتين لمسلمين موجوبين ، وقد قيل هي النفس إن لم تقمها شئتلك ، فإذا أدام الشاب المريد الصل وأذاب نفسه في العبادة نقل عليه خواطر النفس ، وأبنا شتة بالعبادة يشر له حلاوتها السامعة ، وعجة الإكثاره ، ويفتح عليه باب السهولة والعيش في الصل فينار على حاله ووقته أن يشكرك بهم الوجبة

ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من يامله ، وكذا خطر له خاطر النساء ، والشهوة يلف إلى الله تعالى بحسن الإنابة فينتاركة الله تعالى حيثل قوة العزيمة ويؤيده بحراثة النفس ؛ بل يشكس على نفسه ثوب قلبه ثوباً لحسن إنابته فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يمرض على نفسه ما يدخل عليه بالكاح من الدخول في التفاضل المدعومة للزوجة إلى القدر والموان ، وأخذ التي من غير وجه ، وما يترفع من القواصع بسبب التفاضل الحاضر إلى حيط المرأة وحراستها والكف في التامصر . وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهل البلاء فقال : كثرة البلاء الرقة المال وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين ، وكذا العيال أحد البسارين . وكان إبراهيم بن آدم يقول : من نود أكل النساء لا يفلح ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرقاعية والدة ، وتتمتع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويقتطع على الباطن خوف الفقر وعجة الإدمار ، وكل هذا يهين عن المتجرد ، وقد ورد : إذا كان بعد المائتين أصبحت العزوبة لائق ، فإن تولت على القفير خواطر الشكاح ، وزاحد باطنه سباني الصلاة والأذكار واللاوة فليستمن بالله ألا ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشر الحال لهم ويسألم مسألة الله في حسن الاختيار ، ويطلب على الأحياء والأموال والمساعد والمساعد ويستعظم الأمر ولا يدخل فيه بلة الاكراه فله باب قطة كبير وخطر عظم وقد قاله تعالى (إن من أرواحكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) ويكثر الضرارة إلى الله تعالى يذكر ليهاب بن بيه في الحلووات ويكرر الاستشارة ، وإن رزق القوة والصبر حتى يمتحن له من فضل الله الحيرة في ذلك فهو السكال والتمام بقدر يكشف الله تعالى لصديق ذلك منما أو إطلاقاً في منابه ، أو يقطعه ، أو على لسان من يشإ إلى دينه ، وسأله أنه إذا

أشار لا يغير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لا يملك إلا بما قد ثبت ذلك يكون تزوجه مبدراً معناه فيه . وسمنا أن الشيخ عبد القادر الجيل قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ، فقال له ذلك الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخس وطريق القوم التلزم بالبرعة . فلا أعلم ما قال الشيخ في جوابه ولكني أول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخسة وأمره على لسان الشرع ، فأما من التبا إلى الله تعالى وانتقر إليه واستخاره فيكاشفه الله بكنيته إياه من ماله ، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يشبه أرباب العزبة لأنه من علم الحال لا من علم الحكم ، ويدل على صحة ما قلنا في - ما نقل عنه - أنه قال : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجتري على التزوج خوفاً من تكدير الوقت فلما صيرت إلى أن بلغ الكتاب أجله سأل الله لي أربع زوجات مائتين إلا من تتفق على إرادته ورغبة ، فهذه ثمرة الصبر الجليل الكامل فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والخروج (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) فإذا تزوج الفقير بعد الاستعصاء والإكثار من الفسادة والفساد وورد عليه وأمره من الله تعالى فإنه فيه فهو الغاية والنهاية . وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستغنى جهده في الهدى والفساد فقد يكون ذلك سخطه من الله تعالى ، ويعان عليه حسن نيته وصدق مقصده ، وحسن رجائه واعتقاده على ربه ، وقد نقل عن عهده بن عباس أنه قال : لا يتم لك الكتاب حتى يتزوج . ونقل عن شيخ من مشايخ غراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يعلم من زوجتين أولاد : فمرب في ذلك فقال : هل يعرف أحدكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف وقفة في معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ قالوا : قد يمشي بذلك ، فقال : لورميت في حمري كله بثل حالتي وقت واحد ما تزوجت قط ، ولكني ما خطر على قلبي خاطر شهوة قط شئت عن حال إلا أنهذا لا استريح منه وأرجع إلى شئ ، ثم قال منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر مصيبة ، فالعاصرون ما دخلوا في النكاح إلا على بصيرة وتصدرا حسب مواد النفس وقد يكون للأفوياء والملاءم الراغبين في العلم أسوال في دخولهم في النكاح لغرض بهم وذلك أنهم بعد طول المحامدات والمراقبات والرياضات قلعت نفوسهم وتقبل قلوبهم ، ولقلوب إقبال وإدبار

يقول بعضهم : إن القلوب إقبالاً وإدباراً ، فإذا أدبرت روحه بالإرقاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق فتبقي قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس وكفها عن المنازعة ، وترك الشهوة والقلوب فإذا اضطابت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها تفرغت عليها حقوقها ، ووجهها يصير من حقوقها حظوظها ، لأن في أداء الحق إقبالاً ، وفي أخذ الحظ انسياحاً ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فإنهم يتسمون بالنكاح المباح ليعصوا إلى النفس حظوظها لأنها ما زالت تغالب هواها حتى صار دافعاً رادعاً ، وصارت الشهوات المباحة والذات للشهوة لا تضرها ولا تفرط عليها عوائدها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب اقتراباً وانسحاباً ، ويعبر بين القلب والنفس مراقبة يصطب أحد هاهنا والآخر ويؤداه كل واحد منهما بما يدل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب سخطه من الله خلق على النفس خلق الطمأنينة فيكون مزيج السكينة لقلب مزيج الطمأنينة للنفس وينتد :

إن السياه إذا اكتست كست الشرى • حلالاً يدهجها التمام الزام

وكذا أخذت النفس حظها من تزوج القلب تزوج الجوار المشفق راحة الجوار . سمعت بعض الفقهاء يقول : النفس تقول القلب كن معي في الطعام أكن معك في الصلاة ، وهذا من الأحوال العزوية لا تصلح إلا للملأ وبانيه وكم من مدح يهلك بترمه هذا في نفسه ، ومثل هذا البعير يزداد بالنكاح ولا يتقص . والبد إذا كل دله يأخذ من الأشياء ولا يأخذ الأشياء منه ، وقد كان الجنيد يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطمئن في الصوفية فقال : يا هذا ما الذي يتقصهم عندك ؟ فقال : يأكلون كثيراً ،

قال : وأنت أيضاً لم جسد كما يهرون أكلت كما ياكلون . ثم قال : ويهرون كثير ، قال : وأنت أيضاً لحفظ
فرجك كما يحفظون زوجت كما يهرون ، قال وأى شيء أيضاً ؟ قال : يسمون القول ، قال وأنت أيضاً نظرت كما
ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سليمان بن حبيطة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن علياً رضي الله عنه كان أزهماً أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سيرة ، وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : خير هذه الأمة
أكثرها نساء . وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عابداً نبئ للنبوة حتى فارق أهل زمانه فذكر له في ذلك الزمان فقال :
لعمري الرجل لو لا أنه تارك لشيء من السنة أغمى ذلك إلى العابد فأخبره فقال : ما فعلت ؟ فإذروا تارك السنة ! فإني لا
أبى عليه السلام فساءه فقال : لعمري إنك تارك الزوج ! فقال ما تركته لأن امرأته وما منعتني إلا أن أقول لا شيء وأنا
عياض على الناس يطعمني هذا مرة وهذا مرة فأكره أن أتزوج بإمرأة أصحها أو أرفقها جيداً ، فقال له في عليه
الصلاة والسلام : وما ينسلك إذا هذا ؟ قال : لعمري قال : أنا زوجك بالحق فزوجته في عليه السلام ابنته وكان عباداً بن
مسعود يقول لولم يبق من حمري إلا عشرة أيام أحييت أن أتزوج ولا أبقى الله عز وجل ما كراهه تعالى في القرآن من
الأنبياء إلا ثلاثاً عاين . وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لرجل السنة ولم يكن يقر به فويل إن عيسى عليه
السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويراه . وقيل إن ركنة من متأهل عهدهم سبعين ركنة من عرب أخبر النبي
صالح بن أبي الفضل قال أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن المهدي القوي القزويني قال أخبرنا أبو طلحة القاسم
ابن أبي البختري الحطاب قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلة الصفار قال حدثنا أبو عبد الله بن محمد بن زيد بن جابر
قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضي الله عنه قالت :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السكاح سلق فمن لم يعمل بسلق فليس مني فتزوجوا فإن مكاتبكم كالأحرار ، ومن
كان ذا طول فليتكع ومن لم يجد فليطعم بالعيام ، فإن الصوم له وجاء ، وما ينشئ للشأن أن يحد من الإفراط في
المخالطة والمداورة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوردته وسياسة أوقافه ، فإن الإفراط في ذلك يقرى النفس ويجرد عنها
ويقترب من ضلالتهم . وللتأمل بسبب الزوجة فتنتان فتنة لعموم وقتة خصوص حاله فتنة محرم حاله الإفراط في
الانتماء بأسباب اللبسة ، كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطعم امرأة فبها يهرى إلا أكبه الله على وجهه
في النار . وفي الخبر : يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يزوجته وأربعوه ولم يبرونه بالقر وبكفوتهم
مالاً يطيق فيدخل في المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك . . وروى أن قرماً دخلوا على يرس عليه السلام فأخبرهم ،
وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتزوجه امرأة وتستطيع عليه وهو ساكت ، فسيروا من ذلك وما به أن يسأله فقال
لا تمسوا من هذا فإني سألت الله فقلت يارب ما كنت معاني به في الآخرة فسيروا لي الدنيا فقال إن حقك باع
فلان تزوج بها فتزوجت بها ، وأنا صابر على ما ترون ، فإذا فرط الفقير في المداورة بدأ يفتنى حال اعتدال في وجهه
لللبسة متعللاً بها الزوجة فهذا فتنة محرم حاله . وقتة خصوص حاله الإفراط في الجمالة والمخالطة تنطلق النفس
عن قيد الاعتدال وتسترق الفرض بطول الاسترسال فيشرب في قلب بسبب ذلك السهو والفتنة ، ويستطش مقار
اللهة فيقل الوارد لفتنة الأورد ويستكثر الحال لإحمال شروط الإحمال . وألطف من مذهب الثنتين فتنة أخرى
تخص بأهل القرب والحضور وذلك أن تنفوس امتزاجاً ويرابطة الامتزاج لتعمدوا لتدو وتطرى طبيعتها الجمادة
وتلتهب نورها الخالصة . فعند هذه الفتنة أن يكون للشأن عند الجمالة عياناً باحثاً ينظرهما إلى مولاة وعينان
ظاهراً يستعملهما في طريق هواه ، وقد قاله رابعة في معنى هذا لفظاً :

إلى جعلتلك في القواد محضاً . وأجبت جسمي من أراءد جلوس

فأجسم من اللطيف مؤانس . وحبيب قلبي في القواد أنيس

وألطف من هذا فتنة أخرى يتفلسفها المتأمل ، وهو أن يصير للزوج استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك

الامتزاج موقوفاً على الروح ، وبصير ذلك وليجة في حب الروح النصوص بالكلى بالحضرة الإلهية ، فتبدل الروح وينسد باب المزيد من الفتح ، وهذه البلاغة في الروح ، يمر الشعور بها فتشعر . ومن هذا القبيل : دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة ، وإذا كان في باب الخلال وليجة في الحب يتولد منها بلاغة الروح في القيام بوظائف حسب الحضرة الإلهية ، فإمكانه فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروح يترى سكن النفس فيظن أنه لو كان من قبل الهوى ما سكنت النفس ؟ والغنى لا تسكن في ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذ إليها ، هل أتى استبحث مما يبتلى به القوترون بالمشاهدة ، فوجدت الحمى من ذلك من صورة النفس عند رغوا شراب الشهوة ، إذ لو ذهب علة الشراب ما بقيت الرغبة ، فليذهب ذلك جناً ولا يسمع من يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدح ، ولعلنا لنرى قال الأملج : الجاع يسكن ميجان العشق . وإن كان من غير للمشوق . فليعلم أن مقتده الشهوة ، ويكتب من يدعى فيه حالاً ، وهذه فنن التأمل .

وقفة الحرب مرور النساء بمطامير وأصورهن في متشبه ، ومن أعطى الظهارة في باطنه لا يدس باطنه بمطامير الشهوة ، وإذا صنع الخطر يحرمه بحسن الإنابة واليقاض بالحرب ، ومن سار الفكر كشف الخطر يخرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك جنى حساس الشعور بالخطر فيصير ذلك حلاً خفياً ، وما أتبع مثل هذا الصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال . وقد قيل مرور القاحلة قلب العارفين كعمل القاطعين لهاراً فاعلم .

الباب الثاني والعشرون : في القول في السباح قبولاً وإشارة

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيقيمون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ قيل أحسنه : أي أهداه وأرشد ، وقال هو وجل ﴿ وإذا سمعوا ما نزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ هذا السباح هو السباح الحق . الذي لا يختلف فيه الثامن من أهل الإيمان . محكوم لصاحبه بالهداية والقبول ، وهذا جماع ترد حرارته على برد اليقين تخفيض العين بالجمع ، لأنه تارة يشترحوا والآخر حر ، وتارة يبر شوقاً والشوق حار ، وتارة يبر نخماً والندم حار ، فإذا أثار السباح هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدمتا حصراً ماء ، فإذا أثار السباح بالقلب تارة يخفف الماء فيظهر أثره في الجسد ويخسر منه الجسد ، قال الله تعالى ﴿ تخسر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ وتارة يهظم وقعه وينصب أثره إلى فرق نحو الدماغ كالقبر للعقل فيهظم وقع المتجدد الحادث فتخفف من العين بالجمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتسوج من الروح موجاً يتكاد تنفيع حته لطاق القالب فيكون من ذلك السباح والاضطراب ، وهذه كلها أحوال يهدى أربابها من أصحاب الحال ، وقد يحكيها بدلاً من هوى النفس أرباب الأفعال :

روى أن عمر رضي الله عنه كان يرما برأية في ورده فتخففه البيرة ويسقط ، ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يهدأ ويحسب مريضاً ، فالسباح يستجلب الرحمة من الله الكريم .

روى زيد بن أسلم قال : قرأ ابن زيد كتب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انتموا الهداه عند الرقة فإياهم من الله تعالى ، وروى أم كلثوم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أضر جلد العبد من خشية الله تحانت عنه الذنوب كما تحانت عن الشجرة اليابسة ورقها ، وورداً أيضاً ، إذا أضر جلد من خشية الله حرمة الله تعالى على النار .

وهذه جملة لا تكثر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف في استيعاب الأشمار بالألفان ، وقد كثرت الألفان التي ذلك وبما بينت الأحوال فن شكر يلحقه بالحق ، ومن مولى به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاوزان في طرق الإفراط والتفريط . قيل لأن الحسن بن سالم كيف تشكر السباح وقد كان الجنيد يوسر السقطى وذو القرون يسعون ؟ قال : كيف أذكر السباح وقد أجازته وصحه من هو غير من ؟ فقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المتكر القهر والمعب

في السباع وهذا قول صحيح .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ للقدس قال : أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ، أن أبا بكر دخل عليها وحدها جاريان تقيان ولعبربان يديهن ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بثوبه ، فالتزمتها أبو بكر فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما بأبا بكر فليزنا أيام عبد ، وقال عائشة رضي الله عنها : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستترني برداءه وأنا أنظر إلى الحيفة يهبون في المسجد حتى أكون أنا أسام . وقد ذكر الشيخ أبو طالب السبك رحمه الله ما يدل على تجويزه ، ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم . وقول الشيخ أبي طالب للسبك يستتر لوفور عليه وكان حاله وعطه بأسرال السلف ومكان وروحه ونفاده ونعمه الأصوب والأدلى . وقال : في السباع حرام وسحلا وشبهه ؛ فمن سمعه بنفسه مشاعلة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمقتوله على صفة مباح من جاريته أو زوجة كان شبه لدخول الشهوة ، ومن سمعه يطلب بشاعلة معاني تنله على الدليل وينتدع طرائق الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبي طالب السبك وهو الصحيح . فإذن لا يطلق القول بمنه وتحريمه والإنكار على من يسمع كغفل القراء المتوحدين للبالغين في الإنكار ، ولا ينسج فيه على الإطلاق كغفل بعض المشتهرين به لاهلين شر وطه وآدابهم للقبين على الإصرار .

وتنصل الأمر فيه تفصيلا ، ونوضح للأعية فيه تحريما وتحليلا . فأما المنف والنبابة وإن كان فهما في مذهب الشافعي نسبة ؛ فالأولى تركهما والأخذ بالأسرط والخروج من الخلاف .

وأما غير ذلك فإن كان من التصاعد في ذكر الجنة والنار والتفريق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجليل ، وذكر العبادات والترغيب في الحيرات فلا سبيل إلى الإنكار ، ومن ذلك التنبيل تعاضد الفؤاد والحمايق في وصف النور والمهج ؛ مما يحرم كامن العزم من التنازى وما كن التوق من الحاج .

وأما ما كان من ذكر القنود والمقدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتاهل مثل ذلك .

وأما ما كان من ذكر الخمر والوصل والقطيعة والصدع مما يقرب حله على أمور التي سبحانه وتعالى من قرون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ؛ فمن سمع ذلك وحدث عنه ندم على ما قال أو تجدد عنه عزم لمساخر آت فكيف يكون معاه ؟ وقد قيل إن بعض الراجدين يقتات بالسباع ويتقوى به على العلى والوصال ، ويثير عنه من التوق ما يذهب عنه لعب الجوع ؛ فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقبلة حاضره فيه كأن يسمع الحادي يقول مثلا :

أوب إليك يا رحمن إلى . أسأت وقد تضاعفت القلوب

فأما من هوى لبلى ونسي . زيارتها فإني لا أتوب

فطاب قلبه لما عهده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى المات . يكون في معاه هذا ذكر الله تعالى . قال بعض أصحابنا كما لعرف مواجد أصحابنا في ثلاثة أشياء : عند المسائل ، وعند الغضب ، وعند السباع . وقال الجليل نزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع : عند الأكل لأهم يأكلون من فاكه ، وعند المذاكرة لأهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال النبيين ، وعند السباع لأهم يسمعون بوجد ويهدون حقا

وسئل روم عن وجد الصوفية عند السباع فقال : يشهون للماني التي تعرب عن غيرهم فيشير إليهم إلى الله فيقتسمون بذلك من القرح ، وضع الحجاب الوقت فيعود ذلك القرح بقاء ، فأنهم من يترق بقاء ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يصيح .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلي قال : سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول : المشتمعون استقار وتجل ، فالاستقار يورث التثلب ، والتجل يورث المزبد ، فالاستقار يورثه متسركات الرديين وهو عمل الضعف

والسحر ، والتجمل يتولد منه السكون القواصين وهو على الاستقامة والتمكين . وكذلك على الحضرة ليس فيه إلا القول تحت موارد الحيلة . قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلي : سمعت جدي يقول : المستمع يبغي أن يستمع بقلب ونفس ميتة ، ومن كان قلبه ميتا ونفسه حية لا يجمل له السماع .

وقيل في قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) الصوت الحسن . وقال عليه السلام : له أشد أذنا بالرجل الحسن الصوت بالفرآن من صاحب قينة إلى قينته ، نقل عن الجنيد قال : رأيت إيليس في النوم فقلت له : هل تنظر من أصحابنا بشيء أوتيتهم شيئا ؟ فقال له يسر على شأنهم ويسلم على أن أحبيب منهم شيئا إلا في وقتين : قلت : أي وقت ؟ قال : وقت السماع وعند النظر فإن أسرق منهم فيه وأدخل عليهم به ، قال : لحكيمة ورأى لبعض المشايخ فقال لو رأيت قلت له يا أحمق من سمع من إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أترع أنت عليه شيئا أو تنظر بشيء منه ؟ فقلت صدقت ، ووردت عائشة رضى الله عنها قالت : كنت عندى جارية تسمعى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على ساقها ، ثم دخل عمر ففرت ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله ؟ لحديثه حديث الجارية فقال : لا أرحح حتى أسمع ما يسمع رسول الله ؛ فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصغته ، وذكر الشيخ أبو طالب المكي قال : كان لسماء جارية تسمى ليلان وكان إخوانهم يسمعون إليها ، وقال : أدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعون الثلحين أحدهن للصوفية ، وهذا القول نقلته عن قول الشيخ أبي طالب فقال : وعندى اجتنب ذلك هو العرواب ، وهو لا يسلم إلا بشرط طهارت القلب وضرب البصر والوقف بشرط قوله تعالى (يعلم عائشة الآية وما تخفى الصدور) وما هذا القول من الشيخ أبي طالب المكي إلا مستغرب عجيب ، والتزود عن مثل ذلك هو الصحيح .

وفي الحديث : في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنبأ على نفسه وبثلاثة الزبور حتى كان يسمع الإنس والجن والطيور لسماع صوته . وكان يعمل من مجلسه آلاف من الجناز ، وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعري : لله أعلى مزارا من مزار أبي داود . وروى عنه عليه السلام أنه قال : إن من الصبر الحكمة ، ودخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجدته قوم يقرءون القرآن وقوم يفسدون الضرع فقال : يا رسول الله قرآن وشعر ؟ فقال : من هذا مرة ومن هذا مرة .

والله التابعة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آياته التي فيها :

ولا خير في حكم إنذار يمكن له . يراد الحمى صفوه أن يكدر

ولا خير في أمر إنذار يمكن له . حكم إنذار ما أورد الأمر أصدر

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسنت يا أبا ليلى لا يفتضح الله فاك ، فمات أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس نفرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك لسان منبرا في المسجد فيقوم على المنبر قائما يجهو الذين كانوا يجهون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس مع حسن مادام يتأفح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى بعض الصالحين أبا العباس الحضرة قال ، فقلت له ما تقول في السماع الذي يحتك فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفا الإلال لا يثبت عليه إلا أقدم العلماء . ونقل عن عباد بن يونس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله هل تتكلم من هذا السماع شيئا ؟ فقال ما أنكره ولكن قل لم يقتسمون فيه قراءة القرآن ويستمعون بعده بالقرآن ، فقلت يا رسول الله إنهم يؤذون وينسبون ، فقال أحسنهم يا أبا علي م أصابك . فكان يمشي ويقرأ ويقول كذا في رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخولوا في مباحث الإدارة ونفوسهم ما نزلت على صدق الجماعة حتى يحدث عدم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضب حركاتهم بقانون العلم ويلبسون ما لهم عليهم مشتغلين به .

حكى أنذا الترن لما دخل بفساد دخل عليه جماعة ومعهم قوال : فاستأذنه أن يقول شيئا فأذن له فأند القوال :

صغير هواك طينى • فكيف به إذا احتسكا وأنت جمعت من لقي • هوى قد كان مشتركا

أما ترى لمكتسب • إذا ضحك الخلق بكى قطاب قلبه ، وقام وتواجد وسقط على وجهه والدم ينظر من جبهته ولا يقع على الأرض . ثم قام واحد منهم فخط إليه ذو الترن فقال : اتق الذى يراك حين تقوم • بجلوس الرجل ، وكان جلوسه موضع صدقه وعنده أنه غير كامل الحال غير صالح لقيام متواجد ، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم في قيامه وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا يسمع يؤدى صاحبه إلى طبع موزون ، فيتحرك بالطبع للوزن وتصيرت الوزون والإيقاع للوزن ، وينسبل حجاب نفسه للتبسط بانسياب الطبع على وجه القلب ، ويستقره التشتت للثبوت ، ين الطبع فيقوم يرقص موزونا عزوبا يصنع وهو عزم عند أهل الحق ، ويحسب ذلك طيبة القلب ، وما رأى وجه القلب وطيبته قد تمائل . ولعمري هو طيبة القلب ولكن قلب ملون النفس ميال إلى الهوى موافق لقرى لا يبتدى إلى حسن الثبة في الحركات ولا يعرف شروط صفات الإرادات ، ومثل هذا الرافض قيل : الرقص نقص • لأنه نقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لاسيا إذا انضاف إلى ذلك شوب سركاته بصريح الشفاق والترويع والفتور باللبعض الحاضر من غير غيرية ، بل بدلالة نشاط النفس من الماخرة وتخييل اليد والتقدم ، وغير ذلك من الحركات التي لا يستعدها من التصرف إلا من ليس له من التصرف إلا مجردى بصورة ، أو يكون القوال أريد تنجذب في نفسه إلى النظر إليه وتستند ذلك ونقص غير ظاهر السوء ، أو يكون للنساء إشراق على الجمع وتبرأ من الباطن الملوثة من الهوى يسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد فيكون ذلك حين النفس الجمع على تبرعه فأهل للواخير حيث أنه أرحى حالا من يكون هذا خبيره وحركاته ، لأنهم يرون فسقهم وهذا لإراء وبره عبادة لمن لا يلم ذلك ، أفترى أسدا من أهل الديانات يرضى بهذا ولا يتكره ؟ فن هذا الوجه توجه للنكر الإنكار ، وكان حقيقا بالاحترار ، فكيف من حركات موجهة للفت ، ولم من نهضات تذهب وروق الوقت ، فيكون إنكار للنكر على المبدأ القلب بمنه من مثل هذه الحركات ، ويحلوه من مثل هذه المجالس ، وهذا إنكار صحيح . وقد يرقص بعض الصادقين إيقاع موزون من غير إظهار وجد وحال ، ووجه نيت في ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقهاء في الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالا ووجدا ، يحمل حركته في طرف الباطن ، لأنها إن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير حلة بحكم الحال لما فيها من الهوى ، فنصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تهرى عليه من الضحك والدعابة وملاعبة الأهل والزهد . ودخل ذلك في باب الترويع للقلب ، وربما صار ذلك عبادة بحسن الثبة إذا نرى به استجماع النفس . كأنقل عن أبي الفرداءة قال : إني لأستجم نفسى بشيء من الباطن ليكون ذلك حونا إلى على الحق . ولموضع الترويع كرمه الصلاة في أوقات ليستريح حال الله وترقق القنوس يبيض مآرجها من ترك العمل وتستطيب أو طمان للهل . والأدنى بتركه المختلف ترتيب غفلة للترويع يتروح أصول غفلة . وقد سبق شرحه في غير هذا الباب . لأننى قراء بالصبر على الحق العرف ، فيكون الترويع في أمثال ما ذكرناه من البياح الذى يذوق إلى طوما باطلا يستأن به على الحق ، فإن اللباج وإن لم يكن باطلا حقيقة الشرع ؛ لأن حد البياح ما استوى طرفاه واعتدل جانبا ، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأسرار . وربما يصدق بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه الصادق : الصادق يكون جبهة مريدا لعله ، وباطله مريدا لحقه ، ودينه مريدا لأخره ، ولهذا المعنى حبيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظها ، والموفر عليها حقها لموضع طهارتها وقدها ، فيكون ما عو نصيب الباطل العرفى حق الثبوت من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودة بمرمة الحال في حقه صلى الله عليه وسلم مقبلا بسمة المبادئ . وقد ورد في نصيحة الشكاح ما يدل على أنه عبادة ، ومن ذلك من طريق القياس اشتباهه على المصالح الدنيوية والفنية على ما عطف على شرحه الفقهاء في مسئلة التخل لتواف المبادئ ؛ فلذا يخرج هذا الرافض بهذه التبرؤ من دعوى الحال في ذلك من إنكار النكر فيكون رقصه لاجله ولا له ، وربما كان بحسن الثبة في الترويع يصير عبادة بها إن أخرج في نفسه

فرأيه ولغيره إلى شول وحته وعطفه ، ولكن لا يلحق الرقص بالشيوخ ، ومن يقتدى به لما فيه من مشابة الظهور والظهور لا يلحق بتعظيمه ويأبى حال التمكن من ذلك .

وأما وجه منع الإنكار في السماع فهو أن الشكر للسمع على الإطلاق من غير تفصيل لا يتناول من أحد أمور ثلاثة : إما جعله بالنسبة والآثار ، وإما من غير ما أتبع له من أعمال الأغيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل . أما الجامع بالنسبة والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضي الله عنها وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك ، وفي حركة بعض المتحررين تعرف عنده رسول الله صلى الله عليه وسلم والحبشة في الرقص وقدر عائشة رضي الله عنها إليهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا إذا سلمت الحركة من المكروه التي ذكرناها . وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : أنت مني وأنا منك ، عجل ، وقال لجعفر : أشبهت علي وشلي ، عجل ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا ، عجل ، وكان عجل جعفر في قصة ابنة حمزة فأاغتصم فيها علي وجعفر وزيد . وأما الشكر للمرور بما أتبع له من أعمال الأغيار فيقال : تتركه إلى الله المبدلة لتعمل جوارحه بها ، ولولا لية قلبك ما كان لعمل جوارحه قدر ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، وناحية تفترك إلى ربك خوفا أو رجاء ، فالسامع من الشعر يتأخذ منه معنى يذكره إما فرحا أو حزنا أو انكسارا أو افتقارا كيف يثقل قلبه في أنواع ذلك كما ذكرنا ، ولو سمع صوت طائر طالب له ذلك الصوت وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته خيرة الطائر وتسخيره خلقه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الأصابع كان في جميع ذلك الفكر مسجعا مقدسا ، فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وامتناعا بامتناعه ذكرنا وفكر كيف يذكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت متكفئا في جامع جدة على البحر فرأيت يوما جماعة يقولون في جانب منه شيئا ، فأذكرت ذلك بقائي وقلت : في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام تلك القبة وهو جالس في تلك القبة وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والتي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالراجل بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا حتى يحق أو حتى من حق ، على إذا كان ذلك الصوت من أمر يدعى بالنظر إليه الفتنة ، أو من امرأة غير حرم ، وإن وجد من الأذكاء والأفكار ما ذكرنا : يحرم سماعه خوف الفتنة لا خوف الصوت ، ولكن يحمله سماع الصوت حرم الفتنة ، ولكل حرام حرم ينسحب عليه حكم الشئ لو جهل المصلحة كالقبة للصاب الصائم ، حيث جعلت حرم حرام الواقع ، وكالحلوة الأجنبية وغير ذلك . قبل هذا قد تقتضي المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه فيحصل الشئ حرم الحرام هكذا ، ويترك السماع جامد الطبع عديم التدفق فيقال له : الذين لا يعلمون لذة الواقع ، والمكتوف ليس له بالمال الجراح استمتاع ، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع ، فلذا يشكره من يحب نرى باطله بالثوق والنجبة ؟ ويرى التماس روضه الطيارة في مضيق قفص النفس الأمانة بروضه تسم النسا الأوطار وتطوح له طوابع جنود البرلمان ، وهو موجود في دار القربة يتبرع كأس الحبران ، يتنعمت أعيان الجاهدة ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة ، وكذا قطع منازل النفس بكثرة الأمان لا يقرب من كنية القول وصولا لا يكشف لها سبيل من الجلباب ، فيفروح بنفس الصمداء ويرتاح باللائح من شدة الجرساء ، ويقول غاشبا لنفسه والبطان وهما الما لمان :

أيا جبل لمان بالله غليا • نسيم الصبا يخلص إلى لبيها
فإن الصبا دج إذا ماتتضمت • على قلب محزون تعجل ممرها
أجد بردها أو تشفى من حرارة • على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أعداء بلبل قدينة • وأقتل دماء الساشقين قدديها

وعلل الشكر بقوله هل الحبة إلا امتثال الأمر؟ وهل يعرف غير هذا وهل هناك إلا شوق من الله ويشكر الحبة الحامسة التي تختص بالسما والراحين والأبدال للقرين . ولما تحرر في فهمه اقتصر أن الحبة تستدعي مثالا ونحوها وأجناسا وأشكالاً أنكر حبة القوم ولم يعلم أن القوم يلقوا في ربب الإيمان إلى أنهم من المحسوس وهدوا من فرط التكلف والبيان بالأرواح والنفوس . وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السيد؟ قالت : الله . قال : من خلق الأرض؟ قالت : الله . قال : من خلق الجبال؟ قالت : الله . قال : من خلق النجم؟ قالت : الله . فقال : إن أسمع شأنا ويرى نفسه من الجبل تقطع . فأجمل الأثر إلى الإلهي منكشف للأرواح غير مكيف للنقل ولا مفسر لفهمه ، لأن العقل موكل بهائم العبادة لا يتدنى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ولا يتطرق إلى حرم الشهود المتجلى في طلي التيب المنكشف للأرواح بلا ريب ، وهذا رتبة من مطالعة الجمال رتبة عامة ، وأعم منها رتبة الحبة الحامسة دون العامة مطالعة جمال الكمال من التكبر ياد والحلال والاستقلال بالفتح والقوال والصفات المقدسة إلى ما ظهر منها في الآيات واللامالات في الآزال فلكمال جمال لا يدرك بالحواس ولا يستلطف بالقياس . وفي مطالعة ذلك الجمال أخذنا من الماهين في ما يتجلى الصفات وغير حسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسامع . والأولون صنعوا قسطا من تجل الهات فكانوا يودهم على قدر الوجود وسامعهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة من يمشي على الماء والهواء يسمعون السماع ويعدونه ويترنحون عنه . وقال بعضهم : كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا جمل يتقلب على الماء يز ويص . حتى ورجع إلى مكانه . ونقل أن بعضهم كان يتقلب على القار عند السماع ولا يصح بها . ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه جود عند السماع فأخذ شمة فجعلها في عينه ، قال القائل : قربت من عينه ، أغظر به قرأيت نارا أو نوراً يخرج من عينه يرد نار السمعة وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتضع من الأرض في الهواء أدركا وير ويص فيه . وقال الشيخ أبو طالب الحكيم رحمه الله في كتابه : إن أنكرنا السماع بجمل مطلقا غير مقيد بفعل يكون إنكارا على سبعين مدينا ، وإن كنا ندلم أن الإنكار أقرب إلى قرب القراء المتدينين ، وإلا فالافتقار لذلك لا فائدة إلا بالهوى . وسمننا عن السلف من الأصحاب والتابعين مالا يسمعون . وهذا قول الشيخين عن علي بن الرافعي والسنن والآثار مع اجتباؤه ونحوه في الصواب . ولكن بسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر وسمع التليل قالوا يقول : أسألك عن سلفي قبل من غير . يكون له علم بها أين نزل فوضع التليل وقال : لا والله ما في الهادين عنه غير .

وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن العبادة سر صفات الظاهر ، وصفات الظاهر الحركة والسكر وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو بصير السراج أهل السماع على ثلاث طبقات : تقوم برجون في مقامهم إلى غلظات الحق ثم فيها يسمعون ، وتقوم برجون فيها يسمعون إلى غلظات أحوالهم ومقامهم وأوقافهم فهم مرتبطون بالله ومطابقون بالصدق فيها يتسرون به من ذلك ، وتقوم القراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تنلوا قلوبهم بمعية الدنيا والجمع والمطلع فهم يسمعون لطيفة قلوبهم . ويقيم بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة . وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسادها سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكلف في السماع فقال : هو على ضربين : تكلف في المستمع لطلب جاء أو متعة دنيوية وذلك تلبس ونغيانة . وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجود بالتواجد وهو نزلة التياكي المتدو باليه . وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدنة يقال له : إنها البدنة المحذورة والمنعوت منها ، بدنة تراعى ستة مأمورياتها وعالم يكن هكذا فلا بأس به . وهذا كالتقيام بالخال : لم يكن ، فكان في عبادة الرب ترك ذلك ، حتى تقل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل ولا يتكلم به ، وفي البلاذقي فيها أنها القيام لم ياد فإذا اعتد ذلك لتطيب القلوب والمماراة لا بأس به ؟

لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ؛ فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة . ويكون بدعة لأبأس بها لأنها لم تراع من مأثورة .

الباب الثالث والعشرون : في القول في السماع ودا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق بحيث كثرت الفتنة بطريقه وذلك المصيبة فيه . وتصدى الحرص عليه أقوالهم قلت أحوالهم ، وفقدت أحوالهم وأكثروا الاجتناع لسماع ، وربما يشتغل للاجتناع طمأن نطلب النفوس الاجتناع لذلك لأربعة القلوب في السماع كما كان من سير الصادقين ، فيصور السماع مدلولاً تركن إليه النفوس للشبهات واستعلاء لمواطن المهر والنفلات ، ويقطع ذلك على المريد بطلب المزيد . ويكون بطريقه تشجيع الأوقات وقلعة الخط من العبادات ، وتكون الرغبة في الاجتناع طلباً لتناول الشهوة واسترواحاً لأولى الطرب والهوى والعشرة ولا ينبغي أن هذا الاجتناع مراد عند أصل الصدق . وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكين ، ولا يباح للمرید مبتدئ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المرید يطلب السماع فاعلم أن قيمته الباطلة . وقيل إن الجنيد ترك السماع ففيل له : كنت أسمع ؟ فقال : مع من ؟ قيل له : أسمع لنفسك ؟ فقال : من ؟ لأهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقد الإعران ترك . فما اختاروا السماع حين اختاروه إلا بشرط وتبوء وآداب ؛ يذكرونه في الآخرة ويرغبون في الجنة ، ويحذرون من النار ، ويؤدبهم به طليهم ، وتضمن به أحوالهم ، ويتفق لهم ذلك اتفاقاً في بعض الأحيان لا أن يجلسوه دأباً وبدناً حتى يتروكوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في كتاب التصانيف : التناء لمؤكروه يشبه الباطل ، وقال : من استكثر منه فهو سفيه زده شهادته ؛ وانفق أصحاب الشافعي أن للزاد غير المزمع الاجتناع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكتوفة الزوج أو من وراء حجاب . ونقل عن الشافعي رضي الله عنه ؛ أنه كان يكره التفتنة بالتعقيب ويقول : وضعت الزيادة ليشغلوا به عن القرآن ، وقال : لأبأس بالقرائة بالآلحان وتحسين الصوت بها أي بوجه كان . وعند مالك رضي الله عنه : إذا اشترى جارية فوجدها منية فله أن يردها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة . وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه .

وسماع التناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء . ومن أباحه من الفقهاء أيضاً لم ير لإعلامه في المساجد والبقاع الشريفة . وقيل في تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو التناء والاسماع إليه ، وقيل قوله تعالى (وأنتم ساعدون) أي معذون ؛ رواء عكرمة عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وهو التناء بلفظ حمير ، يقول أهل اليمن : سمدقلان ، وإذا غنى ، وقوله تعالى (واستنزل من استطعت منهم بصوتك) قال جاهد : التناء والمزامير .

وردى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان إبليس أول من ناع وأول من تغنى ، وروى عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما نيت عن صوتين قاهرين ؛ صوت عند لغة ، وصوت عند معية ، وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما غنيت ولا نغيت ولا مسست ذكرى يميني من ذنباي . وروى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : التناء يذيت التفات القلب ، وروى أن ابن عمر رضي الله عنه من على قوم وهم محرمون وفيهم رجل يشغى فقال : ألا لسمع الله لكم ، ألا لسمع الله لكم ، وروى أن إسماعيل سأل القاسم بن محمد عن التناء فقال : أبهاك عنه وأكرهه لك ، قال أكرام هو ؟ قال : الفطرا ابن أضي إذا ميز الله الحق والباطل في أيهما يحمل التناء ؟ وقال القسطل بن عياض : التناء رقية الزنا وعن الصالح : التنا مسعدة القلب مسعدة لرب ، وقال بعضهم : لما تم التناء فإنه يزيد الشهوة ويذهب المروءة ، وأنه ليترب

عن الآخر ويصل ما يصل السكر ، وهذا الذي ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع للوزن يبق بالثناء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقة بالأصابع والتصديق والترقب وتصدرته أفعال تدل على حفاة القتل ، وروى عن الحسن أنه قال : ليس الذن من سنة المسلمين ، والذي قتل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سمع الشعر ، لا يدل على إرادة التناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام مثنو رخته حسن وقبيحه قبيح ، وإنما يصير تناء بالألحان وإن أنصف المصنف وتفكر في اجتناع أهل الإيمان وقعود المني بذهه والسلب بدبابته وتصور في نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والمجيئة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا بهتمين لاستماعه لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ ولو كان في ذلك فنية تطلب ما أمهلوا ؟ فن يثير بأنه فنية تطلب ويجتمع لها لم يحظ بدوق معرفة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتأبين ، واستروح إلى استقصان بعض التأخيرين ذلك . وكثيرا ما ينقطع الناس في هذا ، وكلما احتج عليهم بالسلف للاخيرين يحتجون بالتأخيرين . وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعديهم أشبه بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثير من الفقهاء ينسج عند قراء القرآن بأشياء من غير غلبة . قال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لحدث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كآصفيهم الله تعالى جمع أعينهم وتشمم جلودهم ، قال : قلت لئن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن غر أحدكم منشيأ عليه ، قالت أعود بالله من الشيطان الرجيم . وروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سرجل من أهل العراق يتساقط قال : ما ملأنا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : إنما نخشى الله وما تسقط إن الشيطان يدخل في جوف أحدكم ، ما هكذا كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذكر عند ابن سيرين الذين يصنعون إذا قرئ القرآن فقال : يبتا ويبتيم أن يقدم واحد منهم على ظهر يده باسطا وجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فإذن روى بنفسه فهو صادق . وليس هذا القول منهم إنكاراً على الإطلاق إذ يخفى ذلك لبعض الصادقين ، ولكن لتضعن التثمين في حق الأكثرين ، فقد يكون ذلك من البعض تصمنا ورياء ، ويكون من البعض تصور علم وخامرة جهول مزوج يرى بلم بأحد يسير من الوجد فينبهه بزيادات يهمل أن ذلك يضر بدنه ، وقد لا يهمل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسرق السمع استرقا خفيا تفرج الوجد عن الحد الذي يبلن أن يقف عليه وهذا يبين الصدق نقل أن موسى عليه السلام وحط فومه ففق رجل منهم قبسه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القبيص لا يمش قبسه ويشرح قلبه .

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمره قد توجهت الفتنة ولعن على أهل الهيايات إنكار ذلك . قال بنية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر إلى التلام الأسمد الجليل . وقال عطاء : كل نظرة جروا القلب فلا خير فيها ، وقال بعض التأبين : ما أنا أغرف على القباب التأيب من السبع الضاري خوفاً عليه من التلام الأسمد يقدم إليه ، وقال بعض التأبين أيضا : الرطبة على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يمسكون ذلك العمل . فقد لعن على طائفة الصوفية اجتباب مثل هذه الجماعات واعتادوا منع التهم فإن التصوف صدق كله وجد كله يقول بعضهم : التصوف كله جد فلا تخطوه يشبه من الحول ، فهذه الآثار دلت على اجتباب السماع وأغلاط مدرته . والباب الأول بما فيه دل على جواز بشرطه وتذريه عن المسكارة التي ذكرنا ما وقد فصلنا القول ورفقنا بين القصاصم والثناء وغير ذلك ، وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراضي الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون : في القول في السماع ترغبا واستثناء

اعلم أن الوجد بشر بساطة فقد فن لم يقدر لجد ، إنما كان النقطة لزاجة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه فخر

فمن بعد انفس حرا ومن نفس حرا انفس من شر كالوجود شر كالوجود بصفاً لا يقا بأوجوده لا بالقبح شيء من المعاني
قال المصري رحمه الله : ما أدرك حال من يحتاج إلى من يحمي يذمحه : فالوجود بالسياس في حق الحق كالوجود بالسياس
في حق المثل : من حيث النظر إلى الزجاجة ، وتأثير الباطن به ، وظهور أثره على الظاهر ، وتغييره للبعد من حال إلى
حال . وإنما يختلف الحال بين الحق والمثل : أن للمثل بعد لوجود حوى النفس ، والحق بعد لوجود إرادة القلب ؛
ولذا قيل : السباع لا يحدث في القلب شيئاً ، وإنما يحرك ما في القلب ، فمن يتلقى بابطه بتدبير الله يحركه السباع فيجد
بالهوى ، ومن يتلقى بابطه بحجة الله يجد بالإرادة إرادة القلب ؛ فالباطن محجوب بحجاب النفس ، والحق محجوب
بحجاب القلب ، وحجاب النفس حجاب أرضي ظلامي ، وحجاب القلب حجاب سماوي نوراني ، ومن لم يفقه بدوام
التحقق بالتمرد ولا يتم بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد ، ومن هذه اللطائف قال بعضهم : الوجود نادر دم كل
لا يتخذ في قول .

وسر بشاد الذي يرى رحمه الله يقوم فهم قول : فلما رأوه أمسكوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فراه
لوجعت ملاهي الدنيا في أدنى ما شغل همي ولا شيء بهي من ماني ، فالوجود صراخ الروح المبني بالنفس نكرة في حق
المثل والقلب نكرة في حق الحق ، فكل الوجود الروح الروحاني في حق الحق والمثل ، ويكون الوجود نكرة من فهم
المعاني يظهر ، ونكرة من مجرد التناهي والألحان ، فإكان من قيل المعاني تشارك النفس الروح في السباع في حق المثل
ويشارك القلب في حق الحق . وما كان من قيل مجرد التناهي تتجرد الروح السباع ، ولكن في حق المثل تسترق
النفس السمع ، وفي حق الحق تسترق القلب السمع . ووجه استئذان الروح التناهي : أن العالم الروحاني يجمع الحسن
والجل ، ووجود التناهي في الأكران مستحسن قولاً وفعلًا ، ووجود التناهي في المعاني والصورة ميراث الروحانية
فمن يسمع الروح التناهي القليلة والألحان المناسبة أثر به لوجود الجفسي ، ثم بتقدير ذلك بالشرع يصالح عالم الحكمة ،
ورعاية الحدود لمجد بين المصلحة ما جلا وأجلا ، ووجه آخر : إنما يستلذ الروح التناهي ، لأن التناهي بالحق النفس
مع الروح بالإيمان الحق إشارة وحرمان بين المتماثلين ، وبين النفوس والأرواح تماثل أصل ينزع ذلك إلى أوتة
النفس وذكرورة الروح ، والميل والتماثل بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع ، قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها
ليكن إليها ﴾ وفي قوله سبحانه ﴿ منها ﴾ إشارة بتلازم وتلاصق موجب للاكتلاف والتماثل ، والتناهي يستلذها
الروح لأنها متماثلة بين المتماثلين ، وكأن في علم الحكمة كونه سواء من آدم فمن عالم القدرة كونه النفس من
الروح الروحاني ، فهذا التآلف من هذا الأصل : وذلك أن النفس روح حيواني تنفس بالقرب من الروح الروحاني
وتجسسا بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان يشرى بالقرب من الروح الروحاني فصار نفساً ، فإذا تكونت النفس
من الروح الروحاني في عالم القدرة ، تتكون حول من آدم في عالم الحكمة ، فهذا التآلف والتماثل وليسا لأوتة
والذكرورة من هنا ظهر ، وهذا الطريق استطاعت الروح التناهي ، لأنها مراسلات بين المتماثلين ومكانة بينهما ،
وقد قال الفاضل :

تكلم من في الوجود هيوتا • نفس سكوت والهوى يشكم

فلذا استلذ الروح التناهي وجدت النفس المعلولة بالهوى وتحركت بما فيها لحدوث الملامح ، ووجد القلب المعلول
بالإرادة وتحرك بما فيه لوجود الملامح في الروح :

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة • ولأرواح من كل الكرام نصيب

فمن المثل أرض لمادته ، والحق أرض لمادته ، فالباقي يبلغ الرجال والنساء من التجر من التجر من أمراض
الأحوال خلق قبل النفس والقلب والراعي المقدس ، وفي مقده صدق عنه ملكة مقدرة استقر وعرض ، وأحرق بنور
البيان أجرام الألحان ولم تضع روحه إلى متاعه عاشقة لشدة عطالة آثار محبوه ، فالهائم المشتاق لا يسهه كصف
ظلمة العناق ، ومن هذا حاله لا يحركه السباع وأساء ، ولذا كانت الألحان لا تلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها

وغنى قلب مناظرتها ، كيف يلحظه الساج بطريق فهم للمائق وهو أكثف ، ومن يهتم عن حل لطيف الإشارات كيف يتحمل مثل أعباء العبارات ، وأقرب من هذا عبارة تحرب إلى الأنعام : الوجود وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يريد أنه لا يتقنع بمسألة ، ومن صار على التهرب مستحفاً به لا يفي به ولا يجره ماورد من عند الله ؟ فأورد من عنده مضمون ، والتعريب واجب فليصنع بالوارد ، والوجدان والقلب الواحد به نور ، والنور أظلم من النار ، والتكليف غير ميسر على اللطيف ، فما دام الرجل البائع مستترا على جادة استقامته غير مشرف عن وجهه مسود به نوازح وجوهه لا يدركه الوجود بالساج ، فإن دخل عليه فتور أو ما به تصور بدخله لا ابتلاء عليه من القبول الحسن يتألف الأمن من تفريق صور الابتلاء : أي يدخل عليه وجود يدركه الواحد لمورد المبدع لا الابتلاء إلى حبس القلب ، فمن مع الحق إذا زال وقع على القلب . ومن هو مع القلب إذا زال وقع على النفس .

صحت بعض مشايخنا يحكي عن بعضهم أنه وجد من الساج ، قيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل على داخل أوردني هذا المورد .

قال بعض أصحاب سهل : صحت سهلايين مارأيت تغيير عنده كان يسمعه من الذكر والقرآن ؛ فلما كان في آخر عمره قرئ عنه (فاليرم لا يؤخذ منك غدية) فأمره وكاد يسقط ؛ فسأله عن ذلك ؟ قال : أتم الحق منصف . وسمع مرة (الملك يرمي الحق الرحمن) فاضطرب ، فسأله ابن سالم وكان صاحبه قال : قد ضمنت ؛ فقيل له : إن كان هذا من الضمف لما القوة ؟ قال : القوة أن الكامل لا يرد عليه وارد إلا يبطئه بقوة حاله فلا ينيره الوارد . ومن هذا القليل قول أبي بكر رضي الله عنه : هكذا كما حتى قست القلوب ، لما رأى الباكي يبكي عند قراءة القرآن . وقوله : وقست ، أي ضلعت بعد ما ضمت مع القرآن وألفقت أو أوره فاستترته حتى تغير والواجد كاستلسترب . لهذا قال بعضهم : حتى قبل الصلاة كمال في الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فهكذا في الساج كليل الساج . وقد قال الجنيد : لا يصير قصان الوجد مع فعل العلم ، وفعل العلم أتم من فعل الوجد . ولينما عن الشيخ حاد ربه الله كان يقول : البكاء منيقية الوجود . وكل هذا يقرب بعض من البعض في المعنى لأن عرفاً لاشارتية ، وفهم وهو عزير الفهم عزير الوجود ، وأعلم أن الباكي عند الساج مواجيد مختلفة فهم من يبكي خوفاً ، ومنهم من يبكي شوقاً ، ومنهم من يبكي فرحاً كما قال الشاعر :

طمع السور على حتى إني . من عظم ما قد سرني أبكائي

قال الشيخ أبو بكر الكتاني رحمه الله : سماع السماع على متابعة الطبع ، وسماع المريد رغبة ودعوة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعما . وسماع المعارف على المتابعة ، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام . وقال أيضاً : الموارد تزيد وتضاد شكلاً أو موقفاً فأى وارد صاف شكلاً ما ؟ وأي وارد صاف موقفاً ما كنه ؟ وهذه كلها مواجيد أهل الساج . وما ذكرناه خال من ارتفع عن الساج . وهذا الاختلاف من أجل اختلاف أسام البكاء التي ذكرناها من الخوف والفرح ، وأعلاماً بكاء الفرح بمثابة قائم يقدم على أهله بعد طول غربته فتد رؤية الأهل يبكي من قوة الفرح وكثرة .

وفي البكاء رؤية أخرى أهم من هذه وهو ذكرها ويكره لشرها فتصور الأنعام عن إدراكها ، فربما يتأمل ذكرها بالإنكار ويبنى بالاستكبار ، ولكن بمرغبان ، ووجهها ما ووصلا أو فهمها الفرا تثيرا ومثلاً ، وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح ، وحدث ذلك في بعض مواطن حتى اليقين ، ومن حق اليقين في الدنيا للسلامة بمعية فيوجد البكاء في بعض مواطنه لوجود تقارب وتباين بين المحدث والتقديم ، فيكون البكاء دهماً هو من وصف المحدثان لوجه بطورة مختلفة الرحمن . ويترتب من ذلك مثلاً في الصامد قطر النمام يلاق مختلف الأجرام . وهذا وإن هو مشعر بيقية فتح في صرف الفناء . ثم قد يشق البكاء في الفناء متجرباً عن الآثار متمسكاً في الآثار ، ثم يرتقي منه إلى مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مظهر ، فتعود إليه أسام البكاء خوفاً وشوقاً وفرحاً ووجداناً بمساكة صورها وبياينة حقائقها

يفرق لطيف يدرك أربابه ، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم ، وذلك لنفس مقدور له مقهور معه يأخذ إذا أراد ويرد إذا أراد ، ويكون هذا السماع من الممكن نفس أطمأن واستقرت ، وأبلى طبعها واكتسبت علماً أنتها ، وأكسبها الروح منتهى فيكون سماع نوع تمتع النفس كمنتهىها بإسعاد الفئات والشهوات لأن يأخذ السماع منه أو يردبه أو يظهر عليه منه أثر ، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الزاهد يفره في بعض الأوقات ببعض ما يراه . ومن هذا القليل ما نقل أن أبا عبد الرزاق كان يفتل أصحابه بالسماع وينزل عنهم ناحية يسل ؛ فقد تفرق هذه القنات مثل هذا المصل فتنتقل إليها النفس متمتعة بذلك ؛ فيزداد مورد الروح من الألس صفاء عند ذلك بعد النفس عن الروح في تمتعها ، فإنها مع طمأنيتها ترصف من الأجنية بوحدها وجلبتها ، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفسوخ ، ويكون طريق الإلحان سمة في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم نزول الكليات ، وأصل الأقسام إلى عالمها غير مزاحة ، ولا مزاحة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن الثمان . ولهذا قيل السماع لقوم كالغذاء ، ولقوم كالنماء ، ولقوم كالروحة . ومن هو أقسام البكاء ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأن ، أفرأ ، فقال : أفرأ عليك وعليك أزل ؟ قال : أحب أن أسبغ من غيري . فانتسح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى (فكيف إذا جئت من كل أمة بشيعة وجئت بك على هؤلاء شيعة) فإذا عيناه تهملان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل الحبيب واستنله ثم وضع شفتيه عليه طويلاً ، وقال : يا حبيب ههنا لكيب العبرات . والمتمكن تنود إليه أقسام البكاء ، وفي ذلك فدية سألها الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقيم أرواق عيني عيني مخطئين ، ويكون البكاء في الله ، فيكون له ويكون بالقوم الأثم ليرد إليه يوجد دستائف موهوب له من الكرم الثمان في مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون : في القول في السماع تأدياً واحتضاء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع ، وحكم التفرق وإشارات المشايخ في ذلك ، ومافي ذلك من المأثور والمطور من التصرف على الصدق في سائر الأحوال وهو جد كله ، لا يلبس لصديق أن يتعمد المحذور في يكون مجمع فيه سماع إلا بعد أن ينطق الله تعالى ويترفع به من بدا في إرادته وطبعه ، ويعلم من ميل النفس لشيء من هواها ، ثم يقدم الاستخارة المحذور ويسأل الله تعالى إذا دعاهم إلى البركة فيه . وإذا حضر يلزم الصدق والوقار يسكن الأطراف ، قال أبو بكر الكتاني رحمه الله : المستمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو وارداً والوارد عليه ينبغي أن كل حركة وسكون ، فينبغي الصادق استثناء الوجد ويحبس الحركة فيه مهما أمكن سبياً بمحضرة الصيوخ .

حكى أن شاباً كان يصحب الجنيده رحمه الله وكذا سمع شيئاً رقيقاً وتكر ، فقال له يوماً : إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحني ، فكان بعد ذلك يهبط نفسه ، وربما كان من كل شرقة منه تقطر قطرة حرق ، فلما كان يوماً من الأيام رقيق زقة طرج روحه . فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل ، أراءءاء الحال من غير حال حاصل ، وذلك عين التفاني .

قيل كان الصرايضي رحمه الله كثير الولوج بالسماع فوصف في ذلك فقال : لم هو غير من أن تقدم وانتاب ، فقال له أبو عمرو بن عبيد وغيره من إخوانه : هيات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة لفتاب الناس . وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى وترويح الحال يصريح الحال . وفي ذلك ذنوب متعددة منها : أنه يكتب على الله تعالى أنه وهب له شيئاً وما وهب له . والكذب على الله من أتبع الزلات ، ومنها : أن يفر بعض المخاضرين فيحسن به الظن والإقرار بخيانة ، قال عليه السلام : من غشنا فليس منا ، ومنها أنه إذا كان مبطلاً ويرى بين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المتفقيه فيفسد عقيدته في غيره عن يظن به الخير من أمثاله ،

فيكون سببا في فساد العقيدة في أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الخلق مع فساد عقيدته فيقطع عنه يهدد الصالحين ، ويقتصب من هذا آفات كثيرة يؤثر عليها من يبحث عنها ومنها أنه يخرج الحاضرين إلى مراقبته في قيامه وقعوده فيكون متكلفا متكلفا نفسيا بباطله ، ويكون في الجمع من يرى بغير الفراسة أنه يبطل ويعمل على نفسه الموافقة للجميع مداريا ويكثر شرح الذنوب في ذلك فليتنق الله في ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة للتمس الذي لا يحد سبيلا إلى الإساءة ، وكالمعاطس الذي لا يقدر أن يرد النطشة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يلهو به دعاية الطبع قهرا .

قال السري : شرط الراجد في زعته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع ، وقد يقع هذا لبعض الراجدين نادرا ، وقد لا يبلغ الراجد هذه الرتبة من الثبوت ، ولكن زعته تخرج كالتنفس يروح لإرادة بمرجة بالاضطرار . فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الوضعات وهو في تمزيق الثياب أكد ، فإن ذلك يكون لإزالة أثار وإفناء الخصال ، وعكسها روى الحرقه إلى الحادى لا يفيض أن يفعل إلا إذا حضره نية محتجب فيها التكلف والارادة وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الحرقه إلى الحادى ، فقد روى عن كعب بن عازر أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السيد وأقنعه آياته حتى أولها .

بانت سعاد قلبي اليوم متبول • • • • •

حتى انتهى إلى قوله فيها .

إن الرسول ليس يستضاء به • معته من سيوف الله مسلولة

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، أكلمك بن زهير : فرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه ، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بنا بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشرة آلاف ، فوجه إليه ما كنت لأؤثر برب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بمشرين ألفا وأخذ البردة وهي البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم عادت بركتها على أيامه الزاهرة .

والتصوفة آداب يتماخضونها ، ورعايتها حسن الأدب في الصحة والمعاينة ، وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك ؛ ولكن كل شيء استحصروه وتواضعتوا عليه ولا ينكره الشرع لأوجه الإنكار فيه . فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السماع فرفقت منه خرقه أو ناله وجد وروى عمايت إلى الحادى ، فالتسلسل عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ ، وإن كان ذلك من الشباب في حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشباب في ذلك ، ويلسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين في ترك الموافقة للشباب ، فلما سكتوا عن السماع رده الراجد إلى خرقته وبرافقه الحاضرون يرفع المائم يهددها على الروس في الحال الموافقة ، وأخرقة إذا رميت إلى الحادى هي السامى إذا قصد إعطائه إياها ، وإن لم يقصد إعطائه الحادى ، فقتل هي الحادى لأن الحركه هو ووجه صدر الوجه روى الخرقه . وقال بعضهم : هي الجميع والحادى واحد منهم لأن الحركه قول الحادى مع حركة الجمع في إحداث الوجد ، وإحداث الوجد لا يقتصر من قول القائل فيكون الحادى واحدا منهما في ذلك .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : من وقف بمكان كلما لله كلما ، ومن قتل لله كلما ومن أسر لله كذا ، فصارع الشبان وأقام الشيوخ والرجوع عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يحمل ذلك لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهرا لكم وردنا فلا تلعبوا بالتنازع دوننا ، فأرسل الله قتلى (يمشونك من الأتقال قل الأنفال والرسول) قسم النبي صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية .

وقيل : إذا كان القتوال من القوم يحمل كواحد منهم ، وإذا لم يكن من القوم لما كان له قيمة يؤثر به ، وما كان من خرق الثغراء يقسم بينهم . وقيل : إذا كان القتوال أجما فليس له منها شيء ، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك ، وكل هذا

إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى ، فقد تختلف الأحوال في ذلك والشيخ اجتهد فيمثل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه ، وإن فداها بعض المجنين أو بعض الخاضعين فرحى القول والقوم بما رخوا به وعاد كل واحد منهم إلى عرفته فلا بأس بذلك ، وإذا أمر واحد على الإيثار بما خرج منه ثلثة له في ذلك بجزء بحرقته الحادى ، وأما تحريق الحرقه المبروسة التي منها واحد صادق عن غلبة سليبة اختياره ككتابة النفس ، فمن يتسدد إمساكه فيتميم في تفرقتها وتبريقها الكثير بالخرقة لأن الوجدان أثر من آثار فضل الحق وتحريق الحرقه أثر من آثار الوجد ، فصارت الحرقه متأثرة بأثر رباني من حشوائن تغدى بالفلوس وتفرع على الروس إكراما واعرزا :

فرض أرواح لحد من ثيابهم • يوم التتقدم لقرب العهد بالدار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل التثيب ويتبرك به ويقول : حديث عهد بربى ، فالخرقة للخرقة حديث العهد ، لحكم المبروسة أن تترق على الحاضرين ، وحكم ما يتبعها من الخرق الصباح أن يحكم فيها الشيخ ، إن خصص بشئ منها بعض القراء فله ذلك ، وإن عرفها خرقا فله ذلك ، ولا يقال هذا تحريف وسرف فإن الخرقه للصبرة يلتصق بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وروى عن أمير المؤمنين عن بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة حرير فأرسل بها إلى طرجه فيها فقال لى : ما كنت لأكره لنفسى شيئا أرخاه لك فشققتها بين النساء خيرا ، وفي رواية أخرى قلت : ما أصنع بها ألبسا ؟ قال : لا ، ولكن اجعلها خرا بين القواطم ، أراد قاطمة بنت أسد وقاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاطمة بنت حمة ، وفي هذه الرواية أن الهدية كانت حلتكمكوفة بحمير ، وهذا وجه في ثلثة تزيين الثوب وجعله خرقا .

حكى أن الفقهاء والصوفية ينسايروا اجتماعا في دعوة فوقمت الحرقه ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أباعبد الجبرين وشيخ الصوفية الشيخ أبى القاسم القشيري : فقصمت الحرقه على حادثهم : فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا ، هذا سرف وإسائة للمال ، فسمع أبو القاسم القشيري ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ، ثم استدعى الخادم وقال : انظر في الجمع من ميه سجادة خرق اتقى بها ، فجاء بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة ، فقال : هذه السجادة يتم تشتري في اللزاد ؟ قال بلى ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم تساوئ ؟ قال : نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبو محمد وقال : هذا لا يسمى إسائة للمال . والحرقه المدونة تقسم على جميع الحاضرين من كان من المجلس أو من غير المجلس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا لتبرك بالخرقة .

وروى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند ، وأمدهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عسارين يأسر ، فظفروا وأراد أهل البصرة أن لا يفسدوا لأهل الكوفة من التنيمة شيئا ، فقال رجل من بني تميم لمبار : أيا الأبدع تريد أن تفارقنا في غنائنا ، فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه ، إن التنيمة لمن شدة الوقعة ، وذهب بعضهم إلى أن المبروح من الخرق يقسم على الجميع وما كان من ذلك صحيبا يسطى للقول ، واستدل بماروى عن أبي قتادة قال : لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلًا فله عليه . وهذا له وجه في الخرقه الصحيحة ، فأما المبروسة لحكمها إسبام الحاضرين والقسمة لهم ، ولودخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له . روى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه قال : لما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غير ثلاث ، فأقسم لنا ولم يسهم لأحد منهم بشئ الفتح غيرنا ، ويكره المقوم حضور غير المجلس منهم في السابح كترعد لأشوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر ، أو صاحب دنيا يحوج إلى الداراة والتكلف ، أو متكلف للرجد يفسد الوقت على الحاضرين بتواجد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبو الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المقرئ

بسرعى قال أخيراً أبو علي القنطري بن منصور بن نصر الكاظمي السمرقندي [إجازة] ، قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخيراً أبو بكر حماد بن إسحق قال حدثنا سعيد طاهر عن شعبة عن عبد العزيز بن صويب عن أنس قال : كما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله إن قراءاتك بدخلون الجنة قبل الأقياد نصف يوم وهو عسبة عام ! ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هل فيكم من يشتد ؟ قال بشوى : نعم يا رسول الله فقال مات فأشأ الأعرابي :

لقد لست حية القوي كسبى • فلا طيب طسا ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به • ففسده وقيى وتراق

فتواجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه ، قال معاوية بن أبي سفيان ما أحسن لمعكم يا رسول الله ، فقال : ما يا معاوية ليس بكم من لم يأتى عند سماع ذكر الحبيب ، ثم قسم رداءه رسول الله صلى الله عليه وسلم على من حاحرم بأربابته قطعة . فهذا الحديث أورده مستداً كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم في صحت أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئاً نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتزيينهم الخرق وقسمتها أن لوصح والله أعلم .

وعلاج سرى أنه غير صحيح ، ولم يجد فيه ذوق اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وما كانوا يشعرونه على ما بلغنا في هذا الحديث وبأي القلب قبوله ، والله أعلم بذلك .

الباب السادس والعشرين : في غائبة الأربينية التي يشاهدتها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربين ، شيئاً خصوصاً لا يطلبونه في غيرها ؛ ولكن لما طرقتهم عائلات حكم الأوقات أخيراً فتعبد الوقت بأربين رجا . أن ينسحب حكم الأربين على جميع زمانهم ، فيكونوا في جميع أوقاتهم كمن يتعبد الأربين . على أن الأربين خصت بالذكر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أخلص شأراً أربين صباها ظهرت يتابع الحكمة من قلبه على إسنائه ، وقد خص الله تعالى الأربين بالذكر في قصة موسى عليه السلام وأمره بتخصيص الأربين بريد بهتل قال الله تعالى ﴿ وروادنا موسى ثلاثين ليلة وأتممتها بمشرفتم ميثاقه برب الأربين ليلة ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أحلك عدوهم واستغفروهم من أيديهم بأنهم يكتب من عند الله تعالى فيه تبيين الحلال والحرام والحدود والأحكام . فلما فعل الله ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً . وهو ذو القعدة - فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر خوفه فنهتسوك بعد غروب ، فقالت له الملائكة : كما نلت من قبلك وأتممتها فأنقذته بالسراك . فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة وقال له أما حدث أن خوف لم الصائم أطيب عندي من وجع المسكة ؟ ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالتمام وأكله بالليل ، بل طوى الأربين من غير أكل . فدل على أن خوف المدة من الطعام أصل كبير في الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستنداً لحكمة الله تعالى .

والعلوم الدينية في قلوبنا تشغطين إلى الله تعالى حارب من المسكلة : ومن انقطع إلى الله أربين يوماً غلظت شهادته نفسه غفلة المدة فتفتح عليه العلوم الدينية كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . غير أن تعيين الأربين من المدة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك والتعبد والتعبد بالأربين لحكمة فيه . ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأقياد إذا عرفهم الحق ذلك أو من يحضه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأقياد . ويوحى في سر ذلك معنى والله أعلم .

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التفسير بهذا القدر من المدة . كما ورد في خرطبة آدم (١٦ - ملحق كتاب الإحياء)

يهدأ أربعين صباحاً ، فكان آدم لا كان مستصفاً لمهارة ما رين وأراد انقلبت عماره الدنيا كما أراد منه عماره
الجنة كونه من الزراب تركيا يناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهذه الدار الدنيا ، وما كانت عماره الدنيا تأتيته وهو
غير مخلوق من أجراً ، حيث سفلية بحسب قانون الحكمة . فن الزراب كونه ، وأربعين صباحاً خريطته لا يبعد بالتخمين
أربعين صباحاً بأربعين حجاباً من الحضرة الإلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصمم به لمهارة الدنيا يتوق به عن
الحضرة الإلهية ومواطن القرب ؛ إذ لو لم يتوق بهذا الحجاب ما همرت الدنيا . فأتصل البدن من مقام القرب فيه لمهارة
عالم الحكمة وغلاطة الله تعالى في الأرض . فالتبذل لظاعة الله تعالى والإقبال عليه لا يتنازع عن التوجه إلى أمر الملائكة
يكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع . وعلى قدر زوال كل حجاب ينطبق وينشغل من زوال في القرب من الحضرة
الإلهية التي هي مع العلوم ومصدرها . فلذا تمت الأربعون من هذا الحجب والمصدر إلى العلوم والمعارف انصباها . ثم العلوم
والمعارف هي أحياناً انقلبت أوتاراً بالاصل لكسيرة نور العظمة الإلهية ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوماً عالمية ،
وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فقولاً وجود النفس وحديثها ما همرت بالعلوم الإلهية ؛ لأن حديث
النفس وهاء وجودي لقبول الأنوار وما القلب في ذاته لقبول العلم شيء ، وقررت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظهرت
ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، أشار إلى القلب باعتبار أن القلب وجهاً إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ،
وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستد القلب العلوم للكون في النفس ويخرجها إلى المسان الذي
هو ترجمانه ، فظهور العلوم من القلب لأنها متأسلة فيه ، فقلب والروح مراتب من قرب اللهم سبحانه وتعالى فوق
رب الإقلام ، فالبدن باخفاضة إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم
وقد ورد في الحديث : الناس معادن كمدائن الذهب والفضة غيرهم في الجاهلية غيرهم في الإسلام إذا غشوها ، فمن
كل يوم باخفاضة في العمل به يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية للبدن من الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال
الأربعين أربعين طبقة ، في كل يوم طباقاً من أطباق حجابها ، وآية صحة هذا البدن وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه
بشروط الإخلاص أن يهدأ الأربعين في الدنيا ويتطابق عن دار القرب . ويتيق إلى دار الخلود ، لأن الزهد في
الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يهدأ في الدنيا ما همرت بالحكمة ، ومن لم يتطرق بالحكمة يهدأ الأربعين
أه قد أخذ بالشروط ولم يحل في تعالى ، ومن لم يحل في ماعد الله ، لأن الله تعالى أسرنا بالإخلاص كما أسرنا
للعلم فقال تعالى : وما أسروا إلا ليعبدوا الله عظيم له المين .

[illegible]

فمن الناس من يدخل الحفرة على مراغة النفس ، إذ النفس يطعمها كرامة للخرة ميالة إلى غلبة الحق ، فإذا أزمعها من مقار عاداتها وجسبها على طاعة الله تعالى يعقب كل مرارة تحمل عليها حلالة في القلب .

قال ذوالنون رحمه الله : لم أر شيئا أبهت على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة ، فقد استملكه يعمود الإخلاص وغفر بركن من أركان الصدق . وقال التبلي رحمه الله لرجل استوصاه : الزم الوحدة وانح اسلكه عن القوم واستقل الجدار حتى تموت ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة منية الصديقين .

ومن الناس من يهتف من يباهه داعية الحق وتطلب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل على ذلك فيما حدثنا شيخنا حيا بالدين أبو العجب إسماعيل قال : أخبرنا لحافظ أبو القاسم إسماعيل بن أحمد القرطبي قال أخبرنا جعفر بن الحسكاه الكوفي قال أخبرنا أبو عبد الله الضعيف قال أخبرنا أبو عبد الله البجلي قال أخبرنا صاحب الديرة قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت ، أول ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من النخس : الزكاة والصلاة وقوم ، فكان لا يرى زكيا ولا عاتقا ، ثم جلب إليه غلام فكان يأمر حرا فيستخ في أقبال ذوات العدد ويؤرد لذلك ، ثم يرجع إلى غديجة فيتردد كثيرا حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، جاءه لذلك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطى حتى بلغ من الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطى الثانية حتى بلغ من الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطى الثالثة حتى بلغ من الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق) حتى بلغ (مالم يعلم) فرجع بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فرجه فإراه حتى دخل على غديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال غديجة : مالي - وأخبرها الخبر - فقال : قد تشيعت على قتيل ، فقالت : كلا أبشر فوالله ما يغرك الله أيا ذلك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب العبد وتزري الضيف وتعين على نواب الحق ، ثم انطلقت به غديجة رضي الله عنها حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان أسرا تصرف في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت غديجة : يا صبي اسع من ابن أخيك ، فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يرجعك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرح بكم ، قال ورقة : نعم إنهم بأت أحد قط بما جئت به إلا عودي وأودى ، ولأن يدرني ملك أمرك لأمر مؤزرا .

وحببت جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوصيّ فقال: في حديثه وفيها أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي يأتي بي إماماً جالساً على كرسى بين السماء والأرض جلّلت منه رعباً فرجعت فقلت: (ملوكي زملوني) فعدّرتني فأقول الله تعالى (يا أيها المشرقيّم بالأنفوس) إلى (والذين ظلموا).

وقد نزل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مراراً كي يردى نفسه من شواق الجبال ، فكلما وافق قروة جبل لكي يأتي نفسه منه تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لرسول الله خاف فيمكنك ذلك جأشه ؛ وإنما طالت عليه فترة الوحي عاد مثل ذلك فينبغي له جبريل فيقول له مثل ذلك ، فهذا الخبر للجنة عن بدء أسرار رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأصل في إظهار المشايخ الحولة للربدين والعالمين ؛ فإنهم إذا أعلنوا فقال في خواتمهم يفتح الله عليهم ما يؤمنهم في خواتمهم ثم يمدان الله إمام عاتقوا لأجله ، ثم خواتمهم مستمرة ، وإنما الأديون استكمالاً له أثر ظاهر في ظهور مبادئ بشر الخس سبحانه وتعالى وسنوح مواهب السنية .

الباب السابع والعشرون : في ذكر فتوح الاربعينية

وقد غلط في طريق الخلوة والأرايمينية قوم وحرروا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم بابا

من القدر ، ودخلوا الخلة على غير أصل مستقيم من تأديته حتى الخلة بالإخلاص ، وسموا أن للناج والصوفية كانت لهم غلات وظهور لهم وقائع وكوشفوا بنزاهات فدخلوا الخلة لطلب ذلك ، وهذا حين الاعتلال وبعض الضلال ، وإنما القوم اختاروا الخلة والرحمة لسلامة الدين ومنفذ أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبي عمرو الأسيوطي أنه قال : لن يصغر المائل فهم الأخير إلا بحكمه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول ، والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمره هو لم يتصم ؟ فلهذا أن يطلب مواضع الخلة لكي لا يمارحه شغل فيفسد عليه ما يريد .

أبناطاع من أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال . أبناط أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا عبد الله يقول من اختار الخلة على الصبية فينبغي أن يكون عالما من جميع الأفكار إلا ذكر به عرجه ، وعاليا من جميع المراتب لإمراة به ، وعاليا من مطالب النفس من جميع الأسباب لأن لم يكن هذا الصنف من الخلة تركه في فتنة أولية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول : سمعت محمد بن حاتم يقول : جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الورائ وقال له : أوصني ، فقال : وجدت الدنيا والآخرة في الخلة وثقة وجدت شرهما في الكثرة والاختلاط .

لن دخل الخلة مبتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسوله أنواع الطغيان ، وامتنع من الفرور والمحال ففان أه على حسن الحال ، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلة بنيتروها وأقبلوا على ذكر من الآداب واستصموا نفوسهم بالزلة من الخلة ، ومنعوا الشواغل من الحواس كغفل الرعايا والبرامة والفسلفة ، والرحمة في جمع أهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فساكن من ذلك بصن سياسة الشرع وصعد للثابتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج توير القلب والزهدي الدنيا وحلاوة الذكر ، والمقامة بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومثابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء في النفس يستبان به على اكتساب علوم الرياضة مما يتيسر به العساف والمجربون . خذلم الله تعالى . وكذا أكثر من ذلك بدمع الله . ولا يزال القليل على ذلك يستنوي به الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أربما قد يترامى له من صدق المخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير متروك من التصاري والبرامة ، وليس هو المقصود من الخلة يقول بعضهم إنما خلق يريد تلك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة ، وقد يفتح على الصادقين شيء من عوارق العادات ، وصدق القراة ، ويطلب ما سيحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك ، ولا يفتح في حاتم عدم ذلك ، وإنما يفتح في حاتم الاعتراف عن حد الاستقامة ، فما يفتح من ذلك على الجادين يصير سببا لزيد بقائهم والما على لم إلى صدق الجاهدة والمجاهدة والوجد في الدنيا والتخلف بالأخلاق الحيدة وما يفتح من ذلك على من ليس تمت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بده وغروره وحافته واستطائه على الناس وازدوا به بالحق ، ولا يزال به حتى يظن وفقا للإسلام عن حقه ويشكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك مثابة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يتدوج من ذلك إلى التمد وتزدق تمرد بالهمن الضلال ، وقد يلوح لأقوام غيالات يظنونها وقائع ويصحبونها بواقع للناج من غير علم حقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك قليل أن السبب إذا أحسن الله وأحسن نية وقد في الخلة أربعين يوما أو أكثر ، فهم من يباشر بالله صفو اليقين ويرفع الحجاب من قلبه ويصير كآلة عالمهم : رأى قلبي وبي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكثرة الجوارح وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة وما ذكر على الآوقات ، وتارة بإيدائه الحق لموضع صدقه وغوة استمداده مبادأة من غير عمل وجد منه ، وتارة بعد ذلك بملامة ذكر واحد من الآداب لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويؤمله ، وتكون عبادته الصلوات أحسن بسببها الرابطة الحسب ، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يشغلها فتور ، ولا يوجد منه قصور ، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملقوما به حتى في طريق الوحوش

وسلعة الأكل لا يفتره .

واختار جماعة من المشايخ من الأكر كلمة ، لا إله إلا الله ، وهذه الكلمة لها عاصمة في تنوير الباطن وجمع الملم إذا نادى عليها صادق مخلص ، وهي من مواعب الحق لهذه الأمة ، وفيها عاصمة لهذه الأمة ، فيها حدثا شينا حيا الذي نزل ، أخبرنا قال : أخبرنا أبو القاسم البغدادي الخافض قال أخبرنا عبد الكريم بن الحسين قال أخبرنا عبد الوهاب البغدادي قال أخبرنا محمد بن غفران قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد عليه الصلاة والسلام علما أغنياء أنبياء حياء أصفاء حكام كأنهم أنبياء يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العسل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنهم لم يزلوا السن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلك أنفسهم ، ولم يزلوا قوم قط بالسجود كما ذلك رعايهم .

ومن عبد الله عمرو بن العباس رضى الله عنهما قال : إن هذه الآية مكتوبة في الثوراة : يا أيها الهي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحزنا للزمان وكذا للآمين أنت عبدى ورسول ميثلك المتوكل ليس ينقض ولا يفيظ ولا يمتدح في الأسواق ، ولا يهوى بالسيرة السيرة ولكن يدنو ويصغر إن أنقض من مقام به الله المرحومة بأن يقرأ : لا إله إلا الله ، ويقتصر أحيانا عيا وأتافيا وفلما غلغا ، فلا يزال القيد في خلوته يرد هذه الكلمة على لسانه مع مواعاة القلب حتى تصور الكلمة متأصلة في القلب من بقية حديث النفس يوقب من معاني القلب عن حديث النفس ؛ فإذا استركت الكلمة وسبكت على اللسان يتسربها القلب ، فلو سكت اللسان لم يسكنه القلب ، ثم يتصور في القلب ويتصورها يستكن نور اليقين في القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متصورا ويشهد الذكر مع وربة عظيمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حيث ذكر الذات ، وهذا الذكر هو المحاسبة والمكاشفة والمعاينة - أهي ذكر الذات يتصور نور الذكر - وهذا هو التمسك الأقصى من الخلة . وقد يحصل هذا من الخلة لا يذكر الكلمة بل بثلاثة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد مواعاة القلب مع اللسان ، حتى تجري التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على البسيطة في التلاوة والصلاة ويتصور الباطن بتلك السهولة في التلاوة والصلاة ويتصور نور الكلام في القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات ويشتع نور الكلام في القلب مع عقالة عظيمة المتكلم سبحانه وتعالى ، ودون هذه المرحمة ما يشتع على العبد من العلوم الإلهامية القدسية ، ولعل حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطله قد يجيب في الذكر من كمال أنه وحلاوة ذكره حتى يشق في غيبته في الذكر بالثبات ، وقد تنجلي له الحقائق في لسانه الحيا لولا كما تنكشف الحقائق للثبات في لسانه الحيا ، كمن رأى في المنام أنه قتل حية فيقول له المبر : لتفتر المدو ، ففكره بالمدو هو كلف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح مجرد صلب مثل الرزق له جسدا لهذا الروح من خيال الحية ، فروح الذي هو كشف الظفر إخبار الحق ، ولبسة الخيال الذي هو بمثابة الجسد مثال أثبت من نفس الرائي في المنام من استصحاب القوة الروحية والخيالية من البقطة حيث أن روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التجرد ، إذا لو كشف بالحقيقة التي هي روح الظفر من غير هذا المثال الذي هو بمثابة الجسد احتاج إلى التجرد ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر وقد يتجردهما خيال باستصحاب الخيال والوهم من البقطة في المنام من غير حقيقة فيكون في المنام أحداثا - أحلام لا يبر وقد يتجردهما صاحب الخلة الخيال للثبات من ذاته من غير أن يكون وعده حقيقة فلا يبقى له ذلك ولا يلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فيه ذكره تعالى حتى ينيب عن المحسوس بحيث يدخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لبيته في الذكر ، فقد ذلك قد ينسحق الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفع فيه روح الكشف فإذا عاد من غيبته فإيا ما يفسره من باطله موهبة من الله تعالى ولما يفسره له شيعته ، كالسير للمعالم والمكون ذلك واقعة لأنه كشف حقيقة في لسانه مثال ، وشرط صحة التأمل الإخلاص في الذكر أولان الاستراق في الذكر تأليا

وعلاوة ذلك الزهد في الدنيا وملزمة القنوى لأن الله جعله بما يكاشف به واقعته مورد الحكمة ، والحكمة تحمك بالزهد والتقوى ، وقد تجرد للذاكر الخفايا من غير لبسة المثال فيكون ذلك كشفا وإظهارا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك نارة بالزهد ونارة بالسباح ، وقد يسمع في بطنه وقد يطرئ ذلك من الهواء من بطنه كالخوارف يعلم بذلك أمرا يريد الله إحداه له أو لغيره فيكون إخبار الله إياه بذلك منبها ليقته ، أو يرى في الختام حقيقة الشيء . قل عن بعضهم أنه أتى بشراب في قدح فوضع منه يده وقال : قد حدث في العالم - حدث ، ولأشرب هذا دون أن أعلم ما هو ؛ فالتكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها .

وحكى عن أبي سليمان الخواص قال : كنت راكبا حاراً لي يوماً ، وكان يؤذني الله بالباب فيطأني رأسه ؛ فكنت أضرب رأسه فتنفخ كانت في يدي ؛ فرفع الحمار رأسه إلي وقال : احرب فذلك على رأسك تضرب ، قيل له : يا أبا سليمان وقع لك ذلك أروسته ، فقال : سمعت يقول كما سمعتي . وحكى عن أحد بن عطاء بن روبري قال : كان في مذهب في أمر الطهارة ؛ فكنت ليلة من الليالي أستسبح للأن معني تلك الليل وألطم بلقي فتخمرت ، فبكيت وولت ؛ يارب العفو ؛ فسمعت صوتاً ولم أر أحداً يقول يا أبا عبد الله العفو في العلم .

وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبدة وتقوية لليقين وإيمانه . قيل : كان عند جعفر الصادق رحمه الله نفس له قيمة ، وكان يوماً من الأيام راكبا في السبابة في دجلة ، فهم أن يسطي اللجاج فطعموا رجل الحرقه فوقع النص في الدجلة ، وكان عنده دماء للقاء جرب ، وكان يدعو به فوجد النفس في وسط أوراق كان يتصفحها والدماء هو أن يقول : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجع كل نحالي . وسمعت شيخنا بهذا من حكى له شخص أنه كوشف في بعض خلواته يركب له في جيبون كاد يستطلي المذموم السفينة قال : فزجره فلم يسط . وكان هذا الشخص يواسي هؤلاء وولده يصيرون ؛ فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسط في الماء فسمع صوت والده فلم يسط . وقال هو رضي الله عنه : يا سارية الجبل - على الخبر بالمدينة وسارية بن مالك - فأخذ سارية نحر الجبل وظهر بالدود ؛ فقبل سارية كيف غلت ذلك ؟ فقال سمعت صوت هو وهو يقول : يا سارية الجبل .

سئل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان ؛ ركن منه الإيمان بالقدر ، وركن منه الإيمان بالحكمة ، وركن منه التقوى من الحول والقوة ، وركن منه الاستقامة بالله عز وجل في جميع الأشياء قيل له : ما معنى ركنك الإيمان بالقدر ؟ فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق - قائماً على يمينه - ويكون من كرامة الله أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه إلى يساره ، فيكون بالقرب من جوار ذلك وكونه .

وحكى لبقير أنه كان يركب وأرجف على شخص ينداد أنه غدا ؛ فكاشف الله بالرجل وهو راكب يمشي في سوق ينداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت . وكان كذلك حتى ذكر لي هذا الشخص أنه في تلك الليلة أتى كوشف بالشخص راكبا قال : رأيته في السوق وأنا أسمع بأذني صوت المطرقة من الحداد في سوق ينداد وكل هذه مواهب الله تعالى وقد يكاشف بها قوم وتسطي ، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين . ومن منع صرف اليقين لاساجه له إلى شيء من هذا . فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الفكر في القلب ووجوده ذكر القات ، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للربدين وتربية للسالكين ليرتادوا بها شيئاً يجدون به إلى مراعاة القنوس والسلو عن ملاذ الدنيا ويستبشرون منهم بذلك ساكن عزهم لمبارتهم أوقات بالقرابات ؛ فيترسحون بذلك ويرون طريقاً من كوشف يصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه أسرع إجابته وأسبل انقياداً وأتم استمداداً . والأولون استلبن بذلك منهم ما استوعرو واستكشف منهم ما استعرو .

وقد لا يمتح صور ذلك الزاهدين والبراهمة من هو غير منتهج سبل الهدى وراكب طريق الردي ليسكون ذلك في حلقهم مكر واستدراجاً ؛ ليستحسروا حلقهم ويستقروا في مقار الطرق البعيدة بالمعنى فيها أراد الله منهم من القسي والضلال والردي والرياء ؛ حتى لا يمتد السالك يسير شيء ينتفع به ، ويعلم أنه لو مشى على الماء والغوا لانيقته ذلك حتى يؤدي

حق الثوري والزهد ، فأما من توفى بنبال أوقع بجمال وإحكام أسلوبه بالإخلاص يدخل الخفرة بالزور ويخرج بالفرور ، فيرفض العبادات ويستعقر ما هو عليه لأنه المماثلة لفرطه عن قلبه وميل الشريعة ويقتنع في الدنيا والآخرة . فليعلم الصادق أن المقصود من الخفرة الغرب إلى الله تعالى بعبارة الأوقات وكذا الجوارح من السكر وعات ، فيصلح لقوم من أرباب الخفرة إمامة الأوراد وتوزيعها على الأوقات ، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم مداوم المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر ، ومعرفة مقادير ذلك بعله المحسوب لتصبح المطلق على اختلاف الأوجاع وتزعمها مع نصحه للأمة وشغفته على السكافة ، يريد المرء في ذاته ، غير مبتلى بهوى نفسه ، عجا للاستيقاظ ، ومن كان عجا للاستيقاظ فإيضا مثل هذا أكثر عما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون : في كيفية الدخول في الأربعينية .

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خرج ساجدا أربعين يوما و ليلة حتى أله التقران من ربه . وقد تقرر أن الوحدة والبركة ملاك الأمر ومفسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع حرمة خرفة وهو الأسلم لديه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا فليصلح لنفسه من ذلك نصيبا .

نقل عن سفيان الثوري فيما روى أحمد بن حنبل عن عاصم بن زيد عنه أنه قال : كان يقال ما أغلص عبده أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة في قلبه وزعمه الله في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره ما لا ينير دواعيه . فيستاعد المريد نفسه في كل سنة مرة ، وأما المريد المطلب إذا أراد أن يدخل الخفرة فأكل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما يملكه وينتقل غسلا كاملا - بعد الاحتياط للثوب والصل بالثبابة والطهارة - ويصل ركعتين ويثوب إلى الله تعالى من ذنوبه بكاء وحنين واستكانة وتخشع ، ويسوي بين السريرة والعلانية ولا ينطوي على شئ غش وحسد وخيانة ، ثم يقدم في موضع خفوه ولا يخرج إلا للصلاة والجمعة وصلاة الجمعة بترك الحافظات على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد نفرة في خروجه يكون له شخص يصل معه جماعة في خفوه ، ولا يلبس أن يرضى بالصلاة منفردا البتة فيترك الجماعة بعثي عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عنه في خفوه ولم ذلك بتدوم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه يلبس أن يخرج من خفوه لصلاة الجماعة وهوذا كرا لا يفر عن الذكر ، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصح إلى ما يسمع لأن القوة الحافظة والتنبيه تكون يشتت بكل مرتبة ومسبوع ، فيكثر ذلك الوسواس وحديث النفس والحبال ، ويحتمل أن يحضر الجماعة بصحبه يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خفوه ، ويتقن خروجه استجلاء نظر الخلق إليه وعليهم بهلوسه في خفوه ، فقد قيل : لا تطعم في المذلة عتاده وأنت تريد القزلة عند الناس ، وهذا أصل نفسه بكثير من الأعمال إذا أمهل وينصليح به كثير من الأحوال إذا اعتير ، ويكون في خفوه جاعلا ركة شيئا موهوبا لله لإمامة فعل الرضا إما ثلاثة أو ذكرا أو صلاة أو مسابقة ، وأي وقت قرر عن هذه الأنصاف يتم . فإن أراد تعيين أعداد من الركات ومن الثلاثة والذكر أتى بذلك شيئا قبيحا ، وإن أراد أن يكون حكم الوقت يستند أشد ما على قلبه من هذه الأنصاف ، فلما قرر عن ذلك يتم ، وإن أراد أن يقيم في مجرد واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فقل ، ويلزم في خفوهه إمامة الرضوخ ولا يتم إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات ، فيكون هذا شغلا ليله ونهاره وإن كان ذا كركل كلكة : لا إله إلا الله . وشعنت النفس الذكر بالسان بقولها قبله من غير حركة اللسان . وقد قال سهل بن عبد الله إذا قلت : لا إله إلا الله . بد الكلمة وأفر إلى قدمي الخلق فأبتهر بأجل ما سواه ، وليعلم أن الأمر كلسية يتداعى لحظة حقيقة فليكن دائم التزم بفضل الرضا .

وأما ثوبت من الأربعينية والخفرة فالأول أن يقتنع بالخبر والملح ويتناول كل ليلة مائة واحدة - بالبدادى -

بقائه بعد الفداء الأخرى ، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك نصف المدة وأمره على قيام الليل وإحياء بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير ظهوره إلى السحر فليعمل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيئاً يفرم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك ، وإن أراد التقليل من هذا التدرج أيضاً ينقص كل ليلة دون القصة بحيث ينتهي بثلث المشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل وإن قوى قطع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيراً كل ليلة بالتدرج حتى يعود ظهوره إلى أربع رطل في المشر الأخير .

وقد افترق مشايخ الصوفية على أن بناء أهرم على أربعة أشياء : فة الطعام وفة المأمورة الكلام والاعتزال عن الناس ، وقد جعل الجوع وقتان : أحدهما : آخر الأربع والمشر ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أو فة بأكلة واحدة يعملها بعد الفداء الأخرى أو ينقسمها آكلتين كما ذكرنا ، والثقة الآخر : على رأس العتقين وسبعين ساعة ، فيكون العلى ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة ، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل ، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة ، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل ، وهذا يعني أن يفطر إذا لم ينتج عليه سائمة ومضراً وفة أشراف في الذكر والمضامة ، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة وبأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد ، فالتنفس إذا اعتدلت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ، ثم عدت إلى الإفطار كل ليلة بمتعة ، وإن سوحت بالإفطار كل ليلة لانتعج بالرطل وتطلب الإدام والفهوات ، ونفس على هذا ، فهي إن أطعت طمعت ، وإن أقصت تنعت ، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها ، ومن الصالحين من كان يدير القوت بنوى القوت وينقص كل ليلة نواة ، ومنهم من كان يبرد ببرد رطب وينقص كل ليلة بقدر لشفاف المود ، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرقيق حتى ينتهي الرقيق في شهر ، ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت ولكن يعمل في تأخيرها بالتدرج حتى تتدرج ليلة في ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طبعهم إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر يوماً إلى الأربعين .

وقد قيل لسبل بن عبد الله : هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكله أين يذهب لب الجوع عنه ؟ قال يظنه الجوع ، وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاماً مبراراً ذلك على أنه يمد فرحاً به ينطلق معه لب الجوع ، وهذا في الحقيق واقع أن الشخص يطره فرح وقد كان جالماً فيذهب عنه الجوع ، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودرج نفسه في ثوبه من هذه الأقسام التي ذكرناها لا يؤثر ذلك في تصان عقله واضطراب جسمه إذا كان في حيازة الصديق والإخلاص ، وإنما يفتش في ذلك وفي دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى .

وقد قيل : حد الجوع أن لا يميز بين المحبوب وغيره عما يؤكل ، ومن عيب النفس الخبز فليس بمجالع وهذا المعنى قد يوجد في آخر الدين بعد ثلاثة أيام ، وهذا جوع الصديقين ، وتطلب الفداء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية . ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يستجد في التخليل بالتدريج فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين - كما ذكرنا - وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يرقى ، فإذا لم يقع الذهاب على براه يدل هذا على خطر المدة من العسرة ، وصفاء الذائق كاللها الذي لا يتقصده الذباب .

روى أن سليمان الثوري وإبراهيم بن آدم رضي الله عنهما كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً وكان إبراهيم يصلي رطلين من رطل الله على يده ثلاثاً ، وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يطوى سبعة أيام . واشتهر رجال جدينا محمد بن عبد الله المعروف بسوءه رحمه الله ، وكان صاحب أحد الأسرار النبوية - أنه كان يطوى أربعين يوماً ، وأقصى ما بلغ في هذا المعنى من العلى : رجل آخر كان زمانه ومارأته - كان في آخر يقال له الواحد خليفة كان يأكل في كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد العلى والتدرج إلى هذا الحد ، وكان في أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشأ المودم طوي حتى انتهى إلى القوزة في الأربعين ، ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين وقد يسلك غير الصادق

هذا لوجود هو مستكن في باطنه يكون عليه ترك الأكل إذا كان له استعلاء لنظر الحق وهذا حين الفراق لمؤدبته من ذلك ، والصديق ربما يقدر على العلى إذا لم يعلم بماله أحد ، وربما نصف عريته في ذلك إذا علم بأنه يطوى ؛ فإن صدقه في العلى ونظرة إلى من يطوى لأجله يكون عليه العلى ؛ ولذا عظم أحد نصف عريته في ذلك ، وهذا علامة الصادق لهما أحسن في نفسه أنه يجب أن يرى بين النفل فليتهم نفسه فلأن فيه شائبة الفناء ، ومن يطوى فهو مودع الله تعالى فرحا في ماله ينسبه الطعام ، وقد لا يلقى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالآثار يوقى جانب الروح الروحاني فيجذب إلى مركزه ومستقره من العالم الروحاني وينتشر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، وأما أرباب الروح إذا اختلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانكاس آثار الروح عليها بسطة القلب المستقر فأجل من جذب للفتايل الجديدة ؛ إذ للفتايل يجذب العديد لروح في العديد مشاكل للفتايل فيجذب بنسبة الجفينة الخاصة ، ولذا تجلس النفس يمكن نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في القصور ويستند على القلب من الروح وأما إلى النفس فتجذب الروح النفس بجنسية الروح المادية فيها تقدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الخيرية . ويشق عند قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبيت عند ربي يطمن ويستبين ، ولا يقدر على طوبى فتارة لا يعد نصيرا عما هو أوأواله وسائر أحواله ضرورة فيقال من الطعام أيضا ضرورة ، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة فأنب فيه تار الجوع الباب الخلقاء بالار ، لأن النفس الزائدة تسليط بكل ما يرفضها وإذا . تقيظت نزع إلى هواها ، فأبعد التراب إذا فطن لسياسة النفس ورزق العلم سبل عليه العلى ومعاركتها لعمدة من الله تعالى ؛ لاسيما أن كوشف بشي من الملح الإلهية وقد حكى لي فقير أنه اشتد به الجوع وكان لا يطلب ولا يتسبب قال : فلما انتهى جوعه إلى النهاية بدأ يامتنع الله على بشافة قال : فتناولت التفاح فوجدتها كلها قاسية كسرتها كوشف فجوراء فطرت إليها غصيب كسرما ، ولدت عندي من الفرح بذلك ما استنيت من الطعام أيضا ، وذكر لي أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة ، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان فلم ولا تنكر . قال سبل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من الماكروت وكان يقال : لا يزيد العبد حقيقة الإله الذي لا مشوية فيه إلا بمساعدة قدرة من الماكروت . وقال الشيخ أبو طالب للكر رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوما رباحة النفس في تأخير القوت ، وكان يؤخر نظره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة في نصف شهر ، فيطوى الأربعين سنة وأربعة أشهر ، فتتدرج الأيالم والقبائل حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد ، وذكر لي أن الذي فعل ذلك ظهرت له آياته الماكروت وكوشف بماني قدرة من الجبروت فجعل الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من العلى والقتل لونه حين الفضيلة ماقت أحدنا من الآتياء ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ من ذلك إلى أقصى غاية ، ولا شك أن ذلك فضيلة لا تنكر ، ولكن لا تنصير مواهب الحق تعالى في ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل من يطوى أربعين يوما ، وقد يكون من لا يكشف بطنه من مساكن القدرة أفضل من يكافئ بها إذا كاشفه بصرف المعرفة . فالقدرة أثر من القادر . وعن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من جهل أجزا . علم الحكمة ، فلذا أخلص البيده تعالى أربعين يوما واجتهد في ضبط أحواله بطنه من الأنواع التي ذكرتها من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقافه وساعاته ، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين .

وكان جماعة من الصالحين يتناوبون للأربعين ثا عشرة وعشر ذى الحجة ، وهي أربعون موسى عليه السلام . أخبرنا شيخنا حياذ الدين أبو العجب إجازة قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خير بن إجازة قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أخبرنا أبو محمد بن البلس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صادق قال حدثنا الحسين بن الحسن الرزوي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا أبو مسلمة الضرير قال حدثنا المهناج بن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أخصس له تعالى البائدة أربعين يوما ظهرت (١٢) — ملحق كتاب الإسماء)

بإيحاء الحكمة من قلبه على لسانه .

الباب التاسع والعشرون : في أخلاق الصوفية وشرح الحلق

الصوفية أوفر الناس حظا في الاكتفاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقرهم في حياته واستغنى عن خلقه بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الاقتداء وإحياء سنته : على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الرهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الحروري قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد القرطبي قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد الهروي قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الرمذي قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري البصري قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بني إن قدرت أن تصحب نبيي وليس في قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال : « يا بني وذلك من سنتي ، ومن أحب سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة » فالصوفية أحبوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم وقفوا في بدايتهم لرعاية أفعاله ، وفي وسط حالمه اقتدوا بأفعاله فأثمر لهم ذلك أن يتفردوا في نهايتهم بأفعاله ، وتحسين الأخلاق لا يأتي إلا بهد تركية النفس ، وطريق التزكية بالإذعان لأساسة الشريعة ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وإليك أمثل نفسك) لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا ، قال جماعة (على خلق عظيم) أي على دين عظيم ، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة .

سكت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القرآن . قال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهي عما نهى الله عنه ، وفي قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير وعظم غامض . ما ظننت بذلك إلا بما غصبا الله تعالى به من ركة الروح السابرة وصحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصه بإعمال بكلمة ، غلظا شطر دينكم من هذه الحيرة ، وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطباع هي من لوازمها وضرورتها ، خلقت من تراب ولها بحسب ذلك طبع ، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حما مسنون ، ومن صلصال كالغفار ، وبحسب تلك الأصول التي هي مبادئ تكونها استغدت صفات من الهيمنة والسيعة والضيعة ، وإلى صفات الطبيعة في الإنسان إشارة بقوله تعالى (من صلصال كالغفار) فدخل آثار في الغفار . وقد قال الله تعالى (وخلق الجن من نار) والله تعالى يخفي لطفه وعظم حيلته نزع لصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما ورد في حديث حليلة ابنة الحارث أنها قالت في حديث طويل : فبينما نحن خلف بيوتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أشبه من الرضاغة في بهم لنا ، جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشي قد جاءه رجلا ن عليهما ثياب يابض فأضجعهما فشفقا بقله ، فخرجت أنا وأبوه فشدت نحوه فجدده قائما منتظما لوجه قائمته أبوه ، وقال : أديني ما سألتك : قال : جاءني رجلا ن عليهما ثياب يابض فأضجعهما فشفقا بقله ، ثم استخرجنا منه شيئا فطره ، ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا ، فقال أبوه يا حليلة : لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيب الطلق بما قدره إلى أمه قبل أن يظهر به ما تتخوف قالت : فاحتلهاء فلم ترجع أمه إلا وقد قدمتا به عليا ، قالت : ما رديا قد كتبنا عليه حريصين ، فلما : لا والله لا خير إلا أن الله من وجهه قد أدى عنا ونفينا الذي كان عليسا ، وقتنا نتمنى الأبدان والأحداث ردة إلى أمه ، فقالت ماذا بك فأمدتني شاكنا ؟ فلم تدعنا حتى أخبرنا ما نعلمه ، فقالت : خدنيما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وله لكانن لاني هذا شأن ألا أخبركما بغيره ؟ فلما : على ، قالت : حملت به فسا حملت حملا قط أخف منه : فأريت في القرم حين حملت به كأنه خرج من نور قد أمضت به قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقروا لم يقمه الولود منتظما على يديه وأدفا رأسه إلى السماء قد جاءه هناك . فبعد أن ظهر الله رسوله من لصيب الشيطان قبضت النفس الزكية البتيرة على حلقوس البشر ، لها ظهر وبصفت

وأخلاق مبقلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم راحة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بغير من الظلة لتنفرد حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الأمة ، فاستندت تلك الصفات للبقاة بظهورها في رسول الله صلى الله عليه وسلم بتزليل الآيات المحكيك بإزائها لنفسها ، تأدياً من الله تلبية راحة خاصة له وراحة للأمة ، ورحمة بتزويل الآيات على الآباء والأولات عند ظهور الصفات ، قال الله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن فجاء واحدة كذلك لتثبت به قلوبك ولتعلم نراه تريلاً ﴾ وتثبت القلوب عند اضطراب بحر حركة النفس بظهور الصفات لا سيما بين القلب والنفس وعند كل اضطراب آية متخذة للخلق صالح متى إما مضرعاً أو مفرعاً ، كما تحركت النفس الشرقية العبرية لما كسرت ربايتها وصار قائم بميل على الوجه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح ويقول : كيف يفلح قوم غيبروا وجهه لديهم وهو يدعوهم إلى دينهم ؟ فأقول الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، فأكلى القلب التبرير لباس الاصطبار وعلمه بعد الاضطراب إلى القرار ، فالتزعمت الآيات على ظهور الصفات في مختلف الأوقات فصحت الأخلاق الشريفة بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون في إبقاء تلك الصفات في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى قوله عليه السلام : إنما أنسى لاسن ، فظهور صفات نفس الشريفة وقصاستزال الآيات لتأديب نفوس الأمم بتدبيرها راحة في حقهم حتى تترك نفوسهم وتعرف أخلاقهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأخلاق عزوة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى مبدعاً خيراً منه منها خلقاً ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما يثبت لكم مكارم الأخلاق ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى مائة ويستمع عشر خلقاً من آباء واحد منها دخل الجنة ، فتدبرها وتصدعها لا يكون إلا يوحى سمادى لمسل وني ، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماء منته عن صفاته سبحانه وتعالى وما أظهرها لم إلا ليدهم إليها ، ولولا أن الله تعالى أودع في القوي البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها بخص من يله .

ولا يبد - والله أعلم - أن قول عائشة رضي الله عنها ، كان خلقه القرآن ، فيه رمزاً ضمن وإسناداً إلى الأخلاق الربانية فأحاطت من المعطرة الإلهية أن تقول : منتخفاً بأخلاق الله تعالى ، فثبت عن الخلق قولها : كان خلقه القرآن استنباه من سبحات الجلال وسراً الحال بلفظ فقال ، وهذا من وفور عليها وكال أدها وبين قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ وبين قوله ﴿ وإليك لعل خلق عظيم ﴾ متباعدة مشفرة يقول عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيم لأنه لم يكن له همه سوى الله تعالى ، وقال الراسطي رحمه الله : لأنه جاد بالكرتين عوداً عن الحق ، وقيل : لأنه عليه السلام جاور الخلق بخلقهم وبأيتهم بقلبه وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صرنا الأكوان في حيث يشاءة مكوئنا . وقيل سمى خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد تدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى حسن الخلق في حديث أخرجه به الشيخ العالم حياء الله بن عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا الشيخ الحموي قال أخبرنا أبو نصر الترياق قال أخبرنا أبو محمد الجراسي قال أخبرنا أبو العباس الجعفي قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الأزدي قال حدثنا أحمد بن الحسين بن غرنا قال حدثنا حبلين بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبد الله بن سعيد عن محمد بن لشكر عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من أسبى إلى وأفرى مني مجلساً يوم القيامة أسبى أخلاقاً وإن أبغضكم إلى وأبغضكم مني مجلساً يوم القيامة الترابون القنفذون التفتيتون ، قالوا : يا رسول الله علنا الترابون والقنفذون لا تفتيتون ؟ قال : للتكبرون ، والفتلار هو المكابر من الحديث ، والمتصدق المشطول حل الناس في الكلام .

قال الراسطي رحمه الله : الخلق العظيم أن لا يتعاسم ولا يتعاسم ، وقال أيضاً ﴿ وإليك لعل خلق عظيم ﴾ لوجده الله جلالة المظالم على شرك . وقال أيضاً : لأنه قبلت تخون ما أسديت من نسي أحسن مما قبله غيرك من الآتياء

والرسول وقال الحسين : لأنه لم يؤثر عليه جفاء الخلق مع مخالفة الحق . وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى والتمسك بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للأعراض عند غطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى (ولترثوا ما آتينا بعض الأولاد) لاخذنا منه بيمين (أتمناه حيث قال (وإنك)) أسخروه إذا أسخروه أفغده وحسبه ، وقوله (لاخذنا) أتمناه فيه غناه . فيقول هذا القائل نظر : فهلا قال : إن كان في ذلك غناه في قوله (وإنك) غناه وعرفناه بعد غناه ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بنصب الرسالة لأن الفناء إنما هو لزاحة وجود معلوم ، فإذا زرع اللغوم من الوجود وتبدلت الثمرات فأى عورة تبقى في الفناء ؟ فيكون حضوره باق لا ينسه فأى حجة تبقى هناك ؟

وقيل من أول الخلق قد أوتى أعظم القامات لأن اللغات ارتباطا عاما والخلق ارتباطا بالثبوت والصفات . وقال الجليل : اجتمع فيه أربعة أشياء السخاء والآفة والصبغة والشفقة . وقال ابن عطاء : الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار ويكون تحت الحكم مع غناه النفس وقناه للألوف ، وقال أبو سعيد القرشي : العظيم هو الله ومن أخلاقه الجود والكرم والصلح والوفاء والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام : إن الله مائة وبضعة عشر خلقا من أول واحد منها دخل الجنة ، فلما خلق بأخلاقه تعالى وجد التثابته عليه بقوله (وإنك لعل خلق عظيم) وقيل : علم خلقك لأخلاقك ترض بالأخلاق وسرت ولم تكن إلى الثبوت حتى وصلت إلى الكائنات ، وقيل : لما سمعت محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحياض حجرة بها عن الذات والشهوات والقاء في القرية والجفوة فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له (وإنك لعل خلق عظيم) .

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر القدسي عن أبيه قال : أخبرنا أبو عمر الليثي قال : أخبرنا أبو محمد عبادة بن يوسف قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقي قال أخبرنا أبو برب بن محمد الزراني ، قال حدثني الوليد قال حدثني عمار بن يزيد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : مكالم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله أعمال لمن أراد به السعادة : صدق الحديث صدق اليأس وأن لا يضيع وجاره وصاحبه جائننا وإعطاه السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتزم للمصاحب وإفراء الخفيف ورأسن الخياء . . . وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الفم والفرج . يكون هذا الفم في قواصط الحظوظ المأجلة ، لأن ذلك يتضمن التسلط والتعسف ، وفيه الأعراض على الله تعالى وعدم الرضا بالنعمة ، ويكون الفرج الشاربي الفرج بالحظوظ المأجلة المنوع من بقوله تعالى (لا يلا تأسوا على ما كنتم ولا تفروا بما آتاكم) وهو الفرج الذي قال الله تعالى (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) لما رأى منافع قومه بالصبة أول القوة . فأما الفرج بالانقسام لأغوية فحسود يقال فيه قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وفرح عبادة بن المبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف وكلف الأذى .

فالفرو فرأوا نفوسهم بالمسكيات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق . وكمن نفس تهيب إلى الأعمال ولا تهيب إلى الأخلاق . فنفس البباد أجابت إلى الأعمال وجمعت عن الأخلاق ، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلي قال : سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتاني يقول : التصرف خلق فن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصرف . فأجاب أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بغير الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم يسلكوا بغير الإيمان ،

والهوية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان ، فلما بشر برأى أهل القرب والصوفية نور اليقين وأصل فرأى منهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بوضو نور الإسلام ، ويضئ بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيمان . فإذا أبيض القلب وتور انبكس نوره على النفس ، والقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح ، والنفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والفرقة . والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بأكمله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا أبيض كله توجه إلى الروح بأكمله ، فبتداركهم دار الروح ، ووجداد إشراق وتورا . وكلما اجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب ، وكلما انجذبوا توجهت إلى القلب بوجهها الذي يليه ، وتور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلب . وعلاوة زرعها طمأنينتها قال الله تعالى (يا أيها النفس للشفقة ارجعي إلى ربك راجية عرضية) وتور وجهها الذي يلي القلب بمثابة توراتية أحد وجهي الصدق لاكتساب التوراتية من التور . وبهاء ثوبه من الطلعة على النفس للنسبة وجهها الذي يلي الفرقة والطبع ، كهباء ظاهر الصدق على ضرب من التكسر والتقصان عائلها التوراتية بأكمله . وإذا تور أحد وجهي النفس جاءت إلى الحسين الأخلاق وبديل السموات ، ولذلك سمى الأبدال أبدالاً . والسر الأكبر في ذلك أن قلب الصوف بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب والسان يرتقي إلى ذكر الذات ، ويصير حيلة بمثابة العرش ، فالعرش قلب التكاملات في عالم الخلق والحكمة والقلب عرش في عالم الأمر والقدرة . قال سهل بن عبد الله التستري : القلب كالعرش والصدور كالكرسي . وقد ورد عن الله تعالى لا يمسني أرضي ولا سمائي ويسمعي قلب عبدي المؤمن ، .

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحراً مواجاً من لسان القرب بهجري في جداول أخلاق النفس صفاء السموات والصفات وتحقق التعلق بأخلاق الله تعالى . حكى عن الشيخ أبي علي الفارسي أنه حكى عن شبيهه أبي القاسم الكركاني أنه قال : إننا لأعاجل التسعة والتسعين قصير أوصافاً لقلب السالك وهو بيد في السرك غير واصل ، ويكون الشيخ حتى هذا أن القلب يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى « الرحيم » معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعر علومهم على هذا للنبي والتفسير . وكل من تورم بذلك شيئاً من الخوف ترتدق وألحد .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاناً روحية جامعة لخاصات الأخلاق فقال له : يا معاذ أرميك بقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانة وترك الشهادة ، وحفظ الجوار ورحمة اليتيم وابن السكندر وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحسب الآخرة والجرح من الحساب وخفض الجناح ، وإياك أن تسب حليفاً أو تكذب صادقاً أو تقطع آتماً أو تلصق إماماً جادلاً أو تفسد أرحماً ، أو صيغافاً إماماً فاضلاً ، أو تفتك حبيباً ويحرم مدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، والسر بالسرة ، والعلاية بالعلاية ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وروى معاذ أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حلف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » .

أخبرنا الشيخ العالم حماد الدين عبد الوهاب بن علي وإسناده المتقدم إلى القرظي رحمه الله قال : أخبرنا أبو كريب قال حدثنا قيس بن أبي الليث عن مطرف عن عطاء عن أم القرداء عن أبي القرداء قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من شيء يرفع من الميزان أقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق يبلغ بدرجة صاحب الصوم والصلاة . وقد كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أسنى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يهضم يسطي ويأني الليل لا يأبى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا ، وأكثر فرت طامه من أبسر ما يجد من التمر والتمر ، ويضع ماضاً ذلك في سبيل الله ، لا يستل شيئاً إلا يسطي ثم يرموه إلى فرت عامه فؤثرته حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام ، وكان يخلص التمر ويرقع القرب ويرقع في مهنة أمه ويطلع العلم معونه ، وكان أشد الناس حياءً وأكرمهم تراخفاً فضلوته الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون : في تفاصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يليق العبد لبسة أفضل من التواضع، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد متعادلاً يعلم أنه شبيهه، ويقيم كل أحد على ما عند من نفسه؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح (وما يبقها إلا المارون)

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي، قال أخبرنا عثمان بن عديته، قال أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم، قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان، قال حدثنا أبو حاتم الرازي، قال حدثنا الضمر بن عبد الجبار، قال أخبرنا ابن أبي عمير عن يزيد بن أبي حبيب عن ستان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبيى بعضهم على بعض».

وقال عليه السلام في قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) قال: «على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس»، وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الخمر والعبد، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو عذ أرب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمساكين.

وأخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف بإجازة عن السلي، قال أخبرنا أحمد بن علي القرني، قال أخبرنا محمد بن النعمان، قال حدثني أبي عن محمد بن جابر النخعي عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن يده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لئن رَأَسَ التَّوَّاعِعُ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ عَلَى مَنْ لَقِيَ، وَتَرَدَّ عَلَى مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَرْضَى بِالْفُتُونِ مِنَ الْجُلُوسِ، وَأَنْ لَا يَهْبِ لِلدُّعَا وَالزُّكْيَةِ وَالْبَرِّ».

وورد أيضاً عنه عليه السلام: «طوبى لمن تواضع من غير مقصدة، وذلل في نفسه من غير مسكنة».

سئل الجليل عن تواضع أفعال: خفض الجناح ولين الجانب. وسئل التفضل عن تواضع أفعال: انفضح الحق وتقاد له وتقبله من قاله وتسمع منه. وقال أيضاً: «من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب».

وقال وهب بن منبه: مكتوب في كتاب الله: «إني أخرجت النار من صلب آدم فلم أجد قلباً أشد تواضعاً لى من قلب موسى عليه السلام، فلذلك اصطفيته وكلمته».

وقيل: «من عرف كرامان نفسه لم يطمع في العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع؛ فلا يفاضلهم من يلمه، ويشكر الله لمن يحمده».

قال أبو حفص: «من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليتزم بحرمتهم فإن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يشكرك».

وقال تقيان عليه السلام: لكل شيء عطية، وعطية العبد التواضع.

وقال الثوري: خمسة أنفس أوحى إلي في الدنيا: طاهر زاهد، وغني صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكرو مشرف مسني. وقال الجلاء: «لولا شرف التواضع كنا إنا مشيتنا نطفر». وقال يوسف بن أسباط وقد سئل: ما غاية التواضع قال: «أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيتك خيراً منك».

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا العجب... وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاماً على رءوس الأسارى من الأفرنج وهم في قيودهم - فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخدام: أحضر الأسارى حتى يقدموا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقدمهم على السفرة صفوا واحداً، وقام الشيخ من جهاده ومشى إليهم وقدم بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا حل وجهه ما نزل بألمه من التواضع في الانكسار في نفسه والسلاخنة من التكبر عليهم بإنجاء وعله وعمله.

أخبرنا أبو زرعة، بإجازة عن أبي بكر بن خلف، بإجازة عن السلي قال: سمعت أبا الحسين القناري يقول:

سمعه الجري يقر : صحت أهل العرة أن الذين رأس مال : غصة في الظاهر ، وغصة في الباطن ؛ فأما القرائن في الظاهر : تصديق في اللسان ، وسلامة في ذلك ، وتواضع في الأبدان ، وكلم الآذى ، واحتياط بلا إله . وأما القرائن في الباطن : حب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ووجه الوصول إلى سيده ، والتقدم على نفسه ، والحياء من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع في الخلق حسن ، ولكن في الاعتناء أحسن . والتكبر سيئ في الخلق ، ولكن في التقراء أجمع .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : قصير النفس معرفة بالعيب ، وتطعيم الناس حرمة التوحيد ، وقبول الحق والتصية من كل واحد .

وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير نفسه حقا ولا حالا من علمه بشره ما وازدراها ولا يرى أن في الخلق شرا منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبطل ، أحد من الكبر مع الأدب والسداد .

وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف لمة لا يصدق عليها ، وبلاء لا يرسم صاحبها عليه ؟ قال : نعم ، أما لمة التواضع ، وأما البلاء فالكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع : أن التواضع رماية الاعتدال بين الكبر والضعف ؛ فالكبر دفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعف وضع الإنسان نفسه مكانا يروى ويرفض إلى تخليص حته . وقد اتفق من كثير من إشارات المشايخ في شرح التواضع أشياء إلى حد أنهم التواضع في مقام الضعة ، ويلوح فيه الخوف من أوج الإطراء إلى حضيض التفریط ، ويوم الخرافة عن حد الاعتدال ، ويكون قصدهم في ذلك المبالغة في قبح نفوس المريدين نحو ما عليهم من العجب والتكبر ؛ فقل أن خلفه مريد في مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى تنتقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب ، وكل ما نقل من ذلك القليل من المشايخ لبقايا السكر عندهم والخصام في متيقن سكر الحال وعدم الخروج إلى قضاء الصلوات ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حقق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصيرة على وجه لا يحفظ على الوقت وسلامة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : من تمت خضراء السهاد مثل ؟ وقول بعضهم : قدس على رقة جمع الأولياء . وكقول بعضهم : أسرجت وأبليت وطفت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يفرج لي أحد ، إشارة منه في ذلك إلى مفردة في وقته . ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فقلوب ذلك بجزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتماع أمثال هذه الكلمات واستبعادهم أن يمحور قلبهم بالتواضع بشيء من ذلك ، ولكن يحمل لسلام الصادقين وجه الضعة ، ويقال : إن ذلك طبع عليهم في سكر الحال وكلام السكران يعمل ؛ فالمشايخ لأرباب التمكن لماطوفات النفوس هذا البلاء البغيض بالتواضع في شرح التواضع إلى حد الخفة بالضعف ناديا للمريدين ، والاعتدال في التواضع : أن يرضى الإنسان بقله دون ما يستحقه ، ولو أن الشخص جرح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير غير زائدة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجرح في جيلة النفس - لكونها مخلوقة من صلصال كالنفخ فيها لينة ثائرة وطلب الاستسلام بطبعها إلى مركز النار - احتاجت لتتأذى بالتواضع وإيقانها دون ما تستحقه فلا يطرئ إليها الكبر ، فالكبر عن الإنسان أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ، ومن ابتاعها من المخطئين يكون كاذبا ، والكبر يشرك من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة الحسن ، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة ، وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) وقال تعالى (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) وقد ورد ، يقول الله تعالى : التكبرياء وذاتى والظلمة لإزاري فمن توارى واحدا منها قصصته ، وفي رواية : لذت في نار جهنم ، وقال

هو وجل ردا للإنسان في طغيانه إلى حده : (ولا تمش في الأرض سراً فلكل من تحرق الأرض وإن تبلغ الجبال طولا)
وقال تعالى (فليظفر الإنسان سم خلق خلق من ماء دافق) وأبلغ من هذا قوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره
من أي شيء خلقه من لطفه خلقه قدره) وقد قال بعضهم لبعض التكبرين : أترك لطفة مدرة ، وأترك جيفة
قفرة ، وأنت فيها بين ذلك حامل المدرة : وقد نظم الشاعر هذا البيت :

كيف يزعم من رجيته = أيد العصر حجبته

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن التكبر انتشر أثره في بعض الجوارح وترشح الإباء بجليه ؛ فثارة يظهر
أثره في المتكبر بالقبيل ، وثارة في الشد بالتصغير . قال الله تعالى (ولا تصغر خدك لناس) وثارة يظهر في الرأس عند
استعصاء النفس . قال الله تعالى (لروا وروسيهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون) .

وكأن التكبر له أقسام على الجوارح والأعضاء فتشعب منه شعب ، فكل ذلك يعضها أكثف من البعض : كالتيه
والوهم والعمى وغير ذلك ، إلا أن المرة لقبه بالكبر من حيث الصورة ، وتشتق من حيث الحقيقة ، كاشتباه
التواضع بالضعف ، والتواضع بمحور الضعة مذمومة ، والكبر مذموم والمرة محمود . قال الله تعالى (وهذه المرة ولرسوله
والمؤمنين) والمرة غير الكبر ، ولا يحل لؤم أن يذل نفسه ، فالمرة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها :
أن لا يعضها لأعراض عاجلة دنوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإزائها فوق منزلتها . قال بعضهم للحسن :
مأعشلك في نفسك ! قال : لست بعظيم ولكني عريز . ولما كانت المرة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله
تعالى (تستكبرون في الأرض بغير الحق) فيه إشارة خفية لإلبيات العروبة بالحق ، فالوقوف على حد التواضع من غير
انحراف إلى الضعة وقوف على صراط المرة للتصويب على متن نار الكبر ، ولا يزيد في ذلك ولا يثبت عليه إلا لأقدام
العلماء الراسخين والسادة القريبين رؤساء الأبدان والعديدين . قال بعضهم : من تكبر فقد أخبر عن ندالة نفسه ،
ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه .

وقال الآرمزي : التواضع على ضربين : الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونبيه ، فإن النفس تطلب الراحة تتلهى
عن أمره ، والفتنة التي فيها تهوى في نبيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونبيه فهو تواضع ، والثاني : أن يضع نفسه
لطفة الله فإن اغتبت نفسه شيئا عما أحلق له من كل نوع من الأنواع منها ذلك . وجعل ذلك : أن يترك مشيئة
الشيء الله تعالى

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه ؛ فمذ ذلك تذوب النفس ، وفي ذوبانها
صفاتها من غش الكبر والحب ، فتلين وتطيع الحق والخلق نحو آثارها وسكون وجهها وضياعها ، وكان الخط
الأوفر من التواضع ثبينا عليه السلام في أرضان القرب ، كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت :
فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذت ما يأخذ الخائف من الغيرة طمأنينة عند بعض أزواجه ، فطلبته
في حجر فسأته فلم أجده ، فوجدته في المسجد ساجدا كالقرب الخلق وهو يقول في صمعه ، بعد ذلك سوادى ونخيل ،
وأمن بلك غزادى وأمر بلك لسانى ، وما أنا ذا بين يديك ، يا عظيم يا غافر الذنب العظيم ، وقرره عليه السلام ، بعد
له سوادى ونخيل ، استعصاء من التواضع بمسائر الوجود حيث لم تتخلف ذمة منه من السجود وظاهر أو باطنا ،
ومتمم يكن القصور حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر سطحه في التواضع للخلق ، وهذه سمات إن
أقبلت بامت بكيتها . والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية .

ومن أخلاق الصوفية : المداراة واحتمال الآذى من الخلق ، ويبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه
وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود ، فلم يصف عليهم ولم يرد على من الحق ، بل وداه بدمائه ناقة من قبله وإن بأصحابه
لحاجة إلى بيور واحد يتقرون به .

وكان من حسن مداراه أن لا يلم طامعا ولا يبر عادما . أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين عبدالوهاب بن علي ،

قال أخبرنا أبو الفتح الكرخي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس
الاصمعي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتبية ، قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن انس قال : خدمت
رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لي شيء منته لم صنت ولا شيء تركته لم تركته ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وما كنت خراف ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرأ كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فالمباراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتساب الأذى بشهر
جوهر النفس . وقد قيل لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ القدسي قال أخبرنا أبو عبد الصريفي ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله
ابن حبان ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال حدثنا علي بن الجندب ، قال أخبرنا شعبة عن
الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هو ؟ قال : ابن عمر عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المؤمن الذي يمشي الناس ويصبر على أذى من غير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على
أذى من ، وفي الخبر ، أيسر أحدكم أن يكون كأي ضخم . قيل : ماذا كان يصنع أبو ضخم ؟ قال : كان إذا أصبح
قال : اللهم إني تصدقت اليوم بمرضى على من ظنني ، فمن عثرني لا أعثره ، ومن شتمني لا أشتمه ، ومن ظنني
لا أظنه .

وأخبرنا حبيب الدين عبد الوهاب قال أخبرنا أبو الفتح الحروري ، قال حدثنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال
أخبرنا المحمدي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا ابن أبي حمر ، قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكسر
عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباعدته فقال : بشأين
الشبهة أو آخر الشبهة ، ثم أذن له فألان له القول : فلما خرج قلت : يا رسول الله فقلت ما قلت ثم أتت له تقول
قال : يا عائشة إن من شر الناس من يترك الناس أو يدعه الناس اتقاء لثمة ، وروى أبو زر عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال : اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن . فإني يستلزمه
على قوة عقل الشخص ووفور علم وحسن المخاطرة ، والنفس لا تزال تصبغ بين يديك مرسا . ويستغرها
الغيب والفتنة ، بالمخاطرة قطع حمة النفس ورد طيشها ونفورها . وقد ورد : من كلف شيئا وهو يستطيع أن يفلته
دعاء الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء . . وروى جابر رضي الله عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل دين زين سيل قريب . . وروى أبو مسعود
الأصمعي رضي الله عنه قال : أتاني عليه السلام رجل فكلّمه فأرعد فقال : « مون عليك فإنك لست بملك ، إنما
أنا ابن امرأة من قریش كانت تأكل القديد » .

وعن بعضهم في معنى زين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسر بقر يسر . سواس مكركة أينا أيسر

لا يظفرون عن القسحاة إن لظفرا . ولا يمارون إن ماروا ط كثار

من تلق منهم تقل لا ليت سيدهم . مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وروى أبو الهرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أصلى حظه من الرزق فقد أصلى حظه من الخير ،
ومن حرم حظه من الرزق فقد حرم حظه من الخير .

حدثنا شيخنا حبيب الدين أبو العجيب إمامنا قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني ، قال أخبرنا
أبو الحسين عبد الرحمن بن أبي طلحة المازلي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الحموي الكرخي ، قال أخبرنا أبو
محمد بن عيسى بن عمر السمرقندي ، قال أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الهرازي ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن أبي خلف ،
(١٤ - - طبع كتاب الإيماء)

قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن إسحق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجل لمل كثيفة ، فوحشت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففني نعمة بسوطي يده وقال : يسم الله أوجعني ، قال . قبت نفسي لأنما أقول : أوجع رسول الله ، قال : فبت بلية كما يعلم الله ؛ فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كلنني بالأس . قال : فأنظرت وأنا مخوف ، فقال لي : إنك ومثلك بملك على رجل بالأس فأوجعني ، ففحشك نعمة بالسوط فلهذا ثمانون نعمة عليها .

ومن أخلاق الصوفية : الإتيان والمراساة ويصلهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طيبا ، وقوة اليقين شرعا ، ويؤثرون بالمرجوة ويعصرون على المفقود .

قال أبو زيد البجلي : ما علمني أحد ما علمني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجا فقال لي : يا أبا زيد . ما حدث الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلا ، وإذا فعدنا صيرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ؛ فقليل ؛ وما حدث الزهد عندكم ؟ قال : إذا فعدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرا .

وقال ذو النون : من علامة الزاهد الشروع صدره ثلاث : تفريق الجموع ، وترك طلب المفقود ، والإتيان بالثبوت . وروى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأسيار : إن شئتم قسمي للنهار بين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه النسيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم قسم لكم شيئا من النسيمة ، ففالت الأسيار : بل قسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالنسيمة ولا نشركهم فيها ؛ فأمر الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : جاد رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسابه جهنم فقال : يا رسول الله ؛ إن جاعم فأعلمني . فبعت التي صلى الله عليه وسلم إلى أزواجه ، هل عندك شيء ؟ فكلهن قلن : والذي بملكه بالحق نبيا ماعندا إلا الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماعندا ما تعلمكم هذه البلية ، ثم قال : من يعطي هذا هذه البلية رحمة الله ؟ فقام رجل من الأسيار فقال : أنا يا رسول الله ؛ فأني به منزله فقال لأهله : هذا حيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرمه ولا تدخرني عنه شيئا ؛ فقالت : ماعندا لإقوت الصبية ؛ فقال : فتقوى عليهم من قوتهم حتى يناموا ولا يعلمون شيئا ثم أخرجني ، فلما أخذ الحيف لي أكل قومي كأنك تصلحون السراج فأطشبه وأعال بهنغ ألسنا لعيف رسول الله حتى يبيع حيف رسول الله ، فقامت إلى الصبية فقلعتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يعلموا شيئا ، ثم قامت فأثرت وأسرجت ؛ فلما أخذ الحيف لي أكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفاه ، فجلا بطنان البتينا لعيف رسول الله ، وظن الحيف أنهما يأكلان منه حتى شبع الحيف وبانطواوين ؛ فلما أصبحوا غداوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما نظر إليهما بهمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : لقد حيف الله من فلان وفلانة هذه البلية ، وأمر الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ،

قال أنس رضي الله عنه : أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى - وكان يجهودا - فوجه به إلى جاره ، فتداوله سبعة أنفس ثم جاد إلى الأول ؛ فأرسل الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكي اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى وله أرفقة معدودة لم تصعب محبة منهم ، ففكروا الزغب وأطفا السراج وجلسوا للعلم ؛ فلما رفعوا العلم فإذا حرم الله لم يأكل أحد منهم إنياراً من هل نفسه .

وحكى عن حذيفة البدي قال انطلقت يوم الخميس لطلب ابن عم لي معي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رفق سقيته بمسحوقه ، فإذا أنا به ، فقلت : أسيتك ، فأشار لي أن نسيم ؛ فلما رجلى يقول : أه ، فقال ابن عمي : انطلق باليه ، لجنه إليه ، فإذا هو مشام بن العباس ، فقلت : أسيتك ، فسمع مشام أخير يقول : أه ، فقال : انطلق

به إليه ، فثبت إليه فلما هو قد مات ، ثم رجعت إلى مشام ، فلما هو أيضا قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ، فلما هو أيضا قد مات .

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة قال : الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله (والذين تبوءوا الدار والإيمان) قال ابن عطاء : (يؤثرون على أنفسهم) جودا وكرما (ولو كان بهم خصاصة) .
بين جوعا وقرا .

قال أبو حفص : الإيتار هو أن يقدم حلو طوط الإخوان على حلو طه في أمر الدنيا والآخرة .
وقال بعضهم : الإيتار لا يكون عن اختيار ، إنما الإيتار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقله ، ولا يحد في ذلك بين أخ وصاحب وذو مرة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى نفسه ملكا لا يصح منها الإيتار ، لأنه يرى نفسه أحمق بالشيء برقية ملكه ، إنما الإيتار من يرى الأشياء كلها الحق ، فن وصل إليه فهو أحمق ، فلما وصل شيء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمارة يصلها إلى صاحبها أو يؤديا إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيتار أن تؤثر بطن آخر لك على إخراجك ، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون إيتار محل أو ذكر . ومن هذا المثل ما نقل أن بعضهم رأى أحمق لم يظهر البشر الكثير في وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : يا بني سمعت أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله : إنما التقي للسلطان ينزل عليها مائة راحة تسعون لا كثرها بشرا ، وعشرة لا قلها بشرا ، فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ حياء الدين أبو التميم إجازة ، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن الصغار التيسابري قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن غف الثيرازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال : سمعت أبا القاسم الرازي يقول : سمعت أبا بكر بن أبي سديان يقول : من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نقس ولا قلب ولا ملأ ، فن نظر إلى شيء من أسبابه فقله ذلك عن بلوغ مقصده .

وقال سهل بن عبيدة : الصوفي من يرى همه دنيا وملكه مباحا .
وقال روم : الصوف مبن على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق باليذل والإيتار وترك التمرين والاختيار .

قيل : لما سعى بالصوفية وتميز الجليل بالفتنة وقبض على الحمام والزمام والنوري وبسط الطعاع ضرب وقاهم ، فقدم النوري قتيلا له : إلى ماذا تبادر ؟ فقال : أؤثر إخواني بفعل حياة ساعه .

وقيل : دخل الروادري دار بعض أصحابه فوجده غائبا ورأى بيته منفلق ، فقال : صوف وله باب منفلق ، اكسروا الباب فاكسروه وأمر جميع ما وجدوا في البيت أن يباع ، فأخذوه إلى السوق واقتصدوا من ربحها ثم وقعدوا في الدار ، فدخل صاحب الدار ولم يقل شيئا ، ودخلت امرأة وعليها كساء ، فدخلت بيتا فمرت بالكساء وقالت : هذا أحمق من بقية المتاع فيبيعه ، فقال الزوج لها : لم تكلف هذا باختيارك ؟ قالت : انك مثل الشيخ يسطار يحكم علينا ويريق لنا شيء نخشع عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد فاستبطأ لإخوانه في عيادته ، فسأل عنهم فقالوا : إهم يستعجلون بمالك عليهم من الدين ، فقال : أخرى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا بناس : من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل ، فأكسرت عتبة داره بالمشى لكثرة هوائه .

وقيل : أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال : لماذا جئتني ؟ قال : لأرهبك أقدروهم ديني ، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا فقال له امرأة : علاقتك حين شق عليك الإجابة ، فقال : إنما أبكي لأن لم أفقد حاله حتى احتاج أن يفانني .

وأعزنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ القدسي ، قال أخبرنا محمد بن محمد بن إمام جامع أسقفهان : قال حدثنا أبو عبد الله الجرجاني ، قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمد ابنازي ، قال حدثنا أبو البختري ، قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الأشعرين إذا أرموا في القزو وقتل طعام حياتهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم انقسموا في إياه واحد السوية فهم مني وأنا منهم . وحدث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أراد أن ينزوي قال : يا مسهر للهاجرين والأوصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة ، فليعلم أحدكم إليه الرجلين وثلاثة ، فليأخذكم من ظهر جملته إلا عتبة كعبه أحدهم ، قال : فخصمت إلى اثنين أو ثلاثة مال إلا عتبة كعبه أحدهم من جملة .

وروي أنس قال : لما قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة أخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له : أتأكله مالي نصين ، ول امرأتك فأطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها تزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أمك وماك .

فاحمل الصوف على الإتيار للإطهارة بنفسه وشرف غريزته ، وما جملته قال صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك ، وكل من كلف غريزته السخاء والسخرى يتركه أن يصير صوفيا ، لأن السخاء صفة الغريزة ، وفي مقابلة الشح ، والصح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) حكم بالفلاح لمن يوق الشح ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال (وما يبرز قائم يتفقون) أولئك على مدى من وجههم وأولئك هم المفلحون) والفلاح : أجمع اسم لسادة الفارين ، والنبي عليه السلام به بقوله ، ثلاث مهلكات ... وثلاث منجيات ، لجل إحدى المهلكات فما مطاعا ، ولم يقل بحد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا ، فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فإنه لا يتكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستندا من أصل جبلتها التراب . وفي التراب قبض وإسك ، وليس ذلك بالصعب من الآدى وهو جليل فيه : وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة ، وهو لغوس الصوفية الخاص لم إلى الذلل والإتيار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففي مقابلة الجود البخل ، وفي مقابلة السخاء الشح ، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق السخاء بخلاف ، الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة ، وكل من جواد ، وليس كل جواد سخيا ، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الترائز والله تعالى متبذ عن الغريزة ، والجود يتطرق إليه الزيادة ويأتى به الإنسان مطالبا إلى عرض من الخلق أو الخلق يتقابل ما من الخلق وغيره من الخلق والثراب من الله تعالى . والسخاء لا يتطرق إليه الزيادة لأنه ينفع من النفس الزكية للرفعة من الأعراس دنيا وآخرة ، لأن طلب الموضع مشعر بالبخل لكونه مبالا يطلب الموضع ، فالبخل سقاء ، فالسقاء لاهل السخاء ، والإتيار لاهل الأنوار ومجوز أن يكون قوله تعالى (إنما الطمع في الحياة) لا يريد منكم جزاء ولا شكورا) أعني في الآية الإطعام لطلب الأعراس حيث قال (لا تريد) يريد قوله (لوجه الله) فأكذبه لا يتشر بطلب الموضع ، بل الغريزة لطهارتها تتجذب إلى مراد الحق لا العرض ، وذلك أكل السخاء من أطهر الترائز .

روت أسماء بنت أبي بكر قالت : قلت لرسول الله ، ليسل من شيء إلا ما أدخل على الزبير فأعطى ؟ قال ، نعم ، لا تترك فيوك عليه . .

ومن أخلاق الصوفية . التجاوز والمعنى ومقابلة البينة بالحسنة . قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أسألك ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنفه لوق خذ شيئا ومات شيئا . وقال الحسن . الإحسان أن تسم ولا تغمض كالشمس والريح والشمس .

وروي أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . رأيت قصورا مشرقا على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال ، للكاهن الطيب والمؤمن من الناس . .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه : أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس ، لما جازل فوقع في أبي بكر وهو ساكت ، ولقي عليه السلام يتيمس ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام ، فلعنه أبو بكر فقال : يا رسول الله شئت وأنت تتيمس ثم رددت عليه بعض ما قال فتعديت وقتي ، فقال : ذلك بيت كنت ساكتا كان ملكك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ثم أكن لأفد في مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ليس عبد يظلم بظلمة فيعفو عنها إلا أمر الله نصره ، وليس عبد يفتح باب صلاة يريد بها كرامة إلا زاده الله قوة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يفتح بها وجهه إلا زاده الله بها كرامة .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال : أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجرجاني ، قال أخبرنا الجوهري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أبو هشام الرقاعي ، قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكونوا إسماء ، تقولون : إن أحسن الناس أحسننا وإن ظنونا ظننا ، ولكن وشر الناسك إن أحسن الناس أن تفنوا ، وإن أسعدنا فلا تظنوا . وقال بعض الصحابة : يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربني ولا يبتغي ، فيبرئ فأجابه : قال : لا ، أقره . وقال القائل : الفتوة الصنع عن غرات الإخوان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الواصل للشكائ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمة وصلها ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مكأرم الأخلاق أن تعرف عن ظلمك وتعلم من ظلمك وتعلم من حرمك .

ومن أخلاق الصوفية : اليشر وعلافة الوجه ، الصوفي كآله في غلوته ويشره وعلافة وجهه مع الناس ، قال البشر على وجهه من آثار آثوار قلبه ، وقد تنازل باطن الصوفى منازل إلهية ومواهب فسيية يترى منها القلب ، ويمتل فرحا وسرورا (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره ، قال الله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة) أي مضيئة مشرقة (حاككة مستبشرة) أي فرحة ، قيل : أشرقت من طول ما أشرقت في سبيل الله ، ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة ، فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ؛ فإذا تمت القلب بلبق السامرة ظهر البشرف على الوجه . قال الله تعالى (تعرف في وجوههم لغيره التسمي) أي لتضارعه وبريقه ، يقال أشرقت البسات إذا أزمز ونور (وجوه يومئذ تخرى إلى ربها ناظرة) فلما نظرت لغزرت ، فأر باب التشاهدة من الصوفية تورت بصائرهم بنور التشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجلال الأزلي ، ولذا أشرقت الشمس على المرآة الصغرى فاستقرت الجدران ، قال الله تعالى (سيام في وجوههم من أثر السجود) ولذا تأثر الوجه بسجود القلال ، وهي القواب في قول الله تعالى (وظلالهم ينادون والأصاال) كيف لا يتأثر بشهود الجلال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجرجاني ، قال أخبرنا الجوهري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا القتيبي ، قال حدثنا الشكيري عن محمد بن الشكسر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دارك في إناه أخيك .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدي : ينبغي من القراءة كل سهل مطلق مضحك ؛ فأما من تلقا بالبشر ويقا بالعبوس كأنه يمن عليه ، فلا أكثر الله في القراءة مثله .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ولين الجانب والذبول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم وترك التصنع والتكلف ، وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار . وأخلاق الصوفية تصاكي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام : أما إن أصرح ولا أقول إلا حقا ، وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام ، وكان جديرا ، وكان لا يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جاء بطريقة يدها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فله يوما

من الأيام فرجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أثناء ذلك اليوم ، فاحتضنه
 الثاني عليه السلام من وراء بكنيه ، فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فقبل كتفيه ، فقال النبي عليه السلام ، من يشتري
 القبة ؟ فقال : إنني نموت كلنا يا رسول الله ، فقال : والله ربيع ، ثم قال عليه السلام ، لكل أهل
 بحر بادية وبادية آل محمد زاهر من حرام .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقيس عن أبيه قال أخبرنا المظهر بن محمد العقيلي ، قال أخبرنا أبو الحسن قال أخبرنا أبو عمرو بن حكيم ، قال أخبرنا أبو أمية ، قال حدثنا عبد بن إسحق الطار ، قال حدثنا سنان بن عمرو بن حيد عن أبيه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أحمق على عمل ، فقال : أحمق على ابن الناقة ، قال : أقول لك أحمق على عمل وتقول أحمق على ابن الناقة ؟ فقال عليه السلام : فأقبل ابن الناقة .

ورد في صحيح فقال : أئمتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه تمر بأكل ، فقال : أصب من هذا الطعام ، فبليت أكل من التمر ، فقال : أنا أكل وأنت لم تمد ؟ فقلت : إني أنصف من الجانب الآخر ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يروى ألس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم : ياذا الأذنين ،

وسئلت عائشة رضي الله عنها : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلغل اليه ؟ قالت : كان أبيض الناس
أسبغا ضحاكا . وروى أيضا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجدها فحقيقته ، ثم ساجدها بعد ذلك فسيها ، فقال :
منه ذلك .

وأخيراً نذكر العالم حياً الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الحريري ، قال أخبرنا أبو نصر الشيرازي ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس العمري ، قال أخبرنا أبو يحيى الحافظ الترمذي ، قال حدثنا عبد الله بن الرضاح الكوفي ، قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبي الشياح عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخاطبنا حتى إنه كان يقول لا فح لى صفيه ، يا أبا عبد الله مفضل التوبة ، والتقوى ، وصبره .

وروي أن عمر سابق زبداً رضي الله عنهما فسبقه الزبير ، فقال : سببتك ورب الكعبة ، ثم سابه مرة أخرى فسبّه عمر ، فقال عمر : سبقتك ورب الكعبة . وروي عبدالله بن عباس قال : قال لي عمر : لعنك أجمعين في الماء أنا أطول نفساً ، ولعن عمر من .

وروی بہکر بن عبداللہ قال: کان أصحاب رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم یشاہدون حتی یلبسوا حون بالبطیخ ! فإذا كانت الخفاف کأنوا ام الزجال . یقال : یلبس یلبس : إذا رى ، أى یترا موبن بالبطیخ .

وأخبرنا أبو زرقة عن أبيه قال : أخبرنا الحسن بن أحمد الكرخي ، قال حدثنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ، حدثني إسحق الخزاز ، قال حدثنا أبو سلمة ، قال حدثنا حماد بن عمار ، قال أخبرنا محمد بن عمرو بن عتبة ، قال حدثنا أبو الحسن بن محمد بن الحسين عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبي بصير قال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحمرة فلبسها له وقطعت لسوءه والنبي صلى الله عليه وسلم يني ويدها كلى ، فأبى ، فقلت لما كلى ، فأبى ، فقلت : لا تأكلن أولاً فلبسها بها وجهك ، فأبى ، فوجدت يد في الحريرة فلبسها بها وجهها ، ففحصك النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع غده وقال لسوءه : الطئي وجهها ، فلبسها بها وجهي ، ففحصك النبي صلى الله عليه وسلم ، ففرح رضى الله عنه على الباب فنادى : يا عبد الله يا عبد الله ، فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل ، فقال قوما فاعملوا وجهي ، فقالت عائشة رضى الله عنها لا زالت أحباب عمر لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه .

ووصف بعضهم ابن طائوس فقال : كان مع النبي صبياً ومع الكهل كهلاً وكان فيه مزاجه إذا غلا .
 وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نذكر النضر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونخرج عنه ويلزحنا
 وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك ، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي ؛ فهذه الأخبار
 والأخبار دالة على حسن إين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يشتمونه من المداخية في الربط ويزلون
 مع الناس على حسب طبائعهم ينظمون إلى سمرجة الله ؛ فإذا غلوا أوقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأفعال
 والأحوال ، ولا يفتق في هذا المنع على حد الاعتدال إلا صرق قلعر النفس عالم بأغلاطها وطباعها سائس غابروفر
 العلم ، حتى يفتق في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفریط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للفردين البيديين
 لقلة علمهم ومعرفة أنفسهم وأندمهم حقاً الاعتدال ؛ فقلنس في هذه المواطن نهضة ورويات نجر إلى الفساد والفتح
 إلى العناد ، والنزول إلى طبع الناس يحسن بين سعد عنهم ورتق لسطوحه ومقامه ، فيزل إليهم وللي طبائعهم حين
 يزل بالعلم ؛ فأما من لم يصمد بفاسد حاله منهم وفيه بقية من روح من طبائعهم ونفوسهم لمجاعة الأمانة بالسوء ، إذا دخلت
 في هذه اللذائل أخذت النفس حظها وانتشمت مأرباً واسترحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن
 يركب العزلة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن البيديين ؛ فقصوفية السقاء فيأخذ كراه ترويح يملون حاجته قلب إلى
 ذلك ، والثوب إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة في ذلك علم غامض لا يعلم لكل أحد
 قال سعيد بن العاص لآيته : اقتصد في مزاجك فالإفراط فيه يذهب بالباه وبغيره عليك السقاء ورتق يفيظ
 الموانع ويرش الحظايع . قال بعضهم : المزاج سلباً للجبال مقطعة للإغاء ، وكما يصعب معرفة الاعتدال في الضحك ، والضحك من خصائص الإنسان ويميزه عن جمل الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن
 سابقة لتعجب ، والتعجب يستند في الفكر ، والفكر شرف الإنسان وعاصيته ، ومعرفة الاعتدال فيما يعتادان من
 ترسخ نفسه في العلم ، ولهذا قيل : لراك وكثرة الضحك فإنه يبعث القلب ، وقيل : كثرة الضحك من الرعدة وروى
 عن عيسى عليه السلام أنه قال : إن الله تعالى يبتلى الضحك من غير حب ، للقاء في غير أرب ، وذكر فرق بين
 المداخية والمزاج ، فقيل : المداخية مالا ينضب جده ، والمزاج ما ينضب جده ، وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله بينهما في
 الصلاة من اللذبة ، وحكم يطلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الحارج ؛ فالاعتدال في المزاج والضحك
 لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من متيق الحروف والقبض والهيبة ، فإنه يتفرغ بكل متيق من هذا المعانيق بعض التفرغ ،
 فيمتدل الحال فيه ويستقيم ، فاليسر والرجاء بلغتان المزاج والضحك والحروف والقبض يمكنان فيه بالعدل .
 ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلف ، وذلك أن التكلف تصنع وقمل وتعايل على النفس لأجل الناس ، وذلك
 بيان حال الصوفية ، وفي بعضه غنى منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار . ويقال : للتصوف ترك التكلف ،
 ويقال : التكلف تخلف وهو تخلف عن شأن الصادقين . وروى أنس بن مالك قال : شهدت وفاة رسول الله عليه
 وآله وسلم . وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأقام بينهم وخل وقال : كلوا فاني مصير رسول الله عليه
 وسلم يقول ، نعم الإدام الحل . وعن سفيان بن سلية قال دخلت على سليمان القماري فأخرج إلى غزاة ومدا وقال
 كل ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم . والتكلف مذموم في جميع
 الأشياء كالتكلف بالملبوسات من غير نية فيه ، والتكلف في الكلام وزيادة التلقى صارد أهل الزمان ؛
 فما يكاد يعلم من ذلك إلا أساد وأفراد . وكمن من متعلق لا يعرف أنه متعلق ولا يظن أنه ؛ فقد يعلق الشخص إلى حد
 يخرج به إلى صريح التعلق وهو مبان لحال الصوفية .
 أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو القتيح الحروري ، قال أخبرنا أبو نصر التقي ، قال
 أخبرنا أبو محمد الجراسي ، قال أخبرنا أبو العباس الحنوي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أحمد بن منيع
 قال حدثنا يزيد بن هرون عن محمد بن عطرف عن حسان بن عطية عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

والجهد والى شعبان من الإيمان ، والبلاء والبيان شعبان من اتفاق ، البلاء : القنص ، وأراد بالبيان ههنا : كثرة الكلام والتكلف فانس يروى عنه تعالى ولاء عليهم وإظهار التفتيح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبي وائل قال : مضيت مع صاحب لي زور سلمان ؛ فقدم إلينا خبير مشهور بملها جريشا ؛ فقال صاحبي لو كان في هذا اللع ستر كان أطيب ، فخرج سلمان ورهن مطهرة وانضمعرا ؛ فلما أكثنا قال صاحبي الحمد لله الذي قتنا بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لوقد سدد رزقك لم تكن مطهرة مرهونة . وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولوا فضلا وفي حديث يرفى النبي عليه السلام : أجزأوا عواقه فقدم إليهم كسرا من خبز شعير وجوزهم فبلا كان يورعه ثم قال : لو أن الله لمن للتكلفين لتكلفت لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت الزيارة فقدم ماحضر ، وإذا استورت فلا تبق ولا تذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، اللهم اغفر للذين يدعون لأموال أمي ولا يتكفرون ، ألا إني يرى من التكلف ومخالو أمي .

وروى أن عمر رضي الله عنه قرأ له فقال (فأنبتنيها ساجدا وعينا وقصيا وزيثا وفلا وحدا في غلابة كهو أباج) ثم قال : هذا كله قد عرفناه لما الأب ؟ قال : ويدهم عصاه فغضب بها إلا من قال : هذا لعمرك هو التكلف ؛ ففدوا أيا فانس ما بين لكم منه ، فما عرفتم اعلموا به ومن لم تعرفوا فكفوا عنه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية : الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادعاء ؛ وذلك أن الصوفى يرى خواتم فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر ، والقلوب على شاطئ البحر لا يدخر المسامحة قربت ووراثته ؛ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من يوم إلا له ملكان يتادبان فيقول أحدهما اللهم أعط متقنا غلما ويقرن الآخر اللهم أعط مسكنا فلما ؛ وروى أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لند وروى أنه أهدى لرسول أقصى الله عليه وسلم ثلاث طوائر ، فأعلم خادمه طويرا ، فلما كان الند أباه به فقال رسول الله ، ألم أنبئك أن نبيا شيئا لند ، فإن الله ثمال يأتي برزق كل غد . - وروى أبو هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر ، فقال : ما هذا بلال ؟ فقال : أدخر يارسول الله قال : أما غننى ، أنفق بلالا ولا تخش من شئ العرش إلا فلا .

وروى أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ، ويلبس الثمر ، ويبعث حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا يبيت يحرب ، ولا نبأ شيئا لند .

فالصوفى كل خبايا في خواتم الله اصدق توكفه ومقت يربه ، فلهذا الصوفى كدار القربة ليس له فيها ادعاء ولا له منها استنكار . قال عليه السلام ، لو توكلم على الله حق توكفه لرزقكم كما يرزق الطير لندو محاصلو تروح بطاهم أخبرنا شيخنا حياء الدين أبو الحبيب قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الدائلي ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الهادي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال أخبرنا عبد الله ابن عبد الرحمن الهادي ، قال أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . قال ابن عيينة إذا لم يكن عنده عهد .

والإسناد عن الهادي قال أخبرنا يعقوب بن حيد ، قال أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى ، قال إن جبريل عليه السلام قال ما في الأرض أهل شجرة من آيات إلا تقبهم ، فما وجدت أحدا أخذت إنيافا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أخلاق الصوفية التسعة بالمسير من الدنيا قال ذو النون الصبرى من قبح استراح من أهل زمانه واستطال على أقرابه . وقال بشر بن الحارث لو لم يكن في القناعة إلا التبع بالعر لكنى صاحبه . وقال بشار بن خرا

الحر عبد ما طمع • والبيد حر ما قنع

وقال بعضهم : اتتكم من حرمك بالقناعة كما تلتكم من عدوك بالقصاص .

وقال أبو بكر الماروف : المائل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية ، ودبر أمر الآخرة بالحرم والتجمل .

وقال يحيى بن معاذ : من قطع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطلب عينه .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : القناعة سيف لا يغير .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن الحسن الحلال بنسداد قال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن حمارة بن عروة عم عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعراف يقول : ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد أفلح من أسلم وكن رزقه كفافاً ثم صير عليه . .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .

وروى جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : القناعة مال لا يفتن . .

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : كونوا أوعية للكتاب وينابيع الحكمة ، وعسدوا أنفسكم في المروق ، وأسألوا الله تعالى الرزق يوماً بيوم ، ولا يشارككم أن لا يشارككم .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الماروف قال أخبرنا أحمد بن علي الخافض ، قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا الحسن بن سليمان ، قال حدثنا عمرو بن مالك البصري ، قال حدثنا مردان بن معاوية ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلة الأنصاري ، قال أخبرني سليمان بن عبيد الله ابن حصن عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ تلبيته حياة طيبة ﴾ هي القناعة .

فالمعروف قوام على نفسه بالقبض ، عالم بطائع النفس وجدوى القناعة والتمسك إلى استخراج ذلك من النفس لعله بدلتها ودواتها .

وقال أبو سليمان الماروف : القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .

ومن أخلاق الصوفية : ترك المراء والمجاهدة والتمسك بالإتيق واعتبار الرزق والحلم ؛ وذلك أن النفوس تشبه الظاهر في المارين . والمعروف كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة فليها بالقلب ، وإذا فزع النفس بالقلب ذهبت الوحشة والظلمات الفتنة . قال الله تعالى لمبلى لعباده ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ولا يزع المراء إلا من نفوس زكية اتزع منها الفل ، ووجود الفل في النفوس مراد بالباطل ، وإذا اتزع للراء من الباطل ذهب من الظاهر أيضاً ؛ وقد يكون الفل في النفس مع من يشاكله ويألفه لوجود الشائفة ، ومن استعصى على تلذذ النفس بدار الزيادة في الدنيا يحمي الفل من باطله ، ولا يبق عنده مناقبة دنيوية في حطرط عاجلة من جاهل مال ؛ قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين ﴿ وزوجنا ما في جحورهم من غل ﴾ قال أبو حفص : كيف يبق الفل في قربها لتلذذ بالله وانفتحت على محبة واجتماع على مودته وأمنه كره ؛ فإن تلك تلذذ صافية من هراجز النفوس وظلمات الطباع ، بل كانت بنور التوفيق فصارت إخواناً ؛ فهكذا تلذذ أهل التصوف والتمسك على الكلمة الواحدة ، ومن التزم بشر وطريق والالتصاف على النظر بالتحقيق .

والناس رجلان : رجل طالب باعتداله تعالى ويدعو إلى اعتداله نفسه وغيره ؛ فالله الحق الصوف مع هذا مناقبة ومراء ، وإن هذا منه في طريق واحد ووجهة واحدة ، وأغور ومعية ، والمؤمن كالبيان يشد بعته بعضنا . ورجل مبتلى بشيء من عبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق ، فالصوف مع هذا مناقبة لأنه هدفه في رغب ، فن شأن الصوف أن ينظر إلى مثل هذا فطر رحة وشفقة حيث يراه محبوا مفتناً فلا ينظر له على غل ولا يثاره

في الظاهر على شيء ، بل به يظهر نفسه الأمانة بالسوء في الزمان والجاهلية

أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح الحروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراسي ، قال أخبرنا أبو العباس الصيرفي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا يزيد بن أيوب ، قال حدثنا الحارثي عن ليث عن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تمار أحاكم ولا تلمد موعظا فتعلمه .

وفي الخبر : من ترك الزمان وهو يضل إلى بيت له بيت في ريش الجنة ، ومن ترك الزمان وهو يحسب إلى ريش وسطها ، ومن حسن غلته إلى له في أعلاما .

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد بن أبي عبيدة الماليني ، قال أخبرنا الحسن بن عبد الرحمن الداودي ، قال أخبرنا أبو محمد عبيدة بن أحمد الحوي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبيدة بن عبد الرحمن المارسي ، قال حدثنا يحيى بن إسحاق عن يحيى بن حمزة قال : حدثنا الثمان بن مكي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم ليأبى به العلماء أو يبارى به السفهاء أو يريد أن يقتل بوجوه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم . المظركيف جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للمارة مع السفهاء سبياً لدخول النار ، وذلك يظهر وتوسم في طلب الشهرة والنبلة ، والتهور والغبلة من صفات الشيطنة في الآدمي .

قال بعضهم : الجدل الماردي يضع في نفسه عند الحوض في الجدال أن لا يتقنع بشيء ، ومن لا يتقنع إلا أن لا يتقنع قالوا : لا تقنع سبيل ، ففهم الصوفي بذلك صفاته وذهب عنه صفات الشيطان والسبية ، وبطل بالبين والبرق والسيولة والطمأنينة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : والفتى نفس يده لا يسلّم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره ورائقه ، المظركيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .

وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يحذون حجرا . قال : وما هذا ؟ قالوا : هذا حجر الأشداء . قال : ولا أخيركم بأشد من هذا ؟ وجعل كان بينه وبين أخيه غضب فأثامه فغلب شيطانه وشيطان أخيه ففككه .

وروى أنه جاء غلام لآبي ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر : من كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال : أنا قال : ولم فعلت ذلك ؟ قال : عدا فقلت . قال : ولم قال أعطيتك فتضربني قتائم ؟ فقال أبو ذر : لا يظن من حدثك على شيطان ، فأخفته .

وروى الأصمعي عن أمراء قال إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد فاطلب أثرهما إلى هواءك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي غانبا أخبرنا خورشيد ، قال حدثنا إبراهيم بن عبيدة قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سميد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فحبة الله في السر والعلانية ، والحكمة بالحق عند غضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والفتن . وأما المهلكات ففح مطاع ، وهوى متبع ، وإنجاب المرء نفسه ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والفتن . وأما المهلكات ففح مطاع ، وهوى متبع ، وإنجاب المرء نفسه ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والفتن . .

قل أنهم كانوا يتحاورون عن إيداء السلم ، يقول بعضهم لأن أوتوا من كلمة غيبة أحب إلى من أن أوتوا من طعام طيب .

وقال عبيدة بن عباس رضي الله عنهما المحدث حدثان : حدث من فربك ، وحدث من فيك ، فلا يحمل حيرة الوفا والطم إلا الغضب ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد ، فبالغضب يثرودم القلب ، فإن كان الغضب

على من فوته ، ما يعجز عن إيفاء النضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجسد ، واشتد في القلب ويصير منه ألم والحزن والانسداد ، ولا ينظر الصوفي على مثل هذا ، لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى فلا يشكده ولا يهتم . والصوفي صاحب الرضا صاحب الروح والراحة ، والتي عليه السلام أخبر أن ألم الحزن في الشك والشتط .

مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن التمس والنضب ؟ قال : خرجما واحد والقط مختلف ، فن نازع من يقوى عليه أشهره غضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا . والحرد : غضب أيضا ولكن يستعمل إذا قصده للتدبر عليه ، وإن كان النضب على من يشاكه ويمالعه من يرددق الانتقامته يردد قلب بين الانقباض والانبساط فيتركه منه القل والجند ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفي . قال الله تعالى (ومن عظامان صدورهم من غل) وسلامة قلب الصوفي وحاله يقدف زيد القل والجند كما يقدف البحر الرد ، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة ، وإن كان النضب على من دونه ممن يقدف على الانتقامته ثار دم القلب ، والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقر ويصلب وتذهب عنه الرقة والياش ، ومنه قصر الوجدان ، لأن الدم في القلب ثار وطلب الاستملاء وانتفضت منه العروق ، فظهر عكسه وآثره على الجند ، فيشدي الجند ويحقد بالعرب والعش ، ولا يكرن هذا في الصوفي إلا لحدث مثله الحرامات والنضب على تعالى ، فأما في غير ذلك فينظر الصوفي عند النضب إلى الله تعالى ، ثم يفرد عمله على أن يكون حركته وقوله يبدان الشرع والعدل ، ويهتم النفس بدم الرضا بالقضاء .

فيل يبعثهم : من أهدأ الناس لنفسه ؟ قال : أرحامهم بالقدور . وقال بعضهم : أصبحتم رجالا سرور لإمواقع القضاء . وإذا أهدأ الصوفي النفس عند النضب تبارك العلم ، ولذا قال علم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره واعتدل الخال برضا حرة الجند بانفضاض القلب . قال عليه السلام : السعد الحسن والتؤدة والقتاد جرة من أربعة وعشرين جرة من البيرة .

وروي حارث بن عذابة قال : قلت يا رسول الله أوصني وأقلل لعل أعيه ، قال : فأعاد عليه ، كل ذلك يقول . لا تنضب . قال عليه السلام : إن النضب جرة من النار ، ألم تظفروا حرة عينيه وانتفاح أوداجه ، من وجد ذلك متحك فإن كان قائما قليلا ، وإن كان جالسا قليلا طبع .

أخبرنا حنيفة الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح المروزي ، قال أخبرنا أبو نصر الترمي قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المصوفي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا محمد بن عبد الله ، قال حدثنا بشر بن الفضل عن مرة بن خالد عن أبي حزة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تشج عبد القيس : إن فيك خصلتين يبهما الله تعالى : الحلم والآفة .

ومن أخلاق الصوفية : التردد والتألف ، والوافقة مع الإخوان وترك المرافقة . قال الله تعالى وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال الله تعالى (لو أنفقت ماني الأرض جميعا لما أنفقت من قلوبهم ولكن الله أفهم) والتردد والتألف معن اتلاف الأرواح على ما ورد في الخبر الذي أورده ، فبالعرف منها انتف . قال الله تعالى (فأصبحتم منتهى إخوانا) وقال سبحانه وتعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال عليه السلام : المؤمن ألف مأثور ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

وقال عليه السلام : مثل المؤمنين إذا اتفقا مثل الدين تسئل إحداها الأخرى ، وما اتفقا مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا . وقال أبو إدريس الخولاني لما ذ : إن أحبك في الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ينصب لظلمة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس بهم لا يفرحون ، ويحلف الناس وهم لا يحلفون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون في الله .

وقيل : لو تحاب الناس وتماطروا أسباب المحبة لاستخروا بها عن الهداية .

وقيل : الدالة غايقة الحجة قد تشمل حيث لا توجد الحجة . وقيل : طاعة الحجة أفضل من طاعة الرجة ؛ فإن طاعة الحجة من داخل وطاعة الرجة من خارج ؛ ولهذا المسمى كانت حجة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض ، لأنهم لما تصابروا في تصاميرهم بحسن الأخلاق ووقع القبول بينهم لوجود الحجة ، فاستمتعوا بذلك المريد بالصبيح ، والأخ بالأخ ؛ ولهذا المسمى أمراته تملأ باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درج وكل حجة ، وفي الجامع في الأجرع مرة أهل بلد ، وأفضيل أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الأنظار من البلدان المنتشرة في العمر مرة فصيح : كل ذلك لحكم بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا والدي أبو الفضل قال أخبرنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمد الزيدى ، فقال أخبرنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني ، قال حدثنا يحيى الكرماني ، قال حدثنا حماد بن زيد عن مجاهد بن سعد عن الشعبي عن الثمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تدخل المؤمنين في توادهم وتواحمهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضاه » . وأما كيف والتوردة في كتمان أسباب الصحة ، والصحة مع الأخيار مؤثرة جدا . وقد قيل : لقاء الإخوان فتح ، ولا شك أن البراءة تنفتح ويتفرق البعض بالبعض ، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر في العصور يؤثر أخلاقا مناسبة لحلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى السعيد يسر . وقد قيل : من لا ينفعه لحقه لا ينفعه لقلبه ، وأجل التوردة يصير ظورا بمقارنة الجمل الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والمعاد ، والمعاد الهوام يفسدان بمقارنة الجيف ، والأدوية تنق من أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإنسان بالمقارنة ، وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ، ففي النفوس الشرقية البشرية أكثر تأثيرا ؛ ومن الإنسان إنسانا لا يأمن بجوارحه من غير شر ، وأما كيف والتوردة مستحب للزبد ، وإنما الملة والرحمة تعمد بالنسبة إلى أرباب الناس وأهل الشر ؛ فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيتمت مقارنتهم ، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى ، كأن حبهم محبة لله ، والجامع رابطة الحق ومع فيهم رابطة الطبع ؛ فالصوفي مع غير المجلس كأنه باني ، ومع المجلس كأنه مغايب ، والمؤمن مرآة المؤمن ، وإذا نظر إلى أخيه يستكشف من وراء أقواله وأحواله وأحواله تجليات إلهية ، وتبريدات وتطريجات من الله الكريم خفية ؛ غابت عن الأشياء ، وأدركها أهل الآثار . ومن أخلاق الصوفية : شكر الحسن على الإحسان والنعمة ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأفعال ورؤيتهم أنهم من نعم الجبار ، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل ماورد أن رسوله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : « ما من الناس أحد آمن عينا في محبة وذات يقدم ابن أبي قحافة ، ولو كنت متخذا خليلا لا اتخذت أبا بكر خليلا ، وقال : « ما نفعني مال كمال أبي بكر » فالحق حبيبا من الله بالحلق في الشئ والطاعة .

فالصوفي في الابتدأ يفتي عن الحلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع فاعيته التوحيد وغرق الحجاب الذي منع الحلق عن صرف التوحيد ، فلا يثبت للحلق منأ ولا عطاء ، ويصحب الحق عن الحلق ؛ فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الحلق يشكر الحق ، ويثبت لهم وجود الحق والشع والعطاء ، بمدان يرى المسبب أولا ، ولذلك لسة عليه وقوة معرفته بتهتم الواسطة ، فلا يصحب الحلق عن الحق كرامة المسلمين ، ولا يصحب الحق عن الحلق كأرواب الإرادة والمتبعين ؛ فيكون شكر الحق لأنه المسم والمسلم والمسبب ، ويشكر الحلق لأنهم واسطوسب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يدعى إلى الجنة المحذون الذين يصدقون الله تعالى في السراء والضراء » وقال عليه السلام : « من عصى أولي الله فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين ذلأ أهونا الجذام » .

وروي جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد ينم عليه بسمعة فيحمد الله إلا كان

الحمد أفضل منها ، فقله عليه السلام : كان الحمد أفضل منها ، يحتل أن يرضى الحق بها شكرا ، ويحتل أن الحمد أفضل منها لئمة فتكون لئمة الحمد أفضل من الصلة التي حد عليها ؛ فلما شكروا التزم الأول يشكرون الواسطة التزم من الناس ويذهبون .

وروى أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنظر عند قوم قال ، أنظر عندكم الصائون وأكل طعامكم الأبرار وزلت عليكم السكينة .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد الجبار ، وقال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا عبد الله بن محمد الجبوي ، قال أخبرنا عمرو بن زبارة ، قال حدثنا عبيدة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء .

ومن أخلاق الصوفية : بذل الجاه للإخوان واللسطين كافة ، فإذا كان الرجل وافر الميسر أبيض النفس وأقنبا وشهرا تها فليشر إلى لئمة الصادق السليبي يذل الجاه وللمودة في إصلاح ذات البين ، وفي هذا الحق يحتاج إلى مزيد علم ، لأنها أمور تتعلق بالحق وبخاطبتهم ومسايرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لعرفي تلم الخلق عالم رباني .

وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان لي من الأتيل يأخذ يركب اللك يتألفه بذلك لقضاء حاجتي الناس . وقال عطاء : لأن برأي الرجل سنين فيكتب بها يعيش فيه مؤمن ، أنه من أن يخلص العمل لئمة نفسه .

وهذا باب عام في أن يفتتن به خلق من الجهال للذين ، ولا يصلح هذا إلا لعبد مطلع على باطنه فسلم منه أن لا رغبة له في شيء من الجاه والمال ، ولو أن سلوك الأرض وقفا في خدمته ماطني ولا استعجال ، ولو دخل إلى

أتون يرفقه ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لا يصلح إلا لآساد من الخلق وأفراد من الصادقين يفسلون عن إرادتهم واختيارهم ويكتسبهم الله تعالى برأيه منهم ، فيدخلون في الأشياء برأيه تعالى ؛ فإذا علموا

أن الحق يريد منهم الخاطلة ويذل الجاه يدخلون في ذلك بنية صفات النفس ، وهذا لا تقوم أواهم حشروا وأسكروا مقام اللئمة وهو إلى مقام اللئمة ، فيكون لهم في كل مدخل وخرج رحان ويسان وإن من الله تعالى ، فهم على بصيرة من ربهم ، وهذا ليس فيه إرتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد في حق الخطاب ؛ فيأخذ وقت أبدا

من الأشياء ولم يأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون في فطر من الأفكار إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عبد الله الحيري : لا يكل الرجل حتى يشتري قلبه في أربعة أشياء : للنع والمعة والمز والذل ، ومثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والفخر قلبا ذكرا .

قال سهل بن عباد : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهده عن الناس ويحتمل جهل الناس ، ويرتك ما في أيديهم ، ويذل ما في يده لهم . وهذه الرياسة ليس من الرياسة التي زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صفته وسلوكه ، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصالح خلقه ، فهو فيها باق يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها تعالى .

باب الحادي والثلاثون : في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، أدبني ربي فأحسن تأديبي ، والأدب : تهذيب الظاهر والباطن فإذا تهذب ظاهره تهذب باطنه صار صوفيا أدبيا ، وإتصفت بأدب مادية لا يتأدب على أشياء ، ولا يتكامل الأدب في البدن إلا بتكامل مكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تصين الخلق ؛ فالخلق صورة الإنسان والخلق معناه ، فقال بعضهم : الخلق لا يسيل إلى تقيده كالخلق ، وتعدده وفرغ ربكم من الخلق والخلق والزلزل والأجل ، وقد قال تعالى (لا تبدل خلق الله) والأصح أن تبدل الأخلاق يمكن مقصور عليه ، بخلاف الخلق . وقد روى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسنوا أخلاقكم ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وعباده ليقول الصلاح والفساد وجملة أخلاقهم بمكارم الأخلاق ، ووجود الأعمال فيه كوجود النار في الزناد ووجود النحل في الثرى ؛ ثم إن الله تعالى بقدرته أتم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالترية إلى أن يصير الثرى نخلا ، والزناد بملاصيح حتى يخرج منه نار ، وكما جعل نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد ، فقال سبحانه تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها ونهياها) فنفسها صلاحيتها للشيئين جميعا ؛ ثم قال عز وجل (قد أفلح من زكاهما وقد غاب من دساها) فلما تزكيت النفس تديرت بالعدل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة ونهبت الأخلاق وتكونت الآداب فالآداب : استخراج ما في القوة إلى الفعل ، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لأمره والبشر على تكوينها ، كتكون النار في الزناد إذ هو فعل الله الحسنى واستخراجها بكسب الأدب ، فهكذا الآداب منبها السجيا الصالحة والنفس الإلهية ، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكبير السجيا فيها تفرغوا بحسن الممارسة والرياسة إلى استخراج ما في النفوس وهو متركز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين ، والآداب تقع في حق بعض الأشخاص من غير زيادة عارضة ، ورياسة لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدبني رب فأحسن تأديبي ، وفي بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لتقصان ثمر أسرارها في الحرية ، فلها احتياج المريدون إلى حمية المشايخ لتكون الصيحة والتطوعوا على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل ، قال الله تعالى (قرا أنفسكم وأوليكم نارا) قال ابن عباس رضي الله عنهما : تفقههم وأدبهم . وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدبني رب فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال (خط النفوس وأمر بالفرو وأعرض عن الجاهلين) ، قال يوسف بن الحسين : بالآداب يفهم العلم ، وبالمعلم يصبح العمل ، وبالمعلم تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الزهد ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراقي جاء إليه الجليل فرأى أصحاب أبي حفص ووقفوا على رأسه بأنهم لا يملكون أحد منهم ، فقال : يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر خزان الأدب في الباطن .

قال أبو الحسين الثوري : ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط عنها آداب الشريعة أو آداب الشريعة صولية الظاهر ، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحل بحسن الآداب . قال عبد الله بن المبارك : أدب الخدمة أحو من الخدمة .

حكى عن أبي عبد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكتبت بماء أتمد بماء الكعبة وربما كتبت استثنى وأمدت وجل : لجانني طائفة للمكة فقالت لي : يا أبا حبيب يقال إنك من أهل العلم ، أقبل من مكة ، لا يجالسه إلا بأدب وإلا فيسحق بسلكه من ديار القرب ، قال أبو حبيب : وكانت من العارقات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والبدن مأثور بملزمة الأدب ، والنفس تفرى بطلبها عن ميدان مخالفة والبدن يردعها بمجهود إلى حسن المحايلة ؛ فمن أعرض عن الجهد فقد أخلق عتات النفس وغفل عن الرعاية ، وعبها أعياها فهو شريرها .

وقال الجليل : من أعان نفسه على ما اعتد أشرك في قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة للأدب ، والعلمانيان سوء الأدب أخبرنا الشيخ العالم حياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو الفتح التبرقي ، قال أخبرنا أبو عمدا الجراسي ، قال أخبرنا أبو العباس الخيري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناسخ عن سفيان عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يؤدب الرجل ولأنه خير له من أن يقتل بصاح .

وروى أيضا أنه قال عليه السلام ، ما نزل والقرآن من أجل أفضل من أدب حسن . - ورويت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، حق الزكاة على الزائد أن يحسن اسمه ويحسن موطنه ويحسن أدبه .

وقال أبو علي الفائق : المبدع يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى . قال أبو القاسم القندري رحمه الله وكان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يوما في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأزواجه غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتعصمت أنه توفي الوسادة لأنه لم يكن عليها غرة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك ففعلت أنه لا يستند إلى شيء أبدا .

وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له . وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا ، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا .

قال بعضهم - هو غلام الفائق - فطرت إلى غلام أمرت فطر إلى الفائق وأنا أنظر إليه . فقال : تجدن فيها ولو بعد سنين ، قال : فوجدت فيها بعد عشرين سنة أن أنشد القرآن .

وقال سري : صليت وودي ليلة من الليالي ومعدت رجلي في الخراب ، فتوديت : يا سري هكذا يجالس الملوك ؟ فضممت رجلي ثم قلت : وعز الله لا معدت رجلي أبدا . وقال الجنيد : قيل سئنت من بعد وجه ليلا ولانهارا .

وقال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن - ممن تهاون بالسنن عوقب بحرمان القرائن - ومن تهاون بالقرائن عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السري عن مسئلة في الصبر لجل يتكلم فيها ، فغضب على وجهه فجلست تغربه في برتها ، فقيل له : ألا تدعها عن نفسك ؟ قال : أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أعاقب ما أعمل فيه .

وقيل : من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : زويت ل الأرض فأريت مشارقتها ومشارقتها ، ولم يقل رأيت .

وقال ألس بن مالك : الأدب في العمل علامة قبول العمل .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع الشخصيات . قيل : ما معناه ؟ قال : أن تعامل الله سرا وعلا بالأدب ، فإذا كنت كذلك كنت أدبيا وإن كنت أجهليا . ثم أفتد :

إذا نظفت جابت بكل مليحة . - وإن سكنت جابت بكل مليحة

وقال الجريزي منذ عشرين سنة ما معدت رجلي في الخلة ، فإني حسن الأدب مع الله أحسن وأدب . وقال أبو علي : ترك الأدب موجب للفرود ، فمن أساء الأدب على القباط رد إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة المديار .

الباب الثالث والثلاثون : في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه عليه السلام يجمع الآداب ظاهرا وباطنا ، وأخير الله تعالى من حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى (ما زناك البحر ومواطن) وهذه طائفة من غرائب الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراف والإتيان ، أعرض محاسن الله وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الآخرين وانفاد الحاجة بمطوئها والسموات والقدار الآخرة بمطوئها ، فما انتفت إلى ما أعرض عنه ولا لحقه الأسف على القناب في إعرافه ، قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما كنتم) فهذا الخطاب للعموم و (ما زناك البحر) إخبار عن حال النبي عليه السلام برصف خالص من مدح ما عاين به العموم

فكان (مازاع البصر) حاله في طرف الإعراض وفي طرف الإقبال تلقى ماورد عليه في مقام قاب فوسن بالروح والقلب ؛ ثم من الله تعالى حياة منه ومعية وإجلالا ، وطوى نفسه بفراده في مقامى انكساره وانقراضه لتكبيلا تنبسط النفس فتلطى به فإن القلبين عند الاستئنا ، وصف النفس . قال الله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) والى عند الوهاب الواردة على الروح والقلب تسرى السمع ، ومن ثلك قسما من المنح استغنى وطفت والقلبان يظهر منه فرط البسط ، والإعراض في البسط بعد باب المزيد وطينان النفس لطيق وطائيا عن الوهاب ؛ فوسن عليه السلام صبح له في الحشرة أحد طرفي (مازاع البصر) وما التفت إلى ماقله (وماطلى) متأسفا لحسن أديه ، ولكن امتلاك من المنح ، واستغنى النفس السمع وأطغى إلى القسط والخط ؛ فلما حطيت النفس استغنى وطفت عليها ما وصل إليها ، وخالف لظاها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال (أرى أنظر إليك) فتح ولم يطل في قضاء المزيد ، وظهر الفرق بين الحبيب والكلم عليها السلام ، وهذه حقيقة لأرباب القرب والأحوال السلفية ، فكل قبض يوجب غيرة لأن كل قبض سد فوجه باب القسوح ، والقوية بالقبض أوجبت الإعراض في البسط ، ولو حصل الاعتدال في البسط ماوجبت الغيرة بالقبض ، والاعتدال في البسط يضاف التازل من المنح على الروح والقلب ، والإقبال على الروح والقلب بما ذكرناه من حال التي عليه السلام من قبيل النفس في مقامى الانكسار ، فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حتى به رسول الله عليه الصلاة والسلام لما قيل بالقبض ، فقام من ربه وكان قاب فوسن أوردني ، وبشكل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس بن عقدة في قوله تعالى (مازاع البصر وماطلى) قال لم يره بقلتيان يميل ، بل رآه على شرط اعتدال القوى .

وقال سهل بن عبد الله القسري : لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاعده نفسه ولا إلى مشاهدتها ، وإنما كان مشاعدا بكنيته لربه ؛ يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبته الجبروت في ذلك الحال ؛ وهذا السلام لما اعتبر موافق لما شرحناه يرمز في ذلك عن سهل بن عبد الله ، ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو العباس السهروردي بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم عظام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصغاري القيساري ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي ، قال : سمعت أبا نصر بن عبد الله ابن حل السراج ، قال أخبرنا أبو العباس الطبري ، قال : السراج إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة ، والفروق على حد الانحصار فها ، والباقي بالحرب من علم الفنون وصلة واستنباح ترك الجواب ذغيرة ، والاعتصام من قبول تداعي استباح الخطاب كلف ، وغوف فوت علم ما تطوى من فصاحة الفهم في حين الإقبال مساة ، والإحصاء إلى تلقى ما ينفل من معدنه بعد ، والاستسلام عند التلاقج براءة ، والانتباط على الأنس غرة ، وهذه الكلمات كلها من آداب الحشرة لأربابها . وفي قوله تعالى (مازاع البصر وماطلى) وجه آخر أطلق بما سبق (مازاع البصر) حيث لم يتخلف عن الصورة ولم يتقاصر (وماطلى) لم يسبق البصر البصيرة في تجاوز حده ويتمدى مقامه ؛ بل استقام البصر مع البصيرة ، والظاهر مع الباطن ، والقلب مع القلب ، والظن مع القدم ، ففي تقدم النظر على تقدم طينان ، والى بالنظر على ، وبأقدم حال القلب ، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طينانا ، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون قصيرا ، فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه ، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره ، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره ، بحيث انتهى نظره وعقله فارتفع قدمه وحاله ، ولهذا المعنى انمكس حكمه سناه ونوره على ظاهره ، وأل إلى البراق بطنى شطره حيث ينتهى نظره لا يتخلف قدم البراق من موضع نظره كما جاء في حديث المراج ، فكان البراق غابله مشا كالأمناء ، ومتصفا بصفته قوة حاله وحجته ، وأشار في حديث للمراج إلى مقامات الأنبياء ورأى في كل سواه بعض الانبياء إشارة إلى تعويهم وتخلفهم عن شأونهم وحجته ، ورأى موسى في بعض السموات لمن هو في بعض السموات يكون قوله (أرى أنظر إليك) فجاءوا أن النظر عن حد القدم وتلقا القدم عن النظر ، ولما هو الإعتلال بأحد الوصفين من قوله (مازاع البصر وماطلى) فرسول الله صلى الله عليه وسلم مقررنا قدمه

ونظرة في مجال الحياء والتواضع ، ناطرا إلى قدمه ، قائما على نظره ، ولو خرج عن مجال الحياء والتواضع وتناول بالنظر متديا حد القدم فوق في بعض السموات كتمزق غيره من الأنبياء ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم متعلسا بحباله خفارة أدب حاله ، حتى غرق حبب السموات ، فأنصبت إليه أقسام القرب الصبايا ، وانقضت عنه صحائب الحبيب حبيبا حبيبا ، حتى استقام على حراط (مازاغ البصر وماطلى) فركا بقرى الحافظ إلى مجمع القوم والطائف ، وهذا غاية في الأدب ونهاية في الأرب .

قال أبو محمد بن روم حين سئل عن أدب المسافر فقال : لا يجاوز حبه قدمه ، بحيث وقف قلبه يكون مقروء . أخبرتنا شريفا خذيل الدين أبو الحبيب إجازة قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي ، قال حدثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي قال حدثنا محمد بن زمام الأيلي ، قال حدثنا محمد بن عطاء المحبسي ، قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : لا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وب أرأى أنظر إليك) قال : قال ياموس ، إنه لا يرأى من إلا مات ، ولا يبأس إلا فدمه ، ولا رطب إلا فترق ، إنما يرأى أهل الجنة الذين لا توت أعينهم ولا تبلى أجسادهم .

ومن آداب الحطرة قال الفيل : الإبتساط بقول مع الحق ترك الأدب ، وهذا يختص ببعض الأحوال والاشياء دون البعض ، ليس هو على الإطلاق ، لأن الله تعالى أمر باله ، وإتباع الإمامك عن قولك كما أمرك موسى عن الإبتساط في طلب الدارب والمجاهدات البنيوية ، حتى رفعه الحق مقام في القرب وأذنله في الإبتساط وقال : اطلب من ولو ملحا لمعنيك ، فلما بسط البسط وقال (وب إني لما أولت إلى من غير نصير) لأنه كان يسأل حوافر الآخرة ويستعظم الحطرة أن يسأل حوافر الدنيا لمقارنتها وهو في حجاب الحصة عن سؤال المقدرات ، ولهذا مثال في الساعد ، فإن الملك العظيم يسأل المقدرات ويعتظم في طلب المقدرات ، فلما رفع بساط حجاب الحصة صار في مقام خاص من القرب يسأل المقدرات كما يسأل الحطير .

قال ذو القرناء للعرى : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معرفته مؤدب قلبه

وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه وتعالى : من أثرت القيام مع أماني وصفاتي أثرت الأدب ، ومن كشف له عن حقيقة ذاتي أثرت العطب . فأغفر أخطاء : الأدب أو العطب . وقول القائل هنا : يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشيرة وحفظ النفس ومع لمعان نور عطلة الذات تتلاشى الآثار بالآثار . ويكون من العطب : التثقق بالثناء ، وفي ذلك العطب نهاية الأرب .

وقال أبو علي الحافظ في قوله تعالى (وأوبى إذ نادى ربه أنى سنن العذر وأنت أرحم الراحمين) لم يقل أرحم لأنه حفظ أدب الخطاب . وقال عيسى عليه السلام (إن كنت قلته فقد علمته) لم يقل : لم أقل ، رغبة لأدب الحطرة وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ، وسماعة الأسرار ، والرفاء بالجهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الفواطر والموارض والبرادى والمواق ، واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب في موافق الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور . والأدب أديان : أدب قول ، وأدب فعل ، فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل مثله محبة القرب .

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أخرج منا إلى كثير من العلم . وقال أيضا : الأدب للعارف بمنزلة الثوبة للستائف .

وقال القوي : من لم يتأدب للوقت فوخته عقت .

وقال ذو القرن : إذا خرج المرء عن حد استعمال الأدب فله يرجع من حيث جاء .

وقال ابن المبارك أيضا : قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس . وهذه إشارة عنه إلى أن (٢٠ — ملحق كتاب الإيماء)

النفس متى متبع الجهالات ، وترك الآداب من غامرة الجهل ؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان ، على ماورد
 من عرف نفسه فقد عرف ربه . ولهذا التور لا تظهر النفس بمهالة إلا ويقسمها بصريح العلم وحسبك يتأدب ،
 ومن قام بآداب المحبرة فهو ينيرها أقوم وحليها أندر .

الباب الثالث والثلاثون : في آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفوة (فيهم رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قيل في التفسير : يحبون
 أن يتطهروا من الآفات والجنابات والنجاسات بالماء . قال السبكي : هو غسل الآداب بالماء . وقال عطام : كانوا
 يستحبون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قبله لما نزلت هذه الآية
 : إن الله تعالى قد أتى عليكم في الطهور فامروا ؟ قالوا : إنا نستسقي بالماء ، وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله
 : إذا أتى أحدكم الحلاء فليستنج بثلاثة أحجار ، وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء .

قيل لسان : قد عظم ليبيك كل شيء حتى الخرامة ؛ فقال سلمان : أجل نها أن نستقبل القبلة بنظائهم أو يول ، أو
 نستسقي بآيين ، أو يستسقي أحدا بأهل من ثلاثة أحجار ، أو يستسقي برجبع أو عظم .

حدثنا شيخنا عبد الدين أبو الجيب رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور الحريري ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال أخبرنا
 أبو عمرو الغفاني ، قال أخبرنا أبو علي القزويني ، قال أخبرنا أبو دآد ، قال حدثنا عبد الله بن محمد ، قال حدثنا ابن المبارك
 عن ابن جحان عن القطيع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : إنما أنا لكم
 بمنزلة الله أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الماء فلا يستقبل القبلة ولا يستبرأ ولا يستطيب بيسته . وكان يأمر بثلاثة أحجار
 ويمنع من الروث والدم ، والفرض في الاستنجاء شيان : إذا التفت وطهارة للزبل ؛ وهو أن لا يكون ربيعاً وهو
 الروث ، ولا شتملاً من أي أخرى ، ولا رمق عظم للينة . ووثراً الاستنجاء سنة فلما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع ،
 واستعمال الماء بعد الطهارة ، وقد قيل في الآية (يحبون أن يتطهروا) ولما استلوا عن ذلك قالوا : كنا نلتصق الماء
 الحار ، والاستنجاء بالثلث سنة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء ، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرحا
 طاهرة وتزأ طاهراً . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحار يساره ويضربه على مقدم الفرج قبل ملاقة النجاسة ويبرمه
 بالمسح ويدير الحار في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، ويفعل ذلك إلى أن ينشئ إلى مؤخر الفرج ،
 ويأخذ ثلثاً ويضربه على المؤخر كذلك ، ومسح إلى المقدمة ، ويأخذ ثلثاً ويديره حول الحسرة . وإن استسقى يصح
 ذي ثلاث شمس يار . وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيسند كره من أسله ثلاثاً إلى الخنفة بالرفق ثلاثاً يندفق بقية
 البول ، ثم يشره ثلاثاً ، ويحاط في الاستبراء بالاستقاء ؛ وهو أن يتحنث ثلاثاً ؛ لأن الفروق متعددة من الخلق إلى الذكر ،
 وبالثمن تتحرك وتنفذ ما في مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد في التحنث فلا بأس ، ولكن يراعى حد العلم
 ولا يهلل الشيطان عليه ميلاً بالوسوسة فيضع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن لا يرى الرطوبة .
 وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال : لا يزال يظهر منه الرطوبة مادام يتغيرها من الخلق ذلك ، ويراعى الزور في ذلك أيضاً ،
 والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حصى طاهر . وإن احتاج إلى أخذ الحار لصفره فلأخذ الحار بالآيين والذكر
 بالسور ومسح على الحار ، وتكون الحركة بالسور والآيين ثلاثاً يكون مسكياً بالآيين . وإذا أراد استعمال الماء انتقل
 إلى موضع آخر ووضع الحار على البول على الخنفة ، وترك الاستقاء في الاستبراء وحيد ورد قياروا عباده
 ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريظ فقال : إنما ليديان وما يملكان في كبر ،
 أما هذا فكان لا يستبرأ أولاً يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشي بالنيكة ، ثم دعا بسبب وطب فشق اثنين ،
 ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً وقال : له يحنف عنهما ما يبيسا ، والمسيب : الجرید ، وإذا كان في
 الصحراء يمد عن العيون .

روى جابر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام كان إذا أراد البراء المطلق حتى لا يراه أحد ، وروى المثنى بن حنظلة رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبده في الملبس وروى : أن النبي عليه السلام كان يقيزاً لحاجته كما يقيز الرجل المنزل ، وكان يستتر بماله أو لثمن من الأرض أو كرم من الحيلولة .

ويجوز أن يستتر الرجل براحته في الصحراء أو بذي له إذا حفظ الثوبين من الرشاش . ويستحب البول في أرض دنة أو على تراب مهبل . قال أبو موسى : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يبول ، فأتى دنتاً في أصل جدار فبالب ثم قال : إذا أراد أحدكم أن يبول فليبره لبره .

وينبى أن لا يستقبل القبلة ولا يستبرأ ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة في البليان ، والأول اجتناباً لذهاب بعض المتأهلين إلى كراهية ذلك في البليان أيضاً ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ، ويستحب مهاب الريح احترازاً من الرشاش : قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد عاشه : أحسبه لئلا تحسن الحرامه فقال : بلى وأبيله إلى بها لحاق . قال : فضله ، قال : أبعد البشر وأعدائهم ، واستقبل التبيح وأستبرأ من الريح وأنسى إلقاء القلي وأجفل إجماع العلماء . يني استقبال أصول الثياب من التبيح وغيره وأستبرأ من الريح احترازاً من الرشاش . والإلقاء هنا : أن يستتر على صدور قديمه . والإجماع : أن يرفع حجره .

ويقول عند الفراغ من الاستبراء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وظهر قلبه من الرياء ، وحسن فرجه من الفواحش .

ويكره أن يبول الرجل في الفضل : روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام ، نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال : إن عامة الوساوس منه . وقال ابن المبارك : يرسخ في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان في البليان يقدم رجلاه اليسرى لمخول الحلاء ويقول قبل المخول : بسم الله أعوذ بالله من الحيت والحياكة .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العباس السهروردي ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا أبو عمرو الحاشي ، قال أخبرنا أبو علي القزويني ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عمرو بن ميمون البصري قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن زيد عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن هذه الحفوش محتضرة فلما أتى أحدكم الحلاء فليقل : أعوذ بالله من الحيت والحياكة ، وأراد بالحفوش الكف . وأصل الحش : جماعة الشغل الكفيف كانوا يقضون سرائرهم إليها قبل أن تنتد الكف في البيوت . وقوله : محتضرة أي يحضرها الشياطين .

وفي الجفوس الحاجة يستند على الرجل اليسرى ولا يتولج يده ، ولا يخط في الأرض والمخاطة وقت قدومه ، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا الحاجة إلى ذلك ، ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يخرج الرجلان يخران الناطق كاشفين عوراتهما يتعدان ، فإن الله تعالى يمتدح كل ذلك .

ويقول عند خروجه : غفر الله ، الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني . ولا يتصحب معه شيئاً عليه اسم الله من ذهب وفضة وغيره ، ولا يدخل حائر الرأس : روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : استحيوا من الله فإني لأدخل الكيف فأزني ظهري وأعطى رأسي استحياء من رب عز وجل .

الباب الرابع والثلاثون : في آداب الوضوء وأمراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك : حدثنا شيخنا أبو العباس الخطيب قال أخبرنا أبو عبد الله الطائي قال أخبرنا الحافظ القراء ، قال أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار ، قال حدثنا حميد بن زنجويه ، قال حدثنا محمد بن عبيد ، قال حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد

من إبراهيم بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن عاصم الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **قولا أن أشق على أمتي لأخبرت الشفاء إلى تلك الليل ، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة ، ورويت عاتق بن أبي حمزة أنها قالت أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السواك مطهرة للفم مرضاة للرب .** وعن حذيفة قال : **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يهوى فاه بالسواك .** . والشعوى : البكاء . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء ، وكذا تغير الفم من لزوم وغيره . وأصل الأزم إصساك الأسنان ببعضها بعض . وقيل السكوت : أزم ، لأن الأسنان تطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره لصائم بعد الزوال . ويستحب لفيل الزوال ، وأكثر استجابته مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل ، ويندى السواك اليابس بالماء ، ويستاك حراوطه ولا : فإن انكسر فمرحاه ، فلو أن فرغ من السواك بنسبه ومجلس القروءه ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة ، ويبتدئ بيسم الله الرحمن الرحيم ويقول (رب أهرز بك من هزات الشياطين وأهرز بك رب أن يحضرون) ويقول عند غسل اليد : اللهم إلى أسألك اليمن والبركة وأهرز بك من القزوم والهلكة . ويقول عند الضمضة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على ثلاثة كتابك وكثرة الأكر لك . ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني راحة الجنة وأنت عني راض .

ويقول عند الاستنثار : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأهرز بك من روائح الثروبوسود الفار . ويقول عند غسل الوجه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ويصحب وجهي يوم تبيض وجوه وأبني كتابي يميني وحسيني حسابا يسرا ، وجوه أهدائك . وعند غسل العين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأبني كتابي يميني وحسيني حسابا يسرا ، وعند غسل الشال : اللهم إلى أهرز بك أن تؤكيني كتابي بشال أو من وراء ظفري ، وعند مسح الرأس : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأرسل على من يركألك وأطلق محمد ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك . ويقول عند مسح الأذن : الله صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيسمع أسرته ، اللهم أجمعني شادي الجنة مع الأبرار . ويقول في مسح العنق : اللهم فلك رقيق من النار وأهرز بك من السلاسل والأغلال . ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولبت قدس على الصراط مع أقدام المؤمنين . ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأهرز بك أن تول قدس من الصراط يوم توليقه أقدام المؤمنين ^{١١} وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، سبحانه اللهم ويصدقك لا إله إلا أنت حملت سوما وظللت نفسي استغفرك وأتوب إليك فأغفر لي وتب علي فإنه أنت اتواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا ، واجعلني أذكر كرك كثيرا وأسهلك بكرة وأصيل .

وقرائض الوضوء : ثلثة عند غسل الوجه . وغسل الوجه . وحده الوجه من مبتدأ تطهير الوجه إلى متنتي الذنن وما ظهر من الحية وما استرسل منها ، ومن الأذن إلى الأذن حرا ، ويدخل في الضل البيضاء الذي بين الأذنين والحية وموضع الصلغ وما انخر حته الشعر ومم الفهتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء إلى شرة التحليف وهو الشعر الذي يزيه النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى المنقطة والشارب والحاجب والسنار ، وما عدا ذلك لا يجب ، ثم الحية إن كانت غفيلة يجب إصصال الماء إلى البهثرة ، وحده الخفيف أن ترى البهثرة من تحت . وإن كانت كثيفة فلا يجب ، وتجنب في تنقية جمبع الكحل من مقدم العين والواجب الثالث : غسل اليدين إلى المرفقين ويجب إدخال المرفقين في التسل ويستحب غسلهما إلى أعضاى المصدين ،

(١) مذكر : التواتر من الأذكار عند غسل الأعضاء في الوضوء هو خلال الثلاث من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لم يرد من المحدثين من الله صل ، ومن في الوضوء : الألف : أوله والتفديد في آخره ، فكأنها ما كفى إلى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فحضر والله ولي المؤمنين ، الله سبحانه .

وإن طالت الأظفار حتى خرجت من ردوس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح . الواجب الرابع : مسح الرأس ، ويمكن ما يطبق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسحنة : وهو أن يصرق رأس أصابع اليمنى اليسرى ويضعها على مقدم الرأس ويدها إلى الخلف ثم يردّها إلى للوضع الذي بدأ منه ، ويصف بل الكعبين مستقبلاً ومستديراً . والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين في القفل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقتنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تحليل الأصابع للثنية ، فينقل يختصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ يختصر وجه اليمنى ويختصر اليسرى ، وإذا كان في الرجل شقوق يجب إصالح الماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها شيئاً أوجها يجب إزالة عين ذلك الشيء . والواجب السادس : الترتيب على التسليم كقول كرام الله تعالى . الواجب السابع : التتابع في القول القديم عند الصلوات وحده الله تعالى ، وحدائقرين الذي يقطع التتابع إنصاف الموضوع اعتدال الحولاء . وسنن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية في أول الطهارة ، وغسل اليدين إلى الكوعين ، وللصنعة . والاستنشاق ، والمبالغة فيها ، فيخرج من المصنعة حتى يرد الماء إلى النقص ، ويستند في الاستنشاق بالماء بالنفس إلى الخياشيم ، ويرفق في ذلك إن كان مائلاً . وتحليل الحية الككة ، وتحليل الأصابع المتفرجة ، والبداية بالميامن ، وإمالة الفترة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليث ، وفي القول الجديد : التتابع ، ويحتمل أن يريد على الثلاث ، ولا ينقض اليد ، ولا يتكلم في أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لظما ، وتجهيد الوضوء مستحب بشرط أن يصل بالوضوء ما ليس ، وإلا فمكروه .

الباب الخامس والثلاثون : في آداب أهل الخصوص والصفوة في الوضوء

آداب الصفوة بهذا التيام بمعرفة الأحكام : أنهم في الوضوء حضور القلب في غسل الأعضاء ، سمعت من الصالحين يقول : إذا حضر القلب في الوضوء قصر في الصلاة ، وإذا دخل السهو فمدخلت الركعة في الصلاة . ومن آدابهم : استدامة الوضوء ، والوضوء سلاح المؤمن ، والجوارح إذا كانت في حابة الوضوء الذي هو أثر شرعي يقل طريق الشيطان عليها . قال صلى بن حاتم : ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأما على وضوء . وقال أسير مالك : قدم علي عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لي : يا بني إن استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل ، فإنه من أناء الموت وهو على الوضوء . أعلى الشهادة ، ففان العاقل أن يكون أبداً مستعداً للوث ، ومن الاستعداد لزوم الطهارة . وحكى عن الحصري أنه قال ، مهما أثبت من الليل لا يخلو النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء ثلاثا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة . وصحت من صحب الشيخ علي بن الحسين أنه كان يشد الليل جبسه ، فإن عليه النوم يكون قاعداً كذلك ، وكذا أثبت يقول : لا أكون أسأت لأدب ، فيقوم بعدد الوضوء ويصل ركعتين . وروى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليلاً عند صلاة الصبح ، يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فأتاني مستحلف فليكن بين يدي في الجنة . قال : ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندى إلى لم أظهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صلت لرب عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

ومن آدابهم في الطهارة : ترك الإلزام في الماء والوقوف على حد العلم ، أخبرنا الشيخ العالم خينا الله بن عبد الوهاب ابن علي . قال أخبرنا أبو القاسم الحارثي ، قال أخبرنا أبو نصر الثوري ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس الغبيري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا محمد بن بشر ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا عازجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن بن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : للوضوء شيطان يقال له الؤلآن فاقفوا وسادس الماء .

قال أبو عبد الله الروذاري : إن الشيطان يجهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم ، فلا يزال أن يأخذ نصيبه بأن يردادها فيها أمروا به أو ينصوا عنه .

وحكى عن ابن الكرمي أنه أصابه جنابة ليلة من الليالي ، وكانت عليه مرقعة لثنية خفيفة ، جاء إلى المذلة وكان برد شديد ، فارتد نفسه عن المدخل فلبث ليلة البرد ، فطرح نفسه في الماء مع الرقعة ثم خرج من الماء وقال : عتقت أن لا أزعجها من بدني حتى تهبط علي : فكتكت عليه شيئا لتبنايتها وغطائها : أدب بذلك نفسه لما حزنه عن الاتجار لمراته قال : وقيل : إن سبلين عبادة كان يصح أصحابه على كثرة شرب الماء وتلقاها على الأرض ، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء حذف النفس وإمالة الشهوات وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استيقاظ الماء للوضوء . قيل : كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحصل منه إلا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها إلا القليل : يحفظ الماء للوضوء ، وقيل : إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب ، وقيل : إذا رايت الصوفي ليس منه ركوة أو ركوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من الناس وهم مجتمعون في دار فإرادته أحد منهم أنه دخل الخلاه لأنه كان يقضي حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه .

وقيل : مات الخواص في جامع الرضى وسط الماء ، وذلك أنه كان يهمل البطر وكذا قام بدخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه ، كل ذلك لخلطه على الوضوء والطهارة ، وقيل : كان إبراهيم بن آدم به قيام ، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة ، كل مرة يحد الوضوء ويصلي ركعتين .

وقيل : إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا في وقت الجواز يراعى الآداب في الخفريات .

وأما المثليل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا : إن الوضوء يوزن ، وأجازه بعضهم ، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر ، قال أخبرنا أبو محمد ، قال أخبرنا أبو العباس ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا سفيان بن وكيع ، قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبي ماذن عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غرقه ينشف بها أعضائه بعد الوضوء ، وروى معاذ بن جبل قال : وأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه .

واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم ، وتوضأ حر رضي الله عنه من حرة نصرانية مع كون النصراني لا يمتزجون عن آخر ، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الأرض من غير سجدة ، ويمشون حفاة في الطرق ، وقد كانوا لا يمشون وقت النوم بينهم وبين القرب سائلا ، وقد كانوا يتنصرون على الحمار في الاستجداء في بعض الأوقات ، وكان أسرم في الطهارة الظاهرة على التسامح ، واستقصاءهم في الطهارة الباطنة ، وهكذا شغل الصوفية ، وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك رغبة النفس ، فلو اتبعه ثوبه لم يخرج ، ولا يزال يمانع باطنه من الفعل والمقد والكبر والعجب والرياء والتفاني ، ولعله يشكر على الشخص لو داس الأرض حافيا مع وجود رخصة الشرح ، ولا يشكر عليه أن يشكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه ، وكل ذلك من غلة العلم وترك التأديب بحسبة الصائدين من السبل الراسخين ، وكانوا يكرهون كثرة الماء في الاستبراء ، لأنه ربما يسترخى العرق ولا يمسكه البول ويترك منه القطر المرد .

ومن حكايات المتصوفة في الوضوء والطهارة : أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتنوط في الحرم ويخرج إلى الخل ، وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه مرقح لم يتدل اثنتي عشرة سنة لأن الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لا يدع تعديده

الرحمة عند كمال قرينة .

وإصغرتهم نزلت حينئذ فلو أنزلناهم على قومك لكانوا من الغافلين .

الباب السادس والثلاثون : في فضيلة الصلاة وحكم شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها : تكلمى فقالت : (لا أفتح المؤمنون الذين هم في صلاتهم عاشقون) لا تأكل .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للصالحين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا في جبرائيل لأشرك الشمس حين
ذات الصلوة في الظهور .

واشتقاق الصلاة قيل من الصل وهو الثار ، والخشب الموجه إذا أرادوا بتوجيهه ليعرض على الثار ثم يقوم ، وقيل العبد أعرجاج لوجوه نفسه بالإمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم يأتي لو كفف سبحانه لأحرف من أدركه ؛ يصوب بها الصل من ومع السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يرد به أعرجاجه ، بل يشق به معراجة ؛ فافصل كالصلى الثار ، ومن أعطل بدار الصلاة وزال بها أعرجاجه لا يعرض على ثار جهنم إلا لآفة القسم

أخبرنا الشيخ العظمى وحى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى بإجارة ، قال أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الحلي ، قال أخبرنا أبو سعيد القزوينى ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، قال أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد النعماني ، قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ ، قال أخبرنا أحمد بن نصير ، قال حدثنا آدم بن أبي إياس عن ابن سنان عن الملا بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة وحى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، يقول الله عز وجل : قدمت الصلاة بين يدي عيسى ، فلما قال الله : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : جدي عيسى ! فلما قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : الحمد لله ! فلما قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أمي علي ! جدي ، فلما قال : ما لك يوم الدين ، قال : فوحى إلي عيسى : فلما قال : إياك نريد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عيسى ، وإذا قال : أعدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أقدمت عليهم غير المتضرب عليهم ولا الضالين ، قال الله تعالى : هذا أبدي ولبيدي مسائل ، بالصلاة صلة بين الرب والمسلم ، وما كان صلة بينهم وبين الله خلق المعبدان يكون عاشا لصلاة الربوية على المبرودة.

وقد ورد أن الله تعالى إذا غلب الشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلاة في الصلاة تطلع له طوارق التجلي فيخضع والقلاح الذين هم في صلاتهم عاشقون، وبإتفاء الخشوع يفتني القلاح وقال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وإذا كانت الصلاة تذكر كيف يقع فيها التسيان. قال الله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكراني حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصل وقد ناهى الله عن ذلك، قالوا إن يقول الشيء لاجتور عقل، والناقل يصل لاجتور عقل، فهو كالسكران. وقيل في غرائب التصديق قوله تعالى ﴿ فأخضع لمليك إنك بالآراء القدس طوى ﴾ قيل : لمليك ملك ما رأتك وضعتك : فالاحتكام بنور الله تعالى سكر في الصلاة .

وقيل: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفقون بأبصارهم إلى السماء وينظرون بيتا وشيئا آخر (الذين هم في صلاتهم عاشقون) جعلوا وجوههم حيث يسجدون، وما رأوا بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدي الرحمن، فإذا تكلم قال له الرب: إلى من تكلمت؟ إلى من هو غيرك؟ مني؟ ابن آدم، أنبل إلى فأنا خير لك من تتكلم إليه.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يبيت بليته في الصلاة فقال : لو خضع قلب هذا خضعت جوارحه . .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حليت فصل صلاة مودع . .

فصل ما أثر إلى الله تعالى بقله يودع مرء ودينه وكل شيء سواه . والصلاة في التقوى القلب ، فكان الصلابة يدعو الله تعالى بجميع جوارحه ، فصارت أعضائه كلها السنة بدعورها ظاهرا وباطنا يشار إلى الظاهر بالباطن بالضرع والتقلب والحديث في تحركات متفرقة سائل محتاج ، فإذا دعا بكلمته أجابه مولاه له وعقد قال (ادعوني استجب لكم) وكان عاله إلى أبي يقول : عجب لهذا الآية (ادعوني استجب لكم) أمرم الله ما وعدكم بالإجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة : هي تفرق دعا العبد : فإن العاصي الصادق العالم بمن يدعو بنوريته ، فتفرق الحجب وتنفذ الدعوة بين يدى الله تعالى متفانية الحاجة . وعصافه تعالى عددا لا مة بإزال فائمة الكتاب وفيها تقديم إنشاء على الدعاء : ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهي تلميح الله تعالى عباده كيفية الدعاء . وقائمة الكتاب من السبع الثاني والقرآن العظيم . قيل : سميت ثانيا لأنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة نزلتها فهم آخر ، بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرؤها على التردد مع طول الزمان فهم آخر ، وهكذا الصلوة المحفوظ من أمته يتكشف لهم عائب أسرارها ، وتنفذ لهم كل سر تدور بمحارها . وقيل : سميت ثانيا لأنها استثبتت من الرسل وهي سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رأيا يوبكر وأما الخليل في الصلاة ، فخرجت زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتي ، ثم قال سميت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليكن أسمره لا يشبه جميل اليهود ، فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمودوا بالله من خشوع التفاني . قيل : وما خشوع التفاني ؟ قال : غصوع اليدين وتفاني القلب . .

أما جميل اليهود : قيل : كان موسى يامل بين إسرائيل على ظاهري الأمور لتفاني باعظم . فكان يبي* الأمور ويصطبها ، ولهذا المعنى أوصى الله تعالى إليه أن يحل التوراة بالذهب ، ووقيل : والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته وعمال مناجاته فيمرج به باله كبر ساكن ثم عليه الرج فتتلاطم الأمواج ، فكان تهايل موسى عليه السلام تتلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسيم الفضل ، وربما كانت الروح تتعلق إلى الحطرة الإلهية ، فهم بالاستسلام ، والقلب بها تعلقه كرامات ، فيضطرب القلب ويتهايل ، فرأى اليهود ظاهريها يلبوا من غير سلطانهاهم من ذلك ، ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكرا على أهل الوسوسة . هكذا خرجت عظمتهم من قلوب بني إسرائيل حتى شيدت ألبانهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد به ، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب عشرها إذا كان قلبه ساهيا لاهيا . .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر ، فبالصلاة تفتيق العبودية وأمان حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائر إلى تحقيق سر الصلاة . قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتشكيل القرائن ، ويحتاج إلى التواضع لتشكيل السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتشكيل التواضع .

ومن الآداب : ترك الدنيا ، والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر : إن الرجل ليحبب عارضا في الإسلام وما أكل له صلاة ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لأنهم عسروها وتواضعها إقباله على الله فيها . وقد ورد في الأخبار إن العبد إذا قام إلى الصلاة وقع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الخلافة من لادن منسكية إلى المولى بصلوة بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وإن المصل ليشرق عليه البر من غنان السجدة إلى عفرق رأسه ، ويناديه ملائكة : لو علم المصل من يتلقى ما التفت ، أو ما انفتل .

وقد جمع الله تعالى للصالحين في كل ركعة مائتين على أهل السموات ، لله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا في السجود والقيام والوقوف ، والميد للتيقظ ينصف في ركوعه بعصاة الزاكين منهم ، وفي السجود بعصاة الساجدين ، وفي كل هيئة مكانا يكون كالراحد منهم وبينهم . وفي غير الهيئة يلبي للصل أن يكتم في ركوعه مثلًا بالركوع غير مهم بالرفع منه ، فإن طرقة سامة بحكم الجلبة استغفر منها ، ويستندم تلك الهيئة وينطلق أن يدور الخشوع فلا تنبذ هذه الهيئة ليسر بالهوى الميعة ، وربما يترامى الزاكع الحق أنه إن سبق منه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما دون الهيئة عليها ، فيكون منه الهيئة مستغرقة فيها مشغولا بها عن غيرها من الحيات ، فبذلك يشرف حظه من بركة كل هيئة ، فإن السرعة التي يتقاضى بها الطبع لشد باب الفتوح ، ويقف في مهاب الصفحات الإلهية حتى يتكامل حظه القيد ، تنسى آثاره بحسن الاسترسال ويستتر في مقدم الرمال .

وقيل : في الصلاة أربع هبات وستة أذكار : فالحلوات الأربع : القيام والوقوف والركوع والسجود . والأذكار الستة : التلاوة ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، والتهليل ، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام . فعبارات عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة : كل صف عشرة آلاف ؛ فيجسم في الركعتين ما يفرق على ما ألف من الملائكة .

الباب السابع والثلاثون : في وصف صلاة أهل القرب

ونذكر في هذا الوصف كيفية الصلاة بآثار شروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على السكال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا وطنا على الوجه ، مع الإيلاء لمن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك ، إذ في ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود ، فنقول وبالله التوفيق :

يلبي للعبد أن يستعد الصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يرفع الرضوى وقت الصلاة ؛ فذلك من المحافظة عليها ، ويحتاج في معرفة الوقت إلى معرفة الزوال ونفاذاته لأنام لطول النهار وقصره ، ويعتبر الزوال بأن الظل مادام في الانقماش فهو النصف الأول من النهار ؛ فإذا أخذ الظل في الازدياد فهو النصف الآخر وتذات الشمس ، وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كنفهم زول ؟ يعرف أول الوقت وآخره وقت العصر ، ويحتاج إلى معرفة الزوال ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل ، وشرح ذلك بطول ويحتاج أن يفرد له باب ، فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الرابعة ، في ذلك سر وحكمة ، وذلك لله أعلم ؛ أن العبد لثمت باملته وتفرق عنه ما يلب به من المخالطة من الناس وقيامه بهام الماش ، أو سر جري يوتلي الجلبة ، أو صرف هملي أكل أو نوم يمتحنى العادة . فإذا قدم السنة يتجذب باملته إلى الصلاة ويتهب لها نجا ، ويذهب بالنفلة الكدورة من الباطن فيصلح الباطن ويصير مستعدا للهيئة ، فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق الفضل ، ثم بعد التوبة مع الله تعالى عند الهيئة عن كل ذنب محله ، ومن الذنوب عامة وخاصة ، فالعامة الكبار والصغار وما أومأ إليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة ، والخاصة : ذنوب حال الشخص ، فدل عبد على قدر صفاء حاله لذنوب تلائم حاله ويرفعها صاحبها . وقيل : حسنة الأبرار سيئات الخرفين ، ثم لا يصل إلا الجماعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفضل صلاة الجماعة صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، ثم يستدلى القبة بظاهرها والمحرطة الإلهية بباطنها ويقرا (قل أعوذ برب الناس) وقرأ في نفسه آية التوبة ، وهذا التوجه قبل الصلاة والاستئذان قبل الصلاة توجه الظاهر بالضرعة إلى القبة . وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ، ثم يرفع يديه حتى تشكبه بحيث تكون كماله حذو تشكبه وإيماءه عند تحفة أذنيه وروس الأصابع مع الأذنين ويضم الأصابع ، وإن لشرها بجز ، والقدم أول ، وقلة قيل : القشر نشر الكف لا نشر الأصابع ، ويكر ، ولا يدخل بين يديه ، أكبر ، وواله الله ، ويجزم ، أكبر ، ويجعل المذ في الله ، ولا يبالغ في (٢١) - ملحق كتاب الإجماع)

عن الماء من الله . ولا يبدئ بالتكبير إلا إذا استقرت اليدين جذو للتكبير ، ويرسلها مع التكبير من غير نقص . قالوا قلنا سكن قلب فلانك به الجوارح رأيت بالأول والأصوب ، ويجمع بين الصلاة والتكبير بحيث لا ينيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصل الصلاة بينهما .

وحكى عن الجليل أنه قال : لكل شيء صفة ، وصفة الصلاة التكبير فالأول . وإنما كانت التكبير صفة لأنها موضع التبة وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : التبة بالقصوف من الله ، والآلة التي تدخل في صلاة العبد التبة من العبد ، ونصيب العبد وإن كثرت لأجزاء بالتبة التي هي لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخزاز : كيف الفخول في الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تتأهب وتعلم بين يدي من أنت واقف قلبه تلك المصير .

وقيل لبعض العارفين : كيف تكبير التكبير فالأول ؟ فقال : ينبغي إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله : التعظيم مع الآلف ، والحمية مع اللام ، والمراقبة والتقرب مع الماء . واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر ، غاب في مطالعة الدلالة والكبرياء ، واعتكأ بطله نوراً ، وصار الكون بأسره في قضاء شرح صدره مكرمة بأرض فلاة ، ثم تلقى الخردة ، فما ينشئ من الوسوسة وحديث النفس ! وما يتخيل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الخردة فألفيته ! فكيف زاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا المبدء ؟ وقد زاحم مطالعة المطلة والتعظيم في ذلك كون التبة ، غير أنه لما لمطالحة الحال ينشئ الروح مطالعة المطلة والقلب يتنزه بالتبة ، فتكون التبة موجودة بلطف صفاتها متدربة في نور المطلة اندراج الكواكب في حوض الشمس ، ثم ينشئ بيده اليمنى يده اليسرى ويجهلها بين السرة والصدر ، واليمين لكرامتها تحمل فوق اليسرى ، ويمد المصير والوسط على الساعد ، وينشئ بالثلاثة اليوان اليسرى من الطرفين ، وقد فسّر أمير المؤمنين على رضي الله عنه قوله تعالى (فصل ربكنا عمر) قال : (موضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرفاً يقال له الفاجر : أي صنع بك على الفاجر وقال بعضهم (وأمر) أي استقبل القبلة بغيرك ، وفي ذلك سر غني يكشف به من وراء أستار القلب ، وذلك أن الله تعالى بلطف حكيمه خلق الأدي وشرفه وكرمه وجعله على نظره وهو دوسيه ونجته ما في أرضه وسماؤه وحائره وأوجهاً تبارك وتعالى ، منتعبد القامة مرتفع الهيئة ، قصفه الأعلى من حد القواد مستودع أسرار السموات ، وأصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض ، فحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، وعمل روحه الروحاني والقلب النصف الأعلى : لجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان ، وباعتبار تطارد همارتناهما تكون لله الظاهرة للسلطان ، ووقت الصلاة يتكرر التطارد لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع ، فيكتشف المصل الذي صار قلبه سارياً متردداً بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها .

والجوارح ولصغرها وحركتها مع معاني الباطن ارتباط وموازاة : فيوضع الجبر على الشمال - صدر النفس ومنع من صعود جاذبها ، وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة والحد من النفس في الصلاة ، ثم إذا استولت جواذب الروح وتملكت من الفرق إلى القدم - عند كمال الألسن وتحقق قرعة الدين واستيلاء سلطان للقاعدة - تصير النفس منهورة ذليلة ، ويسكن مركزها نور الروح ، وتقطع حينئذ جواذب النفس : وعلى قدر استقارة مركز النفس يزول كل العبادة ، ويستبقى حينئذ من مقاومة النفس ومنع جواذبها يوضع اليمين على الشمال فيسبل حينئذ ، ولعل ذلك - والله أعلم - ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى ميلاً ، وهو مذهب مالك رحمه الله ، ثم يقرأ (وجهك وجهي) الآية ، وهذا التوجه إثناء لوجه قلبه ، والذي قبل الصلاة لوجه قلبه ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وبارك اسمك وعمل جدك ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربنا وأنت عبدك ،

خلد نفسي واحترفت بذني فأعترف ذنوبي جميعا إنه لا ينظر الذنوب إلا أنت، وأعدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وأصرف عني شيئا فإنه لا يصرف عني شيئا إلا أنت، ليحك وسعدك بالخير كله بيدك، وأبركك وتعالى، أستغفركَ وأتوب إليك. ويطلق رأسه في قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بالتصليب القائمة ونزع يمين الانطواء عن الركبتين والخراسر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض؛ فهنا من خشوع سائر الأجزاء، ويشكون الجسد يشكون القلب من الخشوع؛ ويرواح بين القدمين بمقدار أربع أصابع؛ فإن ضم الكفين هو الصفد المهي عن، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصفد الثاني عنه؛ بين رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفد والصفد؛ وإذا كان الصفد متباعد فزيادة الاعتدال على إحدى الرجلين دون الأخرى ممن من الصفد؛ فالأول رعاية الاعتدال في الاعتدال على الرجلين جميعا، ويكره اشتغال الصبياد وهو أن يخرج يده من ليل صدره. ويحسب السدل؛ وهو أن يرش أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه من الخيلاء وقيل: هو الذي يلتصق بالثوب، ويحمل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك، وفي معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص. ويحسب الكعب؛ وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود، ويكره الاختصار؛ وهو أن يحمل يده على الحاصرة ويكره الصلب؛ وهو وضع اليدين جميعا على الحصرين وتحاف المبتدئين؛ فإذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها اجتمعتا للذكاء فقد تم القيام كله، فيقرأ آية التوجه والثناء كما ذكرناه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها في كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ القائمة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومراعاة بين القلب واللسان بمقتضى ما فر من الوصلة والذوق والهيئة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمداخلة والمناجاة، وإن قرأ بين القائمة وما بدأ بعدها إذا كان إذا ما في السكينة الثانية، اللهم بأحد بين وبين خطايي كما بأحدت بين المشرق والمغرب، وتغنى من الخطايا كما ينق الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطايي بالماء والثلج والبرد، وحسن، وإنه إذا كان في السكينة الأولى لحسن. وروى عن أبي عليه الصلاة والسلام أنه قال ذلك. وإن كان مغترا فقولها قبل القراءة، ويعلم المريد أن تلاوته تلقى اللسان ومعناها تلقى القلب؛ وكل مما يطلب لنفسه بشكرك بلسانه، ولسانه يبرح ما في قلبه، ولو أمكن التكلم لإتمام من يكلمه من غير لسان قبل، ولكن حيث تم الإتمام إلا بالكلام جعل اللسان ترجائا؛ فإذا قال باللسان من غير موازنة القلب فاللسان ترجائا ولا القارئ شكلا قائما بإسراع الله حاجته ولا مستمعا إلى الله فأما عنه سبحانه ما ينافيه، وما اعتد غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول؛ فيلبي أن يكون شكلا مانعا، أو مستمعا راعيا؛ فأهل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة، ووراء ذلك أحوال لغرامس يطول شرحها.

قال بعضهم: ما دخلت في صلاة قط فأمرني فيها غير ما ألزل. وقيل لسان بن عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف على "ألا تسأل أحب إلى" من أجد في الصلاة ما يهتدون.

وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ فقال: لأن الصلاة ولا في غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمنى الإجابة لأن الله تعالى قدم الإجابة وقال: ﴿يُجِيبُ إِلَيْهِ وَاتَّقِرْهُ وَأَتَقِرُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَتَقَرُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ حَسْبَ مَا سَاءَ﴾، ويقوم الصلاة يصدر مشرح بالإسلام، وقلب منتفع بنور الإلهام؛ فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها قلبه، فتقع الكلمة في أعضاء القلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن التهم ولذبة لمة الإسماء، ويشرها بجلاوة الاستيعاب وكألا نوع، ويبركها لطيف مدناها وشريف غرامها. معاني لطيف عن تفصيل الذكر والتفكير، ويسير الظاهر من معاني القرآن غوت النفس؛ فالتفكير الطمينة متروكة بمعاني القرآن عن حديثها لتكونها معاني ظاهرية متروكة إلى عالم الحكمة والعبادة، أقرب مناسبتها من النفس للكونة لإقامة رسم الحكمة ومعاني القرآن الباقية التي يكشف بها من للتكوت غوت القلب، وتخلص الروح القدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة التكلم، ويقتل هذه للعالمية يكون

كأن الاستراق في لمح الأسواق ، كأنقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم في مسجد البصرة ، فوقعت أسطوانة
تساعع يسقطها أهل السوق ، وهو واقف في الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع بفعل بين القراعتين الركوع ، ثم يركع منطوي القامة والنصف الأسفل بماله في القيام من غير
انطواء الركبتين ، ويحافظ مرفقيه عن جنبيه ، ويد عنه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع .
وروي مصعب بن سعد قال صليت إلى جنب سعد بن مالك ، لجلست يدي بين ركبتي وبين الخدي وطبقتهما ، فعزب
يدي وقال : احضرب بركبتيك على ركبتيك وقال : يا بني إذا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نعزب بالألف على الركبة ،
وبقول : سبحان رب العظيم ، ثلاثا وهو أدنى السكال ، والسكال أن يقول إحدى عشرة ، وما يأتي به من العدد
يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يبرج آخر ذلك الرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ، ويكون
في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى المشرق من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده
في قيامه ويقول بعد التسبيح : اللهم لك ركعت ولك خشعت ولك أنت أسأت ، خضع لك سمي وبصري
وعظمي وعن وصبي ، ويكون قلبه في الركوع متصفا بمنى الركوع من التواضع والإخبات ، ثم يرفع رأسه قائلا :
سمع الله لمن حمده ، عالما بقلبه ما يقول فإذا استوى قائما بسجدة ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض
وملء ما شاءت من شيء بعد ، ثم يقول : أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا
معدى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، فإن أطال في الثالثة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل : ارفع يدي
مكررا ذلك مائة مرة ، فإذا في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحدة زيادة بينة ، ويقنع بالرفع من الركوع بتمام
الاعتدال بإقامة الصلب : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين
الركوع والسجود .

ثم يروي ساجدا ويكون في هويته مكبرا مستقيظا حاضرا عاشقا عالما بما جوى فيه وإليه وله ، فمن الساجدين من
يكشف أنه يروي إلى نجوم الأرضين متنيا في أجزاء تلك لاختلاف قلبه من الحياء وانقياد روحه عظيم التكبرياء ،
كما ورد أن جبرائيل عليه السلام قسّر بخافيه من جناحه حياء من الله تعالى ، ومن الساجدين من يكشف أنه يعطى
بسجوده بساط الكون والسكان ويسرح قلبه في قضاء الكشف والبيان ، فهو يحدو هويته بأطباق السموات ويتدحى
بقوة شهوده تأييد الكائنات ويسجد على طرف رداء المظلة وذلك أقصى ما يفتن إليه طائر الهمة البشرية وكل
بالوصول إليه القوى الإنسانية ، وتتفاوت الأنبياء والأولياء في مراتب العظمة واستلزام كبرها لكل منهم على قدره
حظ من ذلك ، وفوق كل ذي علم عليم . ومن الساجدين من يتسبح وعازء ، وينشتر حياؤه ، ويحظى بالصفين ويهدط
الجناحين ، فيترافع بقلبه إجلالا ، ويرفع بروحه إكراما وإفضالا ، فيجتمع له الألس والمهية والحضور والنية ،
والقرار والقرار ، بالإسراء والجهاز ، فيكون في سجوده ، ساجدا في بحر شهوده ، لم يتخلف منه عن السجود شعرة
كما قال سيد البشر في سجوده ، سجد لك سواي ونبيائي ، (وقد يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها)
الطرح القروح والقلب لما فيها من الأعلية ، والكره من النفس لما فيها من الأدنى .

وبقول في سجوده : سبحان ربّي الأعلى ، ثلاثا إلى العشر الذي هو السكال ، ويكون في السجود مفتوح العينين
لأنهما يسجدان ، وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ، ويكون ناظرا نحو أذنيه أنه في السجود ، فهو
أبلغ في الخشوع الساجد ، ويأثر بكفيه للصل ، ولا يلقهما في الثوب ، ويكون رأسه بين كفيه ، ويبدأ حلقه منكبيه
غير متماين ومتمايز جدا ، ويقول بعد التسبيح : اللهم لك سجدت ولك أنت أسأت ، سجد وجهي للذي
خلقه وصهره ونش مني وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين ، وروي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . . وإن قال يسبح قدوس رب اللانك والروح والجن . وروى
عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . ويحافظ مرفقيه عن جنبيه

ويوجه أصحابه في السجود نحو القبلة ويضع أصابع كفيه مع الإمام ، ولا يفرس ذراعيه على الأرض . ثم يرفع رأسه صكيرا ، ويجلس على رجليه اليسرى ويصوب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة ، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما ونظرهما ، ويقول : « رب اغفر لي وارحمني واعدني واجبرني وعافني وعافني عن ، ولا تبخل هذه الجلسة في التريفة ؛ أما في الثالثة فلا بأس مهما أمثال ، قائلا : رب اغفر وارحم ، مكررا ذلك ، ثم يسجد السجدة الثانية صكيرا ، ويكرر الإقامة في السجود ، وهو هنا : يضع اليدين على رجليه .

ثم إذا أراد البهوس إلى الزكاة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، ويفعل في بقية الركعات هكذا ، ثم يتشهد . وفي الصلاة من المراج : وهو معراج القلوب ، والتشديد على الرضول بعد قطع مسافات الميئات على مدارج طبقات السموات . والتحيات سلام على رب البريات ، فليدع لما يقول ، ويتأدب مع من يقول ، ويدرك كيف يقول ، ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويثبت بين يميني يديه ، ويسلم على عباد الله الصالحين : فلا يترك عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصة القلبية ، ويضع يده اليمنى على عنقه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا للسبحة ، ويرفع للسبحة في الشهادة في « لا إله إلا الله » لأن كلمة التنى . ولا يرفعها تنسبة بل مائة رأسا إلى القفص منطوية ؛ فهذه هيئة خضوع المسبحة ودليل سرياء خضوع القلب إليها .

ويضع في آخر صلاته نفسه وللؤمنين . وإن كان إماما ينبغي أن لا ينفرد بالخطبة ، بل يدع لنفسه وإن وراه ؛ فإن الإمام المتبسط في الصلاة كما يجب دخل على سلطان ووراء أصحاب الخواص ؛ يسألهم ويعرض حاجتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه (كأنهم بئان مرسوص) .

وفي وصف هذه الأمة في الكتب المألفة : صفهم في صلاتهم كصفهم في تعاملهم .

وحدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو القاسم السهروردي إماما قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الرازي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو محمد بن عيسى بن محمد بن عباس السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفارسي ، قال أخبرنا أحمد بن موسى ، قال حدثنا محمد بن هرون بن عيسى : أنه سأل كعب الأحبار : كيف بعد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ قال : بعد : « محمد بن عبد الله ، ويرد بك وبجاءر لبيته ، ويكون ملكه بالتمام ، وليس بشعاش ولا صخاب في الأسواق . ولا يكاثر بالسيئة السيئة ولكن يقرض ويقرض ، أمته المخلصون : يصدقون الحق كل سرا ، ويكرهون الله على كل بعد ، يرضون أطرافهم ويأثرون في أوساطهم ، يصدقون صلاتهم كما يصدقون تعاملهم ، يفرحون في مساجدكم كدوى النحل ، يسمع مناديتهم في جوف السماء ، .

فالإمام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان ، فهو أول المصليين بالشرع والإيمان برغائب الأدب ظاهرها وباطنها ، والمصلون الذين يتفكرون كلما تمتد أطرافهم مجتمعون بواقعهم وقاصرون عما دعت ، وتسمى من البعض إلى البعض أو أوزون ركعات ، بل جميع المسلمين لمصليين في أفطار الأرض بينهم لامتداد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام وراحمته الإيمان ؛ بل يمد الله تعالى بالملك الكرام كما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملك المؤمنين الخاضعين إلى محاربة الشيطان أمس من حاجتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فتدركهم الأملاك ، بل بأنفسهم العادة تباينك الأملاك .

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه ، وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملكة والمخاضين من المؤمنين ومؤمني الجن ، ويسلم خدته ميتا لمن على يمينه بالقراءة ، ويفعل بين هذا السلام والسلام عن يمينه ، فقد ورد النبي عن الموصاة ، والمواصلة خمس : الثبات نفس بالإمام ، هو أن لا يوصل القراءة بالكثير ، والركوع بالقراءة . والثبات على المأمور : وهو أن لا يوصل تكبيرا إلا الإحرام تكبيرا بالإمام . ولا تسلمه بتسليمه . وواحدة على الإمام والمأمورين : وهو أن لا يوصل تسليم القرع بتسليم الثقل . ويهرم التسليم ولا يتدعنا ، ثم يدعو بتسليمه بما

يتماد من أمر دينه ودنياه ، ويدعو قبل التسليم أيضا في صلب الصلاة فإياه يستجاب . ومن أقام الصلوات أحسن في جماعة فله ملائكة والبحر عبادة ، وكل القامات والأحرار الذين فيها الصلوات أحسن في جماعة ، وهم سر الدين ، وكفارنا الذين ، وتمحيص لخطايا : على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام حماد الدين أبو الحبيب السهروردي رحمه الله (إجازة) ، قال أخبرنا أبو نصر أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري (إجازة) ، قال أخبرنا أبو نصر محمد بن العباس بن زكريا ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن مساعد ، قال حدثنا الحسين بن الحسين للروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا يحيى بن عبد الله . قال سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات أحسن كفارات الخطايا ، وأقربوا إن شئتم (إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين) .

الباب الثامن والثلاثون : في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصل : أن لا يكون مشغول القلب بشيء . قل أو أكثر : لأن الأكياس لم يفرضوا الدنيا إلا ليقبضوا الصلاة كالأمر : لأن الدنيا وأشتاتها لما كانت شاغلة للقلب وتغضوا عنه على عمل النجاة ، ودرغوا في وطن القربات ، وإذعان بالباطن رب البريات ، لأن حضور الصلاة بالطاهر لإذعان الظاهر : وفرغ القلب في الصلاة عما سوى الله تعالى لإذعان الباطن ، فلم يروا حضور الظاهر وتغلب الباطن حتى لا يحتل إذعانهم فتشتم ميوذيتهم . فيجتنب أن يكون باطنه مرتباً بشيء ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقتاده حاجته قبل الصلاة ، ولذا ورد : إذا حضر العشاء والعشاء فعدوا العشاء على العشاء ، ولا يصل وهو حائض يطالبه البول ، ولا حائض يطالبه القائط . والحرق أيضا : حقيق الحطب ، ولا يصل أحداؤه حقيق يشغل قلبه ، فقد قيل : لا رأى لحاقق ، قيل الذي يكون معه حقيق . وفي اللغة ليس من الأدب أن يصل ويغتنم ما يغتنم من حاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التي ذكرناها ، والاحتياط المفرط ، والغضب : وفي الخبر : لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مغضب ، ولا يصل أحدكم وهو غضبان ، فلا يليق بالمعدن بتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الحيات .

وأحسن لية المصل سكن الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليدين على الشمال ، ولأحسن من حيث عهد ذليل واقف بين يدي ملك عز . وفي رخصة الشرع دون ثلاث حركات متواليات جائز : وأرباب العزيمة يتركون الحركة في الصلاة جملة : وقد حركت يدي في السلام وعندى شخص من الصالحين ، قلبا الصرفة من الصلاة أنكر على وقال : حدثنا إن أريد إذا وقف في الصلاة يفتي أن يبق جملة بعد لا يشركه شيء . وقد جاء في الخبر : « سبعة أشياء من الصلاة من الشيطان : الزحف ، والتماس يد اليمين ، والالتفات ، والتمسك ، والتمسك من الشيطان أيضا » وقيل : السهر والله .

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن الحضور في الصلاة : أن لا يعرف المصل من على بينه وشالله .

وقل من سفيان أنه قال : من لم يتطهر فسدت صلاته . وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن بينه وشالله في الصلاة متمسدا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من رأى كلمة مكتوبة في ساجد أو ساجد في صلاته فصلاته باطلة قال بعضهم : لأن ذلك عدوه محلا . وقيل في تفسير قوله تعالى (والذين هم على صلاتهم تامنون) قيل : هو سكن الأطراف والعلانية .

قال بعضهم : إذا كثرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إل حركتك عالم بما في ضميرك ، ومثل في صلاتك الجنة من يملكه وقار عن ضالك ، وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة وقار لأن القلب إذا شغل بذكر الأخرى ينقطع عنه

الرواس ، فيكون هذا التثليل تنادوا القلب لفتح الروسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي بإجازة ، قال أخبرنا محمد بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر ابن خلف ، قال أخبرنا أبو عبيد الرحمن ، قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ؛ فأما من ياتر بامله صفواتين ونور للفرقة فيستغنى بقدامه عن تمثيل مشاهدة . قال أبو سعيد الخراز : إذا ركع فلاذب في ركوعه أن يتعصب ويخوض ويثقل في ركوعه حتى لا يبق منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يطم الله تعالى حتى لا يكون قلبه شيء أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الحباب ، وإذا رفع رأسه وحده الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسع ذلك . وقال أيضا : ويكون منه من الحمية ما يكاد يلدوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد في التلاوة فلاذب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا : من أتىهم قبل الصلاة للرافية وسراعاة القلب من الخواطر والعوارض وتغل كل شيء غير الله تعالى ؛ فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا إلى الصلاة إلى الصلاة ؛ فيكون مع النفس والعقل الذين دخلوا في الصلاة بها ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى الحالم من حضور القلب ، فكأنهم أبدى الصلاة ؛ فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يهتأ له حفظ الله من كمال استغراقه ، وكان يجلس واحد من أصحابه يمدد عليه كم ركعة يصل وقيل : الصلاة أربع شعب : حضور القلب في الحراب ، وشهود القلب عند تلك الزواجب ، وغشوق القلب بالأزباب وغشوق الأركان بالأزباب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود القلب رفع الستار ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند غشوق الأركان وجود الثواب ؛ فن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لا ، ومن أتاهم بلا شهود القلب فهو مصل ساء ، ومن أتاهم بلا غشوق النفس فهو مصل عاظم ، ومن أتاهم بلا غشوق الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاهم كما وصف فهو مصل واثق .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قام العبد إلى الصلاة للكتابة متلذذاً بقلبه فقبله وصمعه وبصره المصروف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بسبل الوء غشوة أصابها ، وبسبل رجائه خطيئة أصابها ، حتى يدخل في صلاته وليش عليه وزر .

وذكرت السرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أي السرة أتبع ؟ فقالوا : الله ورسوله أحمل ؛ فقال : إن أتبع السرة أن يسرق الرجل من صلاته ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا غشوقها ولا القراءة فيها . وروى عن أبي حمزة بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال لا أصلح ، قلنا أحرأ عليه كبر فقلبي عليه قدموا إماماً آخر ، فلما ألق سئل فقال : لما قلت استروا عتق فيها عتق ؛ هل استويتم أئمة مع الله قط .

وقال عليه السلام : إن العبد إذا أحسن الرضوء وصل الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومراقبتها قالت : حفظ الله كما حفظتني ثم صعدت ولما نور حتى تلتصق إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتدفع لأصحابها ، وإذا أصابها قالت : من يملك الله كما عنيتمني ثم صعدت ولما غلظة حتى تنفص إلى أبواب السماء فتنتلق دونها ، ثم تفت كأياف الثوب الخلق فيعبر بها وجه صاحبها .

وقال أبو سليمان النخعي : إذا وقف العبد في الصلاة بقوله الله تعالى : أوفوا بالعقوب فيها بين وبين عبيد ، فإذا التفت يقول الله : أوفوها فيها بين وبينه وغلوا عبيد وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الزواق : ربما أصلي ركعتين فأصرف منهما وأنا أستمع من الله حياء رجل المصروف من الزنا قوله هذا : ليطمئ الأدب عنده ، ومعركة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمصرم بين يديك ، قال : إن الذي أصبل له أقرب إلى من الذي يمشي بين يدي . وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضي الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يرفق من كثير لونه ، فيقال له في ذلك فيقول : أندرون بين يدي من أريد أن أتق ؟

وروى حماد بن يسار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكتب لبيد من صلاه إلا ما يقبل . . . وقد ورد في لفظ آخر : منكم من يصل الصلاة كاملة ، ومنكم من يصل النصف الثالث والرابع والخامس حتى يبلغ العشر . قال الخواص : يذهب الرجل أن يتوى توافقه لتقصص قرائته ، فإن لم يشوها لم يحسب له منها شيء ، بلنا أن الله لا يقبل تافهة حتى تزدى فريضة ، يقول الله تعالى : مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين . وقال أيضا : انقطع الخلق عن الله تعالى بمثلين : إحداهما : أنهم طيلوا التوافل وحسبوا القرائن . والثانية : أنهم حملوا أحمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق ، وفتح الدين في الصلاة أول من تفتيش الدين إلا أن يفتش همه بتفرق النظر فيمنع العين للاستعانة على الخشوع ، وإن تاب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ولا يلوذ فقه بصدرة ولا يراش في الصلاة غيره ، قيا : ذهب المرحوم بصلاة المراسم ، وقيل : من يترك النصف الأول مخالفة أن يعين على عمله فإم في الثاني أعطاه الله مثل ثواب النصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع غفغان قلبه من ميل . وروى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أن يركازيز الرجل ، حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة .

وسئل الجني : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهوى ، والخشوع بين يدي الله ، وقال الحسن : ما ذا يعرف عليك من أمر دينك إذا علمت عليك صلاتك ؟

وقيل : أوحى الله تعالى لبعض الأنبياء فقال : إذا دخلت الصلاة فقبل من قلبك الخشوع ، ومن يدلك الخشوع ومن عليك السمع ، فإن قرب .

وقال أبو الخير الإقطاع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال : يا أبا الخير عليك بالصلاة فإنها ستصيرني ، فأوصاني بالصلاة وقال لي : إن أقرب ما يكون منك وأنت تفعل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : وكنتم في تفكير غير من قيام ليلة ، وقيل : إن محمد بن يوسف القرطبي رأى حاتميا الأصم واقفا يصلي فقال له : يا حاتم ، أراك تخطئ الناس ، أفتحسن أن تفعل ؟ قال : نعم ، قال : كيف تفعل ؟ قال : أقوم بالأمر وأمشي بالحقية ، وأدخل بالحلية ، وأكبر بالهبة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأشهد بالتواضع ، وأقعد للقبض بالقيام ، وأسلم على السنة . وأسلمها للردى ، وأحفظها أيام حياتي ، وأرجع بالقوم على نفسي ، وأخاف أن لا تقبل مني ، وأرجو أن تقبل مني وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمني ، وأعلمها من سألني ، وأحمد ربي إذا عداني ، فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظا ، وقوله تعالى (لا تقرروا الصلاة وأنتم سكارى) قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاعتناء ، وقال عليه السلام : من صل ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وقال أيضا : إن الصلاة تمسك وتواضع وتضرع وتقدم وترفع بذلك وتقول : اللهم اللهم من لا يصلح ذلك فهو خداج ، أي تافهة .

وقد ورد أن المؤمن إذا تواضع للصلاة باعده الشيطان في أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فلما كبر حجب عنه إبليس ، قيل : يضرب بينه وبينه سدا فلا ينظر إليه ، وجاءه الجبار برحمة ، فلما قال : الله أكبر ، أطلع الملك في قلبه فإذا لم يكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت ، الله في قلبك كما تقول ، ونشتمع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشر ذلك

النور حسنت ، إن الجاهل المتأمل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحترش الذباب على نقطة العسل ؛ فإذا كبر اطلع الله على قلبه ، فإذا كان شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنه يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول ؛ فيثور من قلبه دعان يلحق ببنان السبل ، فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت ؛ فيزداد ذلك الحجاب صلاة ، ويلتزم الشيطان قلبه ، فلا يزال يفتح فيه وينقب ويوسوس إليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه .

وقد أخبرنا لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السبل ، والقلوب الصافية التي كل أديها لسكال أدب قواها تصير حمولة تدخل بالتكبير في السبل كما تدخل في الصلاة ، والله تعالى حرس السبل من تصرف الشياطين ، فاقطع السبل إلى السبل للربطان إليه يقتضي مواجس نفسانية عند ذلك لا تتطوع بالتحصن بالسبل كالتطاع تصرف الشيطان والقلوب المردة بالقرب بالدودج بالقرب ، وتخرج في طبقات السموات ، وفي كل طبقة من أطباق السبل يتخلف شيء من غلة النفس اربطد ذلك يزل الحاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ؛ فعند ذلك يذهب بالكلية حاجس النفس بإسماط نور العرش ، وتتدوج ظلمات النفس في نور القلب إخراج القلب في النهار ، وتتأدى حيثما حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير ، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكبر من ذكرنا وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ؛ وإذا حصل الذكر فأى ساجد إلى الصلاة ، وسلكوا طرقاً من الصلاة ، وركبوا إلى أباطيل الخيال ؛ وحمرا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام ، وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقاً أديهم إلى نقصان الحال ، حيث سلوا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفراس وأنكروا فضل التواضع ، واغفروا بسير رواج الخلال ، وأصلوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسراراً وسكناً لتوجد في شيء من الأذكار ؛ فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد في دار الدنيا [مراده عن الأعمال بين الغفیان فالأعمال تزكو بالأحوال ، والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون : في فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر وقيل : ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب به الظلم إلا الصوم فإنه لا يدخله نقصان ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذا ، فلا ينقص أحد منه شيئاً . وفي الخبر : الصوم لي وأنا أجرى به . قيل : أحاطه إلى نفسه ؛ لأن فيه خطاً من أخلاق الصدية ، وأيضاً لأنه من أعمال السر من قيل التروك لا يبلغ عليه أحد إلا الله . وقيل في تفسيره قوله تعالى (الصائون) الصائون ، لأنهم ساءوا إلى الله تعالى بجرهم وعصيتهم ، وقيل في قوله تعالى (إنما يوفى الصارون أجرهم بغير حساب) هم الصائون ، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للعالم إزاراً ويجازفه به مجازفة ، وقيل : أحد الوجوه في قوله تعالى (فلا تمل نفس ما أسخى لهم من قرّة عين جوار) ما كانوا يسمون (كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل يكتسب عليه ثلاثون رجة له ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرقت بنار الشهوة ، وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها ، فإذا جوع بهت وأخذ حلقه وراض نفسه ببس كل عضو وأحرق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله ، وإذا أشبع بهت وترك حلقه في لذات الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمسك الشيطان . والنبي نهر في النفس زده الشيطان ، والجوع نهر في الروح زده اللامعة ، وينزيم الشيطان من يالحم نائم ، فكيف إذا كان قائماً ، وبلات الشيطان شجماً قائماً فكيف إذا كان نائماً ، قلب المرء الصادق يصرخ إلى تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى علي بن أبي طالب وهو يأكل خبزاً بابساً قد به بالآ مع ملح جريش . فقال له : كيف تشتهي هذا ؟ قال :

أدعه حتى أشتبه ، وقيل : من أسرف في مطعمه ومشربه ومجمل الصغار والفلل إليه في دنياه قبل آخره ، وقال بعضهم : الباب العظيم الذي يدخل منه إلى الله تعالى قطع النمل ، وقال بشر : إن الجرح يصلي الفؤاد ويمت الحموى ويورث العلم الفتيق ، وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبع ، ولا شربت حتى رويت ولا عصيت الله أو عصمت بمعصية ، وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما يدخل بيتنا نار ولا مصباح ولا نفير ، قال : قلت سبحان الله ! فبأي شيء كنتم تضيئون ؟ قالت : بالقر والماء وكان لنا جيران من الأنصار جوامع الله نجما كانت لهم منافع ، قربا واسوتا بشي ، وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنها قالت لأبيها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك وليس ثيابا ألين من ثيابك ؛ فقال : إني أعاذك إلى نفسك ؛ أليكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؟ يقول سرارا ؛ فيكف ؛ فقال : قد أخبرك والله لا تشاركه في عيشه الشديد لئلا أصيب عيشة الرعام .

وقال بعضهم : ما ظلت لمرء دليقا إلا وأنا له حاس .

قالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من غير أن يرحى معنى لسيده . قالت عائشة رضى الله عنها : أديرا فرح بابي للكرت يفتح لكم قالوا : كيف نديم ؟ قالت : بالجرع والمطر والنظا . وقيل : غير إليس ليحي بن زكريا عليهما السلام وعليه ماعلي ، فقال : ما هذه ؟ قال : الصهوات التي أصيب بها ابن آدم ؛ قال : هل تجد فيها شهوة ؟ قال : لا ، غير أنك شبعت به ففكك عن الصلاة والذكر ؛ فقال : لا جرم أني لأشبع أبدا . قال إليس : لا جرم أني لأشبع أبدا .

وقال شقيق : العبادة حرقه وحارثها الحفرة وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا كنت للمدة نامت الفكرة وغرست الحكمة وقدمت الأعضاء عن العبادة . وقال الحسن : لا تقصروا بين الأديين فإنه من طعام اللقيطين . وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أقدمت بعده أروان الأندية .

فيكره للريد أن يوال في الإفطار أكثر من أربعة أيام فإن النفس عند ذلك تزن إلى المادة وتفسق بالشهوة . وقيل : الدنيا بطنك قبل قدر زعدك في بطنك زعدك في الدنيا . وقال عليه السلام ما ملأ آدم بطن من بطن ، حسب ابن آدم لقيات يقمن عليه ، فإن كان لا محالة فقلت طعامه وقلت لشرا به وقلت لنفسه .

وقال فتح المرحى . محبت تملكين شيئا كل يومين عند مفارقتك إياه برك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

الباب الأربعون : في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المتكلم الصوفية كانوا يهتدون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى . وكان عبد الله بن جابر قد صام نيفا وخمسين سنة لا يطر في السفر والحضر ، لجهده بأصحابه يوما فأنظر ، فاعتل من ذلك أياما . فلما رأى المرید صلاح قلبه في دوام الصوم فليعلم دائما ويوجد للإفطار جانبا ؛ فهو عون حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صام الدهر حيث عليه جهنم هكذا وعند تسعين ، أي لم يكن له فيها مخرج .

وكره قوم صوم الدهر ، وقد ورد في ذلك ما رواه أبو قتادة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بين صام الدهر ؟ قال : لا صام ولا أفطر ، وأول قوم أن صوم الدهر : هو أن لا يطر العبدن وأيام للتشريق فهو الذي يكره ، وإنما أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من كان يصوم يوما ويصوم يوما ، وقد ورد : أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويصوم يوما ، واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر .

ومنهم من كان يصوم يومين ويصوم يوما أو يصوم يوما ويصوم يومين .

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة . وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة وفي رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح السنة .

وحكى عن الجنيادة كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوته أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم ، غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون النامي إلى ذلك شره النفس لانية للرفقة ، وتخلص الفية النفس الرفقة مع وجود شره النفس صعب . وصحت شيخنا بقول : في سنين ما أكلت شيئا بدوية نفسا ابتداء واستعداد ، بل يثتم إلى الشيء فأراه من فضل افطرت وقلة فأوافق الحق في قوله : وذكر أنه في ذات يوم اشتوى الطعام ولم يصبر من عاده بتقديم الطعام إليه . قال : فتصحب باب البيت إلى فيه الطعام وأخذت رمانة لأكلها . فدخلت النور وأخذت دجاجة كنت هناك ، فقلت : هذا غربة لي على تصبر في أخذ الرمانة . ورأيت الشيخ أبا السعد رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات ، أي وقت أحضر الطعام أكل منه . ويرى أن تناوله الطعام موافقة الحق ! لأن ماله مع الله كان تركا لا اختيار في ما كرهه وعلبه وجب تصبره ، وكان حاله الزوف مع فعل الحق ، وقد كان في ذلك بداية يرضيها ، حتى قل أنه كان يبي أيا ما لا يأكل ولا يمل أحد ماله ولا يصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينظر فعل الحق لسياسة الرزق إليه ، ولم يصبر أحد بماله من الزمان . ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة ، وكأوا يتكفرون الأظمة ويأتون بها إليه وهو يرى في ذلك فضل الحق والرفقة ، سمته يقول أصبح كل يوم وأحب مائل الصوم ، وينض الحق على حتى الصوم بفضله ، فأوافق الحق في قوله .

وحكى عن بعض الصالحين من أهل واسطاه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان . وقال أبو نصر السراج : أنكر قوم هذه العادة وإن كان الصوم قطوعا ، واستحسن آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالمخرج وأن لا يشتت برؤية الصوم ، ووقع أن هذا إن صدق لا يشتت برؤية الصوم ، فقد تمنع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم ، وهذا يتسلسل ، والآخرين بموافقة العلم إضمار الصوم . قال الله تعالى (ولا تطعوا أفعالكم) ولكن أهل الصدق لم يات فيها يضلون فلا يعارضون ، والصدق محمود ليه كيف كان ، والصدق في غفلة صده كيف غلب . وقال بعضهم : إذا رأيت الصوف يصوم صوم التطوع فانه قد اجتمع معه شيء من الدنيا . وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مرشد يشره على الصيام فإن لم يساعدوه يشتموا لإفطاره ويتكفروا له وقتا به ولا يصبروا حاله على حالم ، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه وينظرون لإفطاره إلا من بأسره الشيخ بنو ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصوم حتى ينظر الشاب إليه فيتأديب به ويصوم بهيمة . وحكى عن أبي الحسن للسك أنه كان يصوم الشعر وكان ضيقا بالصره ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة ، وكان فومه في كل شهر أربع دوايق يحمل بيده حبال القف ويبيعها . وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول : لأسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل . وكان ابن سالم أتمه بشهرة خفية له في ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس .

وقال بعضهم : ما أغضبني عبد قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف . ومن أكل فخلان الطعام أخرج فخلان من السكلام . وقيل : أظم أبو الحسن التيسر بالحرم مع أصحابه سببه أظم لم يأكلوا ، فخرج بعض أصحابه ليتنظر فرأى فطر بطيخ ، فأخذه وأكاه ، فقرأ لإنسان فأنبع آره وجاء برق فوضعه بين يدي القوم ، فقال الشيخ : من جنى منك هذا لجناية ؟ فقال الرجل : أنا وجدت فطر بطيخ فأكلته ، فقال كذا أنت مع جانيته لم تفرقه ، فقال أنا تأكل من جاني .

قَالَ: لَا تَلَامُ بَدَ التَّوْبَةِ، وَكَانُوا يَسْتَحْيُونَ صِيَامَ أَيَّامِ الْبَيْضِ وَهِيَ الثَّلَاثُ عَشْرَ وَالرَّابِعَ عَشْرَ وَالْخَامِسَ عَشْرَ. وَرِيَّانُ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا عُرْطٌ إِلَى الْأَرْضِ اسْوَدَّ جَسَدُهُ مِنْ أَمْرِ الْمَعْصِيَةِ، فَلَمَّا تَابَ بَلَغَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ أَنْ يَوْمَ أَيَّامِ الْبَيْضِ، فَيُصِيبُ ذَلِكَ جَسَدَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَامَهُ حَتَّى أَبْيَضَ جَسَدُهُ بِصِيَامِ أَيَّامِ الْبَيْضِ.

وَيَسْتَحْيُونَ صَوْمَ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ شَعْبَانَ وَإِنْ طَارَ تَصَدَّقَ الْأَخِيرَ، وَإِنْ وَاصَلَ بَيْنَ شَعْبَانَ وَرَمَضَانَ فَلَا يُسَاقُ بِهِ، وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَامَ فَلَا يَسْتَقْبِلُ رَمَضَانَ يَوْمَ أُدْيُومِيْنِ.

وَكَانَ يَكْرَهُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَصَامَ رَجَبٍ بِجِهَةِ كَرَامَةِ الصَّائِمَاتِ بِرَمَضَانَ. وَيَسْتَحْبِبُ صَوْمَ الْعَشْرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْعَشْرِ مِنْ الْغَرَمِ، وَيَسْتَحْبِبُ الْخَيْسَ وَالْجَمْعَ وَالْيَدَّ أَنْ يَصَامَ مِنَ الْأَشْهُارِ الْحَرَمِ، وَرَدِّ الْخَيْرِ؟ مِنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ شَهْرِ حَرَامٍ الْخَيْسَ، وَالْجَمْعَ، وَالْيَدَّ مِنْ ثَلَاثِ سِبْأَةٍ عَامٍ هـ.

الباب الحادي والأربعون : في آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية في الصوم : ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام ، كتعب النفس عن الطعام ، ثم كف النفس عن الاهتمام بالآثام .

صعدان بعض الصالحين بالمرأى كأنما ربه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكذا اتفق عليهم قبل وقت الأنظار بخرجه ، ولا يظفرون إلا على ما قسم لهم وقت الأنظار .

وليس من الأدب أن يحسك المرء من الجاسوس وينظر بحرام الآكام .

قال أبو الدرداء : يا رجل ما أراك يا كاس ونظرم ، كيف يبيرون أيام الخلق وميامهم ! ولقد من ذى يقين ونهى
أفضل من أمثال الجبال من أعمال المكثرين .

ومن قضية الصوم وأدب: أن يقل الطعام عن الحد الذي كان يأكله وهو مفطر، وإلا فلا جمع الاكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما عرفت، ومطعمه القوم من الصرم فهر النفس ومنعها عن الاسباع، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لهم أن الانقصار على الحرورة عيب النفس من سائر الافعال والاقوال إلى الضرورة، والنفس من طلبها أيا إذا فحرت له تعالى في شيء واحد على الحرورة أدى ذلك إلى سائر أحوالها، فيصير الأكل التوم ضرورة، والقول الفل ضرورة، وهذابا كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته واقتضاه ولا يخص بهلم الضرورة وقامتوا طلبها، إلا عباد يريد الله تعالى أن يفرجه ويديمه عطفه ويريه، ويتبع في صومه من ملاعبة الآلهة والملائكة، فإن ذلك أزه الصرم.

وبسخر استمالا سنة ، وهر اوسى لىل اعطاء الصرعه لىل بنين ، أحدهما : عود يركب سنة عليه ، والثانى : التفرة
 بالطعام لىل صيام ، وروى أنسى بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تسحرنا فأن فى السحور يركب ، .
 ويسهل القطر علانية ، فأنهم يرتدوا الطعام لإلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين ينظر بالماء أو مل
 أعدامن الزبيب أو الزم وبأكل لىليات إن كانت نفس تزعج ، ليعفوه الوقت بين العشاءين ، فإحياء ذلك فعمل
 كثير ، وإلا فمفسر على الماء لأجل السنة .

[illegible]

هو الذي يجرع بالهار ويفطر على الحرام ، وقيل : هو الذي يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالثنية ، قال سفيان من اعتاب قد صومه . وعن مجاهد : غصتان تضدان الصوم : ثنية والكذب . قال الشيخ أبو طالب السكي : قرن الاعتناء بالباطل : والفطر بالإثم يأكل الحرام فقال : (ساعون لكذباً كالزبد فسحت) وورد في الخبر : أن أسرايين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر الثمار حتى كادتا أن تهلكا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنه في الإفطار : وأرسل إليهما قدما وقال : فمولا لما قيتا فيه ما أكلتا ، فقلتا إحداهما فضله دما عيطا ورخا فربنا ، وقالت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه فمضج الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان صامتا عن ما أحل الله لها وأفطر تأكل ما حرم الله عليهما ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتفه فليقلل إلى صائه . وفي الخبر : إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ، والصوم الذي لا يرجع إلى معلوم ولا يهري من يساق إليه الرزق ، فإذا ساق الله إليه الرزق تناوله بالآداب وهو دائم الرقابة لوقته ، وهو من إظهار أفضل من الذي لمعلوم مدته فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكل الفضل .

حكى عن روم قال اجترت في الهجرة بعض سلكه بغداد ، فطعنت فتقدمت إلى باب دار فاستقيت ، فلما جارية قد خرجت ومعهما كوز جديد ملآن من لبناء الجرد ، فلما أردت أن أتاول من يدها قالت : صوم ويثرب بالهار ، وعطيت بالكوز على الأرض وانصرفت . قال روم : فاستحييت من ذلك وتذرت أن لأفطر أبدا . والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وقودته اشتد عليها الإفطار ، وهكذا يتوعدا الإفطار تكره الصوم ، فيرون الفضل في أن لا تترك النفس إلى عادة ، وراوا أن الإفطار يرم وصوم يوم أشد على النفس .

ومن أدب الفقهاء : أن الواحد إذا كان بين جمع وفي حجة جماع لا يصوم إلا بإذنه ، وإنما كان ذلك لأن تقرب الجمع متشقة بفطره ، وم على غير معلوم ، فإن صام وإن اجمع وفتح عليهم بشي . لا يلزمهم ادعاء الصائم ، ومع العلم بأن الجمع المظهرين يحتاجون إلى ذلك ، فإن الله تعالى بالصائم يرضه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرق نصف حاله أو ضعف ينه لتبخره أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال فإن كان متيقنا يشرق بحاله وضمفه فيدخره ، والذي ذكرناه لأغرام هم على غير معلوم ، أما العرفية للقيسون في رباط على معلوم فلا يليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجمع في الإفطار ، وهذا يظهر في جمع منهم لم معلوم يقدم لهم بالهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم ، فقد قيل : مساعدة الصوام للفطرين أحسن من استعلاء الموافقة من المفطرين للصوام ، وأمر القوم مبتاه على الصدق ، ومن الصدق افتقاد الثنية وأسواق النفس ، فكل ما صحت الثنية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الأفضل ، فأما من حيث السنة فن يوافق له وجه إذا كان صائما وأفطر للموافقة ، وإن صام ولم يوافق فله وجه فأما وجه من يفطر ويرافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبي الفضل الخافض للقدس قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله ، قال أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين النوري ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حدوده ، قال حدثنا عبد الله بن حماد ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثني صلاه بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن للتكسر . عن أبي سيد الجندري قال : اضطعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما ، فلما قدم إليهم قال رجل من القوم : إني صائم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما كرم أخوكم ومكلف لكم ، ثم تحول إلى صائم ، أفطر وأغض يوما مكانه ، وأما وجه من لا يوافق ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم ، فقال رسول الله : : نأكل رزقا ورزق بلال في الجنة ، فإذا علم أن هناك فلما يتأذى أو فضلا يرجس من موافقة من يتمت موافقة يفطر بحسن آنية لا يصح الطبع وتفاضل . فإن لم يجد هذا للمنى لا ينبغي أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالثنية فيصومه ، وقد تكون الإجابة لمعاجة

النفس لا تغتاض حق أخيه .

ومن أحسن آداب التقدير الطالب : أنه إذا أظفر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيراً عن هيئته ونفسه متغيرة عن أدائه وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب للتغلب على أعصاب التنوير عند ريب الطعام وكمات يعملها أويآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتيه ، فقد ورد في الخبر : أديروا طعامكم في الأكل ، ومن مهام آداب الصوم كتابتها مهما أمكن إلا أن يكون مشكناً من الإخلاص فلا يزال ظهر أم بطن .

الباب الثاني والأربعون : في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوم بحسن نيته وصحة مقصده ووفور حله وإتيانه بأدائه تصير طائفة عبادة ، والصوم موهوب وقته وحياته ، كما قال الله تعالى لنبيه آمراً له (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) فتدخل على الصوم أمور المائدة لموضع حاجته وضرورته بشرئته ، ويحذف بمادته نوريقته وحسن نيته ، فتتفرق الماديات وتتشكل بالمباديات ؛ ولهذا ورد : نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح ، هذا مع كون النوم حين التفتة ، ولكن كل ما يستبان به على العبادة يكون عبادة ، فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاختلافه على المصلح البدنية والدينية وتعلق أثره بالقلب والقلب ، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك ، والقلب مركب القلب وبها عمارة الدنيا والآخرة ، وقد ورد : أرض الجنة قيمان نباتها التيسيس والتفتيس ، والقلب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستبان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة اللائكة يستبان بها على عمارة الآخرة ، وباجتماعها صلحا لمباراة المقارين ، والله تعالى ركب الآدي بخلق حكمة من أعص جواهر الجسيانيات والروحانيات ، وجهه مستودع خلاصة الأرضين والسماوات جعل عالم الشهادة وعالمها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدي . قال الله تعالى (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) فيكون الطعام وهي الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وتكون بواسطتها النبات ، وجعل النبات قواما للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدي يستعين بها على أمرها كقوامه ، فالطعام يصل إلى المدة ، وفي المدة طبايع أربع ، وفي الطعام طبايع أربع ، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبايع من طبايع المدة خذ من الطعام ، فتأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة ، فيعتدل المزاج ويأمن الاضرار . وإذا أراد الله تعالى إلقاء قالب وتخريب بنية : أخذت كل طبايع جلسياً من المأكول ، فتقبل الطبايع وينظر بالمزاج ويسمى البدن (ذلك تقدير العزيز العليم) روى عن وهب بن منبه قال : وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام : إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء . من رطب ، وبابس ، وبارد ، وسخن ؛ وذلك لأن خلقته من التراب وهو بابس ، ورطوبته من الماء وحرارته من نخل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق من ملاك الجسم يخلق بين قوامه ، فلا يقرم الجسم إلا به ولا تقوم منه واحدة إلا بأخرى ، منهن ليرة السوداء ، والمرأة الصفراء والهم والبشم . ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض ، لجعلت مسكن لليبوسة في المرة السوداء ، والمرأة الصفراء والمرأة الصفراء ، ومسكن الحرارة في اللحم ، ومسكن البرودة في البشم ، فأما جسد اعتدلت فيه حله الفطر الأربع التي جعلتها ملاك وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربما لا يزيد ولا ينقص ؛ كلك محتواة اعتدلت ببيتها ، فإن زادت منهن واحدة عليهن حر منهن ومالك بين ودخل عليه البشم من ناحية بقدر غلبتها حتى ينصف عن طائفتين ويجوز عن مقدارهن .

فأم الأمور في الطعام أن يكون حلالاً ، وكل ما لا يذمه الشرع حلالاً وخصة ورحمة من الله لعباده ، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر والنسب طلب الحلال .

ومن أحب الصوفية : رؤية التمسك على التمسك ، وأن يتدبّر ينزل إلى نخل الطعام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفي البخر » ، ولأنه كان موجبا لنفي البخر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال التمسك بالأدب ،

وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ؛ فصار فضل اليد مستجابا لثمة مذهبها لغير .

وعن أبي أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب أن يكثر خيريته فليترحمنا إذا حضر غذاءه ثم يسمي الله تعالى ، لقوله تعالى (ولأنكأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) تحريمه تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان .

واختلف الثاقبي وأبو حنيفة وجمهورهما في وجوب ذلك . ونهم الصوفيين ذلك بعد القيام بظاهر النص ؛ أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر ؛ فترفع عن ينقوته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والله ينتج من إقامة النفس ومتابعة هوالها ، ويرى ذكر الله تعالى دواء وترها .

روى عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فسته نفر من أصحابه ، جاء أمراء فأكفه فاستن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه لو كان يسمي الله لكتناكم ؛ فلذا أكل أسدكم طعاما فليقل بسم الله ؛ فإن ليس أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره .

ويستحب أن يقول في أول لقمة بسم الله ، وفي الثانية بسم الله الرحمن ، وفي الثالثة بسم ، ويشرب للماء صلاة أغلس ، يقول في أول نفس : الحمد لله ، إذا شرب ، وفي الثانية الحمد لله العالين ، وفي الثالثة الحمد لله العالين الرحمن الرحيم ، وكان أن للمدعيانما تنقذوا كذا كراهة بموافقة طباع الطعام ، فقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقة والرماء والبقية ، ويعرف أمراء مزاج قلب من القصة المتأولة : تارة تحدث من القصة حرار الطبخ بالنبوض إلى الفصول ، وتارة تحدث في القلب بروق الكسل بالتنازع من وظيفة الوقت ، وتارة تحدث بطرية السهر والقصة وتارة يوسه لهم والآخر بسبب الحظوظ المعاجة ، فهذه كلها عوارض تنطق لها المتيقظ ، ويرى بتقدير القلب بهذه العوارض تنقذ مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبه القلب فقلب أم وأولى . وتطرق الانحراف إلى القلب أربع من إلى القلب . ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القلب ، واسم الله تعالى دواء نافع يجر بني الأسواء ويذهب الماء ويحبب الشفاء .

حكى أن الشيخ أبي محمد النزال لما رجع إلى طوس وعرفه في بعض القرى عبد صالح فقصه من آثاره ، فصادفه وهو في صحراء له يذو الحنطة في الأرض ، فلما رأى الشيخ محمدا جاء إليه وأقبل عليه ، جاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقتا شتاء البذر ، فاستمع ولم يعطه البذر ، فسأله النزال عن سبب امتناعه . فقال : لأنني أبذر هذا البذر بقلب حاصر ولسان ذاك ، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا ، فلا أحب أن أسفه إلى هذا فيلذوه بلسان غير ذاك وقلب غير حاصر .

وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرح في تلاوة سورة من القرآن ، يحضر الوقت بذلك حتى تنتهي أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يشرب الطعام مكروه وينتهي مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو العجب السهروردي يقول : أنا أكل وأنا أصلي ، يدير إلى حضور القلب في الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله ، فلا يتفرق عنه وقت الأكل ، ويرى الذكر وحضور القلب في الأكل أركابا لا يسهل الإجماع .

ومن الأكل عند الأكل التفكير فيها حيا الله تعالى من الاستئذان للمينة على الأكل فيها الكسرة ومنها القاطعة ومنها العالقة ، وما جعل الله تعالى من لسان الحرف في اللحم حتى لا يتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحا لما كان لها حتى لا يفسد ، وكيف جعل التداوة تنقيع من أرجاء اللسان والضمير ليمنع ذلك على الخفق والسوخ ، وكيف جعل القوة الماخضة مسلطة على الطعام تمنعه وتجره متسلقا مدعما بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، واللدة بمثابة القدر وعلى ظهر فساد الكبد تمثل الماخضة وينسد الطعام ولا يتصل ولا يصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين وطول شرح ذلك ؛ فمن أراد الاستبصار فليطالع بتفريع الأعضاء ، ليرى العجب من قدرة

الله تعالى : من لم يأخذ الاعتناء ولم يفرغها ، وألقى بعضها بالبعث في إصلاح النذاه ، واستجاب القوت له للاعتناء وانضمامه إلى الله والتمتع والحق لتخفيف المولود من بين فرت وهم لنا عالما سالنا الممارين : فبارك الله أحسن الخالقين : فالتفكر في ذلك وقت الطعام ونزول لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .
وما يذهب أدواء الطعام للغير لمرآج القلب : أن يدعو في أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من غذائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وما رزقنا بما تحب اجعله عونا لنا على ما تحب ، وما رزوت عنا بما تحب اجعله قرانا لنا فيما تحب .

الباب الثالث والأربعون : في آداب الأكل

في ذلك أن يبتدئ بالمخض ويغتنم به : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل رضى الله عنه ، وأهل ، أبدا طعامه بالمخض واغتنم بالمخض : فإن المخض شفا من سبعين داء ، منها : الجنون ، والجذام ، والبرص ، ووجع البطن ووجع الأخراس .

وروى عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في إيهامه من رجله اليسرى لشفقة فقال : « علي بذلك الأبيص الذي يكون في السجين ، لجنا يملح فوضعه في كفه ثم لقمته ثلاث لقمات ، ثم وضع يديه على اللهفة فشكت عنه .

ويستحب الاجتناع على الطعام ، وهو سنة للصوفية في الربط وغيرها يروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثر عليه الأذى ، وروى أنه قيل : يا رسول الله : إنا بأكل ولا نضع قال : « لعلكم يفترون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه .

ومن عادة الصوفية : الأكل على السرير ، وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن القنوي يستأنس إلى ابن ماجه الحافظ القزويني ، قال أخبرنا محمد بن الثني ، قال حدثنا ساذن بن هشام ، قال حدثنا أبي عن يونس بن القرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة . قال : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السرير .

ويصغر القيمة ويهمل الأكل للمخض ، وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الأكلين ، ويقعد على رجله اليسرى ويضع اليمنى ، ويجلس جلسة التواضع غير مشك " ولا متمزز : نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متدنا . وروى أنه أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ، لجنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبيته يأكل فقال أعرابي : ما هذه الجلسة يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق عبدا ولم يجعله جبارا عبدا ولا يبتدئ بالطعام حتى يدب الأقدم أو الشيخ : روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يمتنع أحدنا منه حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يأكل أحدكم يمينه ، ولا يشرب يمينه ، ولا يأخذ يمينه وليسط يمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويسط بشماله .

وإن كان المأكل نرا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرى ولا يترك على الطبق ولا في كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرمي .

ولا يأكل من ذروة الشريد : روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : وإذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فإن البركة تنزل في وسطه .

ولا يليب الطعام : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ولا تركه .

وإذا سقطت القصة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سقطت لقمة أحدكم فليطعمها إلا ذى ولأى أكلها ولا يدعها للطيغان .

وبلغ أصابه ، فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا أكل أحدكم الطعام فليبتس أصابه ، فإنه لا يدرى في أى طعامه يكون البركة .

وعكنا أمر عليه السلام بإسالات القصص : وهو مسحها من الطعام . قال أنس رضي الله عنه : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسالات القصص .

ولا يفتخ في الطعام ، فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : افتخ في الطعام يخب بالبركة ، وروى عبد الله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتخ في طعام ولا في شرابه ولا يتنفس في الإناء فليس من الأدب ذلك .

والحل والبخل على السفر من السنة ، قيل : إن الثلاثة تحضر الساعة إذا كان عليها بقل . روت أم سعد رضي الله عنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وأنا عندما فقال : هل من غداء ؟ فقالت : عندنا خبز وتمر وغل ، فقال عليه السلام : نعم الإدام اخل اللهم بآرك في الخل فإنه كان إدام الأنبياء قيل : ولم يقرر بيده فيه غل .

ولا يمسح على الطعام فهو من سيرة الأعراف ، ولا يقطع اللحم والخبز والكين فقيهنى ، ولا يكسبه من الطعام حتى يفرغ الجميع ، فقد روت عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا وضعت المسألة فلا تقوم رجل حتى ترفع المسألة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليشمل ، فإن الرجل يمشي عليه فيفيض يده ، وصلى أن يكون له في الطعام حاجة .

وإذا وضع الخبز لا يخلط فيه ، فقد روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرموا الخبز ، فإن الله تعالى عز لك بركات السماء والأرض والحديد والبقير وابن آدم .

ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع وبمسك عن الطعام قبل الشبع ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لا آدمى وعاء شرا من بطنه .

ومن عادة الصرية : أن يلتم الخادم إذا لم يحس مع القوم وهو سنة . روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه به فليأمره أكلة أو أكلتين ، فإنه ولي حرم ودعائه .

وإذا فرغ من الطعام بحمد الله تعالى : روى أبو سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال : الحمد لله الذى أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكل طعاما فقال : الحمد لله الذى أطعنا هذا وورثته من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه . ويشتمل ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : انقلوا فإنه لظافة والظافة تحضر إلى الإيمان والإيمان مع صاحبتي الجنة .

ويستل يده ، فقد روى أبو هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بات وفي يده خر لم يغسل فأصابه شيء فلا يؤمن إلا نفسه .

ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد ، وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترى الطرس وعائلوا الجوس .

ويستمسح العين بيل اليد ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا توضأت فامشوا أميتكم الماء ولا تنظروا أيديكم فإنها مراح الشياطين ، قيل لأبي هريرة : في الرنوء وغيره ؟ قال نعم في الرنوء .

وغيره ، وفي غسل اليد يأخذ الاثنان يمينين ، وفي الحلاء لا يزدد ما يخرج بالخلل من الاستان ، وأما ما يلوكه بالسان فلا بأس به ، ويجتنب التصنع في أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كما كره متفرقا ، فإن الرياء يدخل على العبد في كل شيء .

وصلى بعض العلماء بعض العباد فلم يكن عليه ، قيل له أتمم به بأسا ؟ قال : نعم ، رأيت تصنع في الأكل يوم تصنع في الأكل لا يؤمن عليه التصنع في العمل .

وإن كان الطعام حلالا قليلا : الحمد لله الذي مننته تتم الصالحات وتزول البركات . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعنا واستمعنا صالحا ، وإن كان شيئا يقول : الحمد لله على كل حال ، اللهم صل على محمد ولا تسمع حونا على مصيئته ، وليكثر الاستغفار والحزن ، ويبكي على أكل الشبهة ولا يسهلك ، فليس من يأكل وهو يبكي كن يأكل وهو يسهلك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريب .

ويجتنب الدخول على قوم في وقت أكلهم ، فقد ورد : من مشى إلى طعام لم يدر إلى شيء قاسا ، وأكل حراما ، وصحنا مطا آخر ، دخل سارقا وخرج متبرعا ، إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقتهم .

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ، ولا يفرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ويجتنب الخفيف التثكل إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإلتفات ، ولا يفعل ذلك حياء وسكنا .

وإذا أكل حدة قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب ، وأطعم عندك الصائمين ، وأكل طعامك الإبرار وصلت عليكم الملائكة ، وروى أيضا : عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بأبرار يملكون بالليل ويعومون بالنهار ، كان بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب : أن لا يستخر ما يقدم له من طعام ، وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما عدى أجمع أعظم وزراء ، الذي يستخر ما يقدم إليه ، أو الذي يستخر ما عنده أن يقدمه .

ويكره أكل طعام الميأزة وما تشكف للأعراس والنمازي ، فاعمل النواصيح لا يؤكل ، وما عمل لأهل العراء لا بأس به وما يجري مجراء .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانسياط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه ، قال الله تعالى (أو صدقكم) قيل : دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه ، ففتحو الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتموني بأخلاق السلف هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأؤكد ذلك الرواية ، وقد يشكك بعض الناس عن الدعوة لتكبروا وذلك خطأ ، وإن عمل ذلك لصنعا ودينا فهو أقل من التكبر . وروى أن الحسن بن علي سر بقرم من الساكنين الذين يسألون الناس على الطرق وله ثروا كسرا على الأرض وهو على بركة : فلما سر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هم ثناء يابن رسول الله ، فقال لهم إن الله لا يحب للتكبرين ، ثم لم يركب قول عن دابته وقد معهم على الأرض وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع النبال .

روى أن مروان الرشيد دعا أباصوية الغصير وأمر أن يقدم له طعام ، فلما أكل صب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية ، تسمى من صب على يدك ؟ قال لا . قال أمير المؤمنين ، قال يا أمير المؤمنين ، إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون : في ذكر أحدهم في اللباس وثيائهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وخروجها لمنع الحر والبرد ، كما أن الطعام من حاجات النفس لمنع الجوع ، وكان

الله من غير قاطبة بقدر الحاجة من الطعام إلى تطالب الزبائن والشهوات ، فهكذا في القياس تتدفق فيه ، ولغاية أهمية متنوعة وما رُب غتلفة ! فالصواب يرد النفس في القياس إلى متابعة صريح العلم . قيل لبعض الصوفية : نوبك يوقى ، قال : ولكنه من وجه حلال ، وقيل له وهو وسخ ، قال : ولكنه طاهر ؛ فخطر الصائق في ثوبه أن يكون من وجه حلال ، لأنه ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من اشترى ثوبا بمسرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لا يخليل الله منه صرفا ولا عدلا . أي لا فرينة ولا لافلة ، ثم بعد ذلك انظره فيه أن يكون طاهرا ؛ لأن طهارة الثوب شرط في صحة الصلاة ، وماعدا هذين الشرطين فخطره في كونه يرفع الحر والبرد لأن ذلك مصلحة النفس ، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فحكة فضول وزيادة ونظر إلى الخلق ، والصادق لا يباين أن يلبس الثوب إلا لله ؛ وهو سر العودة ، أو لنفسه لرفع الحر والبرد .

وحكى أن سليمان التوري رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقبورا ؛ فقيل له : ولم يلبس بذلك . فهم أن يعلمه وينيره ، ثم تركه وقال : حيث لبست نويت أنى ألبسه ، والآن لا أخيره إلا لنظر الخلق فلا اقتضى التوبة الأولى بهذه .

والصوفية غصوا بطهارة الأخلاق ، ومارزوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعدادا لى حياة الله تعالى لغفوسهم ، وفي طهارة الأخلاق وتمازجها تناسب ما توجد تناسبية النفس ، وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) فالتناسب هو التسوية ، فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم ، وطعامهم مشاكلا لسلطانهم ، وكلامهم مشاكلا لشاغلهم ؛ لأن التناسب الواقع في النفس متبديا بالعلم والقدارة والخيال في الأحوال يحكم به العلم ؛ ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مرجع أقوى ، وما تضمنه من التطلع إلى التناسب وشرح حال سلفهم في وجود التناسب .

قال أبو سليمان النازاني : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم ، وشبهته في بطنه بنمسة دراهم ؛ أشكر ذلك لعدم التناسب ؛ فمن خشن ثوبه يظن أن يكون ما كوله من جلته ، وإذا اختف الثوب ولما كؤل دل على وجود انحراف لوجود هوى كامن في أحد الطرفين ، إما في طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما في طرف المأكول لفرط الشره ؛ وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليؤد إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان النازاني ثوبا غسلا ، فقال له أحد : لو لبست ثوبا أجود من هذا فقال : لبست ثوبي في القنبر مثل قيس في الثياب فكان الفقراء يلبسون الرقع ، وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابيل ويرقمون بها ثوبهم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح ، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ؛ فبكنا كانت مدافعهم من المزابيل ، كانت لغفوسهم من الأرباب .

وكان أبو عبد الله الرافعي مثارا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر الفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له في ذلك : فيقول : أنت ما تكون بمنى التوكل . وأنا أكل بمنى المسكنة . ثم يخرج بين المشايخ يطلب الكسر من الأرباب ، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منه .

حكى أن جماعة من أصحاب الرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم : يا قوم ، اتقوا الله ولا تظهروا هذا الذي فأنكم تعرفون به وتكرمون له ، فسكروا كلهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذي جعلنا من يعرف به ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الذي حتى يكوننا الذين كلفه ، فقال له بشر : أحسنت يا غلام ، مثلك من يلبس المرقعة ، فكان أحدهم حتى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذي عليه .

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاث دراهم ثم قطع كفه من دروس أصابعه ، وروى عنه أنه قال لسمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فزقم قبضك وانصف أمك ونصرا أمك وكل دون الصنيع وحكى عن الجريري قال : كان في جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا في ثوب واحد الشتاء والصيف ، فسل

عن ذلك ؟ فقال : قد كنت وامت بكثرة لبس الثياب ، فأريت ليلة فبأ يري الثام كأى دخلت الجنة ، فأريت جماعة من أصحابنا من الفقراء حل مائة ، فأريت أن اجلس معهم فلذا بمصاحبة من الملائكة أعزوا يدي وأقاموني وقالوا هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك ثيابان فلا تجلس معهم ، فالتفت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى كان عليه وكان عارية ، فرددوه إلى صاحبه .
وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا : أنه بقى زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا ، حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا .

وقال أبو حفص الخداد : إذا وأيت وحاجة الفقير في ثوبه فلا تريجو غيره .
وقيل : مات ابن الكرمي وكان أستاذا لجندوس عليه رفته . قيل : كان وزن فردك له وغاربعه ثلاثة عشر وملا فقه يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتشوش ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكفون لبس غير المرتع وزى الفقراء ، ويكون بينهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم التبرع بواجب حق المرتعة .

وقيل : كان أبو حفص الخداد يلبس الثام وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء . وقد كان قوم من أصحاب المصنف يكرهون أن يحملوا بينهم وبين القربا حائلا . ويكون لبس أبي حفص الثام يعلم وينبئ الله تعالى بصحتها ، ومكتنا الصانفون إن لبسوا غير الحسن من الثوب لئلا تكون لهم في ذلك ، فلا يمترض عليهم ، غير أن لبس الحسن والمرتع يصلح لستر الفقراء بلبه الثقل من الدنيا وزهرتها وبهجتها . وقد ورد : من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة .

وأما لبس الثام فلا يصلح إلا لأمم جماله بصير بصغات نفسه متفقد على شهادات النفس بلبس الله تعالى بحسن ألبه في ذلك ، فالحسن ألبه في ذلك وجوه شديدة يطول شرحها . ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب يمينه لا لخشوته ولا لثبوته ، بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت ، وهذا حسن . وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه ، فإن رأى نفس شرما وشبهة خفية أو جليلة في الثوب الذى أدخله الله عليه فخرجه ، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار نعم ذلك لا يسهل إلا أن يلبس الثوب الذى سأل الله إليه . وقد كان شيخنا أبو العجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بيمينه من اللبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير حمس تكلف واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدائق . وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة وينطلياس . وكان الشيخ علي بن الحسين يلبس لبس فقراء السواد : وكان أبو بكر القراء يرتجى أن يلبس فروا خشنا كأحد العوام . ولكل من لبسه وميكته نية سالحة . وشرح تفاوت الأقوام في ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السواد رحمه الله سأل مع الله ترك الاختيار ، وقد يماق إليه الثوب الثام فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى براطن بعض الناس الإنكار عليك في لبسك هذا الثوب ؟ فيقول : لا ، في لا أحد رجلين : رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له : هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يجره ؟ فيقول : لا . ورجل يطالبنا بصفاتي القوم من أرباب البرعة ، فنقول له : هل ترى ثوبا فيها لبسا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة ؟ فيقول : لا . وقد يكون من الناس من يفتخر على لبس الثام وليس الحسن ، ولكن يجب أن يتتار الله له هيئة مخصوصة ، فيكثر الجأ إلى الله والافتقار إليه . وبما أنه أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأصلحه لديه ودنيا لكرته غير صاحب غرض وموى فبذى بيمينه ؟ فله تعالى يفتخر عليه ويعرفه زيا مخصوصا ، فيلقم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل من يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حله من العلم ويتوسط بما بسطه الله ، فيلبس الثوب من علو إلفان ولا يبال بلباسه ، ناعما لبس أو خشنا ، وربما لبس ناعما ولقبه فيه اختيارا وسط ، وذلك الحظ فيه يكون مكثرا لمجرد وداع له موهوبا له

بواقته الله تعالى في إرادته نفسه ، ويكون هذا الشخص تلم التزكية تلم الطهارة محبوا مرادنا يسارع الله تعالى إلى مراده وعما به ؛ غير أن هذا مرة قدم لكثير من الدين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والمخفان في ابتداء أمره ، ثم صار في آخر عمره يلبس الثامم ؛ فقيل لأبي يزيد ذلك ؛ فقال : مسكين يحيى لم يصبر على القون فكيف يصبر على اللطف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ماسوف يدخل عليه من اللبوس فليسه بمحذوفه . وكل أسوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) .

وليس الحنف من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للبدا والابتداء من الأوقات ؛ فالصليبين عبد الله : دخلت على محرمين عبد العزيز أحوده في سرته ، فرأيت فيه وسخاقتا لأمراه فاطمة ؛ اغسلا ياب أمير المؤمنين ؛ فقال : تفعل إن شاء الله ؛ قال : ثم عدت فإذا القميص على حاله بقلبت ؛ فاطمة ؛ ألم أسرك أن تسلموه ؟ قالوا نعم ؛ قال : فلبس غير هذا . وقال سالم : كان محرمين عبد العزيز من أين الناس لباسا من قبل أن يسلم عليه بالخلافة ، فسلم عليه بالخلافة حرب رأسه بين ركبته وبكى ، ثم دعا بأهل بيته رثه قلبها .

وقيل : لما مات أبو العرواء وجد في ثوبه أربعون وقعة وكان عطاءه أربعة آلاف .

وقال يزيد بن زهير ؛ ليس علي بن أبي طالب قيصرازا ، وكان إذا مذكبه بلغ أطراف أصابعه ، فمأبه الخوارج بذلك ، فقال : أئبيروني على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى في السلم .

وقيل : كان محروم على الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالهرة وقال . دعوا هذه البراقع لتفسد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه يذلل القلب ويورث في الآخرة ، وإلا كما أن تضدوا دينكم بجمد الناس وثناهم ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى ثوبين ، فذا نظر إليهما أحبه حسبا فسجدته لئسا ، فقيل له في ذلك فقال ؛ عظيمتان يمرضن من ثوبي فخرتاهما له ، لا جرم لا يبيتان في منزلي لما خفرتاه للثمنين الله تعالى من أجلهما ؛ فأخرجهما فدفنهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له ثوبان غصرتان ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المصوف وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس على الآفات والظروف على مساها وغنى شهرتها وكان مرادها عسر جدا ، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك ما يرب إلى ما لا يرب ، ولا يجوز لعبد المدخول في السنة إلا بعد إتمام علم السنة تزكية النفس ، وذلك إذا غابت النفس بنية مرادها للتعبد وتخلعت إليه وتشد التصرف بعلم صريح واضع ، والمعرفة أنواعها وكيفيةها وبراعتها لا يرون الزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الثامم من الدنيا . والله قيل ؛ من روى ثوبه رقيقته . وقد يرخص في ذلك لمن لا يلزم بالزهد ويقتل على رخصة الشرع . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال ؛ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال خرد من الكبر . وقال رجل ؛ إننا لرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ولمه حسنا ؛ فقال النبي عليه الصلاة والسلام ؛ إن الله جميل يحب الجمال ، فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لاجوئ نفسه في ذلك غير متغير به ومعتال ؛ فإما من ليس الثوب لتفاخر بالثياب التي كثرت بهائه ووديقه وعيد ؛ روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ؛ لا زلة لأحد من أن نصف الساق لا حرج عليه فيها بينة وبين الكمين وما كان أسفل من الكمين فهو في النار من جر لزامه ؛ بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فبينما رجل من كان قبلكم يفتخر بفرده إذ أتته رداءه خشف الله به الأرض فهو يتطيل فيها إلى يوم القيامة ، والأحوال تختلف ، ومن صرح حاله بصفة على صحت نيته في ما كرهه وميل به وسائر تصاريفه ، وفي كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى ، ويتبدل ذلك لتستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى .

الباب الخامس والأربعون : في فضل قيام الليل

قال الله تعالى (إذ ينشئكم الله أسنة من وئيل عليكم من السماء ما ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان)
 ولتعد هذه الأيام المسبلين يوم بدو حيث نزلوا على كتيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحواضر العذاب ، وسيفهم
 المشركون إلى ما بدر العظمى وغايوم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابعهم قطعاً ، فوسوس لهم
 الشيطان أنكم ترجعون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وقد غلب المشركون على الماء وأنهم قتلون محدثين وبجنين
 فكيف ترجون الظفر عليهم ، فأمر الله تعالى مطرا من السماء سال منه الزادى فغرب المسلمون منه واغسلوا
 وتوحأوا وسقوا العذاب وملاوا الأسمق ولبد الأرض حتى تمس به الأقدام . قال الله تعالى (ويثبت بالأقدام . إذ
 يرحى ويهلك إلى الملائكة أي معكم) آدم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ، ولكل آية من القرآن ظهر
 وبطل واحد ومطلع والله تعالى ما جعل للناس راحة وأمنة لصحابة عامة في تلك الزائلة والحادثة فهو راحة نعم
 المؤمنين ، والناس قسم صالح من الأقسام العاجلة للردين ، وهو أمنة لقولهم عن منازل النفس ، لأن النفس
 باليوم تدبر ولا تستقر الكلال والتعب ، إذ شكها بغيرها تكذب القلب ، واستراحت بها باليوم بشرط العلم والاعتدال
 راحة القلب لما بين القلب والنفس من الواسطة عند طمانيتها للردين السالكين . فقد قيل : يلبي أن يكون لدى
 الليل والتهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات : فترى ساعتين من ذلك يعملها المرید بالتهار ، وست
 ساعات بالليل ، ويزيد في أحدهما ونقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف ، وقد يكون
 بحسن الإزادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة ، وقد يصل لثلث
 البهر وقلة النوم وجود الروح والأنس ، فإن النوم طبعه بارد وطبع ينفع الجسد والماغ ويمكن من الحرارة
 واليس الحادثة في الزواج ، فإن نقص عن تلك يضر المماغ ويخشى منه اضطراب الجسم ، فإذا ناب عن النوم دوح
 والقلب وأنه لا يضر قضاياه ، لأن طيبة الروح والأنس باردة وطية كطبيعة النوم . وقد تقصر مدة طول الليل
 بوجود داروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة ، كما يقال : سنالوصل سنة ، وسنة المجر سنة ، فيقصر
 الليل لأجل الروح .

فقل عن علي بن بكاء أنه قال منذ أربعين سنة ما أحرقت إلا طلوع القمر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت وأقيل ؟ قال : ما راحته قط يرى وجهه ثم ينصرف وما تأملته .

وقال أبو سليمان الناداني : أهل الليل في ليالهم أشد لغة من أهل الظهور في لغوهم .

وقال بعضهم : ليس في الدنيا شيء يشبه أهل الجنة إلا ما يسهل أهل التلق في قلوبهم بالليل من حلالة المناجاة
 حلالة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين في الأحبار فيسلو ما نورا ، فقد انوار على قلوبهم
 فكثير ، ثم تنظر من قلوبهم القوا الله إلى قلوب المتأففين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه : إن لي عبداً يمشي وأحجم ، ويشاقون إلى
 وأشتاق إليهم ، ويدكر في وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذرت طريقهم أحبتك وإن عدلت عن
 ذلك حقتك . قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالتهار كما يراعي الراسي غنمه ، ويحنون إلى غروب
 الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جهنم الليل واختلط الظلام وغلا كل حبيب يصيبه فسيروا إلى أقدامهم
 وانفروشوا لي وجوههم واناجروا بكلامى وغفروا إلى بالعمى ، فين صاوخ وياك ، وبين متأوه وشاك ، بعين
 ما يتحسرون من أجل ، وبسمى ما يستكون من سي ، أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيضيرون عنى
 كأخبر عنهم ، ولتأتى : لركائت السموات السبع والأرضون وما فيها في موازينهم لاستقلتها لهم . ولتأتى : أقبل

وجهي عظيم أغترى من أفتات يوجهي عليه أبطل أحد ما يريد أن أعليه ؟ فالصالح المريد لهذا علاقي إليه بتجاجة وجهه انقضت أنوار قلبه على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره في حياية قلبه ، وذلك لامتلاء قلبه بالآثار ، فتكون حركته وتصاريفه بالتيار نفسه من منبع أنوار الجنة من الليل ، ويصير قلبه في قية من قباب الحق مسددا حركته موفرة سكاته .

وقد ورد من حل بالليل حسن وجهه بالتيار ، ويجوز أن يكون لمنين - أحدهما أن للسكاة تسخير بالمصباح ، فإذا صار سراج اليقين في القلب ، تهر بركة زيت النسل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقا وتكسب مشكاة القلب نوراً وحياة .

كان يقول سهل بن عبدالله : اليقين نل ، والإقرار قنينة ، والعمل زيت . وقد قال الله تعالى (سبحان من جرمهم من أثر السجود) وقال تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) فخور اليقين من نور الله في زجاجة القلب يزداد حياء بزيته العمل ، فتبقى زجاجة القلب كالتركيب الذي وتمسك أنوار الزجاجة على مشكاة القلب ، وأما بالليل القلب بنار النور ، ويصرى ليه إلى القلب فيلين القلب إلى القلب ، فيشاهبان لوجود اليقين الذي هما ، قال الله تعالى (ثم تخلي جلودهم وفقرهم) ولقروهم إلى ذكر الله) وصفه الجلود بالليل كلوصف القلوب بالليل ، فإذا استأثرت القلب بالنور ، ولان القلب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان في نور القلب ، ويندرج فيه الكلام والآيات والصور وتشرق الأرض أرض القلب بنور ديا ، إذ يصير القلب محاسن القلب أرحا ، ولقد تالفة كلام الله على المناجاة لتسر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه يربو عن سائر الموجود في مزاجه صفو النور ، فلا يبق حينئذ نفس حديد ، ولا يسمع لها جرس حسي ، وفي مثل هذه الحالة يتصور ثلاثة أقرآن من فائتة إلى إقامته من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك هو الفضل العظيم . والوجه الثاني : لقوله عليه السلام « من حل بالليل حسن وجهه بالتيار هتاه : أن وجهه آموره التي يتوجه إليها تحسن وتندرك المعروفة من الله الكريم من تعاريفه ، ويكون معاناً في مصدره ومردده ، فيحسن وجهه مقاصده وأفعاله ، ويتشبه بسلوك السامد مسددا أفعاله ، لأن الأقوال لتستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون : في ذكر الأسباب للمعينة على قيام الليل وأدب النوم

لن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظراً مجيء الليل وصلاة المغرب ، مذباً في ذلك على أنواع الأذكار ، ومن أولها التسبيح والاستغفار . قال الله تعالى (استغفر لذنبك) (وسبح حمده بحمده المسمى والإبتكار) ومن ذلك أن يواصل بين المشايخ بالصلاة أو التلاوة أو بالذكر ، وأنضد ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين المشايخ ينقل عن يافته آثار الكسوف والحادة في أوقات النهار من ويرة الخلق وعاطفتهم وسامع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وغدش في القلوب ، حتى انظر إليهم يقب كدراق القلب يدركهم يروق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق البصيرة كالقندي في العين البصير ، وبالمرامة بين المشايخ يرجى ذهاب ذلك الأثر . ومن ذلك : ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة قلوب الخلد في القلب من مواصلة المشايخ ورفيقه عن قيام الليل ، سيما إذا كان عرباً عن حفظ القلب . ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضاً معين على قيام الليل .

حكى لي بعض الفقهاء عن شيخ له بخراسان أنه كان ينقل في الليل ثلاث مرات : مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة في أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ، ومرة قبل الفصح ، فلو حذروا والنسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل . ومن ذلك التوجه على الذكر أو القيام بالصلاة حتى ينقلب النوم ، فإن التوجه على ذلك بين على سرعة الانتباه ، إلا أن يكون وانما من نفسه وعادته فيتمثل للنوم ويستجبه ليقوم في وقت النهود ، وإلا فالنوم من الغلبة هو الذي يصلح للمريدين والمطالعين ، وهذا وصف المحبون ، قيل : نومهم نوم القز في ، وأكلهم أكل المرضى ،

وكلامهم ضرورة : فإن نام عن صلاة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يرفق بقيام الليل ، وإنما النفس إذا طمعت وعملت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بمدق العزبة لاسترسل في الاستقرار ، وهذا الإخراج في النفس بمدق العزبة هو التيقن الذي قال الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) لأن أهم بقيام الليل ومدق العزبة يجعل بين الجنب والمضجع نيزا وإلهاميا . وقد قيل : نفس فطران : فطر إلى نصيب لاستيفاء الأقسام الدينية ، وفطر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحية ، فأرباب العزبة تهافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحانية ؛ فأعطوا النفوس حبتها من النوم ومنعوها حظها ، فأنفس بما فيها مركوز من الترابية والجسدية ترسب وتستجلس وتستلذ النوم ، قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من تراب) واللاذى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له . والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة في الإنسان ؛ فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالملم في قره تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) حتى قال (قل هل يستوى الذين يسلمون والذين لا يسلمون) حكم هؤلاء الذين قاموا بالليل بالملم ؛ فهم لموضع علومهم أجمعوا النفوس من مقام طبيعتها وقروها بالنظر إلى الكلمات الروحية إلى ذرى حقيقتها ؛ فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الماكع .

ومن ذلك : أن ينظر المادة ؛ فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة ، وإن كان ذا رطل مترك الرطل . وقد كان بعضهم يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلي من أن أرى وسادة فإنها تدعوني إلى النوم ؛ ولتنبيه العادة في الوسادة والنظارة والرطل فأثير في ذلك ، ومن ترك شيئا من ذلك وألفه عالم بدينه وعزيمته يثبته على ذلك بتيسير مرام ، ومن ذلك غفة المدة من الطعام ، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ونظرة الباطن أمان على قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب دأؤه ؛ فإن وجد الطعام مثلا على المدة يقيض أن يعلم أن الله على القلب أكثر ؛ فلا ينام حتى يذهب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . قال بعضهم : لأن أنقص من صفاتي لقمة أحب إلي من أن أقوم ليلة .

والأحرط أن يترك قيل النوم فإنه لا يدري ماذا يحدث ، وبعد طهوره وسوا كعفته ، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا نام العبد وهو على الطهارة خرج بروحه إلى العرش فسكنته وزياد صدقة ، وإن لم يتم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ ، فتكون للثامات أخفأت أحلام لا تصدق ، والربد للتأهل إذا نام في الفراش مع الزوجة يلتقي بوضوءه باللس ، ولا يفوق بذلك قائمة النوم على الطهارة ما لم يسترسل في التنازل النفس باللس ولا يمدم بنظرة القلب ؛ فأما إذا استرسل في الالتنازل وغفل فتجبجج الروح أيضا لمكان صلاته .

ومن الطهارة التي تتمر صدق الرضا : طهارة الباطن عن خدش الهوى وكسوة عبة الدنيا ، وانزوع عن الهوى القل والحقد والحسد ، وقد ورد : من أوى إلى فراشه لا يترى ظلم أحد ولا يمتد على أحد غفر له ما أجرم . وإذا ظهرت النفس عن الرذائل : الهجاب مرآة القلب وقابل القبح المحفوظ في النوم . وانتفضت فيه هجاب القبيح وغرابت الأثام ؛ فمن الصديقين من يكون له في منامه مكاة ومعاينة ؛ فيأمره آمل إليه ويأمره في المنام ، ويعرفه ، ويكون موضع ما يفتح له في نومه من الأمر والامر والشي الظاهر ؛ يصي الله تعالى إن أغل حشا ، بل تكون هذه الأوامر آكة وأعظم وقفا ، لأن التعالقات الظاهرة تجسوها التورية ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ وهذه أوامر خاصة تتعلق بمجاهدة فيه وبين الله تعالى ؛ قلنا أغل بها يلقى أن ينقطع عليه طريق الإرادة ، ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت ، فإن ابتلى العبد في بعض الأحيان بكسل وقصور عزيمة ينزع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث ؛ يمسح أعضائه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة التافلين حيث تساعد عن فعل التيقن ، وهكذا إذا كسل من القيام غيب الالتياجهت أن يستاك ويمسح أعضائه بالماء مسحا ، حتى يخرج في ثقلية وانتباهه عن زمرة التافلين ؛ ففي ذلك فضل كبير لمن كثر نومه وقل قيامه ؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الالتياجه منه .

، ويستقبل القبة في ثوبه وهو على نوحين قداما على جنبه الأيمن كاللحد وإما على ظهره مستقبلا القبة كالنبي
 السجى ، ويقول : يا سيدي اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه ، اللهم إن أسكنت نفسي فاغفر لها وارحها وإن أرسلتها
 فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم إن أسدت نفسي إليك وجهك وجهي إليك وفوضت أمري إليك
 وألجأت شهري إليك رغبة منك ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أنت بكتابتك الذي أتزنت
 وتبليك الذي أرسلت اللهم فني عنك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذي حكم قدير ، الحمد لله الذي بطن ظهره ،
 الحمد لله الذي ملك فطره ، الحمد لله الذي هو يحيى للموت وهو على كل شيء قدير اللهم إن أعوذ بك من غضبك
 وسوء عقالك وسر عبادك وسر الشيطان وشركه وبشر أمانات من البقرة : الأربع من الأول والأيتان الخامسة
 ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ وآية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ و ﴿ إن ربكم الله ﴾ و ﴿ قل ادعوا الله ﴾
 وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وللمؤمنين ، وثبتت بين
 في يديه ويضع بها وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى مائة عشرين من أول الكهف وعشرين من آخرها لحسن ،
 ويقول : اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك ، واستمعي بأحب الأعمال إليك التي ترضى إليك زاني وتبطل من
 سلطانك ببدأ ، أسألك فخطيئتي ، واستغفرك فتغفر لي ، وأدعوك فتستجيب لي ، اللهم لا تؤمنى منكرك ، ولا تؤمنى
 غيرك ، ولا ترفع ضي سترك ، ولا تنسى ذكرك ، ولا تهمل من التائبين ، ورد أن من قال هذه الكلمات بمداها
 أمال إليه ثلاثة أملاك يرقون له ملائكة ، فإن صلي ودعا أتعامل دعاها ، وإن لم يرق تبيدت الأملاك في الهواء وكتب
 له ثواب عبادتهم ، ويسبح ويمدح ويكبر كل واحد ثلاثاً وثلاثين ، ويشتم المدة بلائله إلا الله والله أكبر ولا حول
 ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب السابع والأربعون : في أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤمن من أذان المغرب يصل ركعتين بين الأذان والإقامة ، وكان الطاء يصلون هاتين الركعتين
 في البيت يصلون بها قبل الخروج إلى الجماعة كيلا يظن الناس أنها سنة مرتبة فيقتدى بهم ، هذا منهم أنها سنة
 مؤكدة ، وإذا صلي المغرب يصل ركعتي السنة بعد المغرب يصل بها ^(١) فأنهما يرفعان مع الصلوة ، يقرأ فيها بابل
 يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، ثم يسل على ملائكة الليل والكرام السالكين ، فيقول : مرحبا بملائكة الليل ،
 مرحبا بالملكين المكرمين السالكين ، أكتبني في صحيفتي أني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ،
 وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراف والميزان حق ، وأشهد أن الساعة
 آتية لا ريب فيها وأنا لله يستسلم في القبر ، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتي إليها . اللهم أسقطها وزي
 واغفر بها ذنبي ، وقملي عيبي ذاني ، وأوجب لي بها أمالي ، وداووز عني يا أرحم الراحمين ، فإن واصل بين المشايين
 في مسجد جماعته : يكون جامعين للاشتكاف ومواصلة المشايين ، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلين
 المشايين في بيته أسلم فليته وأغرب إلى الإخلاص وأجمع لهم فيفضل . وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى
 ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال : هي الصلاة بين المشايين ، وقال عليه السلام : عليكم بالصلاة بين المشايين
 فلما تذهب بلائها البهار وتهذب آخره ، ويجعل من الصلاة بين المشايين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم
 ركعتين بعد ركعتين : يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين ﴿ ولهم كذا واحد ﴾ إلى آخر
 الآيتين ، وعش عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفي الثانية آية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ وعش عشرة مرة
 ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ في الركعتين الآخرين من سورة الزمر والرافة ، ويصل بعد ذلك ماشاء ، فإن أراد
 أن يقرأ شيئاً من سوره في هذا الوقت في الصلاة أو غيرها ، وإن شاء صلي عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص

(١) أنه بعد ثم الصلاة مباشرة قلبه .

والمناقشة ، ولو واصل بين المسلمين بركعتين يطيلهما حسن ، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تألياً للقرآن حوياً أو مكرراً أية فيها الدعاء والثلاثة ، مثل أن يقرأ مكرراً (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أو أية أخرى في سماعها ، فيكون جامعاً بين التلاوة والصلوة والدعاء .

ففي ذلك جمع اللهم وعظم الفضل ، ثم يصل قبل الدعاء أو بعد ما ركعتين ، ثم يصرف إلى منزله أو موضع شلوحه فيصل أربعة أخرى . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل في بيته أولاً ما يدخل قبل أن يجلس أربعة ، ويقرأ في هذه الأربع سورة لقمان ويس وحى الدعاء وتبارك للكه ، وإن أراد أن يصفق فيقرأ فيها أية الكرسي وأمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ، ويصل بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها التثنية أيها من القرآن من (والحمد لله الذي هدانا لهذا) إلى آخر القرآن ثلاثاً آية ، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب السبك رحه الله وإن أراد قرأ هذا القدر في أقل من هذا العدد من الركعات ، وإن قرأ من سورة التلك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو غير عظيم ، وإن لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات (قل هو الله أحد) إلى عشر مرات إلى أكثر ، ولا يكثر الزر إلى آخر التجدد إلا أن يكون دافئاً من نفسه في عادتها بالالتفات للتجدد ؛ فيكون الأخير الزر إلى آخر التجدد حينئذ أفضل . وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتجدد يصل ركعة يشفع بها وتره ، ثم يصفق ماشاء ويوتر في آخر ذلك وإذا كان الزر من أول الليل يصل بعد الزر ركعتين جالساً يقرأ فيهما إذا زلزلت وألحاهم ، وقيل : فعل الركعتين قاعداً بمنزلة الركعة تأمناً يشفع له الزر ، حتى إذا أراد التجدد يأتيه ويوتر في آخر تجمده ، وفي هاتين الركعتين زيادة الفضل لا غير ذلك ، وكثيراً ما رأيت الناس يتفادون في كيفية نيتهم ، وإن قرأ في كل ليلة السجدة وأحاديث إليها سورة الأعلى قصير سبياً ، فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركتها .

ولما استيفت من النوم فن أحسن الأدب عند الانقياد يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمرائه فيلأن بهول الفكر في شيء سوى الله ، ويشغل الحسان بالذكر ، فالصالح كالطفل الكف بالشيء إذا نام ينم على وجه الشيء وإذا أتيه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلفاً به ، وحسب هذا السكف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فليظن وليستبر عند اتقائه من النوم : ما حقه ؟ فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر : إن كان همه الله فهو هو ، وإلا فهو غيره . والحمد إذا أتيه من النوم بباطنه حاد إلى طهارة القطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور القطرة الذي أتيه عليه ويكون قازاً إلى ربه بباطنه عرفاً من ذكر الأفعال ، ومهما وفي الباطن هذا المعيار فقد اتن طريق الآثام وطرق الفسحات الإلمية ، جدير أن تنصب إليه أقسام الليل الضباب ، ويصير جنب القرب له موئلاً ومأباً ، ويقول بالمان : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما ماتنا وإليه النصور . ويقرأ البشر الأواخر من سورة آل عمران ، ثم يقصد الماء الطهور . قال الله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وقال عز وجل (أول من السماء ماء فاستأدبوه بقدرها) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : للماء القرآن ، والأودية القلوب ، فسالت بقدرها واشتلت ماوسمت ، ولما سطره وقرآن سطره ، والقرآن بالظهور أجدر ، فالسبحان وغيره مقامه ، والقرآن والماء لا يقوم غيرهما مقامهما ولا يستدعيهما ، فلما بالظهور بظهر الظاهر ، والماء والقرآن بظهر الباطن وبديان رجز الشيطان ، فالنوم لغة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى أمر بعض النجدة من القرب من وجه الأرض ، فكانت النجدة جلة الأرض والجلفة ظاهراً بشره وباطنها أمة قال الله تعالى (إلى عاقب بشرنا من طين) فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والأدمة عبارة عن باطنه وأديمه ، والأديمه جمع الأخلاق الحيدة ، وكان القرب موطناً أقدم إبليس ، ومن ذلك اكتسب غلة ، وصارت تلك الغلة مصحولة في طينتنا لأدى ، ومنها الصفات الذمومة والأخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو ، فإذا استعمل المسلم القرآن في الظهور جميعاً ، وبذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ، وبمحكمه بالعالم والخروج من حيز الجهل ، فاستمال الظهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب بجزاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي

الله له تأثير في تكدير القلب ، فيذهب نوره هابطاً لذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الرضوخ مما سمت النار وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالرضوخ من التهنئة في الصلاة حيث رآها حكا طبعياً جالياً للإيم ، والإيم رجز من الشيطان ، ولما يذهب بجزر الشيطان ، حتى كان بعضهم يتروأ من التنية والكذب عند التقضيب لظهور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن ، ولأن التحفظ للراعي للزنا بالمحاسب ، كلها انقضت النفس في مباح من كلام أرماساكة إلى خالطة الناس أو غير ذلك ما هو بمرحلة تحليل عند المعركة كالخوض فيها لا يمتنع لولا وقلاً عقب ذلك بتجديد الرضوخ . ثبت القلب على طهارته ونواحه ، ولكان الرضوخ لفعل البعوضة بمثابة الجفن الذي لا يزال بفتة حركته يحمل البصر (وما يفتلها إلا المألون) فتفكر فيما نهيكه عليه تجد بركته وأثره .

ولوا غفل عند هذه التجددات والمواضع والاتقاء من النوم ، لكان أزيد في توريق قلبه ، ولكان الأجدر أن نريد بنقل لكل فريضة بأذنا مجهره من الاستعداد لشأبه الله ، ويوجد غسل الباطن بمصدق الإمامة وقد قال الله تعالى (متينين إليه واقوه وأقيموا الصلاة) قدم الإمامة للدخول في الصلاة ، ولكن من رحة الله وحكم الحنيفية لسهولة السمنة أن رفع المرحج وروض بالرضوخ من النقل ، وجزوا أدام مقترحات برضوخا حدثنا الحرج عن جماعة لأمة ، ولقروا من وأهل البرية مطالبات من براطنهم تحمك عليهم بالأول وتلجئهم إلى سلوك طريق الأهل يؤخذ انقام إلى الصلاة وأراد استنتاج التهجيد يقول : أها كبر كبيراً والحمد كثيراً وسبحان الله بكثرة وأصلاً ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات ويقول : الله أكبر ذللك واللكوت بالجبروت والكبرياء والبطنة والجلال والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومثله الحق ، ولقائك حق ، والجنة حق والنار حق ، والقيوم حق وعهد عليه السلام حق : اللهم لك أسلمت وبلك آمنت وعليتك ذلك أسلمت وبلك عاشمت وإليك حاكمت ، فأغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت للقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسي قواماً وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها ، اللهم اعدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسبها إلا أنت وامرني عن سيئها لا يصرني عن سيئها إلا أنت ، أما الله مستلة بالناس المسكين ، رادعوك دعاء الفقير الدليل ، فلا تجعلني بجاهك رب شقياً وكن في رمدواً رحيماً يا خير المسترلين ويا أكرم المعطين ثم يصل ركعتين نية الطهارة : يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (ولو أهم إذ ظفروا أنفسهم) الآية ، وفي الثانية (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح لصلاة ركعتين خفيفتين إن أراد ، يقرأ فيها بآية الكرسي وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ، ثم يصل ركعتين طويلتين ، هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتشهد هكذا . ثم يصل ركعتين طويلتين أقصر من الأولى ، وهكذا يتدرج إلى أن يصل اثنتي عشرة ركعة أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، فإن في ذلك فضلاً كثيراً . والله أعلم .

الباب الثامن والأربعون : في تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) وقيل في تفسير قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من نعمة أحين جراء بما كانوا يعملون) كان عملهم قيام الليل .

وقيل في تفسير قوله تعالى (استنبينا بالصبر والصلاة) : استنبينا بصلاة الليل على جماعة النفس ومعايرة العدو وفي الخبر ، عليكم قيام الليل فإنه مرعاة لربكم وهو نائب الصالحين فيسلكون منها عن الإيم وملائكة القور ومذهب كيد الشيطان ومطرقة لقاءه عن الجسد .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نفل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون التسعة

بوجوده المشاء : منهم سعيد بن المسيب ، ولعقل بن عياض ، ووهيب بن خراش ، وأبو سليمان النافاري ، وعمر بن بكار وحبيب العجسي ، وكهس بن النبال ، وأبو حازم ، وعبد بن للتندر ، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى ، وغيرهم عظم وسام بأسماء الشيخ أبو طالب الشكفي في كتابه قوت القلوب ، فمن جاز عن ذلك يستحب له قيام ليلة أو ليله . وأما الاستحباب فمفسر الليل ، فلما أن يتم تلك الليل الأول ويقوم نصفه ويتم مسدس الآخر ، أو يتم النصف الأول ويقوم ليله ، أو يتم السدس .

وروي أن دارد عليه السلام قال : يارب إني أحب أن أتبدلك ، فأني وقد أقوم ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ينادو لائتم أول الليل ولا آخره يا فلان من قام أوله تام آخره ، ومن قام آخره تام أوله ، ولكن تم وسط الليل حتى تخلو في وأخره بك ، وارتفع إلى سواتجك .

ويكون القيام بين نومتين ، وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويقتل ، فإذا غلبه النوم يتم ، فإذا غلبه يقربا فيكون له ثمرتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ، ولا يصل وعندهم من يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يمتلئ ما يقول ، وقد ورد : لا تكادوا الليل .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صلاة من الليل ، فإذا غلبها النوم سقطت بحبل ، فبني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ليس أحدكم من قليل ما ينسى ، فإذا غلبه النوم فليتم ، وقال عليه السلام : لا تكادوا هذا الدين فلو متين من يشغله ، ولا تبسطن إلى نفسك عبادة الله .

ولا يلحق بالطلب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيبدر في ذلك ، عل أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام الليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم التزم إلى بعد طلوع الفجر ، فإذا استيقظ قبل الفجر بكثر الاستغفار والتسبيح ويستم تلك الساعة ، وكلما يصل بالليل يصل قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصل حل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام . وقد كان بعض الصالحين يقول : هي أول نومة ، فإن انتهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أمام الله عيني . وسكن لي بعض الفقهاء من شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكله واحدة اليوم واليلة .

وقد جاء في الخبر : ثم من الليل ولو قدر حلب شاة ، وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ تَوَلَّى لَكَ مِنْ تَحْتِهَا وَمَنْعَكَ لَكَ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وقتروا في البرية أولها بونا به لغة الاعتدال بذلك أو اغترار بحاله ، فليكن عليه فقد قطع عليه طريق الخير من الخير ، وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب وبعد من دعة القرب بما يتر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق ، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المتقين ، والذي له ذلك يليني أن يعلم أن استمرار هذه الحالة مستلزم ، والإنسان معرض للقصور والتخلف والسهو ، ولا حالاً أبداً من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما استغنى عن قيام الليل ، قام حتى تورت قدماه . وقد يقول بعض من يحتاج إلى ذلك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ترويحاً ، فنقول : ما بالنا لا نفتح لترويح ، وهذه دقيقة ، فتمثل أن رؤية التقنية في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جانب القرب يستلزم الترويح واليقظة : امتلاء وإتلاء محال ، وهو تفهيد بالخال وتحكيم للحال وتحكيم من الحال في العبد ، والأفوية لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في حور الأعمال ، فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم ، فليعلم ذلك فلما رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور .

قيل لعن : يا أبا سعيد إني أبيت سائراً وأحب قيام الليل وأعد طهوري ، فما بالي لأقوم ؟ قال : ذنوبك قيدته ، فليحذر العبد في نهارة ذنوباً قيدته في ليله .

وقال الزهري رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته ، فقيل له : ما كان الذنب ؟ قال : رأيت

وجلا بكاء ! فقلت في نفسي : هذا مرأى .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يكي ، فقلت : ما بالآنك تأكل من بعض أملاك ؟ قال : أشد فقلت : وجع بؤلك ؟ قال : أشد . فقلت : وما ذاك ؟ قال : باني منلق وستري مسبل ولم أقرأ حرفي البارحة وما ذاك إلا يذنب أحدثه .

وقال بعضهم : الاحتلام عذوبة ، وهذا صحيح ، لأن المرأى المتحفظ بحسن تحفظه وعذبه بجاله : يتدور يتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا لعل جاهل بجاله أو مهمل حكمه فتصواب حاله . ومن كل تحفظه وروايته وقيامه بأدب حاله قد يتكون من ذنبه للرجب للاحتلام : ومعهم الرأس على الرسادة فإذا كان ذا عري على ترك الرسادة وقد يتهدد النوم . ووضع الرأس على الرسادة بحسن اليقظة من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية لقوم على القيام . وقد يكون ذلك ذنباً بالقسبة إلى بعض الناس ، فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنباً بالبال للاحتلام نقس على هذا ذنوب الأحوال فإنها تختص بأربابها وبمرغها أصحابها ، وقد يرتفع بأشواع الرق من القرائن الوطنية . والرسادة ولا يمازج بالاحتلام وغيره على فعله إذا كان ظلاً ذاتية يرفى مداخل الأمور وعناجها . وكمن من تامم بسبق القائم فور على وحسن نيته ، وفي الأخير ، إذا نام العبد عند الشيطان على رأسه ثلاث عقد ، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة وإن نوحاً انحلت عقدة أخرى ، وإن صلى وكشتم انحلت العقدة كلها ، وأصبح تنظيلاً طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس .

وفي غير آخر ، إن من نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه ، والذي يثل فيسالم الليل : كثرة الاهتمام بأمر الدنيا ، وكثرة اشتغال الدنيا ، وإتباعها لجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة التحدث ، والقدرة والقط ، وإعمال القيلولة . والوقوف من يفتن وقته ويعرف ماله ودعاه ولا يعمل فيعمل .

الباب التاسع والأربعون : في استقبال النهار والادب فيه والعمل .

قال الله تعالى (وأنم الصلاة طرقى النهار) أجمع للمفسرون على أن أحد الطرفين أرباب الفجر وأمر بصلاة الفجر . واختلوا في الطرف الآخر ، قال قوم : أرباب المغرب . وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة الفجر والفجر طرف . وصلاة العصر والمغرب طرف (وزلنا من الليل) صلاة العشاء ، ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف قائمتها وممرتها وقال (إن الحسنات يذهبن السيئات) أو الصلوات الحسنات يذهبن الحطيات . وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري كان يبيع الفز ، فأنت امرأة تبتاع فزاً ، فقال لها : إن هذا الفز ليس بمجد ، وفي البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فغسلها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : يا الله ، فتركها وتدم ، ثم أتى النبي عليه السلام وقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل ، أربأ من نفسه ولم يشق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركب غير أهله لم يهادمها ؟ قال عمر بن الخطاب : الله ستر الله عليك لو سترت على نفسك ؟ ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال : أنتظر أمروني ، وحضرت صلاة العصر وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة والسلام ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذا الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن أبي اليسر ؟ ، فقال له يا رسول الله ، قال : شهدت معكم هذه الصلاة ؟ قال : نعم . قال ما ذهب فزها كفارة فاحملته فقال عمر : يا رسول الله هذه حاسة أو لنا حاسة ؟ فقال : بل الناس عامة ، فيستد البعد صلاة الفجر باستكمال الطلوع قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد العبادة كما ذكرنا في أول الليل ، ثم يؤذن إن لم يكن أجباً المؤذن ، ثم يصل ركعتي الفجر : يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (قل ما أياها التكفرون) وفي الثانية (قل ما أياها أحد) وإن أراد أن يقرأ الأولى (قلوا أمتابها وما أنزل . الآية) في سورة البقرة . وفي الأخرى (ربنا آتينا بما أنزلت وأتينا الرسول ...) ثم يستغفر الله ويصلي على عماله بما يتيسر له من البعد ، وإن اقتصر على كلمة : استغفر الله الذي ، سبحانه الله بحمد ربى : أى بالمقصود من التسبيح

والاستغفار . ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم إلى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل ويملأ بها شئ وترد بها الفتن حتى تصلح بها ديني وتحفظ بها عايتي وتوفع بها شاعدي وتزك بها عايتي وتبصر بها وجهي وتلقني بها ريشدي وتضمني بها من كل سوء اللهم اعطني إيمانا صادقا وقيناً ليس ينفذه كفر ، ورحمةً بالله شرف كرامته في الدنيا والآخرة ، اللهم إلى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنال الشهادة ، وعيش السعادة ، والقهر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إلى أتول بك حاجتي وإن قصرت رأيت وحفظت على واقتضت لي رحمتك ، وأسألك بإقاضي الأمور وما عايت الصدور ، كما تجهر بين البحور - أن تجهر من غلاب السمر - ومن دعوة الثبور ومن فتنة الثبور ، اللهم ما نصرتني رأيت وحفظت لي على علم يطلع بيني وأملتي - من غير وعدة أحداً من عبادك أو غير رأيت صلياً أحداً من خلقك - فأنا راضٍ إليك فيه وأسألك إياه يارب العالمين . اللهم اجعلنا عبادين مهديين غير خالين ولا مغفلين ، حرياً لا كراهة وسلاً لا أوليائكم ، نحب بعبك الناس ونمأى بمدادك من عانتك من خلقك . اللهم هذا الدعاء من عندك الإجابة ، وهذا الجهد عليك التكلان ، [ياقوت] إنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في الخيل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنسية المخلوذة ، مع القرنين الشهود والركع السجود والتوفيق بالهدى ، إليك رحمتهم وود ، وأنت تفضل ما تريد ، سبحانه من تصلف بالمر وقال به ، سبحانه من لبس الجدة وتكرم به ، سبحانه الذي لا يلبس للتسبيح الله ، سبحانه الذي الفضل والهم ، سبحانه الذي الجود والكرم ، سبحانه الذي أصحى كل شيء بصلته ، اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في فكري ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شمري ، ونوراً في بصرى ، ونوراً في قلبي ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ، ونوراً من خلفي ، ونوراً من بيني ، ونوراً من خلفي ، ونوراً من فوق ، ونوراً من تحتي ، اللهم زدني نوراً وأضئ نوراً ، واجعل لي نوراً . ولهذا الدعاء أثر كبير . وما رأيت أحداً حافظ عليه إلا وعنده غير ظاهر وبركة ، وعنده وصية الصادقين بعضهم بعضاً يحفظه والمحافظة عليه ، متقول من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ بين القرينة والسنة من صلاة القبر ، ثم يقصد المسجد للصلاة في الجماعة ويقول عند خروجه من منزله (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق من أدخلني إلا الجنة ولا يخرجني من الجنة إلا الجنة) ويقول في الطريق : اللهم إلى أسألك بحق السائلين عليك وبحق مولى هذا إليك لا أقبل أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت افتاء عطفك وابتداء مرحمتك . أسألك أن تغفر لي ذنبي وأن تغفر لذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وروي أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته .

وإذا دخل المسجد أو أدخل مجده للصلاة يقول : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وانفع لي بأرب رحمتك ، ويقدم وجهه اليمنى في المنحول ويسير في الخروج من المسجد أو المسجدة ، فمسجدة الصوف بمنزلة البيت والمسجد ، ثم يصل صلاة الصبح في جماعة : فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو سي لا يموت ويده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ولا يضر عبه وأمر جده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا لبس إلا بإياه عظمين له الدين ولو كره الكافرون ، ويقرأ : هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم القlement والشمسين اسما إلى آخرهما ، فإذا فرغ منها يقول : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأبي وعلى آل محمد صلاة تكون له رحمة وعلته آداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته ، وأجزه عنا ما هو أهله ، وأجزه عنا الفضل ما جازيت نيا عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم صل على محمد في الأولين ، وصل على محمد في الآخرين ، وصل على محمد إلى يوم الدين ، اللهم صل على روح محمد في الأرواح ، وصل على جسد محمد في الأجساد ، واجعل شرائع صلواتك ونواصيرك كالماء ورائحة

ورحلتك وتمتلكه وروحنا لله على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وإليك يعود السلام
 علينا وبنا بالسلام ، وأدعنا دار السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم إني أصبحت لأستطيع دفع ما أكره
 ولا أملك قطع ما أرحو وأصعب الأمر يد غيري وأصبت مرتهنا بسمك ، فلا تقدر أنفرتني ، اللهم لا تمسني في
 عدوى ولا قس ، في صديق ، ولا تجعل مصيبي في ديني ، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ، ولا تسلط علي من لا يحقني ،
 اللهم هذا خلق جديد فأنقذني من بطانتك واغتنه لي بمنزلة وروحنا لله وارزقني فيه حسنة تقبليها مني وذكركها
 وحفظها ، وما علمت فيمن سبقت فأغفر لي ذلك فغفور رحيم ودود ، رخصت بأقربا وبالإسلام ديننا وبعد صلواتك
 عليه وسلم نيا ، اللهم إني أسألك غير هذا اليوم وغير مصافيه وأعوذ بك من شره وشر مصافيه ، وأعوذ بك من شر
 طوارق الليل والنهار ومن ينتات الأمور وبلادة الأعمار ومن شر كل طارف يطرق إلا طارفا يطرق منك بغير
 يارحم الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل
 علي ، عز جارك وجل تنازك وتقصد إسمائك وعظمت اسمائك ، أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها
 وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحر من شدته الطبع وسورة القصب وسنة النقة وما ملأ
 النكسة ، اللهم إني أعوذ بك من مباءة الكثرين ، والإزواء على القليلين ، وأن أنصر غلاما أو أختل مظلوما ، وأن
 أقول في العلم بغير علم ، أو أعمل في الدين بغير دين ، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لا اله الا الله ، أعوذ
 بعمرك من عقابك وأعوذ برحمتك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى تمام عليك أنت كاتيتك على نفسك ، اللهم
 أنت رب لا إله إلا أنت علقنت وأنا عبدك وابن عبدك وأنا على عبدك وودك ما استطعت ، أعوذ بك من شر
 ما صنعت ، أبرء بك بسمتك على وأبرء بطني ، فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم اجعل أول يومنا هذا
 صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاسا ، اللهم اجعل أول رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكملة ، أصبحنا وأصبح الملك لله
 والعهدة والإنكبرية لله والجبروت والسلطان لله والقيل واليقل والنهار وما سكن فيها له الواحد القهار ، أصبحنا على نعمة
 الإسلام وكله الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة آيتنا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ،
 اللهم إنا نسألك بأن لناخذ لإله إلا أنت الخان المان ببيع السموات والأرض ذوالجلال والإكرام ، أنت الأحد
 الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، يا حي يا قيوم ، يا حي حين لا حي في ديرة ملكه وقبلة ، يا حي
 حي الموتى ، يا حي حبيب الأحياء ووارث الأرض السياء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله
 لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الآخر الأكرم الذي إذا
 دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت ، يا نور نور يا مدبر الأمور يا عالم بالصدور ، يا سميع يا قريب يا مجيب الدعوات
 يا لطيف يا سيده ، يا مودع يا رحيم يا كبير يا عظيم بالله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام ، لأنك لا إله الا هو الحي القيوم
 وحد الوحد ما ليس القيوم ، يا حي وإله كل شيء ، إله واحد لا إله الا أنت ، اللهم إني أسألك باسمك بالله بالله بالله
 انك الذي لا إله الا هو رب العرش العظيم ، فتداليف الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم أنت الأول والآخر
 والظاهر والباطن وسمت كل شيء ورحمة وعلما ، كويص حم صق الرحم لأن يواضد يظهر يا جبار ، يا أحد
 يا حيد يا دود يا غفور ، وهو الذي لا إله الا هو علم القريب والقيادة هو الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك
 إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أعوذ باسمك المكون القرون التزلو السلام المظهر الظاهر القدوس المقدس ، يا مبر
 يا دبور يا ديار يا ذا يا زل ولا يزال ولا يزول هو يا هو لا إله الا هو ، يا من لا هو الا هو ، يا من
 لا يعلم ما هو الا هو ، يا كان يا كيان يا روح يا كان قبل كل كون ، يا كان بعد كل كون ، يا مكنونا لكل كون ، أيا
 شرابا أنت داني أصبوت ، يا مخلص عظام الأمور (لأن تولوا قل حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش
 العظيم) (ليس كنته شيء وهو السميع البصير) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل
 إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حيد مجيد ، اللهم إني أعوذ بك من

ورب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ما خلقت واغفر ما كفرت وطيب ما رزقت وتحم ما أفسدت وتقبل ما استسلمت واحفظ ما استحققت ولا تهلك ما استرقت ولا إله إلا أنت ، أستغفرك من كل لذة بنيت ذكرك ومن كل راحة بنيت خدمتك ومن سرور بنيت فراقك ، ومن كل فرح بنيت بهالك ومن كل شغل بنيت معاملك ، اللهم إني أستغفرك من كل ذنب ثبت إليك منه ثم عدت فيه ، اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به ، اللهم إني أستغفرك من كل كلمة أفسدت بها على قلوبهم بها على مصيبتك ، اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك ظالمه ما يسرك ، اللهم إني أسألك أن تفصل علي محمد وعلى آل محمد وأسالك جوامع الخير وفوائده وغوائمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وغوائمه ، اللهم احفظنا فيما أمرنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظنا ما أعطيتنا ، يا حافظ الحافظين ، وبأذاكر التاكرين ، وبأشاكل التاكرين ، بذكرك ذكرنا ، وبفضلك شكرنا ، يا غياث الغياث ، يا مستغاث المستغيثين ، لا تنكلي إلى نفسى طرفه عين قاطعك ، ولا إلى أحد من خلقك قاطع ، كلاك كلمة الوليد ، ولا أمل عني ، وتوكل بما تتوكل به عبادك الصالحين ، أنا عبدك وابن عبدك يا صبيتي يدك ، جار في حركتك ، عدل في قضائك ، نافذ في مشيئتك ، إن تمذهب فاعل ذلك أنا ، وإن ترجم فاعل ذلك أنت ، فاعمل اللهم يا مولاي يا أله يارب ما أنت له أهل ولا تفعل اللهم يارب يا أله ما أنت له أهل ، إنك أهل التقوى وأهل اللذة ؛ يا من لا تحضره الذنوب ولا تنقصه المنفعة ، عب إلى ما لا يضرك وأعطى ما لا ينقصك ، ياربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا صلحا وتوفى مسلما والحق بالصالحين ، أنت ولينا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأنا وإليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا والصبرنا على النجوم الكافرين ، ربنا آتانا من فضلك رحة ورحم لنا من أمرنا رشدا ، ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا غدا بئارا ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارزقنا الموتى على الطاعة ، والصلوة من المعصية وإفراغ الصبر في الشدة ، وإلحاق الفكر في النسي ، وأسألك حسن الخاتمة ، وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك ، وأسألك الغية وحسن التوكل عليك ، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك ، وأسألك حسن المقلب إليك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد فرجا جلا ، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ، اللهم اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين وارحمهم أجمعين صغيرا ، واغفر لأحبابنا رحمانا ، وأشرارنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير الناسين .

ولما كان الدعاة مع العبادة أحببنا أن نشترق من ذلك قسما صالحا ترسيروكم ، وهذا الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المسكي رحمة الله في كتابه قوت القلوب ، وعلى قلبه كل الانتباه وفيه البركة ، فليدع هذه الدعوات منفردا أو في الجماعة ، إماما أو مأموما ويقتصر منها ما يشاء .

الباب الحسون : في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات

فإن ذلك أن يلزم موضعه الذي صلى فيه القصر مستقبل القبلة ، إلا أن يرى انتداله إلى دوابه أسلم له به ثلاثا محتاج إلى حديث أو الفتاوى إلى شيء ؛ فإن السكون في هذا الوقت وترك السلام أثر ظاهر بين يحمده أهل الشافعية وأهل الرأي ، وقد تدب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون ، والآيتين : وإلهكم إله واحد ، وآية الكرسي والآيتين بعدها ، وآمن الرسول والآية قلها ، وشهد الله ، وقال اللهم مالك الملك ، وإن ربك الله الذي خلق السموات والأرض - إلى - المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقال ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من : إن الذين آمنوا ، إلخ وإذا هؤلاء ذهب مغاضبا - إلى - غير الراحمين فسيحان الله حين تمسحون وحسن تعبهم وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد حدثني الله ، وأول سورة الحديد - إلى - بذات الصدور ، وأشر سورة الحشر من لوازمنا ، ثم يسبح للآخر ثلاثين ، وهكذا يحمده مثله ، ويكبر مثله ؛ أدبها (٢٥) - طبع كتاب الإحياء

مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فإذا فرغ من ذلك يشتمل بثلاثة القرآن حفظاً أو من المصحف ، أو يشتمل بأنواع الأذكار ، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس ، فإن التزم في هذا الوقت مكرمه جداً ، فإن عليه التزم قليلاً في صلاة قائماً مستبطل القبلة ، فإن لم يذهب التزم بالقيام ينط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ، ولا يستدير القبلة ، في إقامة استقبال القبلة وترك الكلام والتزم ودوام الذكر في هذا الوقت : أو تكبير وركعة غير قليلة . وجدة ذلك بحمد الله ونوحى به للطالين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر ، وهنا الوقت أول النهار - والنهار مثله الأوقات - فإذا أحس أنه بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وبنيت أوقات النهار جميعاً على هذا البناء ، فإذا غارب طلوع الشمس يبتدىء بقراءة الميسات المشر وهي من تعليم الحضر عليه السلام عليها إبراهيم التيمي وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال بالمداومة عليها جميع المتفرق في الأذكار والدعوات ، وهي عشرة أشياء : سبعة سبعة : الفاتحة ، والمعوذتان ، وقل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ، وآية الكرسي ، وسبحان الله وأحدش ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبي وآله ، ويستغفر نفسه ولوالديه وللمؤمنين وللمؤمنات ، ويقول سبأاً : اللهم افعل بهم عاجلاً وأجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما تاليت له أهل ، ولا تفعل بنا ما نلنا ما نحن له أهل إنك لغفور رحيم .

وروي أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الحضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملايكه والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل : إنه مكث أربعة أشهر لم يعلم . وقيل : لعله كان ذلك لشكره أكل من طعام الجنة ، فإذا فرغ من اللذات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس فتدورج روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة التداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ، ثم يصل ركعتين قبل أن يصرف من مجلسه ، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصل الركعتين ، وبهاتين الركعتين تلبين قائمته رعاية هذا الوقت ، وإذا صلى الركعتين يجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ حمد في يافته آراً ونوراً وروحاً وأدناً إذا كان صادقاً ، والذي يحمده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا ، في الأول آية الكرسي ، وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية ، وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليكته ، ثم يصل ركعتين آخر يقرأ المعوذتين فيها في كل ركعة سورة ، وتكون صلاة هذه ليستبذ بالله تعالى من شر يومه وليكته ، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلتك التامة من شر السامة والحامة ، وأعوذ باسمك وكلتك التامة من شر عبادك وشر عبادك ، وأعوذ باسمك وكلتك التامة من شر ما يجري به الليل والنهار إن ربي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأولين اللهم إني أصبغت لأستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبحي مرثياً وبسلي وأصبح آمري يد غيري فلا تقدر أقرضني ، اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسبي في صدقي ، ولا تجعل معصيتي في ديني ، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ، ولا تسلط علي من لا يرعني ، اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، ثم يصل ركعتين آخرين بليقة بالاستعاذة لكل عمل يصنع في يومه وليكته ، وهذه الاستعاذة تكون بمنى المصاد على الإطلاق ، وإلا فلا استعاذة تأتي وردت بها الأخبار هي التي يصلها أمام كل أمر يريده ، ويرأى هاتين الركعتين (قل يا أيها الكافرون) - و - (قل هو الله أحد) ويقرأ دعاء الاستعاذة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ، ويقول فيه : كل قول وعمل أريدني هذا اليوم أجعل فيه الخيرة وعمل آل محمد ، وأجعل حبك أحب الأشياء إلى وخشيتك أخوف الأشياء عدي ، واضلع عن حاجات الدنيا والنور إلى لثافتك ، وإذا أقررت أن أهل الدنيا يديهم فأقرروني بعبادتك ، وأجعل طاعتك في كل شيء يأمرهم الراعيين

ثم يصل بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئاً من حربه من القرآن ، ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل في الدنيا يتنفل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى ، وإن كان له في الدنيا شغل إما نفسه أو لغيره فليضع حاجته ومهامه بعد أن يصل ركعتين لخروجه من النوم ؛ وهكذا ينبغي أن يفعل أبداً لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصل ركعتين ليقيه الله سوء الفرج ، ولا يدخل البيت إلا ويصل ركعتين ليقيه الله سوء الدخول بعد أن يصل على من في المنزل من الزوجة وغيرهما ؛ وإن لم يكن في البيت أحد يصل أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين الثمنيين . وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى ؛ فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر ، وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن ؛ فقد كان من الصالحين من يقرأ في القرآن في الصلاة بين اليوم والليل ، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقُل هو الله أحد وبآيات القرآن وفيها السجدة مثل قوله تعالى (ربنا عليه تركنا وإليه أنبأوا إليه نصير) وأما هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها معها شاء ، ويقرأ الطالب أن يصل بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ، وقد كان في الصالحين من ورده بين الليل والليل مائة ركعة إلى ما بين إلى عسائه إلى ألف ركعة ، ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها قال باله يطول ولا يشتم بخدمته الله تعالى قال سهل بن عبد الله التستري : لا يكل شغل قلب عبد بالله الكرم وله في الدنيا حاجة .

فلذا ارتفعت الشمس وتصفى الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتصف العصر بين الظهر والمغرب يصل الضحى ؛ فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة الضحى إذا مضت القصر ، وهو أن يتم الفصيل في ظل أمه عند حز الشمس . وقيل الضحى إذا مضى الأقدام بحرا الشمس ؛ وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ، ويعمل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ؛ ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة معنى فيه ، وإلا فقديم العمل لله تعالى من غير فتور إما طهراً أو بأشرفها وقابلاً ، وإلا فليطأ وترتيب ذلك ؛ أنه يصل مادام طهر حار نفسه صبيحة فلان ثم يذلل من الصلاة إلى التلاوة ، فلان مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فلان سم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فلان سم الله الكريم ذكر اللسان ويلازم قلبه القراءة ، والرائقة على القلب ينظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازم القلب فهو راقب ، والرائقة عين الذكر وأفضلها فلان مجرد عن ذلك أهدأ من ذلك الواسوس وتواسم في باطنه حديث النفس فليتم طرد حديث النفس ويهش القلب بكثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترق عن ذلك . قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس ، والطالب يريد أن يهش باطنه كما يهش ظاهره ، فإنه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كمنشخ آخر في باطنه ، فيفيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يفيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ، ويمكن الطالب الجهد أن يصل من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى ، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة ، أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر .

والثوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال السفياني : كان بهيم إذا فرغوا أن يتأتموا طلباً للسلامة ، وهذا اليوم فيه فرائد : منها أنه يمين على قيام الليل ، ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبينة النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحات عادت جديدة ، فيبدأ الاتقاء من نوم النهار بتجدد الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار ، فيكون الصادق في النهار تبارك يشتمها ؛ بخدمته الله تعالى ، والسودب في العمل . وينبغي أن يكون اتقائه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء ، بحيث يكون وقت الاستواء مستقيل القية ذاكرة أو مسجبة أو تألياً ؛ قال الله تعالى (وأتم الصلاة طرفي النهار) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) قيل : قبل طلوع الشمس ؛ صلاة الصبح ، وقبل غروبها ؛ صلاة العصر (ومن آتاه الليل فليحسب) أراد العشاء الآخرة (وأطراف النهار) أراد

الظهر والمغرب ، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار ، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب ، فصار الظهر آخر الطرف الأول ، والمغرب آخر الطرف الآخر ، فيستقبل الطرف الآخر بالقبلة والذكر كما استقبل الطرف الأول ، وقد عاد بنوم النهار جدياً كما كان بنوم الليل ، ويصل في أول الزوال قبل السنة وقترض أربع ركعات بتسليمية واحدة كان يصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يطلع الوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت التكرامية بالاستئراء ، فيفترق في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستند لصلاة الظهر ، فإن وجد على يافته كدراً من مخالطة أو بحالة انقضت يستنفر الله تعالى ويضرب إليه ، ولا يشرع في صلاة الظهر ، إلا بعد أن يجد الباطن عائداً إلى حاله من الصفاء ، والذاكرون حلالة المناجاة لا بد أن يجدوا صفو الأتس في الصلاة ، ويستكثرون يسير من الاسترسال في المباح ، ويصبر على يواظبهم من ذلك عند وكبر ، وقد يكون ذلك بعينه المخالطة والمجالسة مع الأهل والرفقة مع كون ذلك عبثاً ، ولكن حسنت الأبرار سيئاتهم للفرحين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد ولذباب الكدر ، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودعاء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والرفقة ، أن يكون في مجالسته غير راكن إليهم كل الركون ، بل يشرق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى ، فتكون تلك النظرات كثرة تلك المجالسة ، إلا أن يكون قوي الخيال لا يجبه الخلق عن الحق فلا يصدق على يافته عقدة ، فهو كما يدخل في الصلاة لا يهدمها ويهدمها بقلبه ، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه مضطراً يروح قلبه ، لأنه يخالط ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالبة للخصرة الإلهية فلا يصدق على يافته عقدة ، وصلاة الزوال التي ذكرناها محل العقد وتبيهاً لباطن صلاة الظهر ، فيقرأ في صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة في النهار الطويل ، وفي القصير ما يتيسر من ذلك . قال الله تعالى : (وعشياً وحين تظهرون) وهذا هو الإظهار ، فإن انتظر بعد السنة حضرة الجماعة الفرد وقرأ الحمد الذي بين الفريضة والسنة من صلاة العسير لحسن ، وكذلك ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة العسير ، ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثاً وثلاثين مرة كالوصفا ، ولقد ورد على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضاً كان ذلك غيراً كثيراً ونفعلاً عظيماً .

ومن له حمة ناعمة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئاً لله تعالى ، ثم يمي بين الظهر والعصر كما يمي بين العشاءين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ، ومن ظم صبره بنام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر ، ولو أسيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيها أربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير ، وإن أراد أن يمي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك ، أو بمئتين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إن كان صائماً ، وإن لم يكن صائماً فأى وقت تخير فيه الصوم ، وفي الحديث : السواك مطهرة فهم مرشاة للرب ، وعند القيام إلى الفرائض يستحب ، قيل : إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً ، وقيل هو خير ، وإن أراد أن يقرأ بين الصلوتين في صلاته في عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الأولى (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وثقنا عذاب النار) ثم في الثانية (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا والعصرنا على القوم الكافرين) ثم (ربنا لا تؤاخذنا ...) إلى آخر السورة ، ثم (ربنا لا تؤاخذنا ... الآية) ثم (ربنا إنا سمعنا غاباً ينادي للإيمان ... الآية) ثم (ربنا آتانا بما أثرت ...) ثم (أنت ولينا فأغفر لنا) ثم (فاطر السموات والأرض أنت جباري) ثم (ربنا إلهك تعلم ما نفنى وما نعان ... الآية) ثم (قل رب زدني علماً) ثم (لا إله إلا أنت سبحانك) ثم (رب لا تخذلني فرماً) ثم (قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ثم (ربنا هب لنا من أزواجنا) ثم (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)

ثم (يُعلم عائلة الآحين وما تخفى الصدور) ثم (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... الآية) من سورة الأحقاف، ثم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ... الآية) ثم (ربنا عليك تركنا) ثم (رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا يبارا) فهما يصل فليقرأ بهذه الآيات، وبالحفاظ على هذه الآيات في الصلاة مراعيا القلب واللسان يوشك أن يرق إلى مقام الإحسان، ولورود فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت متاجيا لملاواة دعايا والياو معصيا، والله سوب في العمل واستيعاب أجزاء النهار، بلانذة وحلاوة من غير سامة لا يصبغ إلا لمبدترت نفس بكال التقوى والاستقصاء في الزهد في الدنيا وانزع منه متابة الهوى. ومن يقي على الشخص من التقوى والزهو والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل، بل ينشط وقتا ويهائم وقتا، وينشأوب النشاط والكسل فيه لبغاء متابة شيء من الهوى بفصلان تقوى أو عجة دنيا وإذا صبح في الزهد والتقوى، فإن ترك العمل بالجوارح لا يفر عن العمل بالقلب، فمن دام روح واستحلاه السوب في العمل فليبه جسم مادة الهوى، والهوى روح النفس لا يزل ولكن تزل متابته، والتي عليه السلام ما استأذ من وجود الهوى، ولكن استأذ من متابته فقال: أعوذ بك من هوى متبع، ولم ينشط من وجود الفصح فإنه طبيعة النفس، ولكن استأذ من طاعته فقال: وشيع طماع، وفاق متابة الهوى تلبس على قعر صفاء القلب وعلو الحال، فقد يكون متجا للهوى باستحلاه بحالة الخلق ومكائهم أو انظر إليهم. وقد يتبع الهوى يتجاوز الاعتدال في النوم والاكل وغير ذلك من أقسام الهوى للتعبي، وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا، ثم يصل العبد قبل العصر أربع ركعات، فإن أمكنه تجديد الرخوة لكل أربعة كان كل وأتم، ولو اغفل كان أفضل، فكل ذلك له أثر ظاهر في تدوير الباطن وتكبير الصلاة ويقرأ في الأربع قبل العصر: إذا زلزلت والعباديات، والفتارة، والهاكم. ويصل العصر ويصل من قرأ بعض هذه الآيات: والصدقات البروج. وصحت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الضمايل، ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والصلوات ما يتيسر له من ذلك، فإذا صلى العصر ذهب وقت التفتل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة، وأفضل من ذلك بحالة من يرمده في الدنيا ويمد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يؤي حرامهم التزوين، فلذا صحت نية التافل والمستمع لهذه الصالحة أفضل من الانفراد والدعوة على الأذكار، وإن عدت هذه الصالحة وتطورت فليطروح بالتفتل في أروع الأذكار، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر مباح في هذا الوقت يكون أفضل وأول من خروجه في أول النهار، ولا يفرج من القول إلا وهو على الرخوة، وكرة جمع من العلماء تصية الطهارة بعد صلاة العصر، وأجزاء المشايخ والصالحون، ويقول كلما خرج من منزله: بسم الله ماشاء الله، حسب الله لا قوة إلا بالله، اللهم إليك خرجت وأنت أعز جنتي، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين، ولا بدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو بخرقة أو فلس، فإن القليل بحسن التبة كثير. وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت المسائل عبة واحدة وقالت: إن فيها لما قيل ذو كثير. وجاء في الخبر: كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته، ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فقد ورد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله، ويقول مائة مرة: سبحان الله الواحد لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومائة مرة: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله، ومائة مرة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، ومائة مرة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، ومائة مرة: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة، ومائة مرة: ماشاء الله لا قوة إلا بالله. ورويت بعض الفقهاء من المغرب

بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ، ذكر أن ورده أن يدبرها كل يوم اثني عشرة مرة بأنواع الذكر .
 وتقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واليلة . وتقل عن بعض الثائمين . كان ورده من التسبيح
 ثلاثين ألفا بين اليوم واليلة ، وليل مائة مرة بين اليوم واليلة هذا التسبيح : سبحان الله العلي الديان ، سبحان الله
 شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالهار ، سبحان من لا يفتنه شأنه ، سبحان الله الحنان المنان ،
 سبحان الله المسبح في كل مكان .
 روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر ، فسمع في عدوه الليل هذا التسبيح ، فقال : من الذي أسمع صوته ،
 ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسمع الله تعالى هذا التسبيح عند خاتمت ! فقال :
 ما اسمك ؟ فقال : مهلبيا نيل ! فقال : ما ثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة
 أو يرى له .

وروى أن عثمان رضي الله عنه سأل رسوله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿لَمَّا قَالَتِ الصَّوْتِ وَالْأَرْضِ﴾
 فقال : سألتني عن شيء عظيم بأسألني عنه غيرك ، هو : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة
 إلا بالله عز وجل ، وأستغفر الله الأول الآخر الظاهر الباطن ، فأنطقه ولله الحمد ، يداخله ويخرج من كل شيء مقدر .
 من قالها عشرا حين يصبح وحين يمس أعطى ست خصال : الأول خصلة : أن يجرس من إبليس وجنوده .
 الثانية : أن يعطى قطارا من الأجر . الثالثة : يرفع له درجة في الجنة . الرابعة : يزوج الله من الحور العين .
 الخامسة : أنما عشر ملكا يستغفرون له . السادسة : يكون له من الأجر كن سج واعتصر ، ويقول آمين في هذا
 الوقت وفي أول النهار : اللهم أنت خلقتني وأنت عطيني وأنت تعلمني وأنت تقيني وأنت تهيئني وأنت تحييني ، أشعري
 لأرب سواك ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ويقول : ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كل خمسة مناهج ،
 ماشاء الله الحيرة يد الله ، ماشاء الله لا يعصر السوء إلا الله ، ويقول : حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب
 العرش العظيم .

ثم يستمدد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ، وقرأ المسببات قبل الغروب ، ويديم التسبيح والاستغفار ، بحيث
 تغيب الشمس وهو في التسبيح والاستغفار ، وقرأ اعتد الغروب أيضا : والشمس والقيل والمعوذتين ، ويستقبل الليل كما
 استقبل النهار . قال الله تعالى ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ فكان أن
 الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل : ينبغي أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ، ولا ينقطع
 شيء كما لا ينقطع بين الليل والنهار شيء ، والذكر يجيء أعمال القلب ، والشكر أعمال الجوارح . قال الله تعالى
 ﴿احمدا آل نادره شكرا﴾ والله الموفق الأمين .

الباب الحادى والحسون : في آداب التريد مع الشيخ

أدب المريدين مع القيوخ عند الصوفية من معام الآداب : ولتقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم
 وأصحابه ، وقد قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولَهُ وَأَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ حَيْثُ مَنَعَهُ﴾ .
 روى عن عذابة بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم ، فقال أبو بكر : أمر
 القضاة بن مبيد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافا ؟ وقال عمر : ما أردت
 خلافا ، فتأريا حتى ارتفعت أصواتهما : فأمر الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما
 ﴿لا تخفوا﴾ لا تتكلموا بين يدي كلامه . وقال جابر : كان ناس يضحون قبل رسول الله ، فقروا عن تقديم الأصابع
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان قوم يقولون : لو أنزل في كلنا وكلمة فكرهه الله ذلك . وقال صاحب
 رضي الله عنها : أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبي : لا تنبأوا رسول الله يقول ولا فعل حتى يكون

هو الذي يأمركم به، وهكذا أدب اللرد مع الشيخ أن يكون مطلوب الاختيار لا تصرف في نفسه وعاله إلا بما راجع للشيخ وأمره، وقد استوفينا هذا المعنى بإباليخة، ولعل (لا تدمروا) لا تحسوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دعوى أبو المرداء قال : كنت معي أمام أبي بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحيى أمام من هو خير مثله في الدنيا والآخرة » . وقيل : تولد لي أقوام كانوا يصيرون مجلسي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني مثل الرسول عليه السلام عن شيء ، عاشوا فيه وتقدموا بالقول والفكر ، فهو عن ذلك ، وهكذا أدب للريد في مجلس الشيخ يفتي أن يوم السكوت لا يقل شأنا عما صرح به من كلام حسن إلا أن أستاذ الشيخ هو جسد الشيخ فحقه في ذلك ، وشأن الريد حصة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينظر رزقا يساق إليه ، فطلبه إلى الاستماع وما يوزن من طريق كلام الشيخ بحق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله ، وطلبه إلى القول برده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إرادته شيء نفسه وذلك جناية للريد .

وفيه أن يكون تعلمه إلى مهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ : على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال بالمان في حصة الشيخ بل بإيداعه بما يريد ، لأن الشيخ يكون مستقلاً لفقه الحق ، وهو عند حضور الصادق يرفع قلبه إلى الله ويستمر ويستقيم لم ، فيكون لسانه وقلبه في قول والتعلق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى مايقنع به عليه : لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله ، والقول كاليد يفتح الأرض : فإذا كان الجذر قادراً لا ينبت ، وفساد الكلمة يدخل الحوى فيها ، فالشيخ يبقى بذو الكلام عن شرب الحوى ، ويسمى إلى الله ، ويسأل الله للوثة والساد ، ثم يقول ، فيكون كلامه بالحق من الحق الحق ، فالشيخ للربدين أمين الإلهام ، كأن جبريل أمين الوحي ، فكما لا يكون جبريل في الوحي لا يكون الشيخ في الإلهام ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الحوى فالشيخ مقتدر بوسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهره وباطنه ، لا يتكلم بمرئ النفس . وهو النفس في القول ببينين : أحدهما طلب استجلاب القلب بمرئ الوجوه إليه ، وما هذا من شأن الصيوخ . والثاني : ظهور النفس باستيلاء الكلام والعجب ، وذلك خيانة عند الحقيقتين والشيخ فيها يمرى على لسانه رائد النفس تشغله معاملة ثم الحق في ذلك فالعالم بط فوائده ظهور النفس بالاستيلاء والعجب ، فيكون الشيخ لما يجر به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعاً كأحد للشيخين ، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلحق إليه ، وكان يقول : أتاني هذا الكلام مستع كأحدكم ، فأشكلك ذلك على بعض الحاضرين وقال : إذا كان القائل هو يعلم مايقول كيف يكون كسنع لا يعلم حتى يسمع منه ؟ فرجع إلى منزله فرأى يليقه في المنام . كأن قائل يقول له : أليس اتواص بنوع من الجبر لطيف الجبر . وجميع الصدفى عجلته ، والله قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من الجبر ، وبشاركة في وقفة الجبر من هو على الساحل ، ففهم بالشارع إشارة النبي في ذلك .

فأحسن أدب المرید من التبیخ السکوت والخمود حتی یداته الشیخ یماله فیه من الصلاح قولاً وفعلًا ،
وقیل أیضاً فی قوله تعالی (لا تقصروا بین یدی الله ورسوله) : لا تظلموا منزلة وراه منزله ، وهذا من عیاس
الآداب وأمرها .

وبنيت المرید أن لا یحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشیخ ، بل یحب الشیخ کل منزلة عالیة ، ویشوق للشیخ عزیز اللع وغرائب الثواب ، ویهنا یمتھر جوهر المریدین حسن الإرادة ، وهذا یرتق المریدین : فإرادته الشیخ تطیبه فوق ما یشوق نفسه ویکون قائما بأدب الإرادة . قال السری رحمه الله : حسن الأدب ترجان العقل . وقال أبو عبد الله بن حنیف : قال رومی : یانی اجعل عقلك سلما وأدبک دقیقا ، وقیل : التصوف کل أدب : لكل وقته أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن یلزم الأدب یلتزم منزلة الرجال ، ومن حرم الأدب فهو یسئ من حیث

بائن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) كان ثابت بن قيس بن شماس في أدنه وفر وكان جهوري الصوت ، فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته ، وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ، فأمر الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر القرياق قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس العمري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا محمد بن النضر ، قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، قال حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجهمي ، قال حدثني حابس بن أبي مليكة ، قال حدثني عبد الله ابن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : استعمله على قومه ، فقال عمر : تستعمله بأمر رسول الله فتسلكا بهدائي صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لسمر : ما أردت إلا خلافا ، وقال عمر : ما أردت خلافا ؛ فأمر الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستنهم .

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا كالأخ السرا ؛ فلو كنا ينبغي أن يكون المراد مع الشيخ . لا يهبط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسط الشيخ ورفق الصوت تحية جلاب الوفا ؛ والوفاء إذا سكن القلب عقل الإنسان ما يقول ، وقد ينزل باطن بعض المرادين من الحرمة والوفاء من الشيخ ما لا يستطيع المراد أن يفسح النظر للشيخ . وقد كتبنا قد يدخل على عمر وشيخي أبو العباس السهرودي رحمه الله فيترشح جسدي عراقا . وكنت أتمنى العرق لتخف الخي . فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي ، ويكون في نفسه ركوشة . وكنت ذات يوم في البيت غالبا وهناك مندبل وعبي في الشريح وكان يشعرون ، فرفع قدسي على المندبل أمنا ؛ فقام باطني من ذلك وعالي الرعدة بالقدم على مندبل الشيخ ، وابعدت باطني من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن حطاف قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) زجر عن الأدب لئلا يتخطى أحدا من مافوته من ترك الحرمة . وقال سبل في ذلك : لا تخاطبه إلا مستنهما . وقال أبو بكر بن طاهر : لا يبدؤ به بالخطاب ولا يجيبوه إلا على حدود الحرمة (ولا يهروا له بالقول كبحر يمتدك ليس) أي لا تفتلوا له في الخطاب ولا تادبه باسمه ؛ يا أحمد ، يا أحمد ، كما ينادي بعضكم بعضا ، ولكن غمروه واستمرهوا . وقولوا له : يا بني الله ، يا رسول الله .

ومن هنا القليل يكون خطاب المراد مع الشيخ ، وإذا سكن الوفا قلب علم اللسان كيفية الخطاب . ولما كتبت القوس بمحة الأولاد والأزواج وتمسكت أهوية النفوس واللباع استخرجت من اللسان عبارات خفية وهي نصت وقتها صافها كلف النفس وهواها ؛ فإذا امتلأ القلب حرمة وقاراً علم اللسان العبارات .

وروي : لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس في الطريق يكي ، فربه حاصم بن عدي فقال : ما بينك وبيننا ؟ قال : هذه الآية الخوف أن تكون نزلت في (أن تهبط أحاسنك وأنت لا تسمع) وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أعان أن يهبط علي وأكون من أهل النار ، فعلى حاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب ثابتاً اليك فألقى أمراته حية بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال لها : إذا دخلت بيتي فمرى قدسي على القبة بصبر فخرته بمسار حتى إذا خرجت عقلت وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله أرى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا آتي حاصم النبي وأخبره بخبره قال : اذهب فادعه ، فإد حاصم إلى المسكان الذي فيه وآه فلم يجد . فإد إلى أمه فوجدته في بيت القرس ، فقال له : إن رسول الله يدعوك ؛ فقال : أكره القبة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بينك وبيننا ؟ فقال : الخاسية وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما ترى أن تميش سبيداً وتقتل شبيداً وتدخل الجنة ؛ فقال : قد رخصت

بهشري الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ، فأقول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ آسَافَهُمْ هَدَىٰ رسول الله ... ﴾ قال أنس : كما تنظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا ؛ فلما كان يوم الجمعة في حربه سبيلة وأى تأييد من السليين بعض الانكسار واشتد طائفة منهم ؛ فقال : أوف لمؤلا ، وما يصنعون ، ثم قال تأييد لسلم ابن حذيفة ؛ ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ، ثم لبنا ولم يزالوا يقتلنا حتى قتلنا واستشهد ثابت كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درج ؛ فقرأ رجل من الصحابة يندبونه في التمام فقال له : أعلم أن فلانا رجل من السليين نزع درعي فلعب بها وهو في ناحية من السكرك وعند مفرس يستقي عليه وقد وضع على درعي برمة ، فأتته عاتكة بن الوليد فأخبره حتى يسرد دعي ، وأتممتها بكنز خليفه رسول الله عليه السلام فقتله ؛ لأنهم دبنا حتى يقتل حتى ، وفلان من جيدي صديق ، فأخبر الرجل عاتكة فوجدنا الفرج والفرس على ما وصفه ، فاسترد الفرج ، وأخبر عاتكة أبا بكر بذلك الرضا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضي الله عنها : لا أعلم وصية أجيبت بعد موت صاحبها إلا هذه كرامة ظهرت ثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيصير البريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذي يستند مع الشيخ عرض ما لو كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامم القوم واجب الأدب أخبر الحق عن عالمه وأثنى عليهم فقال (أولئك الذين استمن الله فقوم للثوري) أي اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه ، وكما أن السانتر جان القلب يندب اللفظ لتأديب القلب ، فبهكذا ينبغي أن يكون المراد مع الشيخ . قال أبو حنيفة : الأدب عند الأكارم وفي جملة السادات من الأولياء يبلغ صاحبه إلى الدرجات والملا والحيون الأول والمضي ، ألا ترى إلى قول الله تعالى (ولولأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) وما عليها الله تعالى قوله سبحانه (إن الذين يتادبونه من وراء الحجابات أكثرهم لا يعقلون) وكان هذا الحال من وفاء في نعيم جادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذنبتنا شين . قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرخ إليهم وهو يقول (إنما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين ، في قصة طوية ، وكثروا ألوا بشاعرهم وعظيمهم ، فتلهم حسان بن ثابت وشبان لهاجرين والألصار بالحطبة .

وفي هذا تأديب للبريد في الغرول على الشيخ والإفهام عليه وتركه الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع غلوه .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير أو تلميذ بالفقر فيخرج ويضع جانبا الباب ويصالح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى غلوه ، وإذا جاء أحد من ليس من زمرة الفقراء يخرج ويسلم معه ، فظهر لبعض الفقراء نوع إنكار تركه الخروج إلى الفقير وغروجه لتبذ الفقير ، فأتته ما خطر لفقير إلى الشيخ ، فقال : الفقير وابطئ معه وابطئ قلبه وهو أهل وليس عنده أجنبية فنسكتني معه بموافقة القلوب وقنع بها عن ملاقة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو والله مع السادات والظاهر ، فإن لم يوف حقه من الظاهر استوحش ، فحق المرید عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

فيل لاني منصور المقرئ : كم صحبت أبا حنيفة ؟ قال خدمته لاصحبت ، فالصحة مع الإغوان والأقران ، ومع المصاحج الحنفة .

ويبنى للبريد أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسر ما يرجع موسى عن إنكاره ، فاشكره المرادقة عليه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فليشفي في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعد أصحاب الجندية مسألة من الجندية ، فأجابها بالجندية ، فصاره في ذلك فقال الجندية : فإنهم أو متوا لا يعزلون . فقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأديب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لأستاذ : لا ، لا يفتح أبدا .

أخبرنا شيخنا حماد الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروزي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجرجاني ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا حماد عن أبي صابرة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتروكني ماتركتم ، وإنا حديثكم لحدونا عني ، فإنما ملك من كان فيكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجليل رحمه الله : رأيت مع أبي حفص التيسابوري إنسانا كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا ؟ فقليل لي : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويحدثنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى اتفقها عليه ما يورث له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة .

وقال أبو يزيد البسطامي : صحبت أبا علي السندي فكنت مائش به فرحته ، وكان يلقي التوحيد المخالف صرفا وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث ، فطردني وقال : لا لعل عني ، فلم أجعل مكافأ له على كلامه أن أول ظهري إليه ، فالتصرفت أمشي إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه واحتضت أن أحفر نفسي بشرا على يابه وأزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا وإذنه ؛ فلما رأى ذلك مني قرين وقبلي وصيري من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن آدابهم الظاهرة : أن المرید لا ييسط سجاده مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فإن المرید من شأنه التبتل للخدمة ، وفي السجادة إيماء إلى الاستراحة والتموز ، ولا يستحسن السجود مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التبتيز ، وهية الشيخ تمك المرید عن الاسترسال في السجود وتقيده . واستغراقه في الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أجمع له من الإصغاء إلى السجود .

ومن الآداب : أن لا يتكلم على الشيخ شيئا من حاله ، وما يبصر عنه وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكف الشيخ من حاله ما يملك الله تعالى منه . وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتقرضا ، فإن المرید من الخلق غير مهمل شيء لا يكتفيه الشيخ نصرا أو تبرعا يصير على يملكته منه حقة في الطريق ، وبالقول مع الشيخ تحمل القصة وتزول . ومن الآداب : أن لا يدخل في محبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ؛ ومن كان عند المرید تطلع إلى شيخ آخر لا تصغر محبة ولا ينفذ القول فيه ولا يشتد بملكته لسرا يسأل الشيخ إليه ، فإن المرید كلما أيقن تفرد الشيخ بالشيخة عرف فضله وقرب محبة ، وانجبه والتألف هو الراسطة بين المرید والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سرابة الحال ، لأن المحبة علامة للتعارف ، والتعارف علامة للجلسة ، والجلسة جالية للمرید حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الفقيه أبو الفتح محمد بن سابق ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا أسد بن أسلم ، قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يتخذ ولا يستأثر عليه ، فمن فعل ذلك فقد قسم حروقه من حري الإسلام » .

ومن الآداب : أن يراعى خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها ، ولا يستحقر كرامة الشيخ ليسير حركاته معتصدا على حسن خلق الشيخ وكآمال حله ومداراه .

قال إمام بن شيبان : كنا نصحب أبا عبد الله المغربي ونحن شيان يسافر بنا في البراري والقفلات ، وكان معه شيخ اسمه حسن وقد حبه سبعين سنة ، فكان إذا جرى من أسدنا خطأ وتذير عليه الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان .

ومن آداب المرید مع الشيخ : أن لا يستقل بوقالته وكشفه دون مراجعة الشيخ ، فإن الشيخ عليه أوسع وبابه

الفرح إلى الله أكبر ! فإن كان واقعة المرید من الله تعالى برفقه الشيخ ويعضها له ، وما كان من عند الله لا يتحقق . وإن كان فيه شبه نزول شبه الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتب المرید على بصحة الواقع والكشوف ، فأمر بالمعروف وواقعة يخبره كون إرادة في النفس فيكتبه كون الإرادة بالواقعة . متاما كان ذلك أو يفتقه ، ولهذا سر عجيب ، ولا يقرم المرید باستكمال شأفة السكامن في النفس ، وإذا ذكره الشيخ فإ في المرید من كون إرادة النفس . فغفوت حق الشيخ ، فإن كان من الحق يتجرهن بطريق الشيخ ، وإن كان يزع واقعة إلى كون هوى النفس نزول وغيراً ساحة المرید ويتحمل الشيخ تحمل ذلك قوة حاله وصحة إوائه إلى جناب الحق وكأن معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ : أن المرید إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أسريته أو أمر دنياه لا يستعمل بالإقدام على مكالة الشيخ والمجوم عليه حزينيته من حال الشيخ أنه مستعد له ولسياح كلامه وقوله متفرغ ، وكأن له دنياه أوقانا وآداباً وشروطاً لأنه عاطفة الله تعالى ، فلقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط ، لأنه من مدامكاته تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب ؛ وقد به الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في عطية فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتهم الرسول فقد برأيتهم منكم فمضوا) يعني أمام مناجاتكم . قال عبد الله بن عباس : سألت الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذكروا حتى شقوا عليه وأحقوه بالمسئلة ، فأدبهم الله تعالى وطمسهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة . وقيل . كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام فيطلبون القراء على المجلس ، حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته ؛ فأما أهل البصرة فلأنهم لم يجدوا شيئاً ، وأما أهل البصرة فيخطروا ومنهوا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى (أأشفتكم أن تصوموا بين يدي نهاركم صدقات) وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لنجاح رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على من أبي طالب ، فقدم ديناراً فصدق به . وقال علي : في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبل ولا يعمل بها أحد بعدى . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا علياً وقال ، ما ترى في الصدقة كم يكون ، ديناراً ؟ قال علي : لا يلحقه ، قال ، كم ؟ قال علي : يكون حبة أو شعيرة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لو حبة ، ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ، وماتت الحق عليه بالأمر بالصدقة وماتت من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاجرام بالسبغ والقائمة بالية .

أخبرنا الشيخ الله أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أمير الفضل أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو البركات ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا محمد بن شعيب ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنا ابن أبي عمير عن أبيه عن عبيدة بن النعمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، ليس منكم من لم يعمل كبرية ترفع من صغيرها يعرف لها مثلاً سعة ، فاحترام العلماء وتوفيق وهداية ، وإعمال ذلك غذان وعقود .

الباب الثاني والخمسون : في آداب الشيخ وما يستعمله مع الأصحاب وسلامته

أمر الآداب : أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب براهمهم بلطف الرفق وحسن الكلام عمة للاستباحت ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يستعمله المرید من المسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحد أن يكون ذلك ابتلاء واستمنا من الله تعالى ، والنفوس مجبولة على عمة إقبال الحق والشهرة ، وفي دخول السلامة ؛ فإذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإشارة والتلميح للريدين ، فيكلمهم حينئذ بكلام الناصح المصنف الرواد لولم بما ينفعه في دينه ودنياه ، وكل مرید ومستترته سأل الله تعالى إليه يرجع الله تعالى في مناد ويكثر القبا إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ، ولا يتكلم مع المرید بالسكالة إلا ولا قلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية والصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا العجيب السمرودي رحمه الله يرضى بعض أصحابه ويقول : لا تكلم أحدًا من الفقراء إلا في أمسي أو بكائه ، وعنده وصية ثالثة ، لأن الكلمة تقع في سمع اللئيم كالخبة تقع في الأرض ، وقد ذكرنا أن الخبة الفاسدة تترك وتضيق ، وفساد حية الكلام بالهوى ، وخطرة من الهوى تكدر بحرام العلم ، فسد الكلام مع أهل الصدوق والإرادة يبين أن يسمد القلب من الله تعالى كما يسمد اللسان من الجنان ، وكما أن اللسان ترجان القلب يكون قلبه ترجان الحق عند العبد ، فيكون ناظرًا إلى الله مصفيا إليه متقلبا ما يرد عليه مؤدبا للأمانة فيه ، ثم يبين الشيخ أن اعتبار حال المرید يؤثر في دور الإيمان وقوة العلم واللمعة ما يتأتى منه ومن صلاحية واستمداه : فن المرید من يصلح لتبديد الغنى وأعمال القلوب وطريق الأبرار ، ومن المرید من يكون مستندا صالحا بالقرب وسلوك طريق للتقرب المرادين بحالة القلوب والمعاملات السلية ، ولكل من الأبرار والتقرب من مبادئها بات فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له ، والمصعب أن المصراوى يعلم الأراضى والفروس ويعلم كل خرس وأرعه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعة ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطبا وما يتأتى منه من التزود وقت غولته ، ولا يعلم الشيخ سأل المرید وما يصلح له .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم الناس على قدر عقولهم ، وأمر كل شخص بما يصلح له ، فثم من كان يأمره بالإيمان ومنهم من أمره بالإسك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد ، فأما زبدة الدعوة فقد كان يعلم الدعوة لا بمهرات لإيادته لحيث لا يصح أن يصحح الدعوة على الإطلاق ، ولا يخصص بالدعوة من يفتقر فيها هذا إلى قدر غيره . ومن أدب الشيخ : أن يكون الخطوة عاصف قد عاص لا يسه فيه سادة الحق حتى يفيض على جوفه فأدبه خلوته ، ولا يصح نفسه قرة ظاهرا أن استدامة المخالطة مع الحق والكلام معهم لا يضرهم ولا يأخذ منهم وأنها غير محتاج إلى الخطوة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان لقيام الليل وسواها من صلوات يصلح ويؤدم عليها وأوقات يتفرغها ، فطبع البشر لا يستثنى عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كلف ، وكل من مرر قاع باليسير من طيبة القلب ، اتخذ ذلك رأس ماله وأمر طيبة قلبه ، واسترسل في المازجة والمخالطة ، وجعل نفسه متاعا للباطن بلقمة تؤكل عنده ويرقى يوجد منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ولا يثبت سلوك طريقا للثنتين ، فافتنوا فتن ، وفي في خطة القصور ، ووقع في دائرة الفتور ، فما يشتت الشيخ عن الاستمدا من الله تعالى والتعرض بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بشأله وقلبه ، فيكون له في كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفي كل حركة بين يدي الله خضوع ، وإنما دخلت الفتنة على المفرودين المدعين لفتوروا الاسترسال في الكلام والمخالطة ، فقلعهم فتن صفات النفس وأغراقهم بغير من المودة وقلة تأديهم بالتيقير .

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه : لو دلت أن صلاة ركعتين أو أفضل من جلوس معكم ما جلست عندكم ، فإذا رأى الفضل في الخطوة بخطو ، وإذا رأى الفضل في الخطوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جوفته في حماة خلوته ، وجوفته منبذًا لخلوته . وفي جنا سر : وذلك أن الأدي ذو تركيب مختلف ، فيه تضاد وتنازع على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفل والعلوى ، ولما فيه من التشاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل حامل قرة والفتنة قد تكون تارة في صورة العمل وتارة في عدم الروح في العمل وإن لم تكن في صورة العمل ، وفي وقت الفترة المریدين والساكنين أصبح واستروح للنفس ودكون إلى البطالة ، فن بلغ ربة المشيخة الصفر قسم قمره إلى الحق فأفزع الحق بضم قمره ، وما ضاع قسم قمره كضياحه في حق المریدين ، فلما يمد من الفترة بقوة اللذة وسد القلب إلى الإقبال على الله ، والشيخ يكتب الفضيلة من نفع الحق بضم قمره ويمر إلى أوطان خلوته وعاص حاله بنفس مشربة ، أكثر من حود القفر بمدة إرادته من قمره ، فيعود من الحق إلى الخلوة منزع الفتور ، قلب متعش وأثر التور ، وروح متعلقة مع تحقيق مطالبة الأعيان ، قادمة بمدة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والتزود من حته فيما يجب من التجهيل والتعظيم

للشيوخ واستماته التواضع .

حكى الرقي قال : كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء بالوسا ، فدخل الزقاق فقام عندنا سطوا فمركع ، فقلنا بفرغ الشيخ من صلاته ونكرم نسلم عليه ، فذا قرع جاء إلينا وسلم علينا ، قلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ ، فقال : ما عذب الله قلب بهذا قط ، يعني ما تبيتد بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : الزول إلى حال المريدين من الرقي بهم وبسطهم . قال بعضهم : إذا رأيت القنبر فإنه بالرقي ولألفته بالعلم ، فإن الرقي يؤنه واللم يرفعه ، فإذا قبل الشيخ هذا الشيء من الرقي يتزوج المريد برك ذلك إلى الاتقاع بالعلم فيأمل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التحلف على الأصحاب وقضاء حقوقهم في العصور المرض ، ولا يترك حقوقهم اعتبارا على إرادتهم وصدقهم . قال بعضهم : لا تعطي حق أخيك بما يترك ويته من المودة .

وحكى عن الجريري قال : وأبيت من الحج فابتدأت بالجندي وسلمت عليه وقلتي حتى لا تشن . ثم أبيت منزل ، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجندي غلي : فقلت : يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تشن إلى هنا ، فقال لي : يا أبا محمد ، هنا حقه ، ذاك غنك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المشترشين منطفا في مراخضة النفس وظهر ما راعاه في الدرية : أن يرفقوا به ويوقوه على حد الرخصة ، ففي ذلك خير كثير ، وما دام العبد لا ينطفي حرم الرخصة فهو حس ، ثم إذا ثبت وعاطل الفقراء وتذب في لزوم الرخصة يذرج بالرقي إلى أوطان الدرية .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان شاب يعرف بأبراهيم الصالح ، وكان لأبيه لعة ، فأنقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلاسي ، فربما كان يقع بين أي أحد شيء من الترام فشكل يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تمرد التهمة ، فيجب أن ترفق به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التذرع من مال المريد وغدته والارتفاق من جانبه بوجه من الرجوع ، لا سيما أنه تعالى ، فيحصل تنعمه وإرشاده عاصلا لوجه الله تعالى ، فإي يسي الشيخ للمريد من أفضل الصدقات . وقد ورد : ما صدق متصدق بصدقة أفضل من علم يه في الناس ، وقد قاله تعالى تنفيا على خلوص ما فده وسراسته من الشوايب (إذا لمعكم لوجه الله لا ترضوا منكم جزاء ولا شكورا) فلا ينبغي للشيخ أن يطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرقي منه ، أو صلاح يراعى للشيخ في حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بصدقه لمصلحة تعود على المريد مأمونة التامة من جانب الشيخ : قال الله تعالى (يرضكم أجركم ولا يأسألكم أموالكم) إن يأسألكم ما فيكم فبخلوا ويخرج أشتانكم) معنى بخلكم : أي يجهدكم بويلع عليكم قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال إخراجا لأختان ، وهذا أدب من الله الكريم والأدب أدب الله قال جعفر الخفصي : جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يفرج عن ماله كله ويحمل معهم على الفقر ، فقال له الجنيد : لا تفرج من ماله كله أحسن منه مقدار ما يكميك ، وأخرج الفضل ، ونفقت بما حسبت ، واجتهد في طلب الخلال لا تفرج كل ما عندك فليس آمن عليك أن تطلبه نفسك .

وكان أبا علي السلام إذا أراد أن يحمل عملا تبت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يكتبه من الخلال ما لا يتعلم به إلى المال ، حينئذ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال ، كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروها ، أو عظم من حاله اعرجا ، أو أحسن منه بدعي ، أو رأى أنه داخله جيب : أن لا يصرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه وإلى العلم ، ويكشف عن وجه المنة بملا فتصل بذلك المقادة فكل ، فهذا أقرب إلى المداواة وأكثر أمانا تألف الخلوب ، وإذا رأى

من المريد تقصيراً في خدمة نبيه إلهياً : يحمل تقصيره ويصرفه ويصرفه على الخدمة بالرفق واللين ، وإلى ذلك تدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا سياد الدين عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو عماد الجراسي ، قال أخبرنا أبو العباس الجبوري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا تميم ، قال حدثنا رشيد بن سعد عن أبي حنبل الحوافي عن ابن عباس بن جليله الجبوري عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال : كل يوم سبعين مرة .

وأغلاق اللسان بهذه بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بإحياء سلكه في كل ما أمر وتنب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار الريدين فيما يكاشفون به ويعتبرون من أنواع التحق ، فسر المريد لا يتعدى ربه وشيئاً ، ثم لا يحضر الشيخ في نفس المريد ما يهدى في غلظه من كشف أو سماع خطاب أو شيء من غوارق العادات ويعرفه أن المعروف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويهدى بانبثاقه ، بل يعرفه أن هذه لعملة تكسر ومن ورثها لم يخلص ، ويعرفه أن شأن المريد طلب التمسك لا التمسك حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شريكه ، ولا يطلع سره ، فإذا علم الأسرار من حقيق الصدر ، وحقيق الصدر للوجوب لإفاعة السر يوصف به التسون وضعفاء القول من الرجال ، وسبب إفادة السر أن للإنسان قوتين أخذه ومعطية ، وكلتاها يتشوق إلى الفعل المختص بها ولو لا أن الله تعالى وكل العطية بإظهار ما حدها ما ظهرت الأسرار : فكمال العقل كلما طابت القوة الفعل فيدها ووزنها بالمثل حتى يمتدحها في مواضعها ، فيقبل حال الشيوخ عن إفادة الأسرار لرزاة عقولهم .

ويطلب المريد أن يحفظ سره من به ، فكل ذلك صحة وسلامته وتأيد الله سبحانه وتعالى له بتدارك الريدين الصالحين في مورد ومصدر .

الباب الثالث والخمسون : في حقيقة الصلابة وما فيها من الخير والشر

الصلابة الصلبة وجود الجسدية ، وقد يدعى إليها أوصاف ، وقد يدعى إليها أخص الأوصاف ، فالصلابة بأهم الأوصاف : كليل جنس البشر بعضهم إلى بعض ، والصلابة بأخص الأوصاف كليل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ، ثم أخص من ذلك كليل أهل الطائفة بعضهم إلى بعض ، وكليل أهل المصيبة بعضهم إلى بعض ، فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصلابة وجود الجسدية بالأعم ثلثة وبالأخص أخرى ، فليعتقد الإنسان نفسه عند الليل إلى صلبة ، ويظفر ما الذي يميل به إلى صلبته ؟ ويرى أحوال من يميل إليه بمران الشرع ، فإن رأى أحواله مستعدة قليلاً نفسه بحسن الحال ، فقد جعل الله تعالى مآلهة بطوعة بلوح له في امرأة أخيه جمال حسن الحال ، وإن رأى أفعاله غير مستعدة فيرجع إلى نفسه بالانقضاء الاتهام ، فقد لاقى امرأة أخيه وسخالة ، فالجدير أن يعرفه كثرة من الأسد ، فإنها إذا اصطفاً ازدادات طائفاً أوجاجاً ، ثم إذا علم من صاحبه الذي مال إليه حسناً لحال وحسن نفسه بحسن الحال طالع ذلك في امرأة أخيه ، فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركز في جبلته ، والميل بطريقه واقع بوجه بحسبه أحكام ، ولقدس بسببه سكن ووركون ، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف لأخص ، وبصيرين الصالحين استرواحات طبيعية وتلقانات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصلابة في الإلهاء الواحدون ، وقد يفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره ، وأهل الصلاح فرح بصلاحهم فمال إليهم بحسبة الصلاحية ، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصلابة ، فأكسب من طريقهم الفتور في الطلب والتشقق عن بلوغ الأرب ، فليقبل الصادق لهذه الحقيقة ويأخذ من الصلابة أصلي الأقسام ويدور عنها ما يمدنى وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شراً قط إلا من

تُعرف ؛ ولهذا للمنى أنكر مطلقاً من السلف الصلبة ورأى القضية فى الملة والوحدة كل إبراهيم بن آدم ودادود الطائى وفصيل بن عياش وسليمان الخواص ، وحكى عنه أنه قيل له : جاء إبراهيم بن آدم أما تلقاه ؟ قال : لأننى سبباً خائراً أحب لى من أن ألقى إبراهيم بن آدم ، قال : لأنى إذا رأيت أحسن له كلاًى وأظهر نفسى لأشهار أحسن أحوالها ، وفى ذلك الفتنة ، وهذا الكلام عالم بنفسه وأخلاقها ، وهذا واقع بين للتصالحين إلا من عصمه الله تعالى . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بإجازة ، قال أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد ، قال أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي ، قال أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق ، قال حدثنا سليمان بن الأشعث ، قال حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك بن عبد الرحمن بن أبي مسعدة عن أبيه أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوشك أن يكون خير مال المسلم منى يتبع بها شباب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن ، قال الله تعالى إخباراً عن خليله إبراهيم (وأعرضكم وما تدعون من دون الله وأعرض) استظهر بالمرلة حل فرمه . قيل : المرلة نومان : فربضة وفضيلة ، فالمرضة المرلة عن الشر وأمله ، والقضية مرلة الفضول وأمله . ويجوز أن يقال : المرلة غير المرلة ؛ فالمرلة من الأفيار ، والمرلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله ، فالمرلة كثيرة الوجود ، والمرلة القليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ما ظهرت الفتنة إلا بالخلف من عند آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلف . وقيل السلامة عشرة أجزاء ، ستة فالصمت ، وواحد في الرقة وقيل : الخلة أصل . والخلف عارض فليزوم الأصل ، ولا يعاطل إلا بقدر الحاجة ، وإذا عاطل لا يعاطل إلا بحجة ، وإذا عاطل يلزم الصمت ، وله أصل والسلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصعبة كثير يحتاج العبد فيه إلى من يعلم ، والأخبار والألفاظ والتأويل عن الخلفة والصعبة كثيرة ، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار في ذلك : ما أخرجه الشيخان في الصحيحين عن أبي القحطبة عن عائشة الساقية إلى أبي سليمان ، قال حدثنا مسلم بن سليمان التجاد ، قال حدثنا محمد بن يونس الكرمي ، قال حدثنا محمد بن منصور الجلسي ، قال حدثنا مسلم بن مسلم ، قال حدثنا السري بن يحيى عن الحسن بن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يئمن على الناس زمان لا يسلم لدى دينه إلا من فر بدنه من قرية إلى قرية ومن شافع إلى شافع ومن جبر إلى جبر كالتفيل الذي يروغ ، قالوا : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا لم تنل الميمنة إلا بمخاصي الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلى العزوة ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرنا بالتزوج ؟ قال : إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبوه ، فإن لم يكن له أبوان قتل به زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولادة قتل به فرايته ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يميرونه بميمنة الميمنة فينكف ما لا يطق حتى يردوه موارد الملوك .

وله رغب، جمع من السلف في الصلحة والأخوة في الله وأراد أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخواناً فقال سبحانه وتعالى (وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَشْتًا إِخْوَانًا) وقال تعالى (وَالَّذِي أَيْدِيكُمْ بِهِرَءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا خِلَافَتُهُ لِنَبِيِّهِمْ عَلَىٰ مَا يَنْصَحُونَ وَإِنَّا لَنَاقِلِينَ) فإخوانهم من المؤمنين وألف بينهم من المؤمنين والذين آمنوا خِلَافَتُهُ لِنَبِيِّهِمْ عَلَىٰ مَا يَنْصَحُونَ وَإِنَّا لَنَاقِلِينَ

وعادة الصعبة : أنها تفتح أمام الباحث ، ويكتسب الإنسانها علم الحوادث والعوامل . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثر أم آفات ، وتصلب الباحث يزين العلم ، يمكن المصدق بطرق عبور الآفات ، ثم التوصل منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصعبة والأخرى والتماخوذ والتماخوذ ، وتبقى جلود القلب . وتسرّع الأرواح للتسام ، وتتقوى التوجه إلى الرقيق الأعلى ، ويصير مثاقيل الشاعرة لأصواتها إذا اجتمعت غرقا لأجرام ، وإذ انقشعت قصرت عن بلوغ للرام .
وردد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن كثير بأخيه .

وقال تعالى عبرا من لاصديق له (فأنا من شافعين - ولا صديق حميم) والحميم في الأصل الحميم ، إلا أنه أبدلت الهاء بالفاء لتقرب غريبها ، إذ هما من حروف الحلق . والحميم : مأخوذ من الاهتمام : أي يتم بأمر أخيه ، فلا انتباه بهم الصديق حقيق الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم ردا من أخيه فليتمسك به فقلنا يصيب ذلك . وقد قال التائي :

وإذا صفاك من زمانك واحد - فهو للراد وأين ذاك الواحد

وأوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : يا داود ، مآل أراك مثبدا وحدا ؟ قال : إلهي ، فليصا لخلق من أجلك . فأوصى الله إلهه : يا داود ، كن رقيقا مرنا فانا لنفسك إخوانا وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصعب فؤا عذري بقى فليكن ويباعدك مني .

وقد ورد في الخبر : إذا حكي إلى الله التين بالفنن ويؤلفون فليؤمن آلف مألوف ، وفي هذا دقيقة : وهي أنه ليس من اختار العروة والوحدة فيذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مألوف ، فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليل ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وبقينا وأرزن عقلا وأتم أهلية ولشهادا ، وكان أوفى الناس سلطان هذا الوصف : الأنبياء ثم الأولياء ، وأتم الجميع في هذا : نبينا صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى الخلق الجليل ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم بها ، وقال : ما تكلموا بكروا فليكن مكار بهم الأمم يوم القيامة ، وقد نيه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وإنما طلب العروة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العروة فيه أكثر في الابتداء ، ولعلنا لنعني حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق في أول أمره ، وكان يخفى في غار حراء ويبحث في البالي ذات العدد ، وطلب العروة لا يسلب وصف كونه آلفا مألوف ، وقد غلط في هذا قوم شوا أن العروة تسلب هذا الوصف فتركوا العروة على هذه القضية ، وهذا خطأ وسر طلب العروة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ، ثم الأشمل فالأشمل ما أسلفنا في أول الباب : أن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الأمم ، فلما علم الخلق ذلك أنهمهم الله تعالى حبة الخلق والعروة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأمم لترقى النفس العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح ، فذا وفروا لتصفية صفها اشتراك الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصل الأول ، وأعاد الله تعالى إلى الخلق ومخالفتهم مصفاة ، واستدارت النفوس الطامعة بأنوار الأرواح ، وظهرت صفة الجلية من الألفة المسكة آلفة مألوفة ، فصارت الألفة من أم الأحرار عند من بالحب خيول . ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العروة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصفة وحقيقة العروة ، فصارت العروة شرفا بقيا في وقتها ، والصفة مرغوبا فيها في وقتها . قال : عند من الحنفية رحمة الله : ليس يحكم من لم يباشر بالمعروف من لا يحد في معاشه بهذا حتى يصل إلى الله منه فرجا .

وكان بشر بن الحارث يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله صلى الله عليه وسلم قال من يؤنه ، فالأنبياء يسمونه الصادقين وقفا من الله تعالى ورواها البعيد مجعلا ، والأنبياء قد يكون مفيدا كالشايخ وقد يكون مستفيدا كالرابعين ، فصحيح الخلق والعروة لا يترك من غير أنبيس ، فإن كان قاصرا يؤنه الله بمن يتمم حاله به ، وإن كان شافعا يقيضه الله تعالى من يؤنه من الرعية ، وهذا الأصل ليس فيه ميل بالوصف الأمم بل هو بالله ومن الله وفي الله .

وروى عبادة بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : للتائبين في الله على حمود من يافرة حراء ، في رأس السمود سبعون ألف فرقة مشرفون على أهل الجنة يضيئهم حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا ، فيقول أهل الجنة المظفرون يا تنظر إلى المتصالحين في الله عز وجل ، فلما أشرافوا عليهم أعداء حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا ، عليهم لباس منسحق ، مكتوب على جباههم : هؤلاء المتصالحون في الله عز وجل . وقال أبو إدريس الخولاني لما ذ : إلى أبيه في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ، فليصحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «نصب لطافة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة، وجوهم كالممرلية البدر: يفرغ الناس ولا يفرغون، ويغاث الناس ولا يغاثون، وم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قتييل: من ذلوا. يا رسول الله؟ قال: للثماون في الله عز وجل...»

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، يقول الله عز وجل : حقت عني المتحابين في القادارين في المتبازلين في المتصادقين في .

أخبرنا الشيخ أبو القاسم محمد بن عبد الباقي إجازة ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن خيرون ، قال أخبرنا أبو عبد الله
أحمد بن عبد الله الحاصل ، قال أخبرنا أبو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام ، قال أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن
إسحق الخري ، قال حدثنا حماد بن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ألا
أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصلوة ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : إصلاح ذات البين ، وإياكم وبينتة فلما هي
الحالفة ، وإني سأحدثكم الخبر عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبيد الله بن الوليد عن عمر بن زباج قال :
سمعت أبا سلمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول الخبر : وفي الخبر تحذير عن البنية : وهو أن يخطوا لخل الناس متكلم
وسوء ظن بهم ، وهذا خطأ ، وإني سأحدثكم الخبر عن نفسه وعلماً ، ما في نفسه من الآفات ، وحذرا على نفسه من
نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره ، وفي كانت خلقه بهذا الوصف لا يدل على نص هذا الوعيد ، والإنشابة
بالحالفة ، يعني أن البنية حالفة للدين . لأنه نظر إلى المؤمن والمسلمين بين الوقت .

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح إسماعيل بن إبراهيم الحلي، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال حدثنا أبو جهم عن
 ثور عن عاصم بن معدن قال: إن شال ملكاً لصفه من نار وصفه من الحج، وإن من دماء الهفم فكا ألفه بين
 هذا التلم وهذه النار فلا التلم على النار ولا النار تذب التلم، ألف بين قلوب عباده الصالحين.

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بناب موسى بن قنوت لا يسعه شيء، لطف حال الصالحين وجدده في ذلك المقام العزيز وقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين ، وهم مجتمعون لازم ، وعزيمتهم في التماس في الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن رجلا صام النهار ولام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم ينقض فيه مايقضه ذلك .

أخبرنا رضي الله عن أحد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن مماتاً ، قال أخبرنا أبو المظفر عن والده
 أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلي يقول : سمعت عبادة بن الملم يقول : سمعت أبا بكر التلحاني
 يقول : سمعت أبا عبد الله ، قال : فإني لم ألقوا فاصبوا مع من يصحب مع الله ، ثم صلى ركعة فمضى إلى صلاة الله .

وأخيراً شيخنا حماد الدين أبو العجيب إجازة . قال أخبرنا عن ابن أحمد الصغار التيساري وإجازة . قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف . قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي . قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول : سمعت أبا جعفر الحادق يقول . سمعت علي بن سهل يقول : الأنبياء ثمانون استخرجتم من الخلق إلا من أعمل ولاية الله ؛ لأن الأنبياء بأهل ولاية الله .

وقد به القائل فلما على حقيقة جامعة لبنان الصحة والحياة وفائدتها وما يحيط فيها بقره :

وحدة الإنسان غير • من جليس سوء هذه

وجلس الخبير غيره من قود المراء وحده

الباب الرابع والخمسون : في أداء حقوق الصحة والأخوة في الله تعالى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَمَّا نَبَا خَلْقَ الْبَرِئَاتِ﴾ يٰ وَيْهُ قَالَ تَعَالَى ﴿وَتَوَّاسِعَا بِالْخَلْقِ وَتَوَّاسِعَا بِالْمَرْحَلَةِ﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَصْحَابُ

رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وكل هذا لما لايات تنبيه من الله تعالى لعباده من آداب حقوق الصحة ؛ فمن اختار صحة أو أضره فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والمداد والتضرع ويسأل البركة في الصحة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما بآمن أبواب الجنة وإما بآمن أبواب النار ؛ فإن كان الله تعالى يقصص بينهما غير أنه باب من أبواب الجنة ، قاله تعالى (الاعلام) ومثله لبعض عباده (المتقين) وقيل : إن أحد الآخرين فإنه تعالى يقال له : ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يسأل أخوه مثل منزله ، فإن قيل له : لم يكن يسأل مثل علك ، فيقول : إلى كنت أهل في وله ، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته . وإن فتح الله تعالى عليه بالصحة شرا ، فهو باب من أبواب النار ، قال الله تعالى (ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتني بقي لم أأخذ فلانا خليلا) وإن كانت الآية وردت قصة مشهورة ، ولكن الله تعالى به تلك صيادته على الحذر من كل خليل يقطع عن الله اختيار الصحة أو الأضرة اتفاقا من غيرية في ذلك ، وثبت في أول الأمر شأن أرباب القلة الجامعين بالثبات والمقصد والمناقع والمضار .

وقد قال عباده بن عباس رضي الله عنهما في كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فالفساد بالصحة مترفع ، والصالح مترفع ، وما هذه سبيله كيف لا يحذر في أوله ويصيح الأمر فيه بكثرة الجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخبرة في ذلك وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحة والأضرة حمل ، وكل حمل يحتاج إلى التيقن وحسن الحافطة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل «سبعة يظلمهم الله تعالى . . . فهم : اثنان تمایا فإنه فشا شاعل ذلك ومنا عليه ، إشارة إلى أن الأضرة والصحة من شرطها حسن الحافطة حتى يكتب لها ثواب المؤاخذة ، ومن أفسد المؤاخذة بتضييع الحقوق فيما فسد العمل من الأول .

قيل : ما حسد الشيطان مشاؤون على بر جسده متساخين في الله متحابين فيه ، فإنه يهده نفسه ويحث عليه على إفساد ما بينهما .

وكان القليل يقول : إذا وقعت الثنية ارتفعت الأضرة ، والأضرة في الله تعالى مواجهة ، قاله (إغوانا) على سرور متقابلين) ومن آخر أحدهما للأخر سوءا أو كرهه منه شيئا ولم يلزمه عليه حتى يزيه أو يتسبب إلى إزائه منه قسا واجبه ، بل استديره .

قال الجنيد رحمه الله : ما تراخى اثنان في الله واسترحش أحدهما إلا لعله في أحدهما .

فالمواضع في الله أصغر من الماء الزلال ، وما كان فله مطلب بالفساد فيه وكل ماضيا دام ، والأصل في دوام صفاته عدم الخالفة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمار أحاكم ولا تمارحه ولا تدمعه موهدا فتخلفه » .

قال أبو سعيد الخراساني : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن كنت معهم على نفس .

أخبرنا شيخنا أبو العباس السمرقندي بإجازة ، قال أخبرنا حمزة بن أحمد الصغار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن حنبل قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : سمعت عبد الله الداراني قال : سمعت أبا عمرو الهمداني الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل : على أي شرط أصحب الخلق ؟ فقال : إن لم يهرم فلا تؤذم ، وإن لم يهرم فلا تؤزم .

وبهذا الإنسان قال أبو عبادة . لا تضيق حتى أخيك بما يذكرك وجهه من المودة والصداقة ، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا من فضله إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحة : أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أعاد إلا بغير .

وقيل : كان بعضهم زوجة وكان يسلم منها ما يكره ، فكان يقال له استغفرا عن ما فعلنا فيقول : لا يقبض الرجل أن

يقول في أمه إلا خيرا ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بدت عني وليست مني في شيء كيف أذكر ما ؟ وهذا من التفتيش بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجليل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التناطح فهل يبتعنه أولا ؟ اختلفوا في ذلك ، فكان أبو داود يقول : إذا قلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببه . وقال غيره لا يبتعن إلا ما بعد الصلوة ولكن يبتعن منه ، قال الله تعالى فيه صل الله عليه وسلم ﴿ فَإِنْ عَصَاكَ فَلْيُزَكِّهِ مَا تَكُونُ مِنْهُ ﴾ ولم يقل إني يرى منكم شيئا ، قال شاذلي بن إبراهيم : كان شاب يلزم مجالس أبي الفرج وكان أبو الفرج يبره على غيره ، فاجتنب الشاب بكثرة من الكبراء وانتهى إلى أبي الفرج ما كان منه ، فقيل له : لراي بدينه وجره فقال : سبحان الله لا يترك صاحب شيء كان منه .

قيل : الصداقة كلمة السلب . وقيل لحكم مرة : أيا أحب إليك ، أعزك وأصدق لك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صدقي ، وهذا الخلاف في المقارنة ظاهر أو باطنا ، وأما الملازمة باطنا إذا وقعت المباشرة ظاهرا اختلف باختلاف الأشخاص ، ولا يطلق القول فيه إطلاقا من غير تفصيل ، فمن الناس من كان تقيده رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة ، فيحب يبتعنه وموافقة الحق فيه . ومن الناس من كان تقيده عشرة خدمته وتوقره يرحب بخدمته فلا يبتغي أن يبتعنه ولكن يبتعنه منه في الحالة الحاضرة ، ويحفظ بين الرد منتظرا له الفرج والعودة إلى أوطان الصلح ، فقد ورد : أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم قوم الرجل الذي أتى بفاحشة قال : مه ، وزجرهم بقوله « ولا تكونوا عونا لفلان على أخيك » .

وقال إبراهيم التيمي : لا تطعم أخاك ولا تنهجه عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا .

وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تطعموه وانتظروا فيته » .

وردى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آتاه مخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ما فعل أخى ؟ فقال له : ذاك أخو النبطان . قال له : مه ، قال له : إنه عارف الكبراء ويضع في آخر . فقال : إذا أردت الخروج فأذن ، قال فكتب إليه ﴿ سم نزل الكتاب من الله العزيز العليم فاطر الذنوب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ ثم جابه بحمد ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى وضح عمر ، فتاب ورجع .

وردى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يفتش بينا وشمالا فسأله فقال : يا رسول الله ، أعيت رجلا فأما أطلبه ولا أراه ، فقال : يا عبد الله ، إذا أعيت أحدا فأسأله عن اسم واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان من هنا عذبه ، وإن كان مشغولا أعتبه .

وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما : ما اختلف رجل إلى مجلسي غلافا من غير حاجة تكون له فطعت ما كان له في الدنيا .

وكان يقول لسيد بن العاص : لجلس على ثلاث : إذا نذر حبه به ، وإذا حدث أثبت عليه ، وإذا جلس أوسع له . وعلامة غيوس الريبة لله تعالى : أن لا يكون فيها شامية خط طاهر من رفق أو إحسان ، فإن ما كان سولوا لإدول يزوال عنه ، ومن لا يستد في خطه إلى علة يحكم بدوام خطه .

ومن شرط الحب في الله إظهار الأخ بكل ما يقدر عليه من أسر الدين والدنيا . قال الله تعالى ﴿ يحبون من مخرج إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ فقولته تعالى ﴿ لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي لا يجدون إخوانهم على ما لهم ، وهذا الوصفان هما بكل صفو الغيبة ، أحدهما انزعاج الحسد عن شيء من أسر الدين والدنيا . والثاني : الإيتار بالقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام « المرء على دين خليله ولا خير لك في صفة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .

وكان يقول أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم غير مني . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ، ومن خلقني على منه غير غير مني .

ولبعضهم خطأ : فقال لمن إن تكلمت له يرى ذاك الفضل لا لآله
وجانب صداقة من لم يزل على الأصداق يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون : في آداب الصبيحة والأخوة

مثل أبو حفص عن أبيه الفقراء في الصبيحة . فقال : حفظ حرمات المفاجئ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والصبيحة للأصاغر ، وترك صحبة من ليس في طبقتهم ، وملازمة الإيتار ، ومحبة الأديار ، والمساواة في أمر الدين والدنيا .

عن أبيهم : المتأفلح من زلزال الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه الصبيحة ، وكرم عيب صاحبه ، وإطلاعه على عيب يلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رسم الله أسرا أهدى إلى عباده . وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص من ينه على عيوبه . قال جعفر بن برقان . قال لي ميمون بن مهران : قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه ، فإن الصادق يجب من يصدقه ، والكاذب لا يجب التماسه . قال الله تعالى : (ولكن لا تحيون الناس) والصبيحة ما كانت في السر .

ومن آداب الصوفية : القيام بخدمة الإخوان واحتياال الأذى منهم ، فبذلك يظهر جوهر القدير . وروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع مزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفوان والحيرة ، فقال له العباس : قلدت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضه يديه ، فقال : إذن لا يرده إلى مكانه غير يدك ، ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر ، فأقامه على حاله ورده إلى موضعه .

ومن أدبهم : أن لا يروا أنفسهم ملكا يتصور به ، قال إبراهيم بن شيان : كنا لالصبح من يقول لعل . أخبرنا بذلك رضي الله عن أبي الطاهر عن والده أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا حاتم الصوفي قال : سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك . وقال أحمد بن الفلاس : دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني وبهولوني فقلت يوما لبعضهم : أين إزادى ؟ فسقطت من أحييتهم .

وكان إبراهيم بن آدم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه : أنا لا أندر على هذا . فقال : أجهت صدقك وكان إبراهيم بن آدم ينظر النسيان ويمسك في الحصاد ويتفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استسمه من غير مؤامرة . قال الله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) أي مشاع فيه سواء .

ومن أدبهم أنهم إذا استقروا صاحبوا يمينهم أنفسهم ويتسبون في إلل الله ذلك من يواظبهم ، لأن الطوارء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليمة في الصبيحة .

قال أبو بكر الكتاني : سمعت رجلا وكان على قتيلا ، فوجعته شيئا بآلة أن يروى عنه من قلبي ، فلم يزل ، غلظت به يوما وقلت له : منع رجلك على غصدي ، فأبى ، فقلت له : لا بد من ذلك ، ففعل ذلك فوال ما كنت أجده في يماضي .

قال الرقي : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية .

ومن أدبهم : تقديم من يعرفون فضلهم والترسمة في المجلس والإيتار بالموضع يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في مكة ضيفا ، فجاء قوم من البدوين ، فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم يكن من أهل بدر جلسوا مكانهم ، فاشتد ذلك عليهم فأرسل الله تعالى (وإذا قيل انصرفوا

فانظروا... الآية)

وحكى أن عل بن بشار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن غفيل زائراً قباشياً ، فقال له أبو عبد الله : تقدم ، فقال : بأى عذر ؟ فقال : بأنك تقيت الجديد وما تقيت :

ومن أدبهم : ترك محبة من هم شيء من فضول الدنيا : قال الله تعالى (فأعرض عن قول عن ذكر ناولهم رد ولا الحياة الدنيا) .

ومن أدبهم : بهذا الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف : قال أبو عبد الله الخيري : حق الصبيحة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطلع في ماله ، وتصلن من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف ، وتكون تبها له ولا تطلع أن يكون تبها لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم في الصبيحة : إين الجانب وترك ظهور النفس بالصورة : قال أبو علي الروذباري : الصورة على من فوقك قبة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم : أن لا يجرى في كلامهم : لو كان كلنا لم يكن كلنا وليد كان حكيماً وعسى أن يكون كلنا ، فإهم يرون هذه التقديرات عليه احتراماً .

ومن أدبهم في الصبيحة : حذر المفاخرة والخرس على اللازمة ، قيل : محمد بن رجل رجل ثم أراد المفاخرة ، فاستأذن صاحبه فقال : بشرط أن لا تصعب أحداً إلا إذا كان فوقاً ، وإن كان فوقاً أيضاً فلا تصعبه لأنك محببنا أولاً ، فقال الرجل : زال عن قلبي نية المفاخرة .

ومن أدبهم : التصف على الأصاغر . قيل : كان إبراهيم بن آدم يمد في الحصاد ويعلم الأصاغر ، وكانوا يستمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل : فقاروا إليه : لما لو أن كل قنطرة دونه حتى يعود بعد هذا يسرع ؛ فأنظروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نياماً ، فقال : مساكين لهم لم يكن لهم طعام ، فبعد ذلك شيء من الفتيق فصبه ، فاشبهوا وهو يتفخ في النار وأدماً علبت على القرب ، فقالوا له في ذلك فقال : قلت لملككم لم تفعلوا ففعلوا ففتم ، فقالوا : انظروا بأى شيء عاشوا وبأى شيء يمضوا .

ومن أدبهم : أن لا يلقوا عند الفناء إلى أين ؟ ولم ؟ وبأى سبب ؟ قال بعض العلماء : إذا قال الرجل لصاحبه : قم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فلا تصعب : وقال آخر : من قال لأخيه أعلى من مالك فقال : كزبد ؟ ما قام من الإعلاء وقد قال الشاعر :

لا يسألون أعام حين يندبهم القنايات على ما قال برهان

ومن أدبهم : أن لا يشكفوا للإخوان قيل لما ورد أبو جعفر الرازي تكلف له الجديد أرواما من الأقمشة ؛ فأنكر ذلك أبو جعفر وقال : صبر أصحاب مثل الخنثيت يقدم لهم الأوزان .

والفتوة عندنا ترك التكلف وإسقاط ما حضر : قال : بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الصديق ، وبترك التكلف يستوى مقامه وذعابه .

ومن أدبهم في الصبيحة : المداواة وترك المداواة ، وفيه المداواة لما تفرق بينهما : أن المداواة بالردت به صلاح أخيك فدايته له به صلاحه واحتملت منه ما تكره . والمداواة : ما قصد به شيئاً من الهوى . من حظ أول إقامة جاء .

ومن أدبهم في الصبيحة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط : قل من الناس من الله أن يقول : الانقباض من الناس مكسبة لمداوتهم ، والانبساط إليهم حيلة لقراء السوء ، فكان بين المتقبض والمتبسط .

ومن أدبهم : سر عورات الإخوان : قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أحاكم نائماً فكشف الرمح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره وننطيه ، فقال : بل تكشفون عورته . قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟

قال : أحذركم بسمع في أخيه بالكلمة فيريد عليها ويشيعها بأعظم منها .

ومن أدبهم : الاستغفار للإخوان بظهر النيب ، والاعتناء لم مع الله تعالى في دفع المكروه عنهم .

حكى أن أعور بن إبل أحدهما بهوى فأظهر عليه أعاء فقال : إني ابتليته بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتى فـ
 قاتل ، فقال : ما كنت لأحل عقد إجماله لأجل خطيئته ، وعقد بينه وبين الله عقد أن لا يأكل ولا يشرب حتى
 يباهى الله تعالى من هواء ، وطوى أربعين يوماً كتاباً به عن هواء ، يقول : ما زال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى
 قد زال ، فأكل وشرب .

ومن أدهم : أن لا يخرجوا صاحبهم إلى الدار أو لا يشوه إلى الاختار ولا يتكفروا لمصاحب ما يثق عليه ، بل
 يكونوا لمصاحب من حيث هو مؤثرين مراد المصاحب على مراد أنفسهم . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : شر
 الأصدقاء من أخرجك إلى مدارة أو أهلك إلى اعتذار أو تكلف له .

وقال جعفر الصادق : أفضل إخراجك على من يتكلم في وأحفظ منه وأغفهم على قلب من أكون معه كما أكون
 وحدي ، فآداب الصبية وحقوق الأسرة كثيرة ، والحكايات في ذلك يطول نقلها . وقد رأيت في كتاب الشيخ
 أبي طالب للسك رحمة الله من الحكايات في هذا المعنى شيئاً كثيراً ، فقد أودع كتابه كل شيء حسن من ذلك وساحل
 الجميع : أن العبد ينبغي له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لنفسه ، وإذا صاحب شخصاً فكون محبة إياه
 لله تعالى ، وإذا صحبه فـ تعال محبة له في كل شيء يزيده عتاده زلي ، وكل من قام بمحبة الله تعالى يرضه الله تعالى
 علماً بمعرفة النفس وجوهرها ، ويمزجه بحسن الأخلاق وحسن الآداب ، ويرفعه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه
 في ذلك كله ، ولا يفتره شيء مما يحتاج إليه فيها يرجع إلى حقوق الحق ، وفيها يرجع إلى حقوق الخلق ، فكل نقص
 يوجد من عيب النفس وعدم تكميلها بقضاء صفاتها عليه ، فإن محبة ظلت بالإنفاذ وبالنزعة على أخرى ، وهدمت
 الواجب فيها يرجع إلى الحق والخلق ، والحكايات والنواظ والآداب وسماها على اسم النفس زيادة تأخير ، ويكون
 كثير يقلب فيه للناس من فوق فلا يمكن فيه ولا يتفتح فيه ، وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبه منها ماء الحياة
 وتلقه وتعلت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب يتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون : في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو العجب السهروردي ، قال أخبرنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزيني ، قال أخبرنا كريمة
 المروزية ، قالت أخبرنا أبو الميثم الكشمي قال أخبرنا أبو عبد الله الفريسي ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخاري ، قال
 حدثنا عمر بن حفص ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا الأعمش ، قال حدثنا زيد بن وهب ، قال حدثنا عبد الله ، قال
 حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً لطفة ،
 ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يمسكه الله تعالى إليه ملكاً أربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله
 ورضاه وشرق أم سجد ، ثم يخلق فيه الروح ، وإن الرجل ليمس بعمل أهل النار حتى ما يكون يتبينها إلا الأذراع
 فيسبق عليه الكتاب فيمسك بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليمس بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه
 وبينها إلا الأذراع فيسبق عليه الكتاب فيمسك بعمل أهل النار فيدخل النار » .

وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلاة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) أي حرير لا استقرارها
 فيه إلى بلوغ أمدها ، ثم قال بعد ذكر تخلقها : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قيل هذا الإنشاء تغيي الروح فيه .

واعلم أن السلام في الروح مسبب للمرام والإيماء عن ذلك سبيل ذوي الأسلام ، وقد علم الله تعالى شأن الروح
 وأجمل على الخلق بقية العلم حيث قال : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وقد أخبرنا الله تعالى في كلامه عن إكرامه
 نوحاً فقال : (ولقد كرمتنا آدم) وروى : أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة : يا رب خلقهم يا أكرم
 وديون ويحكمون ، فأجمل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال : وهو في وجلال لأجل ذرية من خلقت يدي كمن
 قلت له كن فكان . فع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى لإمام على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقية

العلم ، ، وقال (ويستوفى من الروح كل الروح من أمر ربي ... الآية) قال ابن عباس : قالت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم : أعبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ وإنما الروح من أمر الله وليكن قول إليه في شيء ، فلم يصعب ، فأما جبرائيل بهذه الآية ، وحيث أسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وما هيته بإضافة تعالى وروحه وهو صفات الله عليه مدد العلم وبنيوع الحكمة ، فكيف يسوع لغيره الخوض في هذا الإشارة إليه لا جرم لما تضافت الأنفس الإنسانية للتطامع إلى الفضول المتشوقة إلى المشغول المتذكر بمرحها إلى كل ما يدر به بالسكون فيه ، والمتشوقة بمرحها إلى كل تحقيق وكل تحويه ، وأحلفت عنان النظر في سائر الفكر ، وغاشت غمرات معرفة ما هيته الروح كانت في الشيء وتنوعت آرائها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والفكر شيء كالاختلاف في ما هيته الروح . ولو زمت النفوس حذفا معقوفة بسببها كان ذلك أجدر بما أولى : فأما التأويل من ليس متمسكا بالشرائع فنفذه الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد وطمعت على الفساد ، ولم يصعب ترو الاعتناء ببركة ثابتة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى (كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ذكروا لا يستطيعون سمعا) ، (وقالوا قربنا في أكنة ما ندعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فحاشبوا عن الانقياد لرسول الله ، وحيث لم يسمعوا لم يمتدوا فأصروا على الجهالات وحجبوا بالمقول عن الأمر ، والنقل حينئذ تعطل يدي بهدوما ويضل به قوما آخرين ؛ فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه .

وأما المستسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح : فقوم منهم بطريق الاستدلال والفكر ، وقوم منهم بلسان النطق والوجد لا باستعمال الفكر ، حتى تكلم في ذلك مضايغ الصوفية أيضا ، وكان الأول الإسهال عن ذكر التآديب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد قال الجليلي : الروح شيء استأثر الله بعلفه ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، ولكن لجعل القاصدين عملا لأقوالهم وأفعالهم .

ومجرد أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى لا باستدلال ، حيث حرم تفسيره بغير تأويله ، إذ لا يصح القول في التفسير إلا نقل . وأما التأويل فتتد العقول إليه بالباح الطويل ، وهو ذكر ماقتضئ الأيمان للعلم من غير القطع بذلك ، وإذا كان الأمر كذلك فنقول فيه وجه ومحل .

قال أبو عبد الله الباقى : الروح جسم يلفف من الحس ويكبر عن الحس ولا يبر عنه بأكثر من موجود ، وهو وإن منع من العبارة فقد حكم بأنه جسم ؛ فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى (ولقد خلقناكم) يعني الأرواح (ثم صودناكم) يعني الأجساد .

وقال بعضهم : الروح لطيف قائم في كَيْف ، كالبحر جوهر لطيف قائم في كَيْف . وفي هذا القول نظر . وقال بعضهم : الروح عبارة واقفام الأشياء هو الحق ، وهذا فيه نظر أيضا لأن يحمل على معنى الإحياء ؛ فنقدنا بعضهم الإحياء صفة الخلق ، كالتعليق صفة الخلق وقال (قل الروح من أمر ربي) وأمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق ؛ أي صار الحس حيا بقوله : كن حيا ؛ وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الجسد ، فإن الأقوال ما يدل على أن كلامه يقتضئ قدم الروح ، ومن الأقوال ما يدل على أنه يقتضئ حدوثه .

ثم إن الناس يختلفون في الروح الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال قوم : هو جبرائيل . ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بذلك اللسان كلها ، ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أن الروح خلق من خلق الله صوره على صورة بني آدم ، وما

زل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح : الروح كهية الإنسان وليسوا جنس .

وقال عجمه : الروح على صورة بنى آدم لم أيد وأرجل ورجوس يأكلون الطعام وليسوا بملأكة . وقال سميد بن جبر : لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يبعث السموات والأرضين السبع في لقمة عمل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة آدميين ، يقوم يوم القيامة عن بين العرش والملائكة معه في صف واحد . وهو عن يمينه لاهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستر من نور لخرق أهل السموات من نورهم ؛ فهذه الأناجيل لا تكون إلا نقلا وسماحا بلنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولذا كان الروح المشلول عنه شيئا من هذا للفقول فهو غير الروح الذي في الجسد ؛ فعلى هذا يسري القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه غريبا .

وقال بعضهم : الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يغير عنه بأكثر من موجود بل يعاد غيره .

وقال بعضهم : الروح لم يخرج من كنه ، لأنه لو خرج من كنه كان عليه الذل . قيل : لن أى شيء يخرج ؟ قال من بين جملة وجلاء سبحانه وتعالى ملاحظة الإشارة خصها بسلامة وحياها بكلامه ؛ فهي بمنزلة من ذل كنه . وسئل أبو سعيد الخزاز عن الروح ، أعطوفة هي ؟ قال : نعم ، ولولا ذلك ما فترت بالربوبية ، حيث قال عليه السلام والروح هي التي قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحياة ؛ ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لأحاجة عليه ولا له ، وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها أنفط المخلوقات وأصغر الجواهر وأنورها وبها تفرأ الغيبات وبها يتكون الكشف لأهل الحقائق ، ولذا حببت الروح عن مراعاة السيرة أساءات الجواهر الأديب ، ولذلك صارت الروح بين عقل واستقرار وقابض ونارح ، وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء ، وقيل الأرواح أناس : أرواح تجول في البرزخ ويمصر أسواق الدنيا والملائكة وتسبح ما يتحدث في السماء عن أعمال الآمين وأرواح تصف العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شامت على أقدارها من السعي إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال : أرواح المؤمنين تلعب في برزخ من الأرض حيث شامت بين السماء والأرض حتى يردوا إلى جسدنا .

وقيل : إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التفتوا وتحننوا وتساءلوا ، وكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء ، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا : لتنتد إلى الله ظاهرا عنه ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى . وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله ، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيلرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بإحسان وإشراقا ، فأنشوا الله تعالى ولا تؤذوا مولاكم .

وبل خبر آخر ، إن أعمالكم تعرض على عشاركم وأقاربكم من الموت ، فإن كان حسنا استهشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لاتنهم حتى يتدبرهم كما حدثنا .

وعلمه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد ، وليس بمجان وأعراض .

سئل الفراسي : لأي علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم الخلق ؟ قال : لأنه خلق روحه أولا فوقع له حبة التمكن والاستقرار ، ألا تراه يقول : كنت نبياً وأدب بين الروح والجسد ، أى لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم : الروح خلق من نور البرزخ ، وإليس من نار البرزخ ، ولهذا قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) ولم يد أن النور خير من النار ، فقال بعضهم : قرن الله تعالى العلم بالروح ، فهي الطائفة التي يد العلم كما يتوابعها بالنفاد وهذا في علم الله ، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك .

والفارق عند أكثر متكلمي الإسلام : أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقاني للإنسان ، ولولا وجودهما ؛ وأن الروح هي الحياة بينما صار البدن بوجودهما ؛ وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا . وتذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مثبته بالأجسام الكثيفة اشتياكاً للموت والأخضر ، وهو اختيار أبي العلال الجويني ، وكثير منهم مال إلى أنه عرض ؛ إلا أنه دهم عن ذلك الاختيار الفاعلة على أنه جسم ، لما ورد فيه من المروج والمهيوط والقرند في البرزخ ، بحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم ، لأن المرض لا يوصف بأوصاف ؛ إذ الوصف معنى والمعنى لا يتقدم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

مثل ابن عباس رضي الله عنهما قيل : أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان ؟ فقال : أين يذهب خبء الصباح عند فناء الأبدان ، قيل له : فأين تذهب الأجسام إذا بليت . قال : فأين يذهب لها إذا مرضت .

وقال بعض من يتم بالعلوم المردودة المدسومة ويسبب إلى الإسلام : الروح تنصل من البدن في جسم لطيف وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الروحية بتوسط الصنفة ، فتكون حينئذ مطالعة للمعاني والمحسوسات ، لأن نهم دعامن حيات البدن عند المفارقة غير يمكن ، وهي عند الموت شاعرة بالموت وتطاولت ؛ متغلبة بنفسها مقبورة ، وتتصور جميع ما كانت تمتقده حال الحياة ، وتنعس بالثوب والغطاء في القبر . وقال بعضهم : أسلم المقالات أن يقال : الروح شيء عظمي أجرى الله تعالى المدة أن يحيي البدن مادام متصلا به ، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد ، كما أن الجسد يتفارقته بشوق للموت ، فإن الكيفية والمادية يتماثل العقل فيهما كما يتماثل البصر في شماع الشمس . ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم : المروجيات محصورة : فقدم وجسم وجودهم ، وعرض قلوبهم من أي مؤلاء ؛ فاختار قوم منهم أنه عرض . وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا ، واختار قوم أنه مقدم لأنه أمر والأمر كلامه والكلام قديم ، لما أحسن الإسلام من القول فيها هذا سبيله . وكلام الفيض أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد ، وهكذا القدر ، لأنه يذكر أن الروح تتحرك للغير ، ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك . وتتحرك للغير ، ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيورى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحديث وجدت أقوال المتأخرين تغير إلى الروح أقول : ما عدى في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به ، إذ ميل في ذلك إلى السكون والإسكان أقول والله أعلم : الروح الإنساني العلوي السبوي من عالم الأمر ، والروح الحيواني البشري من عالم الحلق ، والروح الحيواني البشري عمل الروح العلوي ومورده . والروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة . يبيت من القلب - أعني بالقلب هنا . الخفة النفسية المعروفة للشكل المودعة في الجانب الأيسر من الجسد ، وينتشر في تجاويف الصدر والخصور ، وهذه الروح لشار الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذي قوامه بإجراء مثاقفه بالنداء غالباً يتصرف بهدم لطيفه بهتلا مزايا الأعلاط ولورود الروح الإنساني العلوي على هذا الروح تجلس الروح الحيواني دأين أرواح الحيوانات ، ولا تكتب صفة أخرى فصار نفساً علائق والإلهام . قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها ونورها) فتسويتها ويرود الروح الإنساني عليها وانتطاعها عن جلس أرواح الحيوانات ، فتكونت النفس يتكون الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الأدي من الروح العلوي في عالم الأمر ، فتكون حواء من آدم في عالم الحلق ، وصار بينهما من التألف والتماثل كما بين آدم وحواء ، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى (وجعل منازلاً وجهاً ليسكن في الدنيا) فسكن آدم في حواء ، وسكن الروح الإنساني العلوي في الروح الحيواني وصيره نفساً ، وتكون من سكن الروح إلى النفس القلب ، وأيضاً هذا القلب الطيف التي عليها الخفة النفسية ، فلهذه النفسية من عالم الحلق ، وهذه النفسية من عالم الأمر ، وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر فتكون القدرة من آدم وحواء في عالم الحلق ، ولولا المساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ما تكون القلب ، فن القلب قلب (٢٨ - ملخص كتاب الإحياء)

منطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوي مبال إليه ، وهو القلب الملووف الذي ذكره رسول الفصل افعليه وسلم فيما رواه حذيفر بن اسحق عنه قال : القلب بأربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب مربوط على غلانه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فقل الإيمان فيه مثل البقرة بدمها للواء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القترسة بقدمها النجس والصدید ، فأى السادين غلبت عليه حكمها . والقلب المنكوس مبال إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء . ومن القلب قلب متردد فيه إلى هنا ، وبصبي غلبة ميل القلب يكون حكمه من السادة والشقاوة ، والمثل جوهر الروح العلوي ولسانه والقدال عليه ، وتديره للقلب الملووف والنفس الزكية للطمعة تدير الرائد لوله الباز ، والزوج للزوجة الصالحة ؛ وتديره القلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدير الرائد لوله الباق ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فتكسوف من وجهه ومنجذب إلى تديرهما من وجه ؛ إذ لابد له منهما .

وقول القائلين واختلاصهم في عمل العقل : فن قائل إن عمله الدماغ ، ومن قائل إن عمله القلب كلام القاصرين عن حرك حقيقة ذلك ، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على لسق واحد ، والتعدي إلى البارورة وإلى الباق أخرى ولقلب والدماغ نسبة إلى الباز والباقي ، فإذا روى في تدير الباق قيل مسكنة الدماغ ، وإذا روى في تدير الباز قيل مسكنة القلب ؛ فالروح العلوي بهم بالارتفاع إلى مواء شوقاً وحناً ونزهاً عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس ؛ فإذا ارتقى الروح بمنزلة القلب إليه حثوا لوله الحنين للباز إلى الرائد ، وأمن النفس إلى القلب الذي هو الرائد حين الرائدة الحنية إلى ولدها ، وإذا حثت النفس بالتمسك بالارض وانزوت عروفاً الصارية في العالم السفلي والعلوي هروما وباحسنت ماله وزهدت في الدنيا وتهاجت عن دار القربى وأمايت إلى دار الخلود ، وقد تهللت النفس التي هي الأم إلى الأرض وحسنا الجبل تشكرونها من الروح الحيواني النفس ومستندعا في دكونها إلى الطالع التي هي أركان العالم السفلي . قال الله تعالى (ولو شقنا لرفضاء بها ولكنك أخلفنا الأرض واتبع هواها) فإذا سكنها النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس المذاب لوله الميال إلى الرائدة المعروجة المتناصبة دون الرائد الكامل المستقيم ، وينجذب لروح إلى الرائد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الرائد إلى ولده ، فمعد ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولا . وفي هذين الاتحاديين يظهر حكم السادة والشقاوة (ذلك تدير العزيز المبلى) . وقد ورد في أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ؛ لأنه قلب الروح ، والروح قلب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشي : الروح روحان روح الحياة وروح المات ؛ فإذا اجتمعا عقل الجسم وروح المات هي التي إذا خرجت من الجسد يصير الحي ميتا ، وروح الحياة جارية بجاري الأنفاس ونقطة الأكل والشرب وغيرها . وقال بعضهم : الروح ليس طيب يكون به الحياة ، والنفس رديح حارة تكون منها الحركات الدموية والشهوات ويقال : فلان حار الرأس وفي الفصل الذي ذكرنا يقع التنبيه بماحية النفس ، وإشارة المشايخ بماحية النفس إلى ما يظهر من أفعالها من الأفعال الدموية والأخلاق الدموية ، وهي التي تتألف بحسن الرياضة لإزالتها وتبديلها ، والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة يبدل .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الله عن أحمد بن اسمعيل القزويني ، قال أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبي العباس الخليلي ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد القزويني ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفياني ، قال حدثنا محمد بن الحسن البجلي ، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد الثعلبي ، قال حدثنا صفوان بن صالح ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن هبيرة عن عمار بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية (قد أفلح من زكاه) وقف ثم قال : اللهم أنت نفسى ترواها أنت ولها ومولاها وزكاه أنت خير من زكاه .

وقيل : النفس لطيفة مودعة في القالب ، منها الأخلاق والصفات للنعومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة في القالب ، منها الأخلاق والصفات المصودة ، كما أن البدن محل الرزية والاذن محل السمع والألف محل الشم ، والقلم محل الذوق ، وهكذا النفس محل الأوصاف للنعومة والروح محل الأماني المحمودة ، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصليها وأدماها الطيب ، والثاني الشر ، وطيبها من جهلها ، وشرها من حرصها ، وشبهت النفس في طيبها ككرة مستديرة على مكان أملس مصوب ، لا زوال متحرك بجانبها ووضعها ، وشبهت في حرصها بالفرش الذي يلقي نفسه على صدر الصباغ ولا يتنقذ بالضرورة ، اليسر دون المصوم على جرم الشر الذي فيه هلاكه ، فن الطيب توجد الصفة وثقة الصبر ، والصبر جوهر العقل ، والطيب صفة النفس ، وهواها ودورها لا يتلب إلا الصبر ، إذ العقل يشبع الحمى ، ومن الشر يظهر الطبع والحرص ، وهما اللذان ظهرا في آدم حيث طبع في الخلود ، فحرص على أكل الشجرة .

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسب وصفه ، وقيل وصف الشدة في الأدنى من التراب ، ووصف الجبل فيه من الطين ، ووصف الشهوة فيه من الحماة السنون ، ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله (كالفخار) فهذا الوصف فيه شيء من الشبهة لدخول الفخار في التفتار ؛ فن ذلك الخداع والميل والحاد ؛ فن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرته عليها إلا بالاستمالة بإربابها وقاطرها ، فلا يتحقق العبد بالإسالة إلا بعد أن يدير دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعا باطن في الإقرار والتعريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ، ويؤكد صفات الشبهة فيه والأخلاق للنعومة ، وكما إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ، ثم تكشف له (الأخلاق التي تنزع بها الروبية من الكبر والقهر وروية النفس والسحب وغير ذلك ، فيرى أن حرف اليهودية في ترك الفخار عقلي روية ، والله تعالى ذكر النفس في كلامه بتقديمه إلى الأوصاف ؛ بالطبائفة . قال (يا أيها النفس الطيبة) وسماها لومة ، قال (لا أقسم يوم القيامة ولا أقسم بالنفس الزامة) وسماها أمارة ، فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) وهي نفس واحدة . ولها صفات متنايزة ، فإذا امتلأ القلب سكونة خلع على النفس خلع الطبائفة ؛ لأن السكونية مريد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظيقيين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح توجه النفس إلى محل القلب ، وفي ذلك طبائفتها ؛ وإذا ازدهت من مقام جبلاتها ودواعي طبيعتها منتقلة إلى مقام الطبائفة فهي لومة ؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها نظرها وعليها يحمل الطبائفة ثم انهبها إلى عليها التي كانت في أمارة بالسوء ؛ وإذا أقامت في عليها لا ينشأها نور العلم والمعرفة ، فهي على قلبها أمارة بالسوء ؛ فالنفس والروح يتطاردان ؛ فتارة يملك القلب دواعي الروح ، وتارة يملكه دواعي النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه . ووجدت في كلام القوم أن منهم من جملة بعد القلب قبل الروح . ومنهم من جملة بعد الروح وأصل منها والطيف . وقالوا : السر على المساعدة ، والروح على الهبة ، والقلب على المعرفة ، والسر الذي وسمت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله ، وإنما المذكور في كلامه الروح والنفس ، وتوحي صفاتها والقلب والقواد والعقل ، بحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ، ورأينا الاختلاف في القوم فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه ألعف من الروح ؛ فنقول - والله أعلم - الذي سموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وتركزت المطلق الروح من وفاق ظلة النفس ، فأخذ في الخروج إلى أوطان القرب ، وانزعج القلب عند ذلك عن مستقره منتظما إلى الروح ؛ فاكسب وصفا زائدا على وصفه ، فقصم على الواجبين ذلك الوصف حينئذ هو أصغر من قلب فسوه سرا . ولما صار القلب وصف زائد على وصفه بتقلبه إلى الروح اكتسب الروح صفات زائدا على روحه وانصم على الواجبين فسوه سرا ، والذي دعوا أنه ألعف من الروح : روح متصفة برصف ألخص عما عهده ، والذي سموه قبل الروح سرا : هو قلب انصف برصف زائد غير ما عهده ، وفي مثل هذا الترقى من الروح والقلب ترقى النفس إلى محل القلب ، وتتحد من وصفها تصغير نفسا عظيمة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد ما يريد

مولاه متبرعا عن المحول والقوة والإرادة والاختيار ، وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا من إرادته واختياره .

ولما العقل نهر لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة الروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان . وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدير فأدير ، ثم قال له أقم فقم ، ثم قال له اطلق فطلق ، ثم قال له أصمت فصمت . فقال : وعزق وجلجل وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقا أحب إلي منك ولا أكرم على منك ، بك أعرف وبك أحد ، وبك أطاع وبك أذل . وبك أعل ، ولذا لك أعاب ، ولك الثواب وعليك العقاب . وما أكرمك بشئ أفضل من الصبر ، وقال عليه السلام : لا يسميكم إسلام رجل حتى تدلوا ما خلقه خلقه . . وسألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قلت يا رسول الله : بأي شيء يتفاضل الناس ؟ قال : بالعقل في الدنيا والآخرة . قالت : قلت أليس يجرى الناس بأهوائهم ؟ قال : بأهوائهم ، وهل يصل بيطاعة الله إلا من قد عقل فيقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجرى ، وقال عليه السلام : إن الرجل لينطق إلى المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة ، وإن الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا ، قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال : أروعهما عن محرم الله وأحرصهما على أسباب الخير . وإن كان دونه في العمل والتطوع . .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا ، فإن الرجلين يستوى عليهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالقدر في جنس أحد . .

وروي عن وهب بن منبه أنه قال : إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بده الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنس عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رمة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس في أهمية العقل ، والكلام في ذلك يكثر ، ولا تؤثر نقل الأقاويل ، وليس ذلك من غرضنا ، فقال قوم : العقل من العلوم ، فإن الخصال من جميع العلوم لا يوصف بالعقل ، وليس العقل جميع العلوم فإن الخصال من معلم العلوم يوصف بالعقل . وقالوا : ليس من العلوم النظرية ، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل ؛ فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها ، فإن صاحب الخواص المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم ؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الغافل من ذكر الاستمالة والجواز لا ينصف بكونه غافلا ومن يرى العاقل في كثير من أوقافه غافلا وقالوا : هذا العقل صفة نبيا بهادرك العلوم ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبي وهو من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يثبأ بها يدرك العلوم ، وعلى هذا يقرر ما ذكرناه من أول ذكر العقل : أنه لسان الروح ؛ لأن الروح من أمر الله ، وهي للتحمة للأفان التي أبى السموات والأرض أن يحصيا ، ومنها يفيض نور العقل وفي نور العقل تشكل العلوم ؛ العقل العلوم بمثابة القلح المكتوب ، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النور مارة ومتنصب مستقيم مارة ، فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقه في أجزاء الكون وعدم حسن الاحتشال بذلك وأخطأ طريق الاعتناء ، ومن انتصب العقل فيه واستقام : تأبد العقل بالبصيرة التي هي الروح بمثابة القلب ، واحتدى إلى المكرون ، ثم عرف للكون بالمكرون : مستوفيا أقسام المعرفة بالمكرون والمكرون ؛ فيكون هذا العقل عقل الهداية ؛ فكما أحب الله إقباله في أمره هل إقباله عليه ، وما كرهه الله في أمره هل إقباله عنه ؛ فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويختلف مساعده ، وكلما استقام العقل وتأبد بالبصيرة كانت دلالة على الرشاد ونبيه على النسي .

قال بعضهم : العقل على حريين : حارب يصير به أمر دنياه وحارب يبصر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح ، والعقل الثاني من نور الهداية ؛ فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم ، والعقل الثاني

موجود في المرحل من مفقود من المشركون .

وقيل : إنما سمى العقول عقلاً لأن الجهل ظلة ، فإذا غلب النور بصره في تلك الظلة زالت الظلة فأبصر فصارت عقلاً .

وقيل : قل الإيمان مسكه في القلب ومتممه في الصدر بين عيني القواد ، والذي ذكرناه من كون القلب لسان الروح - وهو قل وأحد ليس هو قل حزين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأييد البصيرة واعتدلو وضع الأشياء في مواضعها ، وهذا القلب هو المستقي ، بنور الشرع ؛ لأن انتصابه واختلافه عناء إلى الاستقامة بنور الشرع ، ليكون الشرع ورد على لسان في المرسل ، وذلك اقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بعينه التي هي الروح بمثابة القلب بقدرته الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة ، والبصيرة تحيط بالعلوم التي يتوسعها العقل والتي يعيق عنها لطاق العقل ، لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفذ البحر دون غامضا ، والعقل ترجح أن تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا ، كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر بمعنه دون اللسان ، ولهذا المعنى من جدد على بهر العقل من غير الاستقامة بنور الشرع حتى يلوم الكائنات التي هي لذلك ، والمالك طاهر الكائنات . ومن استعاد عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملوك ، والملوك تبطل الكائنات اختص بكاشفة أورباب البصائر والعقول بدون الجامدين على مجرد العقول ، وقد قال بعضهم : إن العقل عقلان ، قل الهداية مسكه في القلب وذلكة للمؤمنين المؤمنين ومتممه الصوريين عيني القواد ، والعقل لأخر مسكه في الدماغ ومتممه في الصدر بين عيني القواد ، فبالأول يدبر أسر الأخيرة ، وبالتالي يدبر أسرها كلها ، والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأييد بالبصيرة في الأمرين ، ولذا انفرد بدبر أسر واحد وهو أوضح وأبين . وقد ذكرنا في أول الباب من تدبير نفس الخسنة والأمانة ما يليه الإنسان به على كونه عقلا واحدا وهذا بالبصيرة تارة وتفرقا برهغه تارة . والله الموفق للصواب .

الباب السابع والخمسون : في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو العجب السهروردي ، قال أخبرنا أبو القاسم الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترميقي ، قال أخبرنا أبو محمد الجرجاني ، قال أخبرنا أبو العباس الخيري ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال أخبرنا هناد ، قال أخبرنا أبو الأسود عن عطاء بن السائب عن مرة الحماني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان لما بنى آدم تلك المكة ، فأما قنقشيطان فلما عاد بالشر فكذب بالحق ، وأما لهلك فلما عاد بالخير ولصديق الحق ، فوجد ذلك عظيم آمن الله فليحسب الله ، ومن وجد الأخرى فليحسب الله من الشيطان ، ثم قرأ (الشيطان يدرك الغفور ويأسر بالفتنة) ، وإنما ينطق إلى معرفة المتنبي تمييزاً لخواطر طالب البريد يشوق إلى ذلك مصروف الشيطان إلى الماء ، لما علم من وقع ذلك من خطر وملاحا لخواصه وفادته ، ويكون ذلك بعد أرباب الخطوة بصغر الشين ومنع الموقنين ، وأكثر التصوف إلى ذلك للفرق بين ومن أعذب كل طريق الأرباب يشوق إلى ذلك بعض التصوف ، لأن التصوف إليه يكون على قدر الحمة والطلب والإرادة والخط من الله الكريم ، ومن هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا ينطق إلى معرفة المتنبي ولا يهتم بتمييز الخواطر ، ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد ، كما قال بعضهم : لي قلب إن صيته صيته الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، واستقامة القلب الطمأنينة النفس ، وفي طمأنينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كادت صفو القلب ، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه ، لأن صفاء القلب صفو بالتذكر والرحابة ، ولذا ذكر نور بنقيته الشيطان كما فعل أحدنا آثار ، وقد ورد في الخبر : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فلذا ذكر الله تعالى قول ونفس ، وإذا غفل التفت قلبه لحده ومناه ، وقال الله تعالى (ومن يمش على ذكر الرحمن فيض له شيطاناً فهو له قرين) وقال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا سئط على من الشيطان تذكروا فلما هم معصرون) فيالتفوي بوجود عائل الذكر ، وبما ينتج

بأبه ، ولا يزال العبد يتق حتى يصح الجوارح من السكره ثم يصحبها من الفضول ومالائيمه ، فتصير أفعاله وأفعاله ضرورية ، ثم تقتل شهاده إلى باطنه ويظهر الباطن ويقيده عن السكره ثم من الفضول ، حتى يتق حديث النفس . قال سهل بن عبد الله : أسوأ للمعاصي حديث النفس ، ويريح لاصحابه إلى ما قلعت به النفس ذنباً فينتيه ، ويقتد القلب عند هذا الإخماد بالذكرا فإفاد السكراك في كبد السياه ، ويصير القلب ساء محظوظاً بزيئة كواكب الذكر ؛ فلذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يتدرج في حقه الخواطر الشيطانية ولما له ، ويكون له خواطر النفس ويحتاج إلى أن يتقدم ويرجع بالعلم ، لأن منها خواطر لا يضر إيمانها ، كطالبات النفس بجانيها ، وحاجاتها تقسم إلى المحنوق والمحظوظ ، وبين التمييز عند ذلك وإتمام النفس بطالبات المحظوظ . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بطلباً فتنوا) أرى فتنتوا ، وسبب نزول الآية الوليد بن عتبة حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني الصمط فكتب عليهم ونسبهم إلى الكفر والصبيان ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلهم ، ثم بعث عالماً إليهم فسمع أذان المغرب والمشاء ، ورأى مابل على كذب الوليد بن عتبة ؛ فأرسل الله تعالى الآية في ذلك ؛ فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تنبيهاً من الله عياده على التنبه في الأمور . قال سهل في هذه الآية : الفاسق الكذاب ، والكاذب حفة النفس لأنها تملأ أشياء وعسرل أشياء على غير حقائقها ، فتبين التثبت عند خاطر حوافر فتبتها فيجعل العبد خاطر النفس بأى يوجب التثبت ولا يستغفره الطبع ولا يستسيبه الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تنف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تنف عند الشهوة .

ومن الأدب عند الاشياء : إزالة الخاطر بمحركات النفس وعالقتها وبارتيا وقاطرها ؛ وإظهار الفخر والفاقة إليه ، والاضراب بالجهل وطلب المرفعة والعزيمته ، فإنه إذا أزيلت الأدب ينشأ ويمن ، ويتبين لعل الخاطر لطلب سطو أو طلب حق ؛ فإن كان الحق أصناه ، وإن كان السطو فناء ، وهذا التوقف إذا لم يبين له الخاطر بظاهر العلم ؛ لأن الاقتدار إلى باطن العلم عند فقدان دليل في ظاهر العلم ، ثم من الناس من لا يسه في صمته إلا لالوقوف على الحق دون الخط وإن أمضى خاطر الخط يصير ذلك ذنب ساء له فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب .

ومن الناس من يدخل في تناول المحظوظ معنى خاطره مجرد علمه من الله . وهو علم السعة لمبدأ دون لفق السعة عليها إلاذن ؛ فيصير خاطر الخط ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويعليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بماله حكم لعل الحال ، وعلم القيام لا يقاس على ساءه ولا يدخل فيه بالتقليد ؛ لأنه أمر خاص لمبدء خاص ، وإذا كان شأن المبدئين خواطر النفس في مقام تغلبه من لسات الشيطان تكرار به خواطر الحق وخواطر الملك ، وتصير خواطر الأريمة في حقه ثلاثاً وينقط خاطر الشيطان إلا نادراً لطيق مكانه من النفس ؛ لأن الشيطان يدخل بطريق إصباح النفس ، وإصباح النفس بإصباح الهوى والإخلاء إلى الأرض ، ومن حقائق النفس على التمييز بين الحق والخط وحاشيت نفسه ومقط على الشيطان إلا لافراد الخول الإبتلاء عليه ؛ ثم من المرادين المتملقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء من رتباً بزيئة كوكب الذكر ، يصير قلبه سماءاً يتدرج ويرجع بباطنه ومناو حقيقته في طبقات السموات ، وكلما ترقى تتعامل النفس المعشوقة به عن خواطر حاشية بأمور السموات ويرجع بباطنه ، كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهرة وقالبه ؛ فلذا استكمل الخروج تقطع عنه خواطر النفس التمرير القريب ويحدث عنه النفس وعند ذلك تقطع عنه خواطر الحق أيضاً لأن الخاطر ورسوله رسالة إلى من بعد وهذا قريب ، وهذا الذي وصفناه تازل يزل به ولا يدوم ، بل يعود في هيرطه إلى مثازل معطالات النفس وخواطرها فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك ، وذلك أن الخواطر مستند على وجودها ، وما أمراً إليه حال الفناء ولا خاطر فيه ، وخواطر الحق اتنى لشكان القرب ، وخواطر النفس بعد عنه لبدء النفس ، وخواطر الملك تخلف عنه كخلف جبريل في لقاء المراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : لردو حاشية لا تحرق . قال محمد بن علي الرمضى : الحديث والمحكم إذا تحققتا درجتهما يتقانا من حديث النفس ؛ فكما أن الثيرة محنوقة من إلقاء الشيطان كذلك عمل المسكافة والحادة محنوقة من إلقاء النفس وفناتها وعروسها بلحق والسكينة ؛ لأن السكينة

حجاب للتكلم والمحدث مع نفسه .

وصحمت الفتيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبررة يقول : الخواطر أربعة : عاطف من النفس ، وعاطف من الحق ، وعاطف من الشيطان ، وعاطف من الملك . فأما الذي من النفس : فيحس به من أرض قلب ، والذي من الحق : من فوق القلب ، والذي من الملك : من بين القلب ، والذي من الشيطان : من يسار القلب . والذي ذكره إنما يصح لهدأ ذناب نفسه بالتقوى والزهد ، وتقصي وجوده ، واستقام ظلمه وهايك ، فيكون قلبه كالآلة المجردة : لا يأبىه الشيطان من ناحية إلا ويصبره ، فإذا أسود القلب وعلاه الزين لا يبصر الشيطان .

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله إذا أذنبت نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن توبع واستغفر وتاب عتق وإن عاد زيد فيه حتى تملأ قلبه . قال الله تعالى (كلا بل إن على الجرحم ما كانوا يكسبون) صحمت بعض المعارف يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال : الحديث في بامتن الإنسان . والحال الذي يراه لياحه وغيبيل بين القلب وصفاء الذكر : هو من القلب وليس هو من النفس ، وهذا بخلاف ماقرر ، فسأله عن ذلك : فذكر أن بين القلب والنفس متاعاً وعادات وأتقاً وتودداً ، وكلما انطقت النفس في شيء يهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكسر ، فإذا جاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وعمل نجاتها وعندهم له تعالى ، أقبل القلب بالمناجاة للنفس ، وذكر النفس شيئاً من فعلها وقولها كاللحم للنفس والمناجاة لها على ذلك ، فإذا كان الخاطر أول الفعل وعنته لفرقة من أهم شأن العبد ، لأن الاتصال من الخواطر نشأ ، حتى ذهب بعض السلف إلى أن العلم المفترض عليه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ، هو علم الخواطر ، قال : لأنها أول الفعل ، ويضادها فساد الفعل ، وهذا لعمري لا يتوجه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم ، وليس كل المسلمين يتقدم من التفرقة ، والفرقة ما يهرفون به ذلك ، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر ، فيها ما هو بذر السادة ، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا غاس لها : إختلاف البينين ، وأولة العلم بمرقة صفات النفس وأغلتها ، أو متانة الهوى بقرم قواعد التقوى ، أو رغبة الدنيا جاهها وما لها وطلب الرضا والمقربة عند الناس . فن صم من هذه الأربعة : يفرق بين له المأكولة الشيطان . ومن ابتلى بها : لا يملها ولا يطلبها ، وانكشف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أنهم همرة النفس ومعرفتها صعبة الحال لا تكاد تبهر إلا بهد الاستقصاء في الزهد والتقوى .

وافلق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو جعفر النفاق : من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة ، وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد ، وذلك أن من المعلوم ما يتسمه الحق سبحانه وتعالى لابد يؤذن يسبق إليه في الأضمة والتفتوت به ، ومثل هذا المعلوم لا يجيب عن تمييز الخواطر إنما ذلك يقال في حق من دخل في معلوم باختياره وإلثار ، لأنه يتحجب بوضع اغتياره ، والذي أشرنا إليه منسلف من إرادته فلا يصحبه المعلوم .

وفرقا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان ، وقالوا : إن النفس تطالب وتلع ، فلا تزال كذلك حتى تفصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يصب بوسوس بأخرى ، إذ لا غرض له في تخصيص ، بل مراده الإغواء كيفاً أمكنه . وتكلم الشيوخ في الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع ؟ قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء : الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبد الله ابن خفيف : هما سواء لأنهما من الحق فلا منة لأحدهما على الآخر .

قالوا : الزايدات أهم من الخواطر ، لأن الخواطر تنقسم بنوع خطاب أو مطالبة ، والزايدات تكون نارة خواطر وعلامة تكون ولود سرود ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط .

وقيل: في التوحيد قبل الخاطر من الله تعالى، وبور المعرفة قبل من الملك، وبور الإيمان بنهى النفس، وبور الإسلام يرد على البدن. ومن قصر عن ذلك حقائق الوعد وأطلع إلى تمييز الخواطر بوزن الخاطر أولا ببيان الشرع، فإن كان من ذلك فلا أفرحاً بمضيه، وما كان من ذلك حرماً أو مكروهاً بنهيه؛ فإن استوى الخاطر انقضى فطر العلم بنفذه أقرباً إلى عاقبة حوى النفس، فإن النفس قد يكون لها حوى كامل في أحدهما، والقالب من شأن النفس الانحراج والركون إلى البدن، وقد يلم الخاطر بشلط النفس والبدن يظن أنه يتنوض القلب، وقد يكون من القلب تفاق يسكنه إلى النفس، ويقول بعضهم: متعشرين سنة ماسكن ظلي إلى نفس ساحة، فيظهر من سكن القلب إلى النفس خواطر تشبه خواطر الحق بل من يكون ضعيف العلم، فلا يدرك نفاق القالب والخواطر المتولمته إلا العلماء القاصون، وأكثر ما يدخل الآيات على أرباب القلوب والأخمين عن اليقين واليقظة والحال يسهم من هذا القبيل، وذلك لفة العلم بالنفس والقلب وشاء نصيب الحوى فيهم.

ويبين أن يعلم البدن لقطعه مما بين عليه أو من الحوى وإنه قد وفى على بحسب بقية من اشتباه الخواطر، ثم قد ينط إلى تمييز الخواطر من هو قليل العلم، ولا يؤخذ بذلك عالم يكن عليه من الشرع مطابقة، وقد لا يسمع بذلك بعض الفالطين ما كوشوا به من دقيق الحفاء في التمييز، ثم استعالم مع طهم وطفة انتبث.

وذكر بعض العلماء أن لفة الملك ولة الشيطان وجدنا حركة النفس والروح، وأن النفس إذا تحركت انتدح من جوهرها ظلة تتكف في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القالب فيقبل بالإغواء والوسوسة، وذكر أن حركة النفس تكون إما حوى وهو ما جل حظ النفس، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي، أو دعوى حركة أو سكن وهي آفة العقل وهمة القلب، ولا رده هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة: بهول، أو غفلة، أو طلب فضول. ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب فيه، فلما ترديت لاف مأمور أو مل وفق منى. ومنها ما يكون نفعاً فنية إذا وردت بإحداث، وذكر أن الروح إذا تحركت انتدح من جوهرها نور سامع يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة: إما بمرض أمر به، أو بفضل تدب إليه، وإما بإباح يعود صلاحه إليه، وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس مماثلت جيتان للتين. وعدى واقع أطم أن التين يتقدم على حركة الروح والنفس، لحركة الروح من لفة الملك، والهمة المائلة من حركة الروح، وهذا الحركة من الروح حركة لفة الملك. وحركة النفس من لفة الشيطان ومن حركة النفس الهمة النقية، وهي من شؤمة الشيطان. فلما وردت اللتان ظهرت الحركتان وظهر سر المعطاء والابتلاء من معط كرم وميل حكيم. وقد تكون هاتان اللتان متداكنتين وينسب أثر أحدهما بالآخرى. والمتنطق لتيقظ ينتفع عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس، ويبقى أبداً متفقداً حاله مطالعة آثار اللتين.

وذكر خاطر خامس: وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الآرية، يكون مع النفس والبدن لوجود التمييز وإبانت الحجة على البدن، ليدخل البدن في الشيء بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والقالب، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع العقل اعتباراً ويستوجب به الثواب.

وذكر خاطر ساس: وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومن يد العلم، ولا يمدان يقال: الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك، وتارة من خاطر النفس، وليس من العقل خاطر على الاستقلال، لأن العقل كذا كرنا غريزياً بجاذبات العلوم ونهياً بها الانجذاب إلى دعوى النفس تارة تدعى الملك تارة، وإلى دعوى الروح تارة تدعى الشيطان تارة فضل هذا لأن هذا الخاطر على آرية، ودور لافه من الله عليه وسلم يذكر غير المعين، وهاتان اللتان هما الأصل، والخواطران الآخران فرع عليهما، لأن لفة الملك إذا حركت الروح واحتوت الروح بالهمة الصالحة قريب أن تنهت بالهمة الصالحة إلى سطر القرب، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق، وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالقناء، فنبت الخواطر الربانية عند ذلك، كما ذكرناه قبل لموضع قريب، فيكون أصل خواطر الحق لفة الملك، ولة الشيطان إذا حركت النفس هوت ههبتها إلى

مركزها من الفيزية والطبع ، فظهر منها حركتها خواطر ملائمة لفرزتها وطبيعتها هوأما ، فصارت خواطر النفس نتيجة لة الصيغان : فأصلها لثان وينشجان آخرين ، وخواطر اليقين والمقل مندرج فيها . والله أعلم .

الباب الثامن والخسون : في شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد ذكر الاشباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ، ووجود الاشباه لمكان تقابلهما في نفسها وتداخلهما ، فترامى البعض الشيء حالا وترامى البعض مقاما ، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما بولابد من ذكر جانب يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق ؛ فالحال معنى حال التحول ، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيء بهيته حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن يبيت من بطن العبد داعية محاسبية ، ثم يزول الداعية بنزلة صفات النفس ثم تعود ثم تزول ، فلا يزال العبد حالاً محاسبية يتساهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتوارك اللونة من الله الكريم ويهبط حال المحاسبية وتظهر النفس وتسيطر وتتملكها المحاسبية فتصير المحاسبية وطته ومستقره ومقامه ، فيصير في مقام المحاسبية بعد أن كان له حال المحاسبية ، ثم ينازل حال الرافقة ؛ فمن كانت المحاسبية مقامه يصير له من الرافقة حال ، ثم يحول حال الرافقة لتناوب السور والتفلة في باطن العبد إلى أن ينقطع حجاب السور والتفلة ويتوارك الله سبحانه بالمسورة ، فتصير الرافقة مقاماً بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبية قراره إلا بتنازل حال الرافقة ، ولا يستقر مقام الرافقة قراره إلا بتنازل حال المشاهدة ؛ فإذا منح العبد بتنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وحاصلت مقامه ، وتنازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستقرار ويظهر بالتجمل ، ثم يصير مقاما وتنخلص شبه عن كسوف الاستتار ، ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وتزيقات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالقناء والتخلص إلى البقاء ، والفرق من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يفرق شفاف القلب وذلك أهل فروع المشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أسألك إيمانا يثبت قلبي .

قال سهل بن عبد الله : القلب بحر فنان ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسوذاؤه ، والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل في القلب مثل النثر في العين ، وهو مقال للموضع مخصوص فيه بزيادة الصقال الذي في سواد العين ، ومنه تلبثت الأشعة المحيطة بالمريات ، فهكذا تلبثت من فطر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التي غرقت شفاف القلب ووصلت إلى جودياته وهي حق اليقين ؛ هي أسس السلطان وأعر الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كغلبة الأجز من القرب ، إذ يكون تراباً ثم طينا ثم لبناً ثم أجراً ؛ فالمشاهدة هي الأول والأصل ، يكون منها القناء كالطين ، ثم البناء كاللبن ، ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالتين أشرف الأحوال وهي محض موعة لاكتساب سميت كل المواهب من التوازن بالمبدء أحوالا ، لأنها غير متدورة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول وتداولت أئمة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلهما مواهب ، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب ، والمواهب محفوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب ، وفي الأحوال بطل الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب عفوية سبابة ، والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سلوني عن طرق السموات فأني أعرف بها من طرق الأرض ؛ إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات للثبوت والوحد وغير ذلك من المقامات . فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سائرا ، وهي طرق السموات ومتنزل البركات ، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سائر . قال بعضهم الحال هو الذكر الحقي ، معنا إشارة إلى شيء بما ذكرناه ، وصممت الشياخ بالمراتب يقولون : الحال مامن الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا مامن العبد ، فإذا لاح المرید شيء من المواهب والمواجيد قالوا : هذا مامن الله ، ومهمه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موعة .

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال موارث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبرق ، فإن بقي حديث النفس ، وعنا لا يتكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال قلما . فطرق ثم تستلبها النفس ؛ فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لا تنفج بالنفس كالصنع لا يتفج بالنفس .

وزعم بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت ، فأما إذا لم تدم فهي لوانح وطوائع ويراد : وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلف للشافع في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه .

وقال بعضهم : لا يتكامل للمقام الذي هو فيه إلا بعد ترقية إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأول أن يقال : - والشافع - : الشخص في مقامه يمتلئ حالا من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي إليه ، فبرجنان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقي أولا يرتقي ، فإن العبد بالأحوال يرتقي إلى المقامات ، والأحوال مراهب ترقى إلى المقامات التي يتفج فيها الكسب بالمروية ، ولا يلوغ العبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقية إليه ، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات زاحا الأحوال ، قبل ما ذكرناه يتضح بداخل المقامات . الأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا أنها حال ومقام ، وفي الزهد حال ومقام ، وفي التوكل حال ومقام ، وفي الرضا حال ومقام .

قال أبو عثمان الميرزى : منذ أربعين سنة ما أغنى الله في حال فكرته ، أشار إلى الرضا ويكون متحالا ثم يصير مقاما ، والجهة حال ومقام ، ولا يزال العبد يقترب بطرق حال التوبة حتى يتوب ، وطرق حال التوبة بالآزجار أولا قال بعضهم : الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الاتيان من النقلة فيرده إلى اليقظة ، فإذا نيط أبصر الصواب من الخطأ . وقال بعضهم : الزجر ضيق في القلب يصير به غطلا فصد . والزجر مقدمة توبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق العقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينازل الثالث حال الزجر ، وهي موهبة من الله تعالى تفوده إلى التوبة ، ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يحسوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما ، وهكذا في الزهد لا يزال يتقدم بذلة حال توبه لذة ترك الاشتغال بالديار وتيسر له الإقبال عليها ، فتسحر أثر حاله بدلالة شدة النفس وحرسها على الدنيا وورقة العاجلة حتى تتدارك العبرة من الله الكريم ، فيزهد ويستقر زهده . ويصير الزهد مقاما ، ولا يزال ملازمة حال التوكل تفرغ باب قلبه حتى يتوكل ، وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ، ويصير ذلك مقاما ، ومنها لطيفة : وذلك أن مقام الرضا والتوكل يشبه حكم يقاومه مع وجود داعية الطبع ، ولا يصح بمقاه حال الرضا مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يمدحها الراضى بحكم الطبع ، ولكن عليه بمقام الرضا ينمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المنصورة بالعلم لا يفرجه عن مقام الرضا ، ولكن يفقد حال الرضا لأن الحال لا تخرج من موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال : كيف يكون صاحب مقام في الرضا لا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت ، تقول : لأن المقام لما كان مغربا بكسب العبد احتمال وجود الطبع فيه ، والحال لما كانت موهبة من الله زهدت عن مرج الطبع حال الرضا أشرف ، ومقام الرضا أمكن ، ولابد للمقامات من زاحم الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال .

وأما الأحوال فهما يصير مقاما ، ومنها ما لا يصير مقاما ، والسر فيه ما ذكرناه : أن الكسب في المقام ظهور والموهبة بطن ، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن ، فلا كان في الأحوال الموهبة غالباً لا يتبدد وصار الأحوال إلى ما لانهاية لها ، ولطف سنن الأحوال أن يصير مقاما ، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومراعيه غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى ومكة موسى وغلة إبراهيم عليه السلام لطلبه ما وراء ذلك ، لأن مواهب الله

لا تنحصر ؛ وهذه أحوال الاتياد ولا تقطع الأولياء . ولكن هذه إشارة من القائل إلى دولام تطلع القبر ، وتطلب وعدم قناعتة بما فيه من أسرار الحق تعالى ؛ لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه به على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستزال بركة التزبد بقوله عليه السلام : كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك لي في صبيحة ذلك اليوم . . وفي دعائه صلى الله عليه وسلم : اللهم ما قصرته وأبى وحذفته عني ولم تزلني تبيد وأنتين من غير وعدة أحدا من عبادك أو غير أنت عطية أحدا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه .

فأعلم أن مواعيد الحق لا تنحصر ، والأحوال مواعيد وهي متصلة بكمالات الله التي يتبدد البحر دون تقادما وتنفد أعداد الزمانيون أعدادها . والله للشم المصطفى .

الباب التاسع والخسون : في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب السهروردي رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور بن غير بن إجازة ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ماعد ، قال أخبرنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا الميثم ابن جميل ، قال أخبرنا كثير بن سلم اللداني ، قال سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، إني رجل خرب البان وأكثر ذلك على أهل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أنت من الاستغفار ؟ فقلت استغفر الله في اليوم واليلة مائة مرة ، وروي أبو حمزة رضي الله عنه في حديث آخر ، فقلت استغفر الله وأترب إليه في كل يوم مائة مرة ، وروي أبو بردة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لينان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة .

وقال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) وقالاه عرجيل (إن الله يصب التوابين) وقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا لله توبة نصوحا) التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهي أول المقامات ، وهي بمثابة الأرض للبناء ؛ فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له ؛ ولأنه يبلغ على قدر وسمى جهدي اعتبر المقامات والأحوال الوترتها ؛ فرائينا بمسما ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وصموده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة ، ثم رابعتها في إقامة الولادة المنورية الحقيقية بمثابة الطليع الأربع التي جعلها الله تعالى لإجراء سنته مفيدة للولادة الحقيقية ، ومن تحقق بمقتضى هذه الأربع يبلغ ملكوت السموات ويتكاشف القدر والآيات ، ويصير له ذوق وفهم لكمالاته تعالى الملائكة ومجمل جميع الأحوال المقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها نيات وتأكدت ، فأخذ الثلاث بعد الإيمان ؛ التوبة النصوح . والثاني : الزهد في الدنيا . والثالث : تحقيق مقام السبوة بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقائية من غير تنور وقصور ، ثم يستبان على إتمام هذه الأربع بأربعة أخرى بها تتماها وقوامها ؛ وهي لغة الكلام ، و لغة الطعام ، و لغة المنام ، والاعتزال عن الناس . وافتح العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال ، وبها صار الابدال أبدا لا يتأيد الله تعالى وحسن توفيقه . وبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج في صفة هذه ، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها ، ألوما بعد الإيمان ؛ التوبة ، وهي زبدل صحتها تنفتح إلى أحوال وإذا صححت فتشتمل على مقامات وأحوال ، ولا بد في ابتنائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال ، لأنه موجهة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواعيد ، وحال الزجر مفتاح التوبة ويبدلها .

قال رجل لبشر الحاني : مالي أراك مهوسا ؛ قال : لأنني ضال بالمطلوب ، خلت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ولو تبعت كيف الطريق إلى المقصد فقلت ، ولكن سنة النفقة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا لأن أزر فأزجر وقال الاسمى : رأيت أعرابيا بالبرية يشكك فيه وما يسيل من الماء ، فقلعت : لا تسبح عبيلك ؛ فقال : لا ؛ لأن الطليع زجرني ، ولا غير فيمن لا يزجر .

فأراحر في الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولابد من وجودها التائب ؛ ثم يبد الاثر بها بعد العبد حال الانتباه . قال بعضهم : من لزم مقالة الطوارق انقب . وقال أبو يزيد : علامة الالتقاء بحس : إذا ذكر نفسه انقصر ، وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر للول انقصر .

وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انقب العبد من وقته غفلة أثناء ذلك الانتباه إلى التيقظ ؛ فإذا تيقظ أزمه يتقنه الطلب لطريق الرشد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ثم يعطى بالتباه حال التيقظ .

قال فارس : أولى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خطا المدك بعد مشاهدة سبيل النجاة .

وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة طردة من جهة المول لتقريب الخاطئين بطلب التوبة ، فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة ؛ فهذه أسرار ثلاثة تقدم التوبة ؛ ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى الحاسبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بالحاسبة .

نقل عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا قبل أن توزنوا ، وزنوا المرضي الأكبر علياً (يرمى المرعون لا تخفى منك عافية) بالحاسبة يحفظ الأنفاس ويضبط الخواص ورعاية الأوقات وإثبات المهمات ، ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلية رحمة منه لئله سبحانه يهده واستيلاء الفتنه عليه ، كي لا يستعبد الهوى ؛ تسترته الدنيا ؛ فالصلوات الخمس سلسلة تهذب النفوس إلى مواطن البوردة لأداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسب الحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ، ويسد مدخل الشيطان بحسب الحاسبة والرعاية ، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار ؛ لأن كل كلمة وسكرة على خلاف الشرع تنكس في القلب نكسة سوداء وتمتد عليه صدقة ، ولتتخذ الحاسبة بـ "الباطن للصلاة بعطش الجوارح ويحقق مقام الحاسبة ؛ فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته مشرقة تأمل بنور وقته ، ووقته منورا مغمورا بنور صلاته .

وكان بعض الحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ، ويضع بين كل صلاتين بيانا ، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة شبيهة أو أمر آخر خطا ، وكلما تكلم أو تحرك فبها لا يمتنع تقطع قطعة ، ليتميز ذنوبه وسركاته فيما لا يمتنع لتشيق الحاسبة بحار الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الاقتداء وحرصه على تحقيق مقام العباد ، وهذا مقام الحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي : أي الأعمال أفضل ؟ قال : مراعاة السر ، والحاسبة في الظاهر ، والمراقبة في الباطن ، وبكل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبة . والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفيين يصحان بحصة مقام التوبة ، وتستقيم التوبة على الكمال بهما ؛ فصارت الحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة (إجازة عن ابن خلدون) أن قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت الحسن الفارسي يقول : سمعت جابر بن عبد الله يقول : أمرنا نحن مثنى على فصلين ؛ وهو أن نلزم أنفسنا المراقبة لله تعالى ، ويكون القلب على ظاهره كقائما وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق في كل لحظة ولقطة . قاله تعالى (الذين هموا قائمون على أنفسهم بما كتبت) وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال وحرقة الزيادة والتفحص ؛ وهو أن يعلم ميار حاله في بيته وبينه ، وكل هذا ملازم لصحة التوبة ، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات الدائم ، والدوام مقدمات الأعمال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحريك القلب ، وإرادة الجوارح حسم مواد الخواطر الرديئة ، فصار من تمام المراقبة التوبة ، لأن من حصر الخواطر كسبي مؤونة الجوارح ، لأن بالمراقبة اصطلاح عروق لإرادة السكره من القلب ، وبالحاسبة استدراك ما انحلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلي قال : سمعت أبا عيان القرني يقول : أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالملم ، وإذا صحت التوبة صحت الإجابة .

قال إبراهيم بن آدم : إذا صحت العبد في توبته صار متبياً ، لأن الإجابة تأتي درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرني : التائب الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله .

قال بعضهم : الإجابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره ، فمن رجع من غير ما إليه صبح أسد طرق الإجابة ، والتائب على الحقيقة : من لم يكن له مرجع سواء فوجع إليه من دجوهه ، ثم يرجع من دجوعه ، فينبغي تبيحاً لا وصف له تماماً من يدى الحق مستغرقاً في عين الجمع وغفلة النفس وورثه عيوب الأعمال . والمجاهدة تتحقق بالمراقبة والمراقبة .

قال أبو سليمان : لما استحدثت من نفسي عملاً فأحبته ، وقال أبو عبد الله السجزي : من استحسن شيئاً من أحوال الدنيا حال إرادته فسدت عليه إرادته ، إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيعرض نفسه ثانياً ومن لم يزن نفسه بين أن الصدق في الله وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال . وورقة عيوب الأعمال من ضرورة صحة الإجابة وعرف تحقيق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة إلا بصديق المجاهدة . ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن حديد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المجاهد من جاهد نفسه ، ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وأفضل الصبر الصبر على الله يكوف الحلم عليه ، وصدق المراقبة بالقلب ، وجسم موافق الحواسم . والصبر ينقسم إلى فرض وفصل ، فالفصل كالصبر على أداء المفترضات ، والصبر عن المحرمات .

ومن الصبر الذي هو فصل : الصبر على الفقر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وكتمان الصواب والأوجاع ، وترك التفكير ، والصبر على إخفاء الفقر ، والصبر على كتم اللبس والكرامات وورقة العبد والآيات .

ووجود الصبر فرحاً وفصلاً كثيرة ، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأنعام من الصبر ، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والمراقبة ، وفي الحواسم ، فإذا حقيق الصبر كائناً في التوبة كيتورة المراقبة في التوبة ، والصبر من أحوال مقامات اللوطين ، وهو داخل في حقيقة التوبة .

قال بعض السلف : أي شيء أفضل من الصبر - وقد ذكرناه آتالاً في كلامه في ثيف ونسجين موضعاً ، وما ذكر شيئاً بهذا العدد وصحة التوبة أصح على مقام الصبر مع شرفه .

ومن الصبر : الصبر على التمس : وهو أن لا يصرفها في مصيبة الله تعالى ، وهذا أيضاً داخل في صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العاقبة أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصالحين : بلينا بالفساد فصبونا ، وبلينا بالفساد فلم نصبر .

ومن الصبر : رعاية الاقتصاد في الرضا والنضب ، والصبر عن محبة الناس ، والصبر على التحول . والتواضع والذل : داخل في الزهد وإن لم يكن داخلياً في التوبة ، وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد ، وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا .

وحقيقة الصبر يظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنيتها من تركيتها ، وتركيتها بالتوبة : فالنفس إذا تركت بالتوبة التصريح زالت عنها الشهادة الطبيعية ، وفقد الصبر من وجوه الشهادة النفس وإياتها واستصحابها . والتوبة التصريح تلين النفس وتغريها من طمأنيتها وهراستها إلى الفلين ، لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصغر وتطيق " تيراتها للتأجبة بتأجبة الهوى ، وتبلغ بطمأنيتها محل الرضا ومقامه ، وتطمئن في مجارى الأقدار .

قال أبو عبد الله الشافعي : قد جاهد يسميون من الصبر ويشقون مواضع أقداره بالرذا لثقلها .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت ومال سرور إلا موانع القضاء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ين عباس حين وضاء ، اعمل لله باليقين في الرضا ، فإن لم يكن فإن في الصبر غيراً كثيراً ، وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من غير ما أعطى الرجل : الرضا بما قسم الله تعالى له . .

فلا يخبر والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى ، والرضا ثمرة التوبة النصوح ، وما تخلف بعد عن الرضا إلا يشغله عن التوبة النصوح ، فإذا جمعت التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر ومقام الرضا ومقام الرضا . والحرف والرجاء مقامان شريهان من مقامات أهل اليقين ، وهما كائنان في صلب التوبة النصوح ؛ لأن غرضه حله على التوبة ، ولولا غرضه ما طالب بولولها رجاء ما خلف ؛ فالرجاء والحرف يتلازمان في قلب المؤمن ، ويشتد الحرف والرجاء كلما تقام السليم في التوبة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في سياق الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال أجدي أعاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال : وما جعلنا في قلب عبيد في هذا الموضع إلا أعطاه الله ما رجا وآتاه ما يفتأ .

وجاء في تفسير قوله تعالى (ولا تقربا بأذيكم إلى التهلكة) هو العبد يذنب الذنوب الكثيرة ثم يقول : قد هلكك لا يقضي حل ؛ فالتائب عاف قلبه ورجاء المغفرة ، ولا يكون التائب تابيا إلا وهو راج عاف ؛ ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المنكر واستعان بسم الله على طاعة الله . فقد شكر الله . لأن كل جارية من الجوارح لثمة ، وشكرها قديما من المعصية واستعمالها في الطاعة ، وأى شاكر لثمة أكبر من التائب المستقيم ؛ فإذا جاع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقد جمع مقام التوبة : حال الزجر ، وحال الانقياد ، وحال التيقظ ، وعائلة النفس ، والتقوى ، والجاهدة ، ورؤية عيوب الأعمال ، والإقامة ، والصبر ، والرضا ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والفكر ، والحرف ، والرجاء .

ولذا صحت التوبة النصوح وزكيت النفس انجلت مرة القلب وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد ، والزهاد يستحق فيه التوكل لأنه لا يزد في الموجود إلا لاعتقاد على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ، وكذا بان على العبد يقينية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستمر في زهده في الدنيا ، وهو ثالث الأربعة .

أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري لإجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن عباس ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة ، قال حدثنا الحسين بن الحسن الرضوي ، قال حدثنا عبد الله بن المبارك ، قال حدثنا الحسين بن جميل ، قال أخبرنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن يزيد قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ بغاطبة رضى الله عنها فرأى أنه قد أحدث في البيت سرا وزواجا في بيته ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس لجلل ينكت في الأرض ويقول : مال والدنيا ، مال والدنيا ، فأتت غاطبة أنه إنما رجع من أجل السر ، فأخذت السر والزواجا . وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : اذهب إلى أبي الذي صلى الله عليه وسلم قل له : قد تصدقت به ، فغضب حيث شئت ، فأبى بلال إلى أبي الذي صلى الله عليه وسلم فقال : قالت غاطبة قد تصدقت به فغضب حيث شئت ، فقال أبي الذي صلى الله عليه وسلم : يا بني أرى قد فعلت ، يا بني أرى قد فعلت ، اذهب فيه .

وقيل في قوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لما نبلوهم أهمل أحسن محلا) قيل : الزهد في الدنيا . مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن الزهد ؟ قال : هو أن لا يلبى إلى أكل الدنيا مؤمنا أو كافرا . وسئل النبي عن الزهد فقال : ويلكم أى مقدار لئن لم يزد فيها ؟ . وقال أبو بصير الواسطي : إلى متى تصول بترك كنيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة ؟ .

ولذا صحت زهد العبد مع تركه أيضا ؛ لأن صدق تركه يمكنه من زهده في الموجودات واستقام في التوبة وزهد في الدنيا وسخط مدين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها .

وترتب التوبة مع الرأية وارتباط إحداها بالأخرى ؛ أن يتوب العبد ، ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشياطين ، ثم يرقى من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يبنى فلا يسمح بكافة فضول

ولا حركة فصول ، ثم ينتقل إلى رعاية الخاضعين الفاعل إلى الباطن وتُسَوَّلُ المراقبة على الباطن : وهو التحقيق بسلطان
القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول : فإذا تمكن من رعاية الخفريات صمم من مخالفة الأركان
والجوارح وتستقيم توبته . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) أمر الله تعالى
بالاستقامة في التوبة أولاً هو لا يتابعه وأمه . وقيل : لا يكون المراد مربداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشياطين شيئاً
عشرين سنة ، ولا يلوم من هذا وجود المعصية ولكن الصادق الثابت في القادر إذا ابتلى بذنب يضمن أثر الذنب
من باطنه في القلب ساعته جرد التذمُّن بباطنه على ذلك ، والتم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشياطين شيئاً : فإذا تاب
توبة نصوحاً ثم زهد في الدنيا حتى لا يجرم في غلاته لشهاته ولأن غلاته لنداه ولا يرى الأدهار ، ولا يكون له لعلق
م بهند ، فقد جمع في هذا الزهد ، والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزينة ، لأن الفقر علم للشيء
اضطراباً ، والزهد ترك للشيء اختياراً ، وزهد يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره
يحقق حبس النفس وصديق الجماعة وحسن النفس في يحقق غوفه ، وخوفه يحقق رجاءه ويصنع بالتوبة والزهد كل
القامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع محبة الإيمان وعقوده وشروطه يؤزده الثلاثة والجميع بها تماماً وهو دوام
العمل ، لأن الأحوال السنية يتكشف بعضها بهذه الثلاثة ، ويبصر بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام
العمل . وكثير من الزهاد المتحقيقين بالزهد المستقيمين في التوبة تخطفوا عن كثير من سائر الأحوال المتخلفين من هذا
الرابع ، ولا يراد الإحقيق الفنياً إلا لالكمال الفراغ للتمتاض على إنامة العمل لله تعالى . والمسلمة : أن يكون المراد
لا يزال ذا كراً أو تالياً أو معصياً أو مرافياً ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي أو مهم لابد منه طبيعي ، فإذا
استولى العمل القلبي على القلب مع وجود الفشل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتقر بباطنه عن العمل ، فإذا كان مع
الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكل الفضل وما آل جهداً في المبرودة .

قال أبو بكر الزواق : من خرج من قالب المبرودة صنع به ما يصنع بالآبن .

وسئل سهل بن عبد الله التستري : أي منزلة إذا قام المراد بها تلم مقام المبرودة ؟ قال : إذا ترك التذمُّن والاختيار .
فإذا تحقق المراد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر من وقته الآتي ووصل إلى مقام ترك التذمُّن
والاختيار ، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لئلا يراه وراءه وفوقه عليه وانقطاع
مادة الجهل عن باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازي : ما دام المراد يتصرف بخاله لا يتصرف ولا يمكن مع اختيار كشيء تعرف ، فإذا عرف وصار
عارفاً يقال له إن شئاً اختر وإن شئاً لا تختار ؛ لأنه إن اخترت فما اختيارنا اخترت ، وإن ترك الاختيار فما اختيارنا
تركنا الاختيار ؛ فإنه ينافي الاختيار وفي ترك الاختيار . والمريد لا يتحقق بهذا القيام المثل والحال المميز - الذي
هو الغاية والنهاية - وهو أن يملك الاختيار بهدوء التذمُّن والخروج من الاختيار - إلا بأحكامه هذه الأربعة التي
ذكرناها ، لأن ترك التذمُّن فناء ، وتخليك التذمُّن والاختيار من الله تعالى المراد ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ،
وهو مقام البناء ، وهو الانسلاخ من وجود كان بالمبدل والجوهرية بالحق ، وهذا المراد ما بقي عليه من الاعوجاج
ذرة ، واستقام ظاهراً وموالياً في المبرودة ، وهو العلم والعمل بظاهره وباطنه ، وتوطين حجرة القرب بنفسين يدي
الله من وجلي متمسكة بالاستسكان والافتقار ، متحقة بقول رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تكتفى إلى نفس طرفة
عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلاً في كرامة الوليد ولا تفل مني .

الباب الستون : في ذكر إشارات للشايع في القامات على الترتيب .

توكل في التوبة

قال عروم : معنى التوبة أن يتوب من التوبة . قيل : متاهلاً لربابة : استغفرا الله العظيم من التعمد في فعله استغفرا

وسئل الحسن للغازلي عن التوبة ؟ فقال : تسألني عن توبة الإنباء أو عن توبة الاستجابة ؟ فقال السائل : «توبة الإنباء ؟ فقال : أن تغفل من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . قال : فأتوبة الاستجابة ؟ قال : أن تستحي من الله لقربه منك ، وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها وربما غاب عن صلاته من كل خاطئ لم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه ، وهذه توبة الاستجابة لازمة ليراطن أهل القرب ، كما قيل :

« وجردك ذنب لا يقاس به ذنب »

قال ذو النون : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من النقطة ، وتوبة الأنبياء من وثقة مجرم عن بلوغ مائة خير .

سئل أبو محمد سبل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته ، فقال : الخلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، ويشكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويغفله بهنوده من ذكره ومغافته . قال : وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أعاف عليه أن لا يسلم وتسل الخلاوة بقلبه ، ولكن مع وجدان الخلاوة يلزم قلبه الإنكار ويعزم ، فإنه لا يخرم . وهذا الذي قاله سبل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والمعارف القوي الحال يتمكن من إزالة الخلاوة عن ماله ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للمعارف ومن تمكن من قلبه خلاوة حب الله الخاس عن صفاء مشاهدة وعرف يقين ، فأى خلاوة تبقى في قلبه ، وإنما خلاوة الهوى لعدم خلاوة حب الله .

وسئل السوسي عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم ، وهذا وصف يتم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا يفاء الجهل مع العلم ، كما لا يفاء الليل مع طروق الشمس ، وهذا يستوعب جميع أنواع التوبة بالوصف الخاص والعام . وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأهم أوصافها .

وقال أبو الحسن النحوي : التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى .

قولهم في الودع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملاك دينكم الودع » أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي إجازة ، قال أخبرنا أبو سعيد الخدري ، قال حدثني ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان ، قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن حبيب بن عبيد عن أبي الهذءة وحكي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توسل على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فغسله في النهر وقال : يئله الله عز وجل فوما ينفعهم .

قال عمر بن الخطاب : لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالودع أن يذل لصاحب دنيا . قال معروف الكرخي : احفظ لسائلك من اللعج كما تحفظه من اللطم .

فعل عن الحارث بن أسد الحارثي أنه كان على طرف أبيه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الصيلي عن الودع ؟ فقال : الودع أن تتورع أن يمشيت قلبك عن الله طريقة عين .

وقال أبو سليمان النابلي : الودع أول التورع كما أن التورع طرف من الرضا .

وقال يحيى بن معاذ : الودع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن الودع ؟ قال : أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اعتناؤه بما يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلي قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الديلمى يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : أعراف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً . وقال الخواص : الزرع دليل الحروف ، والحرف دليل للمرفة والمرفة دليل القربة .

توهم في الزهد

قال الجنيد : الزهد غلوة الأيدي من الأملاك والقلوب من التلذذ . وسئل الثعلبي عن الزهد ؟ فقال : لا زهد في الحقيقة ، لأنه لما أن يزهديا ليس الثقليل ذلك يهد ، أو يهدنيا هو له فكيف يهد فيه وهو معه وعنده ، فليس إلا ظف النفس وبذل موائمة : يهدر إلى الأنعام التي سبقت بها الأنعام ، وهذا لواطد عدم قاعدة الإجهاد والكسب ، ولكن مقصود الثعلبي : أن يقلل الزهد في عين للشد بالزهد ثلاثاً يشر به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل قد أدنى زهداً في الدنيا ومنطقاً ، فاقربوا منه فإنه يأتي الحسكة .

وقد سمي الله عووجل الزاهدين طاء في قصة فاروق فقال لسمال (وقال ابن أوتوا العلم وليمكم أبواب الفخير) قبل هم الزاهدون .

وقال سبل بن عبد الله : لعل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا .

وقيل في قوله لسمال (وجعلهم أمة يهدون بأسرها لما صبروا) قيل : عن الدنيا .

وفي الخبر : العلماء أماء الرسل عالم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاضروهم على دينهم .

وجاء في الأثر : لا زوال ، ولا إله إلا الله . تمتع عن العباد يحيط أنه عالم يالوا ماتت من دنياهم ؛ فإذا فعلوا ذلك وقلوا لا إله إلا الله قال الله لسمال : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سبل : أحمال البر كلها في موازين الزماد وثراب زهدهم زيادة لهم .

وقيل : من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ؛ ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم .

وقال البرقي : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافي الدنيا ، وبمعنى هذا : المحظوظ المائبة ، والحامية ، وحسب الملة عند الناس ، وحسب المصلحة والثناء .

وسئل الثعلبي عن الزهد فقال : الزهد غلظة ، لأن الدنيا لائمه ، والزهد في لائمه غلظة .

وقال بعضهم : لما رأوا حافرة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لموانها عدم ، وعندي أن الزهد في الزهد غير هذا ، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد ، لأن الواحد اختار الزهد وأراد ، ولزادته تشكك إلى طيه ، وعلمه قاصر ، فإذا أتم في مقام ترك الإرادة والسلط من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده ، فترك الدنيا بمراد الحق لا بمراده نفسه ، فيكون زهد به الله تعالى حيثك . أو يعلم أن مراده الله منه التلبيس بشره من الدنيا ، فأدخل بالله في شيء من الدنيا لا يقتض عليه زهد ، فيكون دخوله في القبر من الدنيا بالله ويلذنه من زهداً في الزهد ، والزهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، إن تركها تركها بالله ، وإن أخذها أخذها بالله . وهذا هو الزهد في الزهد : وقد رأينا من المارفين من أقم في هذا المقام . وفرق هذا مقام آخر في الزهد : وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسمه عليه وطهارة نفسه في مقام البقاء ، فيزهد زهداً ثالثاً ويترك الدنيا بعد أن مكن من تاضيها وأعيدت عليه موهبة ، ويكون تركه الدنيائي هذا لتقام باختياره ، واختياره من اختيار الحق ؛ فبعد تتركها حيناً غلبت بالانقياد والصلح ، ويرى أن أخذها في مقام الزهد في الزهد وفقاً دخل عليه لموضع ضيقه عن حرك تشار الأقوياء من الانقياد (٣٠ - ملحق كتاب الإحياء)

والصديقين؛ فيترك الرفق من الحق بالحق الحق، وقد يقاومه باختياره رغباً بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم؛ وهذا مقام التصرف لأغواء المارقين؛ زهدوا ثانياً بالله، كما رغبوا ثانياً بالله، كما زهدوا أولاً به.

قولهم في الصبر

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلها.

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر في الصبر؛ أي لا تطالع فيه الفرج؛ قال الله تعالى (والصابرين في آياتهم والعظام) وسجن البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

وقيل: لكل شيء صبر، وصبر الإنسان العقل، وصبر المقل الصبر؛ قال الصبر: مركب النفس، والمركب للين والصبر جاز في الصابر يجري للانفاس، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منى ومكره ومذموم ظاهر وأباطن، والعلم يبدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلائل العلم بنسب قبول الصبر. ومن كان العلم صادق الظاهر والباطن لا يمت ذلك إلا إذا كان الصبر مستقراً وسكناً. والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما التفرقة العقلية، وهما متقاربان لا ينفصلان، وبالصبر يتجمل على النفس، وبالعلم يترقى الروح، وهما اللزوم والفرقة بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره، وفي ذلك صريح البدل وصحة الاعتدال، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعي العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعي النفس والروح، وبيان ذلك يندق. وناعيك بشرف الصبر قوله تعالى (فما يرى الصابرون أحداً من غير حساب) كل أحدهما أجره بحساب وأجر الصابرين بنسب حساب. وقال الله تعالى ثوبه: (واصبر وما صبرك إلا بالله) أهداف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل القيمة به.

قيل: وقت رجل على السبل فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ قال: الصبر في الله؛ قال: لا، فقال: الصبر به، فقال: لا. فقال: الصبر مع الله، فقال: لا. فغضب السبل وقال: ويحك، أي شيء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ السبل صرخة كاد أن تلث روحه. وحدثني معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه؛ وذلك أن الصبر عن الله يكون في شخص مقامات الثلاثة يرجع العبد عن الله استجابة وإجلالاً، وتنطق بصبره بعبادة ذواتنا، ويتنصب في مفاز استكانته وتخفيه لإحسانه بهيئته أمر السبل، وهذا من أشد الصبر؛ لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لخلق الجلال، والروح تود أن تتكفل بصيرتها باستطلاع نور الجلال، وكما أن النفس تنازع لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر تنازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة: متصبر، وسابر، وصابر؛ فالتصبر: من صبر في الله؛ قوة يصبر، وسيرة يجرع. والصابر: من يصبر في الله وقه ولا يجرع، ولكن تتوقعه التكرى، وقد يمكن من الجوع. وأما الصابر: فذلك الذي صبره في الله وشبابه، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجرع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة، لأن جهة الرسم والحقيقة، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

وكان السبل يشتمل بهذين البيتين:

إن صوت الحب من ألم الشوق، في وخوف الفراق يورث حرا

صابر الصبر فاستنكث به العيب، سر فصلح الحب الصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ لأهل الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره، بالله لا ينقسه، فقال (وما صبرك إلا بالله).

وسئل السري عن الصبر، فتكلم فيه، فغلب على وجهه غروب، فجعل يضره بإثره، فقيل له: لم لا تدفعه؟ قال:

استحي من الله تعالى أن أتكلم في سأل ثم أعانك ما أتكلم فيه

أخبرنا أبو زرعة بإجازة، عن أبي بكر بن خلف بإجازة، عن أبي عبد الرحمن قال سمعت سعد بن عاكب يقول: سمعت الفرغاني يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم المؤمنين بالعلم

وأكرم العقل بالصبر ، فالإيمان زين للؤمن ، والعقل زين للإيمان ، والصبر زين للعقل .
وأنته من إبراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى عرفت كنهه ودافعت عن نفسى لنفسى فموتت
وجزعتها للكره حتى كذبت ولولم أجزعها إنش لا شازمت
ألا وبه ذل ساق نفس عزة وباب نفس بالثقل عوت
إذا ما عدت الكف أنس النسي إلى غير من قال أسألنى فقلت
سأصبر جهدى إن فى الصبر عزة وأرضى بديايا وإن عى قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما أنتم الله على عبد من لمة ثم أنزعها فاحت ما انتزع منه الصبر ، إلا بأن
ما يحته غيرها مما أنزع منه . وأنته لستون :

تهزعت من حاله نسي وألوسا زماثا إذا أجرى عواليه احتس
فكخرقة قد جوعتى صككوسا بارعتا من بحر صبرى أكتوسا
تدععت صبرى والخصت صروفه ولقت نفسى الصبر أو ما ملك أسى
خطوب لو أنكلمت زاحن غطيا لساعت ولم تدرك لها الكف بسا

قولهم فى الفقر

قال ابن الجلاء : الفقر أن لا يكون لك ؛ فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر .
وقال النكتاني : إذا صبح الانتظار إلى الله تعالى صبح التقي بالله تعالى ، لأحبا حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر .
وقال الثوري : لست الفقراء السكون عند العدم ، والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند الوجود .
وقال الدراج : قلت كلف أستاذى أربدكمكة ، فوجدت فيها قطعة فصيرت ، فلما جابقت لذهن وجدت فى
كنفك هذه القطعة . قال : قد رأيتها ردها ، ثم قال : خذها واشتر بها شيئا ؛ قلت : ما كان أمر هذه القطعة بحق
معبودك ؟ فقال : ما رزقني الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أوصى أن أنتد فى كفى
فأردها إلى الله .

وقال إبراهيم الخواص : الفقر رداء لشرف ولباس للرسولين وجلباب الصالحين .
وسئل سهل بن عبد الله عن التقير الصادق ؟ فقال : لا يسأل ولا يرد ولا يجهى .
وقال أبو حنيفة الزاهد بن رحمه الله : سألنى الرقاق فقال : يا أبا حنيفة ، لم ترك الفقراء أخطأ البتة فى وقت الحاجة ؟
قال : قلت لأنهم مستنونون بالمعنى من المطايا . قال : نعم ، ولكن وفعل شئ آخر ، فقلت : مات أئمة ما وقع لك ؟
قال : لأنهم لم لا يتسهم الوجود ، إنشأناهم ، ولا نعلمهم الحاجة ، إذ هو جودهم . قال بعضهم : الفقر ولوف الحاجة
على القلب ومحوها عما سوى الرب .

وقال السوسي : الفقير : الذى لا يفتيه جسم ولا منفرد به .
وقال يحيى بن معاذ : حقيقة الفقر أن لا يمتنى إلا بالله ، ورمه عدم الأسباب كلها .
وقال أبو بكر الطرسي : بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لحنا الفقر على سائر الأشياء ؟ فلم يجنى أحد
بجواب يقتضى ، حتى سألت نصر بن الحارث فقال لى : لأنه أول منزل من منازل التوحيد ، فتمت بذلك .
وسئل ابن الجلاء عن الفقر ؟ فكشف حتى حل ، ثم ذهب ورجع ثم قال لى لم أسعد إلا قدرهم كان عدى فذهبته
فأعربتته ، واستحييت من الله تعالى أن أعظم فى الفقر وعندى ذلك ، ثم جلس وتكلم .

قال أبو بكر بن طاهر عن حكم الفقير : أن لا يكون له رغبة ، فإن كان ولايته لا يجاوز رغبته كتابته ،
قال فارس : قلت لبعض الفقراء مرة . وعليه أثر الجوع والفقر : لم لا تسأل فيطعوك ؟ فقال : إلى أمان أن

أشأهم فيمنعوا فلا يفلحون .

وألفد بعنهم :

قالوا عدا عدا ماذا أنت لاجبه نقلت خبطة ساق عبده الجربا
نقر وصبر مما توبان تعتهما قلب يرى دبه الأعياد والجمبا
أخرى لللاهب أن تلقى الحبيب به يوم التزاود في الثوب الذي علما
المعمر لي مائتم إن شئت بأمل والبيد مادمته لي مرأى ومستمبا

قولهم في الشكر

قال بعضهم : الشكر هو التوبة عن النعمة برؤية للنعم .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : لست بشاكر مادمت تشكر وخلة الشكر التجرد ، وذلك أن الشكر لعمدة من الله يحب الشكر عليها .

وفي أخبار داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمتك ؟ فأوحى الله إليه : إذا عرفته هذا فقد شكرتني .

ومعنى الشكر في اللغة : هو الكف والإظهار ، يقال : شكر وكثر ، إذا كف عن كفره وأظهره ، فشر الشكر وذكرها وتنادها بالسان من الشكر . وباطن الشكر : أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة .

وصحبت شيخنا رحمه الله يلقب عن بعضهم :

أوليتي لسا أروح يشكرها وكنتي كل الأمور بأسرها

فلأشكر الله ما سببت وإن أسست فلأشكر الله أعظم في تهرها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يمدحون الله في السراء والضراء ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ابتلى فصر ، وأعطى فشكر ، وعظم ففخر ، وعظم فاستغفر ، قيل : لسا بالله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

قال الجنيد فرض الشكر الاضراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفي الحديث : أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل النعم الحمد لله .

وقال بعضهم في قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرا وباطنا) قال الظاهرة المواقف والنفى . والباطنة الجلاوى والفقر ، فإن هذه لهم أخروية لما يستوجب بها من الجواز .

وحقيقة الشكر أن يرى جميع النعم في ما فيها خير مما يضره في دينه ، لأن الله تعالى لا يقضى للبعد المؤمن شيئا إلا وهو لعمدة في حقه ، فإذا عاجلة يفرها وبهذهما ، وإذا آجلة بما يقضى له من المكافأة ، فإذا أن تكون درجة له أو تحسبها أو تكفيها ، فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل مائة لهم ، فقد شكر .

قولهم في الخوف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأس الحكمة خافة الله ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال ، كان داود النبي عليه السلام يورده الناس يمشون أن به سرخا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه .

قال أبو عمر القسطنطيني الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم ليس الخائف من يخاف ويحسب حبيبه . ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يخطئ عليه .

وقيل الخائف الذي لا يخاف غير الله . قيل أي لا يخاف لنفسه [ما يخاف] جلاله ، والخوف النفس خوفا العقوبة وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أني أي منهما تتولد حقائق الإيمان ، قال الله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم ولما كنتم أنتموا الله ﴿ قيل : هذه الآية لطلب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .
وقيل : إن الله تعالى جمع الصفتين بآفرقه على التوسين : وهو الهدى والرحمة والهدى والرحمة والهدى والرحمة والهدى والرحمة : فقال تعالى :
(هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال (إنما ينشئ الله من عباده العلماء) وقال (رضى الله عنهم ورضوا
عنه ذلك لمن خشى ربه) .

وقال سبل : كالإيمان بالعلم ، وكالعلم بالحروف . وقال أيضا : العلم كسب الإيمان ، والحروف كسب المعرفة .
وقال ذو النون : لا يبقى الحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الحروف قلبه .
وقال فضيل بن عياض : إذا قيل لك : تعافى الله ؟ اسكت ، فإنه إن قلنا لا ، كفرت ، وإن قلنا نعم : كذبت ،
فليس وصفك وصف من يتعافى .

قولهم في الرجاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
من إيمان ، ثم يقول : وعزني وجلالي لا أجعل من آمن في ساعة من ليل أو نهار كن لا يؤمن بي .
وقيل : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من على حساب الحق ؟ فقال : الله تبارك وتعالى .
قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتنسب الأعرابي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من حكمت يا أعرابي ؟ قال : إن
الكرم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب صبح .
وقال شاذ الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة ، وقيل : الرجاؤرة الجلال بين الجمال ، وقيل : قرب القلب
من ملاقة الرب .

قال أبو علي الروضاري : الحروف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه .
قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء أرواح القلوب لرؤية كرم الرجاء ، قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لامتدلا .

والحروف والرجاء الإيمان كالجناحين ، ولا يكون حائفا إلا بالهرجاء ، ولا راجيا إلا بالمواعاة ، لأن موجب
الحروف الإيمان ، وبالإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان ، ومن الإيمان خوف ، ولما للمؤمن روى عن لقمان أنه
قال لابنه : خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره ، وارجبه أشد من خوفك ، قال : فكيف أستطيع ذلك إنما لي
قلب واحد ؟ أما علمت أن المؤمن ذو قلبين يتألف بأحدهما ويرجو بالآخر ؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

قولهم في التوكل

قال السري : التوكل الاختلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كالممكن ، فيكون الله
لك كالميزل .

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا ، غير التوكل فإنه وجه بلا قفا .
قال بعضهم : يريدونك العتبة لا توكل الكفاية ، والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال (وعل الله توكلوا
إن كنتم مؤمنين) وقال (وعل الله فليتوكل المؤمنون) وقال نبيه (وتوكل على الله الذي لا يوت) .
وقال ذو النون : التوكل ترك جميع النفس والاختلاع من الحول والقوة .
وقال أبو بكر الرافعي : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم قد .
وقال أبو بكر الراستي : أصل التوكل صدق القاعة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمية ولا بلغت بصرة إلى
توكله لحظة في حمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحضر نفسه بما يدعها فيه ويضئ الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل
لا يتم لها أحسن خلق حل كاله .

وقال سبل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كاليتيم بين يدي الغافل يلقاه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير . وقال حدود القصار : التوكل هو الاعتصام بالله وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التبعة ، والتبعية باب من الروح ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفتي الميزان ، والتوكل لسانه به ثمرى الزيادة والتقصان .

ويشعر أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفته كان أتم توكلاً ، ومن كل توكله غابى روية الوكيل عن روية توكله ، ثم إن قوماً لم يعرفه فنفد صرف العلم بالمدد في القسمة ، وأما لأقسام نصيب لآزاء المفسوم لهم عدلاً وموازاة ، فإن انظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس ، وكل ما أحس بشيء يتدح في توكله . يراهم من منبع النفس ، فقصان التوكل يظهر بظهور النفس ، وكأله يثبت بنية النفس ، وليس للأفراياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإعنا شغلهم في تثبيت النفس بتقوى بمراد القلب ، فإذا ثابتت النفس أصبحت مادقا لجهل فصيح التوكل والعبد غير ناظر إليه ، وكلما تحركت النفس بغيره يدخل في غير سر قوله تعالى (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) فيقبل وجود الحق الأعيان والآكوان ، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ، ويصير التوكل حيثما اضطرا ، ولا يتدح في توكل مثل هذا التوكل ما يتدح في توكل الضمعة في التوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لأنه يرى الأسباب موانعاً لحياة ما إلا بالتوكل ، وهذا توكل غوامض أهل المعرفة .

قولهم في الرضا

قال المارث : الرضا سكن القلب تصديه بان الحكم . وقال ذونون : الرضا سرور القلب بمر القضاء . وقال سفيان عثريمة : القهرا من عا ، فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضا من لست به راض ، سأله بعض الحاضرين : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

وقال سهل : إذا اتصل الرضا بالرحمن اتصلت القلبية (فطوبى لمن وحسن مأب) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ناقضم الإيمان من رضى بالله رياء ، وقال عليه السلام : إن الله تعالى يحبكم جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال الجيد : الرضا موهبة العلم الراسل إلى القلوب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أماء إلى الرضا ، وليس الرضا وانجبه كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لا يفرقان العبد الله نيار الأخره لأنه في الجنة لا يستحي عن الرضا والنجية .

وقال ابن عطاء الله : الرضا سكن القلب إلى قديم اختيار الله العبد ، لأنه اختار له الأفضل في رضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب : ليس يقال الرضا من الله من القنأ في قلبه مقدار .

وقال السري : عرس من أخلاق القربين : الرضا عن اقتضاب تحبب النفس وسكره ، وحببه بالتجرب إليه ، والحياء من الله ، والآس به والراحة بما سواه .

وقال الفضيل : الرضا لا يشي فوقه من له شيئا . وقال ابن شيمون : الرضا بالحق والرضا بالرضا ، فالرضا به مدبراً واعتقاراً ، والرضا عنه قائماً ومعتباً ، والرضا له إلهياً ودياً .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضياً بما سواه ؟ قال : نعم . يجوز أن يكون راضياً عنه وهو سخط على نفسه وعلى كل فاعلم ينطقه عن الله . وقيل للمسنين عن أبي طالب رضى الله عنهما . إن أبأذر يقول : القفر أصحابي من الغنى ، والسقم أحب من الصحة ؟ قال : وسم الله أبأذر ، أما أنا فأقول : من استكمل على حسن اختيار الله له لم يشم الله في غير الحالة التي اختار الله له .

وقال علي رضى الله عنه : من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبداً . ومن جلس على بساط الدوا لم يرض عن الله في كل حال .

وقال عيسى : يرجع الأمر كله إلى عذبنا الإصليين : فعل منه لك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل وتخلص فيما عمل .

وقال بعضهم : الراسي من لم يتم على فاته من الدنيا ولم تأسف عليا .
 وقيل ليس بن معاذ : حتى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ، قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فإيا ما عمل به ، يقول :
 إن أعطيتي قلبا ، وإن مننتني رزقا ، وإن تركتني عبدا ، وإن دعوتني آجبا .
 وقال السبكي رحمه الله بين يدي الجليل : لآلول ولا تارة لإياها . قال الجليل : قولك ضايق صدر ، فقال : صدقت
 قال : فطيق الصدر ترك الرضا بالقدار ، وهذا إنما قاله الجليل رحمه الله تليها منه على أصل الرضا ، وذلك أن الرضا
 يحصل لانفراح القلب وانفساحه ، وانفراح القلب من نور اليقين . قال رحمه تعالى (أفترشح الله صفوه للإسلام فهو
 على نور من ربه) فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعان حسن عبير الله تعالى
 فيترشح السخط والنعير ، لأن اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وقيل المحبوب بوقع الرضا عن الحب الصالح لأن
 الحب يرى أن القلب من المحبوب مرادوا اختياره ، فيفتن في لغة ودية اختيار القيوب عن اختيار نفسه ، كما قيل :
 « وكل ما يفعل المحبوب محبوب »

الباب الحادي والستون : في ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب السمرودي رحمه الله ، قال أخبرنا أبو طالب الزيني ، قال أخبرنا تاجرة
 الرمزية ، قالت أخبرنا أبو الحارث الكشميني ، قال أخبرنا أبو عبد الله القفري ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخاري ، قال
 حدثنا سليمان بن حرب ، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك عن الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
 « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان لله وسوله أحب إليه ما سواها ، ومن أحب عبدا لأبيه إلا الله ،
 ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنفذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار »

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال
 أخبرنا أبو عمر بن حيوة ، قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه ، قال حدثني بشر بن محمد ، قال حدثنا عبد الملك بن
 وهب عن إبراهيم بن أبي حنيفة عن الربيع بن مارية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الله
 حبه أحب إلي من نفسي وحمي وبصري وأهل ومالي ومن الماء البارد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب
 عائل الحب ، وعائل الحب : هو أن يحب الله تعالى بكلية ، وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشرط حاله يحكم
 العلم ، والجلية تنفخه بعد العلم ، مثل أن يكون راضيا والجلية قد تنكره ، ويكون النظر إلى الانتباه بالملم إلى
 الاستمضاء بالجلية ، فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإنسان ، ويحب الأهل والزوجة بحكم الطبع .

والجلية وجرة . ويراد الحية في الإنسان متوكة : فها حية الروح ، وحية القلب ، وحية النفس ، وحية
 العقل : فتولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد : معناه استكمال عروق الحية بحية
 الله تعالى حتى يكون حبة الله تعالى غالبا ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكلية ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب في
 الطبع أيضا والجلية من حب الماء البارد ، وهذا يكون حيا صافيا لخواص تنفزه به وينوره نوره الطبع والجلية ،
 وهذا يكون حب الفات عن مشاهدة يتكون في الروح وغرضه إلى مواطن القرب .

قال الراسل في قوله تعالى (بهم وبصبره) كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فالمراد راجعة إلى الذات
 دون العوت والصفات .

وقال بعضهم : الحب شرطه أن تلطفه سكرات الحية ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذا أحب حيان :
 حب عام . وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حيان من معدن العمل بالأوامر والقياد ، وهذا الحب
 مخرجه من الصفات ، وقد ذكر جمع من المتأخرين الحب في المقامات ، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يتكون
 لكتب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح، وهو الحب الذي فيه السكرات، وهو الاصطناع من أهله الكرم لبدنه واصطفائه إياه، وهذا الحب يكون من الأحوال؛ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: أحب إلى من لقاء البارد، لأنه كلام عروجدان وروح شئذ يصحب الذات، وهذا الحب روح، والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح، ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله (أذلة على المؤمنين) لأن الحب يلك لهويته وتغوب عبره، ويلتذ؛ لين تفتنى ألف عين وتتنق. ويكرم ألف الحبيب للكرم

وهذا الحب الخاص هو أصل الأحوال السنية وموجها، وهو في الأحوال الكالتورية في المقامات؛ فمن صحت حبه على الشكال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرعناه أولا؛ ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والعفو والمخروج غير ذلك؛ والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسيان؛ لأنها مشتقة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكامل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتغل عليه التربة التصريح، وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات، لأن التقلب في أطوار المقامات والترقى من شيء منها إلى شيء طريق المحبين، ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى (والذين جاءوا أمة إلهيهم سابقا) ومن قوله تعالى (ويهدي إليه من ينيب) أثبت كون الإنيابة سببا للهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتهاد غير معال بالكسب فقال الله تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء) فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وعالها بالصبايا ثم صفها، والمقامات لا تقيد ولا تحبس وهو يتقدمها ويصحبها بزيه منها وانزاعه صفوها وعالها بالصبا، لأنه حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص شلغ ملابس صفات النفس ونموتها، والمقامات كلها مصفية للثبوت والصفات الشخصية، فالزهد يصفي عن الرغبة، والتوكل يصفي عن قوة الاعتماد المتوكل عن جهل النفس والرضا يصفي عن طربان عرق المنازعة، والمنازعة لغناء جود في النفس ما أشرق عليها محوس المحبة الخاصة في قلبها ووجودها، فمن تحقق بالحب الخاص لانتفسه وذهب جودها، فلماذا يزوج الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقته رغبته، وماذا يصفي به التوكل ومطالع التوكل حشو بصيرته، وماذا يمكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة من لم تسلم كليته؟

قال الروياري ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة. وقال أبو يزيد: من نكته محبة فبته رؤيته، ومن نكته عطفه فدته مصادته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن علقم عن أبي عبد الرحمن قال: سمعت أبا حنيفة عن ابن جعفر يقول: سمعت الحسين ابن طرفة يقول: قال أبو يزيد ذلك، فإذا التقلب في أطوار المقامات لدوام المحبين، وطى بساط الأطوار لحراس المحبين وهم المحبوبون: تغلبت عن مصيبتهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات، وهي مواطن من يتشرف أذبال بقاءها.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخراساني: إلى ماذا أدبك التصوف؟ فقال: إلى التوكل، فقال: تسعى في حرمان باطله؟ أين أنت من القضاء في التوكل برؤية الوكيل؟

فالنفس إذا تحركت بصفتها متغلطة من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى الفائرة يردّه، والتوكل إذا تحركت نفسه يردّها بتوكله، والراضى يردّها برضاه، وهذا الحركت من النفس بقايا وجودية تنفرد إلى سياسة العلم، وفي ذلك تلمس روح القرب من بعيد؛ وهو أداء حق اليهودية ميلق العلم وبصبة الاجتهاد والكسب. ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتمسك بأنوار فضل الحق. ومن ألقى ملايس نور أهل القرب بروح دائمة المكوف محبة عن الطوارق والعسوف لا يريجه طلب ولا يوحشه سلب، فالزهد والتوكل والرضا كان فيه، وهو غير كان فيها، حل معنى أنه كيف تغلب كان زاهدا وإن رغب، لأنما الحق لا ينفسه، وإن رأى من الائتلاف إلى الأسباب

فهي متوكل، وإن وجد منه الكراهة فهو راض، لأن كرامته لنفسه ونفسه الحق وكرامته الحق أعيد إليه نفسه بدراعيها وصفاتها مطهرة موهوبة بحركة ملطوف بها، صار عين القادوس وعصار الإرعاء شفاء برباط طلباته له مذاب كل طالب من زهد وتوكل ورضا، أو صار مطروية من الله يتوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا.

فالت رابعة: محب الله لا يمكن أن يتوب حتى يسكن مع محبوبه

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن توب من أحببت كلك ولا يبق لك منك شيء.

وقال أبو الحسين الزرقاني: السرور بالله من شدة المحبة له، والمحبة في القلب تار تحرق كل دس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، وإلهابا كيف يصبر الإنسان عن حبه.

وقال بعضهم: من ادعى محبة الله من غير توضع عن عماره فهو كذاب، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب لفقراءه فهو كذاب. وكانت رابعة تفتد:

نعمى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الأعمال بديع

لو كان حبك صلفا لأطعته إن الحب لمن يجب طبع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للقيامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه، ومن ادعى محبة تفتد قوته، فإن التوبة

قلب روح الحب، وهذا الروح قيامه بهذا القلب، والأحوال أعراس قوامها بجمور الروح.

وقال سمنون: ذهب المحبون في شرف الدنيا والآخرة، لأن الله صلى الله عليه وسلم قال: المرع من أحب، فهم مع الله تعالى.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء عظم المحبة من حيث كان المحبوب في التيب ولم يكن هذا بالهبة، فإذا خرج الحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة.

سئل الجنيد عن المحبة؟ قال: دخول صفات المحبوب على البذل من صفات الحب. قيل: هذا على معنى قوله تعالى: وإذا أحببت كتب له سما وبصر، وذلك لأن المحبة إذا صفت وكلت لأزالا تجذب بوصفها إلى محبتها، فإذا انتهت إلى غاية جهودها ونفقت والرابطة متصلة متأكدة، وكال وصف المحبة أزال الوانغ من الحب، وبكان وصف المحبة تجذب صفات المحبوب لطفها على الحب المخلص من موانع قاذرة في صدق الحب، وانفرا إلى قصوره بد استنفاد جهده، فيعود الحب بفوائده اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنا من أهرى ومن أهرى أنا نحن روحان حلقا جتا

فإذا أبصرني أبصره وإذا أبصره أبصرنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعفوا بأخلاق الله، لأنه بزاغة النفس وكال التزكية يشهد للحبة والمحبة موهبة غير معلقة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يركب نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده، وإذا منح نواقة النفس وطهارتها تم جذب روحه بجلاب المحبة خلق عليه خلق الصفات والأخلاق، ويمكن ذلك عنده روية في الوصول، فثارة بديعت الشوق من باطله إلى ما وراء ذلك ليكون عطايا الفقيه متعانية، وثارة بتسل بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه، ويأبعت الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحقة روية الوصول عند الحب، ولولا بديعت الشوق رجعت الفقهري وظهرت صفات نفسه الخالصة بين المروغية، ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخاليل في غير هذا القدر، فهو متعرض لمذهب التصولي في الاموت والناصوت.

وإشارات الصبوح في الاستنراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة بأسبغ نور يقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حق اليقين زوال احوال البقايا، وأمتد الوث الخودي من بقاء صفات النفس. وإذا صحت المحبة ترجمت عليها الأحوال وتميتها.

سئل السلي عن الغيبة ؟ فقال : كأس لما وضع إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت .
وقيل : للجنة طلع وباطن ، ظاهرها الباع وذا الحبوب ، وباطنها أن يكون مغترنا بالحبيب عن كل شيء ولا يبق
فيه بقية لغيره ولا لنفسه ؛ فمن الأحوال السنية في الغيبة الشوق ، ولا يكون الحب إلا مشتاقا أبدا ؛ لأن أمر الحق تعالى
لا نهاية ؛ فإما من حال يلفها الحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم :

حرق كسكك لا لنا أسد • ينس إليه ولا لنا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله بها المحبين .

قال أحد بن أبي الحواري : دخلت على أبي سليمان الفارابي فرأيتني يبكي ، فقلت : ما يبكيك وحملك الله ؟ قال :
وحملك يا أحد ، إذا جن هذا الليل افترشت أهل الغيبة أنفاسهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل
جلاله عليهم يقول : يمين من لا ذنب بكلامي واستراح إلى مناجاتي ، وإني مطلع عليهم في غلواتهم أسمع ألينهم وأرى
بكاؤهم ، يا جبريل ناد فهد ما هذا البكاء الذي أراه فيكم ؟ هل خربكم غير أن حبيبا يذب أحبابه بالنار ؟ كيف يصعب
أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل فتمرقوا إلى ؟ في حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبصارهم
ويأس قدسي .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقبلوا مقام الشوق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الرازي في قوله تعالى (وحملت إليك رب لترضى) قال شوقا واستبانة ؛ ورواه (قال ماولا على أثرى)
من شوقه إلى مكانة الله ، وروى بالأرواح لما فاته من وقته .

قال أبو عتيان : الشوق ثمره المحبة ، فإن أحب الله اشتاق إلى لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى (قلنا أجبنا لك)
بقربة للمشتاقين ، معناه : إني أعلم أن شوقكم إلى غالب ، وأن أبحاث قضاكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى
من تفتاقون إليه .

وقال ذو القنون : الشوق أهل الدرجات وأهل القامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ للوقت شوقا إلى ربه ورجاء
لقائه وانظر إليه .

وعندي : أن الشوق الكائن في المحبين إلى رب يتوقفون في الدنيا ، غير الشوق الذي يتوقفون به ما بعد الموت ،
والله تعالى يكافئ أهل دمه بطايا يمدوننا علما ويطلبوننا ذوقا ؛ فكذلك يكون شوقهم ليصور العلم ذوقا ، وليس
من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، وروى الأصحاب من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله
عليه الصلاة والسلام (لا ز إن صلات ونسك ومحبا وعقاي لله رب العالمين) فمن كانت حياته لله ، منه التكريم لذة
الحياة والمحبة . فتسئل عنه من الله ، ثم يكاشفه من المنع والبطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق
إلى ما بعد الموت .

وأذكر بعضهم مقام الشوق وقال : إنما يكون الشوق لثائب ، وحتى ينجب الحبيب من الحبيب حتى يشتاق ؟ ولهذا
سئل الأنطاكي عن الشوق ؟ فقال : إنما يشتاق إلى الثائب وما غيب عنه من وجده ، وإنكار الشوق على الإطلاق
لا يرى له وجها ؛ لأن رب العطايا والمنح من أنسية القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟
فهر غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقا إلى عالم يجد من أنسية القرب ، فكيف يمنع
حال الشوق عن الأمر هكذا ؟ ووجه آخر : أن الإنسان لا يبدله من أمور ردها حكم الحال لموضع بشرية طبيعية وعظم
وقوه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نفي بالشوق إلا
مطالبة تليمت من الباطن إلى الأول والأعلى من أنسية القرب ، وهذه المطالبة كائنة في المحبين ، فالشوق إذا كان
لاوجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبة ، فيكون في حال الغيبة مشتاقا إلى اللقاء ، ويكون في حال اللقاء والمشااهدة مشتاقا إلى زوائده ومبار من الحبيب والفضله ، وهذا هو الذي أراد وأختاره .

وقال طرس : غلرب للمشتاقين منووتينور الله ، فإذا تمركنا شيقا أحادقور ماين للمشرق وللغرب ، فيمرهم الله على اللامكة فيقول : هؤلاء للمشتاقون إلى أشيدكم أني إليهم أشوق .

وقال أبو زيد : لأن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستتبع أهل النار من النار .
سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا وطلب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب .
سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة ؛ لأن الشوق يتولد منها ، فلا مشتاق إلا لمن عليه الحب .
فالحب أصل والشوق فرع .

وقال التصرا باندي : لخلق كلهم مقام الشوق لامقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق عام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

وعنها الألس : وقد سئل الجديد عن الألس ؟ فقال : ارتفاع الحشمة مع وجهه المحبة .
وسئل ذو النون عن الألس ؟ فقال : هو انبساط الحب إلى المحبوب . قيل : معناه قول الخليل (أرني كيف تحبني اللوق) وتقول موسى (أرني أظهر إليك) . وأنفذ لروم :

شحت قلبي بما لديك فلا .
أنسني منك بالرداء فقد .
ذكرتك لي مؤسس يسارحن .
وحينا كنت يامدى همى .
فأنت مني بموضع النظر

ودروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنك بالله وانتطاعك إليه ، فإن له عبادا استأنسوا بالله وكافوا في وحدتهم أشد استئناسا من الناس في كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آس ما يكونون ، وآس ما يكون الناس أوحش ما يكونون .

قال الراسطي : لا يصل إلى عمل الألس من لم يستوحش من الأكوان كلها .
وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الألس بالله إلا ومنه التطم ، لأن كل من استأنس به سقط عن قلبه تعظيمه إلا الله تعالى ، فإنه لا تضارب به أنا إلا ازدادت منه حية وتطليا .
فأنت رابطة : كل مطيع مستأنس . وأنتدت :

وقند جشتك في القواد عشت .
فألمس مني الجليس مؤالسي .
وحبيب قلبي في القواد أتيبي

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادة الله عن محادة الغلوطين فقد قل عليه دعي قلبه وضيع عمره .
قيل لبعضهم : من مملك في الدار ؟ قال : الله تعالى سى ولا يستوحش من ألس يره .
وقال الحران : الألس محادة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب .

وصف بعض المارفين صفة أمل المحبة الراصين فقال : جدد لهم الود في كل طرفة بديام الاتصال ، وآدام في كنهه بصائق السكنون إليه حتى أنه قلبهم وحث أرواحهم شوقا . وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهب عنهم وانقطعت آلامهم عنده لمساكن من لهم ، ولأن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء بأن يكون لهم مأسأله بعض مأسأله لهم من تديم وحدانيته وديام أزليته وسابق عله ، وكان لصيهم معرفتهم بوفراخ مهمهم عليه واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يمدهم من عبيد الموم : أنرفع عن قلوبهم جميع الموم وأنتد في معناه :

كانت لنفسي أهواء مفسدة فاستجملت إذ رأيتك النفس أمروني
فصار يحسن من كنت أسعد وصرحت مولى الوري مذ صرت مولاني
توكت نفسي ختام وديهم شغلا بذكرك يا حبيبي ودياني

وقد يكون من الأنس : الأنس بطاعة الله وذكره ملاوة كلامه وسائر أبواب القربات ، وهذا القدر من الأنس
نعمه من الله تعالى ومنه عنه ، ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للحبيب ، والأنس حال شريف يكون عند
طهارة الباطن وكأنه يصدق الوعد وكان الثمري وضع الأسباب والملائق ومحو الخواطر والمواجس ، وحقيقته
عندى : كس الوجود ينقل لأنح العطشة وانتشار الروح في ميادين الفتوح ، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب
فيجسمه بمنه الحية ، وفي الحية اجتناع الروح ورسوخه إلى محل النفس ، وهذا الذي وصفناه من أنس الذات وحيية
الذات يكون في مقام البقاء بعد العبور على بحر الفناء ، وهما غير الأنس والحية الذين يلحان بوجود الفناء ؛ لأن
الحية والأنس قبل الفناء ظهرا معطالة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام الثمريين ، وما ذكرناه بعد الفناء في
مقام التمكن والبقاء من مطالعة ذات .

ومن الأنس ؟ خضوع النفس للعطشة ، ومن الحية : خضوعها ، والخضوع والخشوع يتقاربان ويقتربان بفارق
لطيف يدرك بإيماء الروح .

وعنها : القرب ، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (واقرب) وقد ورد : أقرب ما يكون العبد
من ربه في محرمه ، وأقرب إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويعطى يسجده بإطاعة المكون ما كان وما
يكون ، ويسجد على طرف رداء العطشة فيقرب . قال بعضهم : إن لأجدا لحضور فأقول : بالله ، أو بأرب : فأجد
ذلك على أقل من الجبال . قيل : ولم ؟ قال : لأن التذلل يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا يتأذى جلوسه ،
ولما هي إشارات وملاحظات ومناظرة وملاطحات ، وهذا الذي وصفناه مقام عز يشتمل فيه القرب ، ولكنه مشعر
بحر ، ومزقن بسكر ، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه لثبة سكرة وقوة حموة ؛ فإذا صهار أفاق تنخلص
الروح من النفس والنفس من الروح ، ويعود كل من المبدئ إلى محله ومقامه ، فيقول : بالله وأرب ، بلسان النفس
للعطشة العائدة إلى مقام حاجتها على عبوديتها ، والروح تستقل بفنوعه وبكال الحال عن الأقوال ، وهذا أهم وأقرب
من الأول ، لأنه وفي حق القرب باستئلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم الميودية يعود حكم النفس إلى محل لاقتدار ،
وحظ القرب لا يزال يتوفر تصيب الروح بإقامة رسم الميودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده عنه ، فانظر ماذا
يقرب من قلبك .

وقال أبي يعقوب السوسي : مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى ينسحب عن رؤية القرب بالقرب فإذا
ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب . وقد قال قائلهم :

قد تحققت في السر خفاياك لسان
فاجتمعنا لسان واتقنا لسان
إن يكن عليك الله عظيم عن لحظ عيان
فقد صيرك الوجد من الأحشاء ذات

قال ذونون : ما ازداد أحد من الله قرابة إلا ازداد حية . وقال سبل : أدنى مقام من مقامات القرب الحياء .
وقال الثمري المأذى : بأياح السنة تال للرفة ، وبأداء القرائن تال القربة ، وبالمراطبة على الترافل تال النجبة .
ومنها : الحياء ، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص : فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قرنه واستحيوا من الله حتى الحياء ، قالوا : إنما نستحي بأمر رسول الله . قال : ليس ذلك ، ولكن من

استحياء من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والقيام ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن قبل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، وهذا الحياء من اللغات ، وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : إني لأعقل في البيت العظيم فأظفرى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن علف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول : سمعت أحد السقطي ابن صالح يقول : سمعت محمد بن عوف يقول سمعت أبا العباس التوذي يقول : قال لى سري : احفظ عنى ما قولك إن الحياء والانس يطرقان بالقلب ، فإذا وجد في الزهد والورع حلا ، والإخلا ، والحياء إطرار الروح لإجلالاً لعظيم الجلال . والانس لتدافا الروح فكان الجلال : فإذا اجتمعت هاتان في المني والهاية في العطاء . وأنتدشيخ الإسلام أشتاقه فإذا بدا أطرق من إجلاله لاخيفة بل هيبة وصيانة لجماله لسوت في إدباره واليهش في إقباله وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف حياه قال بعض الحكماء : من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو القرن الحياء وجود الحية في القلب مع حصة ما سبق من الله إلى ربه . وقال ابن صطاف : العلم الأكبر الحية والحياء : فإذا ذهب عنه الحية والحياء فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد هموا على أربع درجات : على الحرف ، والرجاء ، والتنظيم ، والحياء . وأشرهم منزلة : من حمل ذل الحياء ، لما أبين أن الله تعالى يراه على كل حال استحياء من حسنه أكثر مما استحياء العاصون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قرب المستحيين الإجلال والتنظيم دائماً عند نظر الله إليهم . ومنها الاتصال قال الثوري الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذمول . وقال بعضهم الاتصال أن لا يفسد القلب غير عاقته ولا يتصل بهرمه عاظم لغير صالحه . وقال سهل بن عبد الله سوكوا بالبلاء فتسوكوا ، ولو سوكوا اتصلوا . وقال يحيى بن معاذ الزلي الهال أربعة نائب ، وزاهد ، ومشتاق ، وواصل : فالنائب محبوبيته ، والزاهد محبوبيته ، والمشتاق محبوبيته ، والواصل لا يجيبه عن الحق شيء .

وقال أبو سعيد القرشي الواصل الذي يسهل الله فلا يفتي عليه انقطع أبداً ، والمتصل الذي يهده يتصل ، وكلما دنا انقطع ، وكان هذا الذي ذكره حال المرید والمراد ، لكون أحدهما مبدأ بالكتوف وكون الآخر مردوداً إلى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد الواصلون في ثلاثة أسرف مهمهم ، وشغلهم في الله ، ووجوبهم إلى الله . وقال البصري الواصل مقام جبل ، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أرسله يختصر عليه الطريق وتقرب إليه القبيد .

وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه . وقال ورع أمل الوصول أوصل الله إليهم أقربهم ، فهم مغفونو الثوري ، يتوصون من الخلق أبداً .

وقال ذو القرن ما رجع من رجوع إلا من الطريق ، وملوصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال والمراسة أشار إليه الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفوة اليتن بطريق التدوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ، ثم يتفاوتون ، فهم من يجد الله بطريق الاتصال وموودة في التبل فينبى الله وتعل فيه لوفقه مع فعل الله ، ويخرج في هذه الحالة من التدوير والاختيار ، وهذه رتبة الوصول . ومنهم من يوصل في مقام الحية والانس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجلال والإجلال ، وهذا يمثل طريق الصفات وهو رتبة في الوصول . ومنهم

من ترقى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والشهادة منبيا في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجميل
الثلاث لحراس للقرين ، وهذا المقام رتبة في الوصول ، وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا القوام
لمح ، وهو سر بيان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يمشي به روحه وقلبه ونفسه حتى يثابته ، وهذا من أصل رب
الوصول ، فإذا اعتقدت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول الدار فأين الوصول؟ هيئات منازل
طريق الوصول لا تقطع أبد الأبد في عمر الآخرة الأبدى ، فكيف في العمر القصير القهري ؟

ومنا القبح والبسط : وهما حالان شريفان ، قال الله تعالى (والله يقبض ويبسط) وقد تكلم الشيوخ
وأشاروا بإشارات هي علامات القبح والبسط ، ولم أجد كتفا عن حقيقتيهما لأنهم اكتفوا بالإشارة ، والإشارة
تقتضى الأمر ، وأجبته أن أشيع الكلام فيها لأنه يشوق إلى ذلك طالب ويجب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبح والبسط هما موسم معلوم ووقت محترم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ، ووقتهما وموسمهما في
أوائل حال المحبة الخاصة لأن نهايتها ، ولأقل حال المحبة الخاصة ؛ فن حرق مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان
لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يندبته حال القبح وشبه حال البسط ، ويظن ذلك
قبضا وبسطا ، وليس هو ذلك ، وإنما هو مسمى يثبته قبضا ، واعتزاز نفسا ولطفا طيبا يشتهه بسطا ، والمهم
والقسطا يمددان من عقل النفس ومن جوارحها لبقاء صفاتها ، وما دامت صفة الأمانة فيها بقية على النفس يكون
منها الامتزاز والقسطا والملم ؛ وهج ساجور النفس ، والقسطا : ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع ؛ فإذا
ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير حالها قلبا وذات نفس لومة ، ويقابو القبح والبسط
فيه عند ذلك ؛ لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة ، فيقتبضه عن غارة ويبسطه أخرى
قال الراسطي : يتجسس حالك ويبسطك فيها ؛ وقال القوري : يتجسسك في ذلك ، ويبسطك لإيائه .

واعلم أن وجود القبح المظهر صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته ، والنفس مادامت
لرأمة متلومطة ، وتارة غالبة ، والقبح والبسط باعتبار ذلك منها ، وساحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه ،
كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظاهري لوجود نفسه ، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجاب لا يقبضه الحال ولا يتصرف
فيه ، فيخرج من عصر القبح والبسط حيلثا ، فلا يقبض ولا يبسط مادامت متخلصان من الوجود الثوراني الذي هو القلب
ومتخلصا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ؛ فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء ، يعود إلى الوجود الثوراني
الذي هو القلب ، فيعود القبح والبسط إليه عند ذلك ، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبح ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبح والبسط يقع في الوجود ، فأما مع الفناء والبقاء
فلا ، ثم إن القبح قد يكون عقوبة لإقراض في البسط ، وذلك لأن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيقتل " القلب منه
روحا وقرضا واستنشادا ، فيسرق النفس السبع عند ذلك وتأخذ نصيبها ، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت
بها عما وأرطت في البسط حتى تنفك البسط نشاطا ، فتقابل بالقبح عقوبة ، وكل القبح إذا قلش لا يكون إلا من
حركة النفس وظهورها بصفتها ، ولو لم يكن النفس عدل لم يجر بالظناني تارة والعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب
القبح ، ومادام روحه وآله . ورواية الاعتدال الذي يستجاب القبح متعلق بقوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم
ولا تفرحوا بما آتاكم) فوارد الفرح مادام موقفا على الروح والقلب لا يكلف ولا يستوجب صاحب القبح سببا إذا
لطف بالفرح بالوارد بالإيمان إلى الله ، وإذا لم يتجسس بالإيمان إلى الله تعالى لم تطلت النفس وأخذت سلطانها من الفرح ،
وهو الفرح بما أوتي اللذة منه ، فن ذلك القبح في بعض الأساطين ، وهذا من ألقاب الذنوب المرجوة للقبح . وفي
النفس من حركة كراهية صفات أرويات مستندة جميعا للقبح ، ثم الحرف والرجاء لا يندبها صاحب القبح والبسط ولا صاحب
الأنس والمحبة ، لأنها من طرود الإيمان فلا يندسان . وأما القبح والبسط فيتم ما نعت صاحب الإيمان لتقصان
الحظ من القلب ، وعند صاحب الفناء والبقاء القرب متخلصان القلب ، وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يصرق

سبيها ، ولا ينبغي سبب القبح والبسط إلا على قليل الخلق من العلم الذي لم يحكم علم الحال ولا علم القام ، ومن أحكم علم الحال والقام لا يفتن عليه سبب القبح والبسط ، وربما يشبه عليه سبب القبح والبسط كما يشبه عليه الحم بالقبح والتشام باليسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القبح والبسط وارتقى منها نفسه مطمئنة لا تتدح من جهرها نازح القبح ، ولا يتلاطم بحر طبعها من أمرة الهوى حتى يتفكر منه البسط ، وربما صار مثل هذا القبح والبسط في نفسه لامن نفسه ، فتكون نفسه للطمئة بطبع القلب فيجرب القبح والبسط في نفسه المطمئة ، ومما قبله قبض ولايسط ، لأن القلب متحصن بسماع نور الروح مستغرق وعقفر بخلافه ولايسط . ومنها : الفناء والبقاء . وقد قيل : الفناء أن يفتن عن الخطوط فلا يكون له في شيء حظ ، بل يفتن عن الأشياء كلها شغلا بمن في فيه . وقد قال عاصم بن عبيدة : لا أبال امرأة رأيت أم حاطة ، وتكون عفو ظاني الله عليه مصروفا عن جميع الخافقات . والبقاء بقبه ، وهو أن يفتن عما له ويبقى بما له تعالى .

وقيل الباقي أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركته في موافقة الحق دون مخالفته ، فكان ثابتا عن الخافقات ثابتا في المواقفات .

وعندى أن هذا الذي ذكره هذا القائل هو مقام صفة الثرة الصوح ، وليس من الفناء والبقاء في شيء . ومن الإشارة إلى الفناء ما روي عن عبيدة بن عمر أنه سلم على إنسان وهو من الطراف فلم ير عليه . فذكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له : كذا تراءى الله في ذلك المكان .

وقيل الفناء هو الفناء عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجل وريه الجبل .

وقال الخراز الفناء هو التلاشي بالحق . والبقاء هو الحضور مع الحق .

وقال الجليل الفناء استجماع الكل عن أوصافه واشتغال الكل مثله بكلية .

وقال إبراهيم بن شيخان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الرشدانية وصحة العبودية ، ومما كان غير هذا فهو من الخالط والزبدقة .

وسئل الخراز ما علامة الفاني ؟ قال : علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا ما لله تعالى . وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء في الفناء محتتم أن يصحبهم علم البقاء ، وأهل البقاء في البقاء محتتم أن يصحبهم علم الفناء .

وأعلم أن أقوال الشيوخ في الفناء البقاء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء الخافقات وبما للموافاد وهذا يقتضيه الثرة الصوح ، فهو ثابت بصفت الثرة وببعضها يشير إلى زوال الرغبات والحرص والامل ، وهذا يقتضيه الرشد . وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبما للأوصاف الحمودة ، وهذا يقتضيه تركه القفس . وبهذا الإشارة إلى حقيقة الفناء المطلق ، وكل هذا لا يشار إليها من الفناء من وجه . ولكن الفناء المطلق هو ما يستول من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد ، فينتل كرون الحق سبحانه وتعالى على كرون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر : فهو أن يشغل الحق سبحانه وتعالى بطريق الاتصال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى نفسه ولا تفرق لعل إلا بالحق ، ثم يأخذ في المماعة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يتي أيا ما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويتيقن الله تعالى له من يعلمه ويتيقن كيف شاء وأحب ، وهذا لعمرى فناء ، لأنه في من نفسه وعن الثور نفرا إلى فعل الله تعالى فناء فعل غير الله . والفناء الباطن : أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمساعدة آثار عظمة اللات . فيستول على باطنه أمر الحق حتى لا يبق له عاصر ولا وسواس . وليس من ضرورة الفناء أن ينهب إحسسه ، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص ، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبيدة البصري وقال له : هل يكون فناء التخييلات في السر ووجود الرواس

من الشرك الحقني ؟ - وكان عتدى أن ذلك من الشرك الحقني - فقال لي : هذا يكون في مقام القضاء . ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحقني أم لا ؟ ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فقامت أسطوانة في الجامع فأتوا جميع لحقتها أهل السوق ، فدخلوا المسجد فأروء في الصلاة ولم يصح بالأسطوانة وقروها ، فهذا هو الاشتراق والقضاء باطلا ، ثم قد يتبع ويأخذ حتى لله يكون متحققا بالقضاء ومثناه روسيا وقلبا ، ولا ينبغي عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام القضاء : أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله ويكتفي بالإذن في كليات أموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه ، فثارت الاختيار منتظر لفعل الحق فان ، وصاحبا للانتظار للإذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله يملك في جرياتها فان ، ومن ما كره الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف ينتشر كيف شاء وأراد لا منتظرا لفعل ولا منتظرا للإذن هو باق ، والباقي في مقام لا يصحبه الحق من الخلق ، ولا الخلق من الحق ، والفناء محبوب بالحق من الخلق ، والقضاء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال ، والقضاء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال ، وصار بالله لا بالأحوال ، وخرج من القلب فصار مع قلبه لامع قلبه .

الباب الثاني والستون

في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الفقيه أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان بإجازة ، قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نسيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو مسلم الكشي ، قال حدثنا مسود بن عيسى ، قال حدثنا القاسم بن يحيى ، قال حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن أبي بصير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن من مبادئ التنوير لتلك إلى ما لله علمت علم عالم لم ، والنفس فيها طغت فله الزيادة فيه ، وإنما يمد الرجل في علم عالم يعلم فله الانتفاع بما قد علم ، فشأج الصوفية أحكوا أساس التنوير ، ونظروا العلم في تعالى ، وعملوا بما علموا الموضع فتوأم ، فلههم الله تعالى عالم يعلموا من غرائب العلوم وديق الإشارات ، واستقروا من كلام الله تعالى غرائب العلوم ومجائب الأسرار وترسخ قدمهم في العلم ، قال أبو سعيد الخزاز أول الفهم لكلام الله العمل به . لأن فيه العلم والفهم والاستنباط . وأول الفهم الفهم السمع والتشامخ لقوله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَّكَ لَكَ أَنْ تَقْلِبَ أَمْرَ أَلْفِ السَّجْعِ وَهُوَ سَمِيعٌ﴾ وقال أبو بكر التراسطي : فراعصون في العلم م الذين رحلوا بأرواحهم في شيب الشيب ، وفي سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات عالم يرد من غيرهم ، وعاصروا بحر العلم بالفهم لطب الزبانات فأنكشف لهم من مدخور الخزان والفزون تحت كل حرف وآية من الفهم ومجائب النص ، فاستخرجوا الدرود والجواهر ونطقوا بالحكمة . وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية سليمان بن عبيدة عن أبي جريح عن عطاء عن أبي هريرة أنه قال : إن من العلم كهيئة للمكون لا يملكه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لا ينكروه إلا أهل القرة بالله .

أخبرنا أبو زرعة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال حدثنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت الثوري ياباذي يقول : سمعت ابن عاتقة يقول سمعت القريش يقول هي أسرار الله تعالى يبدئها إلى أنباء أوليائه وسادات القبلاء عن غير سماع ولا حواس ، وهي من الأسرار التي لم يبلغ عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخزاز الماروفين غوان أدعوا علومها غريبة وأبواب عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية وغيرهون عنها بمبارة الأزلية ، وهي من العلم المجهول ، فتقوله بلسان الأبدية وبعبارة الأزلية ، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون . وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : «وهو العلم الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر ﴿آيَاتِهِ رَحْمَةٌ مِنْ حَتَّى وَحَدَّثَهُمْ﴾ فإنداد لآلهة السليم من الكلمات ففهمها من بعضهم البعض ، وإشارة منهم إلى أحوال محدوتها ومعاملات ظلية يرفونها . قولهم الجمع والتفرقة ، قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ فهذا جمع ثم فرق فقال ﴿ولللاتكة وأولوا العلم﴾ وقوله تعالى ﴿آنا بالله﴾ جمع ثم فرق بقوله

(وما أزل إلينا) والجمع أصل والتفرقة فرع ؛ فكل جمع بلا تفرقة زائدة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .
وقال الجنيذ : القرب بالوجد جمع ، وبعينه في البشرية تفرقة . وقيل : جمعهم في اللزقة وقرعهم في الاحوال . والجمع
أفعال لا يشاهد صاحبه إلا الحق ، فمن شاهد غيره فلا جمع ، والتفرقة شئ دلت عليه بالبيان ، ومباراتهم في ذلك كثيرة
والمتقدم أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد ، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب بفعل هذا لاجمع لا بتفرقة ،
ويقولون قلان في عين الجمع ، يمتون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ؛ فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ؛
فصحة الجمع بالتفرقة . وصحة التفرقة بالجمع ؛ فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من الملم باله ، والتفرقة من الملم بأسراره ،
ولا بد منهما جميعا .

قال للزني : اجمع عين الفناء بالله ، والتفرقة المبدئية متصل بعضها بالبدن . وقد غلطوا ولم يدركوا أنهم في عين الجمع
وأشاروا إلى صرف التوحيد وطلوا الاكتساب فتدبروا . وإذا اجمع حكم الروح بالتفرقة حكم القالب . ومادام
هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة .

وقال الواسطي : إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت عاقلًا فتركك فاعلم ولا تفرقة .
وقيل : جمعهم بشيء ، وقرعهم في صفاته ، وتقرير يدون بالجمع والتفرقة : أنه إذا أبنت نفسه كسائر نظر إلى أعماله
فهو في التفرقة ، وإذا أبنت الأشياء بالحق فهو في الجمع ، ويخرج الإشارات بغيره أن يكون يفرق والكون يجمع ؛
فن أفرد للكون جمع ، ومن نظر إلى الكون فرق ؛ فالتفرقة عبودية ، والجمع توحيد ؛ فإذا أبنت طاعته فظرا إلى
كسبه فرق ، وإذا أبنتها بالله جمع ، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع يوجب أن يقال : رؤية الأفعال تفرقة ، ورؤية
الصفات جمع ، ورؤية الذات جمع الجمع .

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من
موسى ، ثم كلم فكان الحكم والحكم هو ، وكيف كان يطلق موسى حل الخطاب ورد الجواب لولا أنه مع موسى بمعنى
هذا : أن الله تعالى منحه قوة تلك القوة سمع ، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ، ثم أتت القائل مثقلا :

وبناءه من يبد ما اتصل الهوى به يرق بألق موحسا لسانه
يبدو ككاشية الرضاء ودونه به صعب الخوى مشنع أركانه
فيبدأ لينظر كيف لاح فلم يطلق ، نظرا إليه وردت أشجانه
فأثار ما تشبعت عليه خلوصه ، والهاء ما سمحت به أجفانه

ومنها قولهم : التجلي والاستتار . قال الجنيذ : إما هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب : محل الاستتار وهو
للعوام ، والتذويب للخواص ، والتجلي ، والتذويب للزوايا . وهو الشاهدة .
وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس .

ومنها الاستتار : وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب . ومنها التجلي ، ثم التجلي قد يكون
بطريق الأفعال ، وقد يكون بطريق الصفات ، وقد يكون بطريق الذات ، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار
رحمة منه لم ولنيرهم ؛ فأما لم فلا يتم به يرجعون إلى مصالح القفرس ، وأما لنيرهم فلكونه لولا مواضع الاستتار لم
يلتصع بهم لاستتارهم في جمع الجمع ويرزقه الواحد القهار .

قال بعضهم : علامة تهيئ الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما ينسب عليه التمجيد ويحبه الفهم ، إن عبرا أو فهم
فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال .

وقال بعضهم : التجلي : رفع حجب البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل . والاستتار : أن يكون البشرية
حائطة بذلك وبين شهود النيب .

ومنها : التجريد والتفريد ، الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يشهد عن الأغراض فيما يفعله ، لا يأتي
(٣٢ - ملحق كتاب الإحياء)

بما يأتي به انظارا إلى الألفراض في الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية واختيادا والتفريد : أن لا يرى نفسه فيها يأتي به يا يرى منة الله عليه ، فالتفريد ينفي الأفعال ، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه من رؤية لمة الله عليه وغيبه عن كسبه ، ومنها : الوجد والتواجد والوجود فالوجد : ما يدخل القلب من الله يكسبه فرحا أو حزنا ، وينبئه عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة بعدما القلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى ، والتواجد : استجلاب الوجد بالذكر والتفكير ، والوجود : تساع فرجه الوجد بالخروجه إلى فضاء الوجدان ، فلابد جمع الوجدان ، ولا يجمع المبدأ فالوجد بهم ضحية أو الوجد الوجد ثابت بآيوت الجبال ، وقد قيل :

قد كان يظنني وحسدي فأقصدتني * عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

والوجد يظرب من في الوجد راحته * والوجد عند حضور الحق مقسود

ومنها : القلب والقلوب متلاصق ، فالوجد كالبرق يبدو ، والقلوب كتلاصق البرق وتواتره ينشعب عن التغير فالوجد ينطلق " سرىما ، والقلوب تبقى للأشهر حزنا شديدا .

ومنها السامرة : وهي نفرد الأرواح على مناجاتها ولطيف مناجاتها في سر السر بلطيف إدراكها القلب انفراد الروح بها فتشدها دون القلب .

ومنها السكر والصحو : فالسكر : استيلاء سلطان الحال ، والصحو : العودة إلى ترويض الأفعال بتهذيب الأحوال ، قال محمد بن خفيف : السكر غلبان القلب عند معارضات ذكر المحبوب ، وقال الراسطي : مقامات الوجد أربعة : القدور ، ثم الحيرة ، ثم السكر ، ثم الصحو : كن مع بالحر ، ثم دنائه . ثم دخل فيه ، ثم أخذته الأمواج ففعل هذا : من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فليليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاوح ؛ فالسكر لأرباب القلوب ، والصحو للساكنين بمخالفات الترويب .

ومنها : الخمر والإلهيات ، الخمر : إزالة أوصاف النفوس ، والإلهيات : بما أدبر عليهم من آثار الحب ككوس ، أو الخمر : بحر رسوم الأعمال ينظر القناء إلى نفسه ومأمته ، والإلهيات : إلهياتها بما أنشأ الحق له من الوجود ؛ فهو بالحق لا ينفسه وإلهيات الحق إياه مستأفيا بعد أن جاءه عن أوصافه .

قال ابن عطاء الله : يبحر أوصافهم وشبهت أسرارهم .

ومنها : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فعلم اليقين : ما كان من طريق النظر والاستدلال . وعين اليقين : ما كان من طريق الكشف والحوال . وحق اليقين : ما كان بتحقيق الاتصال عن لوت الاتصال وروحه الاتصال . قال فارس : علم اليقين لا يحتراب فيه ، وعين اليقين : هو العلم الذي أودعه الله الأسرار والعلم لما انفراد من تحت اليقين كان علما شبيها ، فإنا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة . وحق اليقين : هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين .

وقال الحفيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ، وهو أن يتشاهد القلوب كما يتشاهد الرغبات ، مشاهدة عيان ، ويحكم على القلب فيخبر عنه بالصدق ، كما أخبر الصديق حين قال : لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا أقيمت لبيالك ؟ قال : الله ورسوله . وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرد . وعين اليقين حال الجمع . وحق اليقين : جمع الجميع بشأن التوحيد .

وقيل : اليقين : اسم ، ورسم ، وعلم ، وعين وحق ؛ فالاسم والرسم : الحوام ، وعين اليقين : الأولياء ، وحق اليقين : الأولياء ، وحق اليقين : الأولياء عليهم الصلاة والسلام ، وحقيقة حق اليقين : شخصه بانبياءنا محمد صلى الله عليه وسلم ومنها : الوقت ، والمراد بالوقت : ما هو غالب على العبد ، وأغلب ما على العبد وقته ، فإنه كالصيف بمعنى الوقت يحسبه ويقطع . وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا يحسبه ، فيصرف فيه فيكون يحسبه . يقال : فلان يحسب الوقت ؛ يعني ما هو ذا مما منه بما الحق .

ومنها : التيقن والشهود : قاله يهود : هو المحذور وقتا ينتمى المراتبة ، ووقتاً يصفى للشهادة : فإدام العبد موصوفاً بالشهود والرياسة فهو حاشر : فإذا قد حال الشهادة والمراقبة خرج من دائرة المحذور فهو غائب ، وقد ينزول بالنية النية عن الأشياء بلحق : فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام القاء .

ومنها : التذوق والشرب والرى ، قاله يهود : إيمان ، والشرب : علم ، والرى : حال : فالذوق لأرباب الوباء ، والشرب لأرباب الطولع والقواقع والرواح ، والرى لأرباب الأحوال : وذلك أن الأحوال هي التي تستقر : فإلى ما يستقر فليس بحال وإنما هي روائح وطرائع . ولعل : الحال لا تستقر لأنها تحول ، فإذا استقرت تكون مقاماً .

ومنها : المحاضرة والمكاشفة والمساعدة : فالمحاضرة لأرباب التورن ، والمساعدة لأرباب التنكين ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر : فالمساعدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العين ، والمساعدة لأهل الحق : أي حق اليقين .

ومنها : الطوارق ، والبرادى ، والبادء ، والرائع ، والقادح ، والطولع ، والقواقع ، والرواح : وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى ، ويمكن بسط القول فيها ، ويكون حاصل ذلك راجعاً إلى معنى واحد يكثر بالمعبرة فلا قائمة فيه ، والمعصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقتضاته ، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها .

ومنها : التورن والتكنين : فالتورن لأرباب القلوب لأنهم تحت سبب القلوب ، والقلوب تخلص إلى الصفات ، والصفات تعدد بتعدد جهاتها : فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات لفرقات ، ولا تتجاوز القلوب وأربابها من عالم الصفات . وأما أرباب التنكين فخرجوا من مشاتم الأحوال ، وغرقوا بحسب القلوب ، وبشرت أرواحهم سطوع نور الحيات : فارتفع التورن لعدم التنير في الذات ، إذ جعلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات : فلما غطسوا إلى مواطن القرب من أنصبة تحمل القات أرفع عنهم التورن ، فالتورن حينئذ يكون في غرسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها ونفسها ، والتورن الواقع في النفس لا يخرج صاحبه عن حالة التنكين ، لأن جريان التورن في النفس ليساء رسم الإنسانية ، وثبت التقدم في التنكين كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتنكين : أن لا يكون القيد تغير فإنه بشر ، وإنما المعنى به : أن ما كشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبداً ولا يتناقص بل يزيد ، وصاحب التورن قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه ، وتقيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلويحه في زوائد الأحوال .

ومنها النفس : ويقال النفس للشيء ، والوقت للبتى ، والحال للتوسط ، فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ يعطيه من الله تعالى طارق لا يستقر ، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه ، والمتنهي صاحب نفس متمكن من الحال لا يتأثر عليه الحال بالنية والمحذور ، بل تكون المواجه مفرقة بأنفسه مقبلة لا تتأثر عليه . وهذه كلها أحوال لأربابها ، ولم منها ذوق وشرب ، والله يطلع ويركهم آمين

الباب الثالث والسون : في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجب السهروردى ، قال أخبرنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينى ، قال أخبرنا كريمة الروضة ، قالت أخبرنا أبو الميثم محمد بن مكي الكشمي ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفريسي ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن إبراهيم البخارى ، قال حدثنا الحميدى ، قال حدثنا سليمان بن عبيدة ، قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى ، قال أخبرني محمد بن إبراهيم التيمس أنه سمع علفمة بن وقاص ، قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصليها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . الآية أول العمل ، وبصحتها يكون العمل ، وأم ما للفرقة في ابتداء أمره في طريق القوم : أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزعم ويحالى طاعتهم لله تعالى ، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله

ودة ، و قد ورد ، للهاجر من حجر مائة الله عنه ، وقد قال الله تعالى (ومن يخرج من بينه مهاجر إلى الله ورسوله ثم بذره الموت فقد وقع أجره على الله) فالمريد ينبغي أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ، فإنه إن وصل إلى نهايت القوم فقد خلق بالقوم بالفضل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايت القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الله عن ابن أبي العباس البندادي عن جعفر الحادي قال سمعت الجليد يقول : أكثر العوائق والحوائط والموانع من فساد الابتداء ، فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام الحية ، وإحكام الحية : تزيينها من دواعي الهوى ، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل ، حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : أعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر التوبة ، فمن تمت نيته ثم عون الله له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه : أخلص التوبة في أعمالك يكفلكه قليل من العمل ، ومن لم يمتد إلى التوبة بنفسه يصعب من عمله حسن التوبة .

قال سهل بن عبد الله التستري : أول ما يمر به المرید المبتدئ : التكبر من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات المحسودة ، ثم التوقد لآمر الله تعالى ، ثم التوقف في الرضا ، ثم التثبيت ، ثم اليقين ، ثم القرب ، ثم الانجاء ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ويكون الرضا والتسليم مراد ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم يراه تعالى بعد هذه المعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرين من الحول والقوة ، وهذا مقام حلة العرش وليس بعده مقام . هذا من كلام سهل جمع فيه ماني البداية والنهاية .

ومن تمسكه المرید بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الحلق ، فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع لظلم إلى الحق . وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكلل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأفاعير ثم يرجع إلى نفسه فيها أصغر صائر ، إشارة إلى قطع النظر عن الحلق والخروج منهم وترك التقيد ببداياتهم .

قال أحمد بن حنبل رحمه الله : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليؤم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين ، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصدق يهدي إلى البر ، ولابد للمرید من الخروج من المال والجاه والخروج عن الحلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وغفائا شهوات النفس ، وأنفع شيء المرید معرفة النفس ؛ ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات ، أو عليه من الهوى بقية .

قال زهير بن أسلم : غصتان هما كالأسر كتحسب لاهم به بمعية ونحو لاهم به بمعية ؛ فلذا أحكم الزهد والتفري انكسفت له النفس وخروج من حبها وعلم طريق حركتها وخلق شهواتها وسالها وتليسانها . ومن تمسكه بالصدق فقد تمسكه بالبروة الرقية . قال ذو النون : لله تعالى في أرضه سيف ما يمنع على شيء إلا قطع وهو الصدق .

وقتل في معنى الصدق : أن أعبدنا من بني إسرائيل راوده ملكه عن نفسه فقال : اجعلوا في ماء في الخلا . أنطق به ، ثم صعد على مروج في القصر فرى بنفسه : فأوحى الله تعالى إلى ملك المؤمنين الهم عبدي ، فزومه ووضعه على الأرض وحشا وقيفا ، فقيل لإيليس ألا أغريته . فقال ليس لي سلطان على من عاثف هواه وبذل نفسه لله تعالى . وينبغي للمرید أن تكون له في كل شيء توبة لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبسه ، فلا يليس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا يلبس إلا لله ، لأن هذه كلها أرفاق أدعياها على النفس إذا كانت قد استسعت النفس وتقيب إلى ما يرد منها من المماثلة فقد بالإخلاص ، وإذا دخل في شيء من رغب النفس لآله بنهر توبة صالحة صار ذلك وبالا

عليه . وقد ورد في الخبر : من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأثغر ، ومن تطيب لنفسه جاء يوم القيامة وريحه أفنن من الحقيقة .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفى بفسادكم ، فإن ثابتاً بفسادكم وبقتل يدي . وقد كانوا يحسبون لباس الصلاة متبرجاً بين ذلك إلى الله بنيتهم : فالمراد بنيتهم أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأفعاله ولا يساع نفسه أن تتحرك بمركب أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى ، وقد رأينا من أصحاب شيعة من كان ينوي عند كل لقمة وقيل بفساد أيضاً : أكل هذه اللقمة لله تعالى ، ولا يتفقد القول إذا لم تكن فيه في القلب : لأن الله عمل القلب ، وإنما الإنسان ترجان : فما لم تقتل عليه عزيمة القلب لله لا تكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شرف فقال : حاشى للدرى ، أرادليل ليبرق شره ، فقالت لها ما به : أجهى بالدرى والمرأة ، فسكت ثم قال : لم ، فقال له من سمع : سكت وترقت عن المرأة ثم قالت لم : فقال : إنى قلت لها مات الدرى بنية ، فلما قالت : المرأة لم يكن لي في المرأة نية ، فتوقفت حتى حيا الله تعالى لي نية ، فقالت لم ، وكل مبتدئ لا يصح أساس يدايته بهاجرة الآلاف والأصدة والمعارف وبمسك بالوحدة لا تستر بدايته . وتقبل : من قلة الصدق كثرة الخلقاء ، وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرئ عليه كلام الناس : فإن بفساد بغيره وتأثر بالأقوال المختلفة ، وكل من لا يعلم كمال زعمه في الدنيا ونفسه يحسب أن التقوى لا يعرف أبداً ، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيراً ، ورواين أهل الابتداء كالصنع قبل كل فتن ، وربما استغفر المبتدئ بغيره فتنر إلى الناس ، ويستغفر بفصول النظر أيضاً بفصول المشي ، فيلب من الأشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة : حتى لو مشى في بعض الطريق يجده أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بينه وبينه ، ثم يتنق موضع نظر الناس إليه وإحسانهم به بالاعتماد الاحترار : فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فقهه ، ولا يستغفر بفصول المشي ، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر ومخرج خرج من حد الضرورة جبر إلى الفضول ، ثم جبر إلى تنقيح الأصول .

قال سفيان : إنما حرروا الأصول بتدقيق الأصول ، فكل من لا يتسلك بالضرورة في القول والعمل لا يندرج أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ، ومن تعدى الضرورة تصاعدت عوارضه وتعلت شيئا بعد شيء قال سهل بن عبد الله : من لم يبدأه اختياراً يبدأه خلق اضطراراً ، ويفتح على اليد أبواب الرخص والاصناف ويهلك مع الحالين .

ولا يليق للبشئ أن يعرف أحداً من أبواب الدنيا ، فإن معرفته لم سم قائل . وقد ورد : الدنيا مطبوخة الله فن تمسك بحبل منها قادته إلى النار ، وما حل من حبالها إلا كآياتها ، والطالين لها والنجين . فن عرفهم الجذب إليها شاء أرباب .

ويحذر المبتدئ من مجالسة الفقهاء الذين لا يقرؤون بقيام الليل وقيام الليل ، فانه يدخل عليه منهم أكثر ما يدخل عليه مجالسة أبناء الدنيا ، وربما يتبدلون إلى أئمة أعمال مثل التمددين ، وأن أرباب الأحوال ارتفعوا عن ذلك ، وبني الفقير أن يقتصر على القرائن وصوم رمضان لحب : ولا يليق أن يدخل هذا الكلام صمه وأما : فإذا اخترنا وما راسنا الأمور كلها ومجالسة الفقهاء والصالحين ، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون القرائن دون الزادات والنوافل تحت التصور مع كونهم أصحاب في أحوالهم . فقل المبدأ أنسلك بكل فريضة وفضيلة ، فيذلك يشع قدومه في بدايته ، ويرى أن يوم الجمعة عاصمة يومه فتهال عاصلاً لا يرجع بشيء من أحواله نفسه وما رجا ، ويكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس ينقلق للجسمة ، وإن اقتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أسكت ذلك حسن ، فالدرس أن يسلق للجسمة ، فإن غسل الجمعة كثرة للثوب ما بين الجمعتين . ويستعمل بالصلاة والتضرع والمدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير غشور إلى أن يصل الجمعة ، ويحسب مستكفاً في الجامع لأن أن يصل فرض العصر وبقية الصلاة

يشتهه بالتصحيح والاستقار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع خميري ثمرة ذلك يوم الجمعة

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأفعاله بجميع الأسبوع لأنه يوم التزود لكل صادق ، ويكون ما بعده يوم الجمعة معيارا يستر به سائر الأسبوع الذي معنى : فإنه إذا كان الأسبوع سلبا يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأثر والبركات ، وما يجد في يوم الجمعة من النقلة وسآنة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويستبر .

ويشقي جدا أن يلبس لباس : إما المرتفع من الثياب أو ثياب المتشققين ليرى بين الوحد ، ففي ليس المرتفع لباس هوى ، وفي ليس الخشن رياء ، فلا يلبس إلا الله .

بلنا أن سنيان ليس التقيص مقفورا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع التبار وبه على ذلك بعض الناس ، فهم أن يطلع وينير ثم أسك وقال : لبست بنية لله فلا أخيره فألبه بنية لباس : فليعلم العبد ذلك وليستبره .

ولا بد للبدن أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الأربعين إلى أن يرى أثر كيف أسكن ، ولا يصح إلى قول من يقول : ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن : فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يشق بتوفيق الله تعالى . وإنما اختار بعض المشايخ يدوم المريد ذكرا واحدا ليجمع المم فيه ، ومن لازم التلاوة في الخلوة ونسك بالوحدة تنهية التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد : فإذا سئم في بعض الأسابيع يصانع النفس على الذكر معصاة ، ويؤزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخف على النفس .

وينبغي أن يعلم أن الاختيار القلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يصح فيه بين القلب واللسان لا يشتهه كل الاحتشاد : فإنه عمل ناقص

ولا يضر الرساوس وحديث النفس فإنه مضروبا عندنا : فيطالب نفسه أن تصير في تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من بطلته ، فسكا أن التلاوة على اللسان مشغول بها ولا يبرجها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يبرج حديث النفس ، وإن كان أهليا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حليقاته ، فيفضل بطلته بطلالة نظر الله إليه مكان حديث النفس : فإن بالعدم على ذلك يصير من أبواب المشاهدة .

قال مالك : فلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربته إلى الآخرة ، فليسمع المريد بهذه الأصول ، وليستمن بدوام الانتظار إلى الله ، فبذلك ثبات قدمه .

قاسم : على قدر لزوم الالتجاء والانتظار إلى الله لعل يعرف اللبلاء ، وعلى قدر معرفته باللبلاء يكون انتقاره إلى الله ، فدوام الانتظار إلى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم ، وهذا الانتظار مع كل الانس لا يفتيت بمركه ولا يستقل بكلمة دون الانتظار إلى الله فيها ، وكل كلمة وحركة خلعت عن مراجعة الله والانتظار فيها لا تسب غيرا قطعا ، علنا ذلك ونعتناه .

وقال سبل : من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله ، وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا ينيه وتركه ما ينيه .

وبلنا أن حسنا بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه النار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مال وهذا السؤال ؟ وهل هذه إلا كلفة لا تني ؟ وهل هذا إلا استيلاء نفسى وغلقت أديها ؟ وآل على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة ، فبالصدق نالوا ما نالوا ، وقوة المزائم - عزائم الرجال - بقوا ما بقوا .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت منصورا يقول : سمعت أبا عمرو الأنطلي يقول : سمعت الجنيدي يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان

ما قام من الله أكثر مما ناله ، وهذه الحكمة يحتاج للبدن أن يحكمها ، والشيء عالم بما عالم بمفاتها ؛ فليدعئ صادق والشيء صديق .

قال أبو سعيد القرشي : الصادق الذي ظاهره مستقيم وباطنه مبدل أحيانا إلى حظ النفس ، وحلاته أن يمد الحلاوة في بعض الطاعة ولا يجمعها في بعض ، وإذ اشتغل بالذكر نور الروح ، وإذ اشتغل بظوظ النفس يصيب من الأذى . والصادق : الذي استقام ظاهره وباطنه بمبدأ الله تعالى بتوحيده الأحوال ، لا يصيبه عن الله وعن الأذى كراكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام ، والصادق يريد نفسه . وأغرب الأحوال إلى البيرة الصديقية .

وقال أبو زيد : آخر نهايات الصديقين أول درجات الأنبياء .

واعلم أن أرباب النهايات استقامت برأيتهم وظواهرهم ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب ، وقرسهم متقادة مطروحة سالحة مع القلوب مجية إلى كل ما يجيب إليه القلوب ، أرواحهم متدافعة بالناسم الأعلى ، والقلوب فيهم تروان الهوى ، وتغمر في برأيتهم صريح العلم وانكشف لهم الآخرة ، كقائل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضي الله عنه ، من أراد أن ينظر إلى ميت يمسي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر ، إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كشف به من صريح العلم الذي لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال (فكشفنا عنه كطاءك فبصرتك اليوم حديد) فأرباب النهايات ماتت أرواحهم وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ : وقد سئل عن وصف المعارف ؛ فقال : رجل معهم بأن منهم . وقال مرة : عباد كان فيان . فأرباب النهايات هم عند الله بمصيبتهم ممتوتين بتوقيت الأجل ، جعلهم الله تعالى من جنود في خلقه ، يجمعهم ويجمع

يرشد بهم يجمع أهل الإرادة ، كلامهم دواء وفقرم دواء ، ظاهرهم محض بالحكم ، وباطنهم معمور بالعلم . قال ذو النون : علامة المعارف ثلاثة : لا يلق " نور معرفته نور وروحه ، ولا يفتنه بأحد من العلم ، تنفض عليه طاهرا من الحكم ، ولا يصبه كفرة نعم الله وكرامته على منتهى استلزام حارم الله ، فأرباب النهايات كلها زادوا بالمعنى زادوا عبودية ، وكلما زادوا دنيا زادوا فقريا ، وكلما زادوا جاهما ورفعا زادوا تواضعا وادلا (أدلة على المؤمنين أعرافهم على الكافرين) وكلما تناولوا شهرة من شهرة النفوس استخرج منهم شكر أساقيا ، يتناولون الشهوات تارة وقضاة النفوس لأنها معهم كالمثل الذي يلفظ بالشيء ويردى له شيء ؛ لأنه متهور تحت السياسة مغموم مطوف به ، وتارة يمتعون نفوسهم الشهوات تأسيسا بالأنبياء واختيارهم للتناول من الشهوات الدنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تطلبها ما شغلها ، والزاهد فيها يسخر وجهها وينتفح شعرها فيفرق ثوبها ، والمعارف بالله مشتغل بسببه ولا يلتفت إليها .

واعلم أن للشيء مع كمال حاله لا يستثنى أيضا عن سياسة النفس ومنها الشهوات وأغلا حظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر ، وقد غلط في هذا خلق ، وشوا أن للشيء استثنى عن الزيادات والبرائق ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات ، وهذا خطأ لا من حيث إنه يصيب المعارف من معرفته ، ولكن يوقف عن مقام الزيد . وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم بقوة ولا تورثهم حجة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء القراض والسماح في التأكل والمشرب ، وهذا الانسياط منهم بقية من سكر الآهوال ، وتقيد بثر الحال ، وعدم التخلص بالكلفة إلى نور الحق ، ومن غفل عن نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقاء الفكر ويوقف نفسه مقام العبيد ، كأحد عوام المؤمنين يتربط بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى يمامة الأذى عن الطريق ، ولا يستنكر ولا يستنكف أن يورد في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتا وقتا لا نفس المظهر فالمرء كذا لمخافة المظهر أو لأنها أسيرة ، ومنها الشهوات وقتا لأن في ذلك صلاحها ، واعتبر هذا سواء بحال الصبي وقاه إن جازى حد الاعتدال من إعطاء المراد وتناوله وقتا لنفسه طمحه ، لأن الجلبة لا بد من فيها سياسة العلم ، وما دامته الجلبة فإني لا بد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض دخل في نهايات علم المشي من ذلك دواخل ووقع الركون والاند

به باب الزيد ؛ فالتبني ملك تامة الاختيار في الأخذ والترك ، ولا بد له من أخذ وترك في الأفعال والمخطوط ؛ ففي
 الأعمال لابد له من أخذ وترك ، فالتربط بأن الأفعال كأعمال الصديق ، وتلوة يترك زيادة الأعمال وقتها بالنفس ، وتارة
 يأخذ المخطوط والصورات وقتها بالنفس ، وتارة يتركها انتقاداً لنفسه بحسن السياسة ، فيكون في ذلك كله عتاراً بين
 ساكن ترك المخطوط بالسكينة ؛ فهذه أفعال ترك بالسكينة . ومن استقر في أخذها فهو راغب بالسكينة . وللتبني مثل
 الطيرين ، فإنه على غاية الاعتدال ، واقف على الصراط بين الإقراط والتفريط ، فمن ردت إليه الأقسام في التباقة أعدها
 زاحداً في الزهد فهو نصيب من الحال من ترك الاختيار ، وشارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال . وكما
 أن الزاهد مقيد بالترك كترك الاختيار ، فكذلك الزاهد في الزهد الأخذ من الدنيا ما سبق إليه بزيادته فعل الله مقيداً
 بالأخذ ، وإذا استقرت الهبة لا يتعد بالأخذ ولا بالترك بل يتركها واختياره من اختيار الله ، وبأخذها واختياره
 من اختيار الله ، وهكذا صوره الثالثة صلاته الثالثة بأن بها وقتاً ويسمح لنفسه وقتاً ، لأنه عتار صحيح في الاختيار
 في الحالين ، وهذا هو الصحيح ونهاية الهبة ، وكل حال يستقر ويستقيم بشا كل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله
 غير رمضان ويشاور المشيراء . ولما قال الرجل إنني صومته أن لا أكل اللحم ، قال : فإنني أكل اللحم وأحب به ولو سألت
 رب أن يعلمني كل يوم لأعلمني . وذلك بذلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عتاراً في ذلك ، إن شاء أكل
 وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختياراً ، وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فعل كذا يقولون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاراً ، وهذا إذا غلبه على من أمه لا يلزمهم التأسي به جهل
 بعض ؛ فإننا انصافاً لغيره على حقوله ، والبر يتأسي به . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرواب الرخص
 وقوله لأرواب الزاعم ، ثم إن للتبني بما كان حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق ،
 فكل ما كان يشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يشهده ، فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصياؤه
 الزائد لا ينزل ؛ إنما كان ليتبني به ، وإنما أنه كان لمريد كان يحده بذلك ، فإن كان ابتغى به فالتبني أيضاً مقتضى به
 يلبني أن يأتي بمثل ذلك ، والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لغير الاعتداء ، بل كان يجد
 بذلك زيادة ، وهو ما ذكرناه من تذبذب الجلبة . قال الله تعالى خطاباً له (وأبديت لك ما بينك وبين) لأنه بذلك
 ازداد استمداً من المحنة الإلهية وقرع باب الكرم ، والتي عليه الصلاة والسلام مقتدر إلى الزيادة من الله تعالى
 غير مستغن عن ذلك ، ثم في ذلك سر غريب ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رابطة جفينة النفس كان يدعو
 الخلق إلى الحق ، ولو لاربطه الجفينة ما وصلوا إليه ولا اتفهموا به ، وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة تأليف
 كابين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ، ورابطة التأليف : أن نفوس الأتباع ، إنما كان أول الأرواح أئمة أولاً .
 ولكل روح مع نفسه تأليف خاص ، والكود والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس . وكان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفوس نفوس الأتباع ، فما احتاج إليه نفسه من ذلك الله ، وما فضل من ذلك
 وصل إلى نفوس الأئمة ، وهكذا للتبني مع الأصحاب والأتباع على منال الفوز ، فلا يتشقق عن الزيادة والتواضع ،
 ولا يستقر في الشهوات والذلات إلا بدلالة النفس لنفسه ، ولا يعلو الاعتدال - فمن ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونوره
 الحكمة ، وكل من يحتاج إلى صفة الجلوة فهو لابد له من جلوة صفيحة يخلق ، حتى تكون جلوة في حيازة جلوته .
 ومن يقرأه أن أول أوقاته كلها غلوة وأنه لا يحبه شيء . وأن أوقاته بالله وقد لا يرى نقلاً لأن الله ما فعله
 لحقيقة الزيد ، فهو صحيح في حاله ، غير أنه تحت قصور ، لأنه ما به لسياسة الجلبة بعدما عرف في تلك الاختيار ،
 ما وقف من البيان على البيضاء الثنية . وقد قلقت عن التشايع كليات فيها موضع الاختباء ، فقد يسمعا الإنسان وبين
 عليا ، والأول أن يقتدر إلى الله تعالى في أي كلة يسمعا حتى يسمعه الله من ذلك الصواب .

نقل من يسمعون أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت المثلثات ، واستورت الأسماء والأماكن ، وسقطت

ورقة التبيير . ومثل هذا القول يوم أن لا يبق تمييز بين الحقوة والجلفة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ، ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا ، بمن أن حفظ للمعرفة لا ينتفى بحال من الأحوال ، وهذا صحيح ، لأن حفظ المعرفة لا ينتفى ولا ينتفى إلى التبيير وتقسوى الأحوال فيه ، ولكن حفظ للمعرفة ينتفى ويحتاج إلى التبيير ، وليس في هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه .

فيل نحمد بن الفضل : حاجة المعارف إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الحصلة التي كانت بها الحاسن كلها ألا وهي الاستقامة ، وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة ؛ فاستقامة أرباب الباطن على القيام ، والبدء في الابتداء مأخوذ من الأعمال معجوب بها عن الأحوال . وفي التوسط محفوظ بالأحوال فنه يصحب عن الأعمال . وفي النهاية لا يصحبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال ، وذلك هو الفضل العظيم .

سئل الجنيد عن النهاية فقال : هي الرجوع إلى البداية ، وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال : معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ، ثم رد إلى التبيير والجهل ، وهو كالتقوية : يكون جهل ثم علم ثم جهل . قال الله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) .

وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحميا فيه . ويبرز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه به يبادى الأعمال ، ثم يرق إلى الأحوال ، ثم يجمع بين الأعمال والأحوال ، وهذا يكون للنفس الراداة مأخوذ في طريق المهيئين تنجيب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستنبح القلب ، والقلب يستنبح النفس ، والنفس تستنبح القلب ، فيكون بكنية تأييده ساجدا بين يدي الله تعالى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سجد لك سواي وغياي ، وقال الله تعالى (وقد يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم الظنور والأصاال) والظلال القلوب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسمى روح الغيبة في جميع أحوالهم وأيامهم . فيبتدئون ويتعمقون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه بحبة وودا ، فيحجم الله تعالى ويحبهم إلى خلقه لعملة عليهم وفضلا ، على ما أخبرنا شايخنا ضياء الدين أبو العجب السهروردي رحمه الله قال أخبرنا أبو طالب الزيني ، قال أخبرنا تاج الدين المروزي ، قال أخبرنا أبو الحسين الكشميني ، قال أخبرنا أبو عبد الله القزويني ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخاري ، قال حدثني إسماعيل ، قال حدثنا عبد الصمد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله تعالى قد أحب فلانا فأجبه ، فيجبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلانا فأجبه ، فيجبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض ، ويأق الله الموت والعملة والتوفيق .

ثم بحمد الله المعيد المبدى

كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردي

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

ملحق كتاب علوم الدين

صفحة	صفحة
٢٦ فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد	كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء
٢٧ فصل لما كان الاعتقاد مجرد عن العلم	٢ خطبة الكتاب
بصحة ضميرها وتفرده عن المعرفة	٣ المقدمة في عنوان الكتاب
قريباً الخ	٤ التقديم في فضل الكتاب وبعض
بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد	الدائم والفناء من الأكابر عليه والجواب
المفرجين	عما استشكل منه وطعن بسببه فيه
٣٠ بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد العديدين	٥ فصل فيمن أين على الأحياء من
٣١ فصل في معنى إقشاشه الربوبية كسر	العلماء الأعلام
وغير ذلك	٧ فصل بيان الواضع التي استشكل
٣٣ فصل في معنى طالع الطريق	فيها على الأحياء والجواب عنها
فصل في معنى فاستمع لما يوحى	٨ خاتمة في الإشارة إلى ترجمة الإمام
٣٥ فصل في معنى ولا يخطئ رقاب	القرائ وسبب رجوعه إلى طريقة
الصديقين	الصوفية رضي الله عنهم
فصل في معنى انصراف السالك الناظر	كتاب الإمامة في إشكالات الإحياء
بعد وصوله إلى ذلك الرقيب الأمل	١٣ خطبة الكتاب
فصل في معنى ليس في الامكان أبدع	١٤ ذكر مراسم الأسئلة في التل
من صورة هذا العالم الخ	١٥ مقدمة في الألفاظ المستعملة
٣٦ فصل في بيان أن خطاب العقلاء	١٨ وصية لطالب العلوم والناظر في
للعبادات غير مستنكر	التصانيف والتشريف على كلام
٣٨ فصل في الفرق بين العلم المحسوس في عالم	الناس وكتب الحكمة
للك وبين العلم الإلهي في عالم للسكرات	١٩ ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة
فصل في حد" عالم لللك	٢١ بيان مقام أهل التعلق بالمجرد وتمييز
فصل في معنى إن الله خلق آدم على صورته	فرقهم
٣٩ سؤال في بيان معنى قول سهل رحمه الله	٢٢ فصل في بيان العطف التي من التوحيد
للإلهية سر كانوا تكشف لبطات النبوات	فصل في ثلث ما الذي صد هؤلاء
ولنبوات سر كانوا تكشف لبطال العلم	الأصناف الثلاثة من أهل التعلق عن
ولعلم سر كانوا تكشف لبطات الأحكام	النظر، والبحث حتى تعلموا، أو عن
٤٠ فصل في حكم هذه العلوم المكتوبة في	الاعتقاد حتى تغلبوا من عذاب الله الخ
الطلب، وسلوك هذه المقامات، ورفق	٢٤ بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرّد
هذه المراتب، واستفهام هذه المقامات	

صفيحة	مخيفة
٤٠	فصل لآي شيء ذكرت هذه العلوم
٤١	بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز
٤٢	دون التصريحات ، وبالتشابه من
٤٣	الألفاظ دون المحسكات
٤٤	كتاب عوارف المعارف
٤٥	خطبة الكتاب
٤٦	الباب الأول في ذكر منشأ علوم الصوفية
٤٧	الباب الثاني في تخصيص الصوفية
٤٨	بحسن الاستماع
٤٩	الباب الثالث في بيان فضيلة علوم
٥٠	الصوفية والإشارات إلى أنموذج منها
٥١	الباب الرابع في شرح حال الصوفية
٥٢	واختلاف طريقهم
٥٣	الباب الخامس في ماعية التصوف
٥٤	الباب السادس في ذكر تسميتهم
٥٥	بهذا الاسم
٥٦	الباب السابع في ذكر للتصوف
٥٧	وللتشبه به
٥٨	الباب الثامن في ذكر للتلاميذ وشرح حاله
٥٩	الباب التاسع في ذكر من اتهم إلى
٦٠	الصوفية وليس منهم
٦١	الباب العاشر في شرح رتبة للشيخ
٦٢	الباب الحادي عشر في شرح حال الخادم
٦٣	ومن يشبه به
٦٤	الباب الثاني عشر في شرح خرفة الصوفية
٦٥	الباب الثالث عشر في فضيلة سكان الرباط
٦٦	الباب الرابع عشر في مشابة أهل
٦٧	الرباط بأهل الصفة
٦٨	الباب الخامس عشر في خدمات أهل
٦٩	الرباط والصوفية فيما يخصون به
٧٠	الباب السادس عشر في ذكر اختلاف
٧١	أحوال مشايخهم في السفر وللقام
٧٢	الباب السابع عشر في إيجاز إلى الصوفى
٧٣	في سفره من القرائن والقبائل
٧٤	الباب الثامن عشر في القدوم من
٧٥	السفر ودخول الرباط والأدب فيه
٧٦	الباب التاسع عشر في حال الصوفى
٧٧	للتسبب
٧٨	الباب العاشر في ذكر من يأكل
٧٩	من القنوج
٨٠	الباب الحادي والعشرون في شرح حال
٨١	التجرد والتأهل من الصوفية وصحة
٨٢	مقاصدم
٨٣	الباب الثاني والعشرون في القول في السماع
٨٤	الباب الثالث والعشرون في القول في
٨٥	السماع ردا وإنكارا
٨٦	الباب الرابع والعشرون في القول في
٨٧	السماع ترفعا واستغناء
٨٨	الباب الخامس والعشرون في القول في
٨٩	السماع تأديا واعتناء
٩٠	الباب السادس والعشرون في خاصية
٩١	الأربعينية التي يتبعها الصوفية
٩٢	الباب السابع والعشرون في ذكر قنوج
٩٣	الأربعينية
٩٤	الباب الثامن والعشرون كيفية السخول
٩٥	في الأربعينية
٩٦	الباب التاسع والعشرون أخلاق الصوفية
٩٧	الباب العاشر والعشرون في تفاصيل أخلاق الصوفية
٩٨	الباب الحادي والثلاثون في ذكر
٩٩	الأدب ومكانته من التصوف
١٠٠	الباب الثاني والثلاثون في آداب
١٠١	الحضرة الإلهية لأهل القرب
١٠٢	الباب الثالث والثلاثون في آداب
١٠٣	الطهارة ومقدماتها
١٠٤	الباب الرابع والثلاثون في آداب
١٠٥	الوضوء وأمراره
١٠٦	سنن الوضوء ثلاثة عشر
١٠٧	الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل

صفحة	صفحة
النهار وتوزيع الاوقات	المعصوم والصوفية في الرضوء
١٩٨ الباب الحادي والعشرون في آداب الرشد	١٥٩ الباب السادس والثلاثون في فضيلة
مع الشيخ	العجلة وكبر شأنها
٢٠٣ الباب الثاني والعشرون في آداب الشيخ	١٦١ الباب السابع والثلاثون في وصف
وما يحسنه مع الاصحاب والتلاميذ	صلاة أهل القرب
٢٠٩ الباب الثالث والعشرون في حقيقة	١٦٦ الباب الثامن والثلاثون في ذكر
الصعبة وما فيها من الخير والنشر	آداب العجلة وأسرارها
٢٠٩ الباب الرابع والعشرون في آداب حقوق	١٦٩ الباب التاسع والثلاثون في فضل
الصعبة والاخوة في الله تعالى	الصوم وحسن أثره
٢١٢ الباب الخامس والعشرون في آداب	١٧٠ الباب الأربعون في اختلال أحوال
الصعبة والاخوة	الصوفية بالصوم والافطار
٢١٤ الباب السادس والعشرون في معرفة	١٧٢ الباب الحادي والأربعون في آداب
الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية	الصوم ومهامه
من ذلك	٢١٤ الباب الثاني والأربعون في ذكر الطعام
٢٢١ الباب السابع والعشرون في معرفة	وما فيه من المصلحة والفائدة
الخواطر وتقصيها وتبويبها	٢١٦ الباب الثالث والأربعون في آداب الاكل
٢٢٥ الباب الثامن والعشرون في شرح الحال	٢٢٨ الباب الرابع والأربعون في ذكر أدبهم
واللقام والفرق بينهما	في لباس وتبائهم ومقاصدهم فيه
٢٢٧ الباب التاسع والعشرون في الاشارات	٢٢٩ الباب الخامس والأربعون في ذكر
إلى اللقاءات على الاختصار والابحار	فضل قيام الليل
٢٣١ الباب العشرون في ذكر إشارات للتأني	٢٣٣ الباب السادس والأربعون في ذكر
في اللقاءات على الترتيب	الاسباب الممنوعة على قيام الليل وآداب النوم
٢٣٩ الباب الحادي والعشرون في ذكر	٢٤٥ الباب السابع والأربعون في أدب
الاحوال وشرحها	الالتزام من النوم والعمل بالليل
٢٤٨ الباب الثاني والعشرون في شرح كلمات	٢٤٧ الباب الثامن والأربعون في تقسيم
مشورة إلى بعض الاحوال في	قيام الليل
اصطلاح الصوفية	٢٤٩ الباب التاسع والأربعون في استقبال
٢٥١ الباب الثالث والعشرون في ذكر شيء	النهار والادب فيه والعمل
من البدايات والنهايات ومصتها	٢٥٣ الباب العشرون في ذكر العمل في جميع

